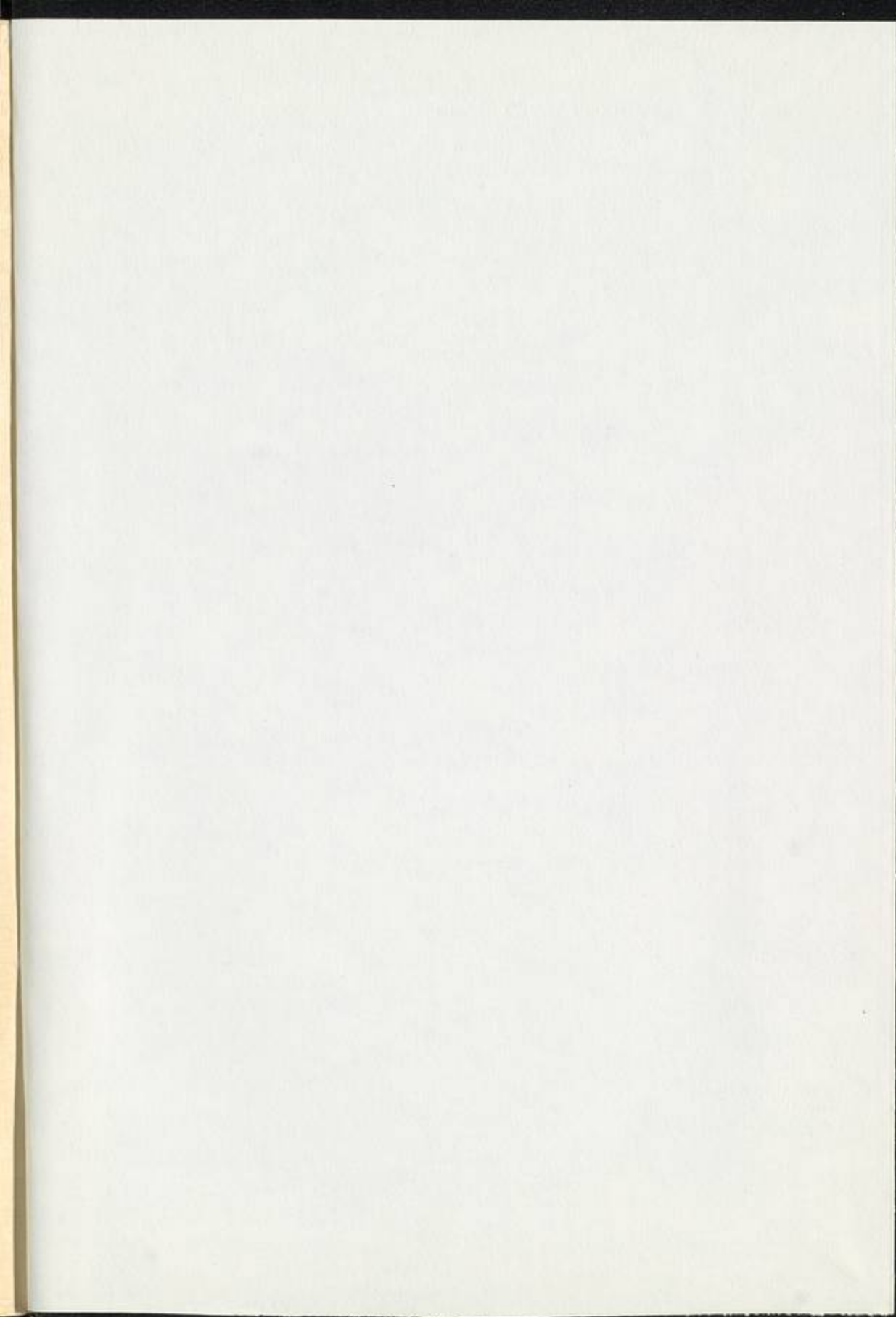


1942



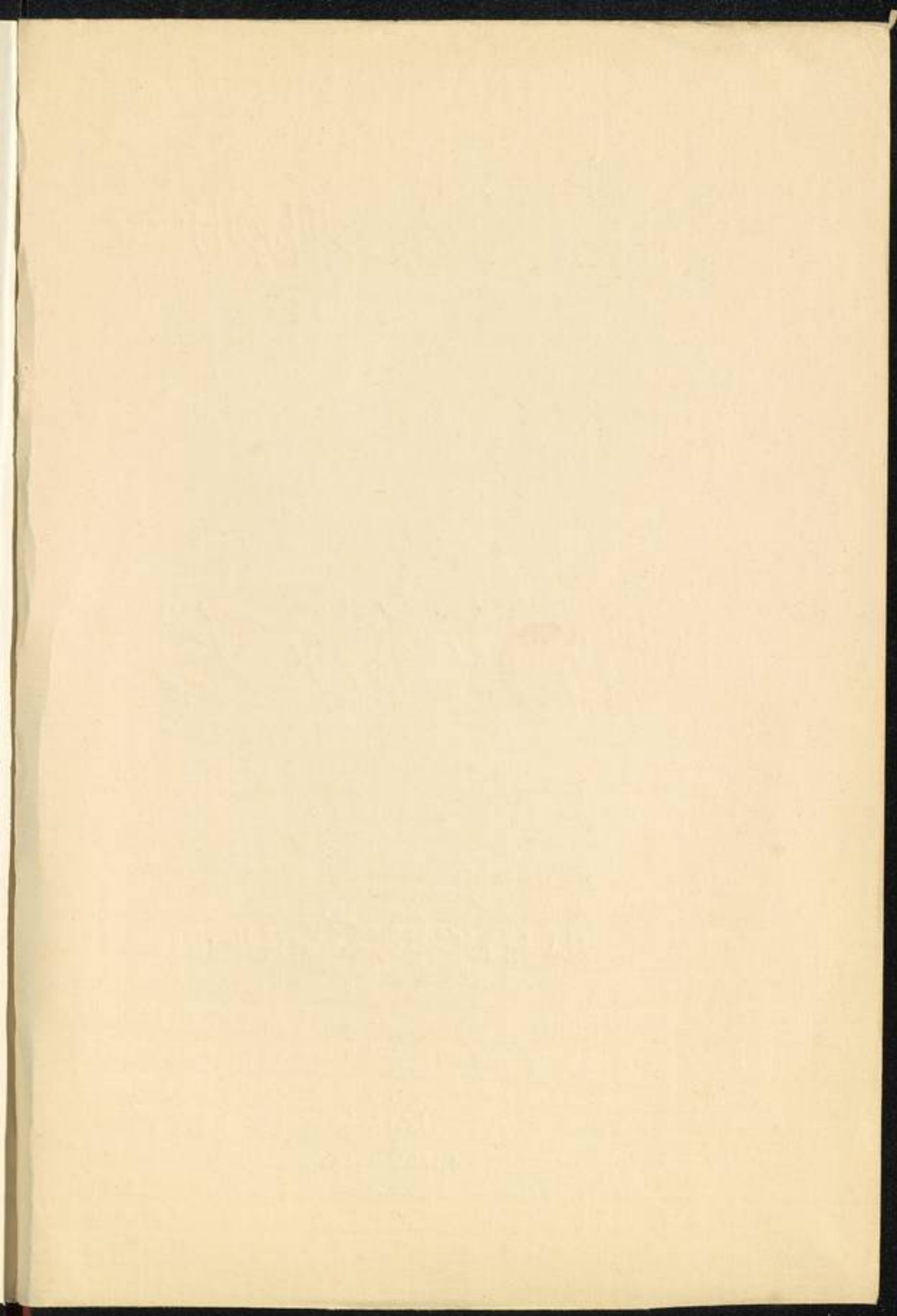
جمال الدين الألويسي

الأوب الزيات في العراق

يطلب من مكتبة المشنى بغداد

الطبعة الاولى

١٩٧١م - ١٣٩١هـ



جمال الدين الأوسبي

أدب الزنات في العراق

الطبعة الأولى

١٩٧١م - ١٣٩١هـ

PJ
GOGH
.Z3
A4

للهدايا

الى الذين تروقهم الكلمة المهندسة ويطربهم الاسلوب البليغ .
الى الذين يرون امستخدام العامية في التعبير والتحرير اثماً دينياً
وقومياً وهم قادرون على اصطناع الفصحى .
والى الذين يحسبون الفصحى الدعامة الاولى للجامعة للوحدة العربية
أهدى هذه الاشتات .

جمال الدين الألويس

ed 2
8/1/05/20
Exhibition

Index

1. Introduction
2. The first part of the book
3. The second part of the book
4. The third part of the book
5. The fourth part of the book
6. The fifth part of the book
7. The sixth part of the book
8. The seventh part of the book
9. The eighth part of the book
10. The ninth part of the book
11. The tenth part of the book
12. The eleventh part of the book
13. The twelfth part of the book
14. The thirteenth part of the book
15. The fourteenth part of the book
16. The fifteenth part of the book
17. The sixteenth part of the book
18. The seventeenth part of the book
19. The eighteenth part of the book
20. The nineteenth part of the book
21. The twentieth part of the book
22. The twenty-first part of the book
23. The twenty-second part of the book
24. The twenty-third part of the book
25. The twenty-fourth part of the book
26. The twenty-fifth part of the book
27. The twenty-sixth part of the book
28. The twenty-seventh part of the book
29. The twenty-eighth part of the book
30. The twenty-ninth part of the book
31. The thirtieth part of the book
32. The thirty-first part of the book
33. The thirty-second part of the book
34. The thirty-third part of the book
35. The thirty-fourth part of the book
36. The thirty-fifth part of the book
37. The thirty-sixth part of the book
38. The thirty-seventh part of the book
39. The thirty-eighth part of the book
40. The thirty-ninth part of the book
41. The fortieth part of the book
42. The forty-first part of the book
43. The forty-second part of the book
44. The forty-third part of the book
45. The forty-fourth part of the book
46. The forty-fifth part of the book
47. The forty-sixth part of the book
48. The forty-seventh part of the book
49. The forty-eighth part of the book
50. The forty-ninth part of the book
51. The fiftieth part of the book

مُقَدِّمَةٌ

الزيات أحد الكتاب القلائل الذين يكتبون لغتهم عن علم ، ويفهمون أديها عن فهم ، ويعالجون أديها عن ادراك ولا سيما البسارزون منهم ، خلا مكان العقاد من قبل خمس سنين ، وهما ان الأجل المحتوم يخلي مكان الزيات في الثاني عشر من شهر أيار سنة ١٩٦٨ . وطه حسين يعاني العلة حبيس الفراش عافاه الله وإبقاه للأدب واللغة ذخرأ .

والزيات أقوى الثلاثة اسلوباً وأوضحهم بياناً وأوجزهم مقالة وأنقاهم لفظاً ، يعني بالكلمة المهندسة ، والجملة المزدوجة ، وعند الكثرة الكاثرة هو أكتب ككتابنا في عصرنا .

عرف الزيات العراق واحبه منذ خمسة وثلاثين عاماً ، وهي مسدة من الزمان اكتهل فيها شباب ، وشاخ فيها كهول ، واختفى فيها جيل ، ونجم خلالها جيل ، غير ان افكاره لم تغب عنا طوال هذه الحقبة ، وقلمه الرفيع ظل يواصلنا بالقول الجديد ، ويزودنا بالرأي السديد ، ومترجماته ومؤلفاته ما زالت مصدراً ثراً وينبوعاً سائغاً لمن يتذوق الكلمة المهذبة والصورة الجمالية أو الفكرة الهادفة ، والزيات أشد الناس التزاماً بالأساليب العربية المشرقة وأكثرهم عنساية باللفظ الانيق للمعنى الرفيع ، يعرف للكلمة حقها ويقدرها قدرها ، وهو القائل في الدفاع

عن البلاغة : « وفي اختيار الكلمة الخالصة بالمعنى ابداع وخلق ، لأن الكلمة مينة ما دامت في المعجم . فإذا وصلها الفنان الخالق بأخوتها في التركيب ، ووضعها في موضعها الطبيعي من الجملة ، دبت فيها الحياة ، وسرت فيها الحرارة ، وظهر اللون ، وتهبها لها البروز ، والكلمة في الجملة كالقطعة في الآلة ، إذا وضعت موضعها على الصورة اللازمة ، والنظام المطلوب ، تحركت الآلة ، وإلا ظلت جامدة ، وللكلمات أرواح . والزيات صاحب رسالة ، رسالته ظلت تبشر بالأدب ، والفن ، والحرية ، وبالعروبة والإسلام .

والزيات جاحظ القرن العشرين ، ارتقى بالمقالة حتى تسنمت قمة الكمال ، امست واضحة لها دلالتها الدقيقة المحددة الأبعاد ، والمتساقفة الأفكار ، بيان مشرق ، ووصف مقصود ، وأدب هادف ، تغرس الوطنية ، وتربي الكرامة ، وتزرع العزة ، وتنمي القومية ، وتعمق مفاهيم العروبة ، يوم كانت مفاهيم العروبة غائمة في أذهان الكثرة من الساسة والمثقفين هنا وهناك .

والزيات علم من شوامخ أعلام الأدب العربي في العصر الحديث ، ورأس مدرسة ما زال ينهل من معينها العذب المتأدبون وعشاق الأناقة الذين تروقههم الكلمة الانيقة والجملة البليغة والفكرة المدروسة .

وكان لمدرسته أثرها في توجيه الجيل إلى نشر العربية والثقافة الإسلامية .. أبرزت كتباً ، وخلقت كتباً ، ووجهت الأدباء إلى رحاب القومية المنفتحة ، ونأت بهم عن الإقليمية المنغلقة ، وانطلقت بأقلامهم إلى القيم العربية الحضارية ، وظلت رسالته ملتمقى لشيوخ الأدب ومحتوى لأقلامهم ، ومنبراً لأفكارهم ، وميداناً لنقدهم وآرائهم .. فإذا ما انقطع عنها رائد ، حل مكانه عائد يعود عليها بدم جديد وأدب

من لون طريف ، وكانت مدرسة لكتساب جدد ناشئين ، صقلت أقلامهم ،
وأشاعت أفكارهم ، ورفعت أقدارهم ، وعوضت قراءها من فقدوا من
الشيوخ الذين كانوا الطلائع من كتبها ، كأمثال الدكتور طه حسين ،
وأحمد أمين ، ومحمد كرد علي ، والرافعي ، والملازني ، والعقاد ..

رَبَّتْ جيلاً ، وأنشأت أدباً ، وهيأت أدباء ، وقامت على صفحاتها
معارك النقد والتجديد . ربع قرن وهي تبشر بالعروبة النامية والافكار
الواعية ، وتعتبر عن الأحداث الكبرى التي تشغل الرأي في العالمين العربي
والإسلامي ، وتعرب عمن المشاعر والأحاسيس التي تصطرع في نفوس
المواطنين في أقطار العروبة من المحيط إلى الخليج ، فكانت مقالات
الزيات تقف بالمرصاد لأعداء العروبة والإسلام ، الذين راحوا بدعاياتهم
المضللة يشككون أبناءنا بقبليات أمتهم ، ويهدونهم بمقومات حضارتها ،
ويفسدون عقائدهم ، فكانت مقالات الزيات تنير الطريق ، وتغرس
العقيدة ، وتجدد الأمل ، وتنمي المعنويات .

كان صدور الرسالة بعد عودة صاحبها من العراق ، فقد ندب الزيات
للتدريس في العراق سنة ١٩٢٩ واستمر لبثه فيه الى سنة ١٩٣٢ ثلاث
سنين مليئة بالعمل والفكر ، اختلط فيها بأدبائه ومفكره وقاداته
وشعرائه ، فتملئ أفكار الدعوة للقومية العربية وللوحدة ، عرف
أبعادها وأفكارها من كبار دعائها ، مثل فيلسوف القومية ساطع الحصري ،
والثعالبي ، وباسين الهاشمي ، والشبلي ، والراوي ، والأثري ، والرصافي ،
والزهاوي ، وطه الهاشمي ، فظهرت الرسالة في زمن نضج فيه تفكير
صاحبها بالعروبة في الزمن الذي نفص فيه الكائن العربي عن نفسه الخمول
والخنوع ، وراح يتطلع الى التخلص من الاستعمار وإلى حكم وطني حر
غير مقيد أو مكبل بقيود المعاهدات . صدرت الرسالة في وقت برزت
فيه ملامح الشخصية العربية واضحة ، وتحركت فيه التطلعات العربية

الى حرية كانت مؤودة ، وحقوق كانت مهدورة ، وكرامة كانت مضاعة
في العراق ، في مصر ، في سورية ، في الجزائر ، في المغرب . ثورات
ومناهضات للاستعمار ، ومظاهرات وثورات على عملائه وأذنايه .

في هذا الزمن المضطرب بالافكار المتناقضة ، صراع بين القديم
والحديث ، وصراع بين الرأسمالية والاشتراكية ، وصراع بين الرجعية
والتقدمية ، ونزاع بين المحافظين والمجددين ، وعراك بين الاقليمية الضيقة
وبين العروبة الرحبة الواسعة الشاملة للوطن العربي مغربه ومشرقه ،
فكانت الرسالة ثورة على الجمود على القوالب المألوفة في التحرير والتعبير ،
وكانت مشعلا لإنارة الدرب للسائرين من المتأدبين .

مولد الزيات ونشأته :

ولد الزيات عام ١٨٨٥ في قرية « كَنَفَرْدَمِيرَة » من مركز « طلخا » ،
وتلقى علومه في الأزهر ، مكث في هذه الجامعة الكبرى عشر سنوات
يتلقى العربية والشريعة والتاريخ والأدب ، وظهرت بواكير أدبه فيما
كان يجبره من مقالات اجتماعية وأدبية ونقدية للأزهر خاصة ، نشرتها له
صحافة ذلك العهد ، ثم انتقل الى الجامعة المصرية القديمة مع زميله
طه حسين ، مما أثار ثائرة شيوخ الأزهر عليها ، وكتب في « الجريدة » التي
كان يصدرها أستاذ الجيل احمد لطفي السيد وكتب في مجلة مصر الفتاة
التي نشر على صفحاتها بعض الفصول الأدبية مع صديقه طه حسين ، وكتب
في مجلة السياسة التي صدرها الدكتور حسين هيكل .

الزيات في الأزهر :

وصف الزيات حياته الأولى في الأزهر ، قال : « كنتا ثلاثة ألفت
بيننا وحدة الطبع والهوى والسن ، فالطبع مرح فكاهي ، والهوى درس
الأدب وقرض الشعر ، والسن فتية لا تجاوز السادسة عشرة ، وكان

طه قاعدة المثلث ، ومحمود زناتي وأنا ضلعيه القسائين . أو كان المبرد صاحب الكامل قلب الطائر ، والزنجشري صاحب الكشاف وثعلب صاحب الفصيح جناحيه الخافقين ، لقتب بها بعضنا بعضاً ، لنزعة فكرية أو فنية كان ينزعها كل منا في نظر أخويه ، ووجه الشبه بيننا وبين الطائر ، فان حياتنا كانت كحياته تردد إلى كل روضة ، وتغريد على كل شجرة ، وتحليق في كل جوّ ، كنا ننتقل من حلقة العلم إلى درس الأدب ، ومن درس الأدب إلى مجلس الشعر ، إلى دار الكتب ، ومن دار الكتب إلى الجامعة المصرية القديمة ، ومن الجامعة إلى إدارات الصحف نعرض عليها ما كتبنا نسميه يومئذ شعراً ، ثم ننتهي إلى دار أهدنا فنتدارس ما حصلنا من علم ، ونتذكر ما حفظنا من أدب ، وتنادر بما سمعنا أو رأينا من سخف ، فإذا أخطأنا أو نسينا لجأنا إلى ذاكرة طه العجيبة ، فتعيد ما وعت لا تحرم منه حرفاً ، فنصحح أو نستكمل أو نستفيد . وإذا سئمنا أو ونينسا ، فزعنا إلى حافظة محمود الخصبية فيسرتي عن خواطرننا بقطعات من أعذب النوادر يحكيها عن نفسه أو يرويها عن أبيه ، ويضيق الطائر بقلبه النابض بالأمل والحب ، ويخناحيه الخافقين بالخيال والنشوة ، يضيق نفسه بعشه الباغم في ركن من الرواق العباسي بالأزهر فيخرج إلى هدوء الطبيعة ، يستمتع بمفاتيحها في خمائل المطرية ، أو في حدائق الجزيرة ، فنتصل بالحياة المصرية ، وننال من ثمار المدنية ، ثم نعود إلى الأزهر فنجد الاختلاف شديداً بين حياته وحياة الناس ، فنقلق ونثور ، ويكون حظ هذا القلق وهذه الثورة التمرد على الأزهر المنعزل من العالم ، والسخر من الطلاب ، والعبث بالشيوخ الجاهلين بالأدب .

وسافر الزيات إلى باريس ، ودرس الحقوق ، وتعلم الفرنسية ، وترجم منها ، وافتتن بأساليب كتابها ، غير أنها لم تصرفه عن لغته ، ولا

طغت بأساليبها على أسلوبه العربي الأصيل ، وفي هذه الفترة التي أصابه فيها حب فتاة فرنسية شغل قلبه وفكره ، وقع نظره على قصة للشاعر الألماني الكبير (غوته) هي - آلام فرتر - قصة الحب الخالدة ، فأثر أن يترجمها ، لأنها تعبر عن عواطفه المكتومة .
فقال في العوامل التي دفعته الى ترجمتها سنة ١٩١٩ :

« كنت أجتاز هذا الحين وأنا شاب طرير ، حصره الحياء والانقباض والدرس ، ونمط التربية ، وطبيعة المجتمع ، في دائرة ليس فيها من الواقع غير وجوده ، واحساس مشبوب يتوقد بالجمال ، وقلب غريب يتحرق ظمأً الى الحب ، فالطبيعة في خيالي شعر ، وحركات الدهر نعم وقواعد الحياة فلسفة . وكان فهمي لكل شيء ، وحكمي على كل شخص ، يصدران عن منطق أفسد أقيسته الخيال ، وزور نتائج المثل الأعلى ، ثم فجّر هذه الحال التي وصفت هوى دخيل هاديء . وأحسست أن وجودي الخالي قد امتلأ ، وقلبي الصادي قد ارتوى ، وحسي الفائز قد سكن ، ورحت أسلك هذا الطريق السحري محمولاً على جناح الهوى ، حتى ذكرني الزمن النافل ، فأقام فيه عقبة الخيال بالواقع ، والحبيب بالخطاب ، والعاطفة بالمنفعة . فلما قرأت « آلام فرتر » سمعت نواحا غير ذلك النواح ، ورأيت روحاً غير هاتيك الأرواح ، وأحسست حالاً غير تلك الحال ، وكنت أقرأ ولا أدري في الحادثة سواي ، وأشعر فلا أشعر إلا بهوي ، وأندب ولا أندب إلا بلوأي . »

وفي هذه القصة المعبرة عن أحاسيس الشباب ، قال غوته لصديقه كريمان :
« وكل امرئ يأتي عليه حين من دهره ، يظن فيه أن فرتر إنما كتبت له خاصة » .

والزيات في ترجمته لا يكتفي بالنقل الحرفي ، وطريقته : « أنفي

أترجم النص الأجنبي الى العربية نقلاً حرفياً ، ثم أعود فأجربه على الأسلوب العربي الأصيل ، ثم أعود مرة ثالثة فأفرغ في النص روح المؤلف ، وشعوره باللفظ الملائم ، والإعجاز المطابق ، والنسق المنتظم ، فلا أخرج من هذه المراحل الثلاث إلا وأنا على يقين جازم بأن المؤلف لو كان كتب قصة أو قصيدة بالعربية لما كتبها على غير هذه الصورة . لذلك جاءت ترجماته مثلاً لدقة التعبير ، وتخيّر الالفاظ التي تنقل الصورة والفكرة ، وهي من جمال الأسلوب وأناقته لا تقل روعة عن الأصل .

وترجم الزيات قصة « رفائيل » ، وهي إحدى روائع لامارتين شاعر فرنسا الأكبر ، بأسلوب عاطفي ، حكى فيها قصة غرامه أيام شبابه ، وقد تدفق حسه بالجمال والطبيعة ، وفاض قلبه بالحب لمحبوته « جوليا » ، قال : « وجدت في حظها مشاهة لحظي ، فكلانا طريد همّ ووحيد غربة ، وكلانا نضو أسقام وأليف وحدة ، وهي مثلي تتجنب الضوضاء وتتقي عيون الناس . لقد أثرت في كل قلب ، وامتزجت بكل نفس دون أن تتصل بانسان ، أو تتحدث الى أحد ، كانت الفكرة في كل خاطر ، والفتنة في كل ناظر ، والكلمة في كل فم ، والجلال في كل قلب . إن هذا النوع من الناس يشيعون الأنوار ، ويخطفون الأبصار ، ويجذبون الى مدارهم من حولهم دون أن يفكروا في ذلك ، أو يقصدوا اليه ، أو يشعروا به ، لهم مسا للشموس من نظام وجاذبية ، فهم يجذبون من تابعيهم الأبصار والأفكار والنفوس ، فتتعلق بهم ، وتجري في الفضاء على ضوءهم » .

وترجم قصيدة « البحيرة » للشاعر نفسه ، وقصيدة الوحدة ، وهاتان القصيدتان من أروع قصائد لامارتين ، بسل من أروع الشعر العالمي ، وترجمها شعراء وكتّاب ، ولكن ترجمة الزيات تبقى هي المتفوقة على بقية الترجمات العديدة مثل ترجمة علي محمود طه المهندس^١ ونقولا فياض وغيرهما .

الاستقامة والوضوح سمته :

والزيات أديب مطبوع ، تتسم كتاباته بالصدق ، ومقالاته بالفن . وهذا سر بقاء ما كتب ، بليغ ، وسر بلاغته وصف الشيء بصفته ، ووضع الكلمة في موضعها . وهو يفضل الإيجاز على الإطناب ، وجره إيجازه الإبانة والأناة . ظل يكتب في تواصل ، ولم يتخلف عن مجالات العلم والفن ، ويعبر عن متطلبات الحياة العربية مع دفقات من الايمان تغمر قلبه بالحرارة والحياة ، وتزخر بالشعور والوطنية ، ويتميز مذهبه في الحياة بالاستقامة والوضوح كما وصف نفسه :

« وبفضل هاتين الميزتين - الاستقامة والوضوح - بلغت الغاية التي قصدتها منذ وعيت ، ولم أبلغ الثراء الضخم ولا الجاه العريض ، ولكن بلغت عليه العيش الرخي ، والبال الرضي ، والذكر الحسن ، والسعادة الحقة أقرب الى الرضا والسكينة منها الى المال والمنصب ، وحرصت على أن يكون مذهبي واضحاً ، حتى إذا كانت المشكلة الصعبة تعرض فيكون حلها يسيراً بشيء من النفاق ، وقليل من المصانعة . ولكني كنت أنفر من ذلك كله ، واحاول أن أعالجه بالصدق والصبر والصرامة فتنحل بعد ان تترك في النفس من الأثر ما يتركه الجريح في الجسد من الندوب . ولكن هذه الندوب ستظل على الزمن مشاراً للذة من لذات الروح ، فيها العزة والحرية والكرامة . نهج لي هذا المذهب ، وألزمني إياه طبع حر مسلم ، فأنا منذ حملت نصيبي من عبء الحياة أحاول أن أستقل في عملي عن إرادة الغير ، وأستغني بقدرتي عن معونة الناس ، فلم أضع يدي ولا عنقي في أغلال الوظائف الحكومية ، ولم أصعد صعود العسلية على أكتاف الطوال من ذوي السلطان ، وإنما اضطربت في بحالي الحيوي طليقاً من كل قيد إلا قيد الخلق ، مستقلاً عن كل عون إلا عون الله ، بذلك سلمت نفسي من رذائل الوظيفة ، فلا جبن ولا رياء ولا ملق ،

وبرئت حياتي من نقائص التبعية ، فلا خضوع ولا إغضاء ولا ذلة .

والزيات كما تحدث عن نفسه حيمي وقور هادىء يكره المباحكة والمجادلة ، وينأى يطبعه عن الخصام ، يمشي بثؤدة ، ويتحدث بصوت خفيض ، ويتأمل بعمق ، ويرسل أفكاره كالنسيم تجري رخاءً حيث أراد . فاذا أحس كرامته أو كرامة أمته يعتدي عليها أو عليه غريب أو قريب ، نار كالبركان ، وراح يرسل من قلمه شواظاً من نار يقذف به ذلك الجبار ، وقراء الرسالة يذكرون غضبته العارمة يوم تطاول « النبيل عمرو إبراهيم » أحد الأمراء وتعاضم على المصريين أبناء الفلاحين - كما حلالة أن ينعتهم - أمثال محمد محمود ومحمد حسين هيكل ، نار ثورة الأسد الجريح يؤدب ذلك الأمير المتطاول ، فقال : « إن الوطن لا يعرف التفاضل بين أبنائه إلا بأثرهم في تقويته وترقيته وخدمته ، فالفلاحون على درجته العليا لأنهم عماد ثروته وعدة دفاعه وقوة سلطانه ، والأمراء درجته السفلى لأنهم فيه معنى السرف الذي يفقر والترف الذي يوهن والبطالة التي تमित ، وبين هاتين الدرجتين تفاوتت مواقف الوزراء والكبراء على حسب ما لكل منهم عليه من فضل . لقد كان امتياز طبقتك على طبقتنا أنك تمسك « القرباج »^(١) ، ونحن نمسك الفأس ، وتأكل الذهب ، ونحن نأكل التراب ، وتعبد الشيطان ، ونحن نعبد الله ، وتتكلم التركية وتتكلم العربية . لا يا سيدي النبيل ، لیس المصريون في الجنسية والوطنية سواء ، فان منهم من تمسّر بالقانون لا بالأصالة ، وتوطن للمنفعة ، وكيف يستوى في ميزان الوطنية من يقف على مصر يده وقلبه ودمه ، ومن لا يعرفها الا معرفة الغرماء ، ولا يعيش فيها إلا شهور الشتاء .

(١) السوط .

وثأر لنفسه حين عرض به صديقه محمد كرد علي ، فكتب يرد عليه بأدب جم ، ولكنه ثار ثورة عارمة حين ظلمه العلامة أمين الخولي ، ولم يقف بسهامه الرائشة عند تسديدها الى جسم الخولي ، وإنما أبعث الرمي الى زوجه وشريكة أدبه وحياته ابنة الشاطيء . وسبحان من تنزه عن الخطأ ، ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها؟ .. كفى المرء نبلاً ان تعدّ معايبه .

الزيات في العراق :

كتبت جريدة البلاد في ١ كانون الأول سنة ١٩٢٩ خبر وصول الأستاذ الزيات ، قالت : « وصل بغداد أخيراً حضرة الأديب الكبير الأستاذ أحمد حسن الزيات الذي ذكرنا خبر تعيينه استاذاً للادب العربي في دار المعلمين العالية ببغداد في عدد سابق . وقد قالت السياسة بصر في توديع حضرته ما يلي :

« رسول الثقافة المصرية :

علمنا أن الحكومة العراقية تعاقبت مع الأديب الكبير الاستاذ أحمد حسن الزيات على أن يتولى منصب أستاذ الآداب العربية في مدرسة دار المعلمين العليا ببغداد ، وقالت :

« ولسنا في حاجة لأن ننوه بتوفيق الحكومة العراقية في هذا الاختيار ، فالأستاذ الزيات من أعلام المدرسة الأدبية الجديدة ، وله طرافة في النقد الأدبي يشهد بها مؤلفه المعروف في « تاريخ الأدب العربي » وبيان ساحر يذكره كل من قرأ ترجمته « لآلام فرتر » و « رفائيل » . والاستاذ الزيات إنما يذهب الى العراق رسولاً للثقافة المصرية الجديدة التي يبدو أثرها اليوم واضحاً في جميع البلاد العربية ، وسوف يكون له من

مهمته في عاصمة العراق وسيلة لتقوية الروابط الفكرية والاجتماعية بين
القطرين الشقيقين .
تحية بغداد :

افتتح أول درس ألقاه الزيات بالكلمة التالية :

... ثم ألقى السلام على دار السلام وحاضرة الإسلام ، وأنحى إجلالاً
لأحفاد الهاشميين وسلائل العباسيين ، أولئك الذين بلغوا رسالة العلم والادب
وأدوا أمانة الحضارة والفن الى العالم الحديث ، ثم أحياي فيكم ناشئة
العراق ومعقد آماله ومجددي شبابه ، فأحمل اليكم عطف إخوانكم في مصر
وشدة إعجابهم بنهضتكم وحسن تقديرهم لخطتكم ، وقوة أملهم في أن
يعود العراق بفضلكم وعملكم كما كان مغدق الجذع مشمر الافنان جيابش
الينابيع بالقوة والثروة والعمران والسلطان والحضارة .

ان بغداد لم تحل من التاريخ الإنساني هذا المحل الأرفع الأوسع لأنها
عاصمة قطر وحاضرة خلافة وسوق تجارة ، وإنما شغلت صحائف الدهر
وملأت مسامع الكون ، لأنها كانت عنواناً لحضارة نظمت القديم والحديث ،
ورمزاً لثقافة شملت الشرق والغرب ، ومنازراً هداية عمّت البر والبحر ،
وبرزخا بين الظلام والعدم نجت عليه الإنسانية بتراتها التليد من علم
وأدب وفن الى هذا العصر ، وما أزورت العبارة والحضارة عن « الزوراء »
وتفجرت الدواهي على العالم العربي الا بتغلب الأعاجم وتحكم الهوى
وشبوع الجهالة . فاذا عقدتم القلوب يا شباب العراق على استرجاع المجد
الذاهب ، واسترداد التراث المنهوب ، فلا سبيل ولا دليل إلا العلم . وإذا
لجأتم اليوم الى أوروبا ومصر فانما تسترجعون من الأولى بضاعتكم وتستردون
من الثانية أمانتكم ، فان علومكم بعد أن تجهتم الشرق لها وأضعف الزمان
أهلها ، نزحت الى أوروبا عن طريق الشام والمغرب ، فأحييتها من موات ،

وأوجدتها من عدم . أما حضارتكم وثقافتكم وخلافتكم ، فقد لجأت فلولها الى مصر بعد أن رأت بغداد يصرعها غدر الفرس وتوحش التتر ، ورثت مصر بغداد ، والليث لا يرثه إلا شبله ، والعظيم لا يخلفه إلا مثله ، ولكن مالي أقول ورثت ، وبغداد القوية العظيمة إنما هيضت ولم تمت ، وهل الأمة التي سجلت أخبارها في كل خاطر ، وطبعت آثارها في كل ناظر ، تقوى يد الحدثان على محوها من سجلات الوجود ؟

إن بغداد التي انشأها العرب وحضرها العلم ، لا يجدها إلا العرب ، ولا يغمرها إلا العلم ، وقد اذن الله لمدينة المنصور ووليدة النور ومهبط وحي العلم أن تخلص من سلطان يأجوج ومأجوج بعد أن فدحها سبعة قرون ، فتولى أمرها صفوة الأمة العربية ، وتبوأت عرشها فرع الدوحنة الهاشمية ، وأخذ قتام الجهل والفقر والظلم ينجاب رويداً عن سماء الرافدين ، إن بغداد هي الموطن الروحي لكل عربي ومسلم فبأدبها نتثقف ، وبحضارتها نتشرف ، وبمجدها نفتخر . عرفتها صغيراً في ألف ليلة وليلة فكانت موطن الأحلام والأنغام والشعر والسحر والحب والفتخامة ، وعرفتها كبيراً في التاريخ والأدب فكانت عش الشعب وكعبة الأدباء ومبعث الأنوار وملقى الأفكار ودار الحكمة ، ثم رأيتها وأسفاه اليوم فاذا ببغداد الكبيرة في القلب ، صغيرة وأسفاه في العين ، صغيرة ولكن صغرها صغر النواة تضمنت سر النخلة السحوق ، وإن بكم شباب الرافدين نماءها ، وفيكم رجاءها ، وعلى الله وعليكم اعتمادها فتعهدوا هذه النواة بالغداء والري ، تفسمك ظلها وتؤتكم أكلها ، وتنعموا منها بروح وريحان وجنة ونعيم^(١) .

(١) جريدة البلاد ١/٢/١٩٢٩ .

الادب العربي - أو الدرس الاول - :

ثم نشرت البلاد في ٦ كانون الأول ١٩٢٩ ، في « صحيفة الشعر والبيان » التي اعتادت الجريدة نشرها يوم الجمعة من كل اسبوع ، الكلمة التالية للزيات تحت عنوان الأدب العربي ، وهي تتمة تحيته لبغداد ولطلابه في أول لقاء مع طلابه في أول درس .

« أدبنا العربي على سعته وجماله فوضى ، فلا حدوده مرسومة ، ولا مناهجه معلومة ، ولا قواعده ثابتة ، فنحوه أصداء مختلطة ، مهمة للهجات القبائل الجاهلية ، لا يكاد تتفق على وجه من وجوه الاعراب ولا يطرد مذهب من مذاهب القول ، حتى لبوشك أن يكون كل كلام صواباً وكل كلام خطأ . وبلاغته مسائل اجتهادية وقضايا جدلية ونسكات لفظية ، لا تخور الى فن ولا تكشف عن غاية ، كأنها وضعت لكل شيء غير الشعر والكتابة ومذاهب مظموسة الاعلام دارسة الرسوم ، لا تدري أين تبتدىء ولا أين تنتهي . فالكاتب يسلك الى غايته السبيل بعد السبيل ، وهو يظن نفسه على الجادة الأولى ، وربط وجدت في المقال الواحد ازدواج ابن المقفع وفقرات الجاحظ وسجعات ابن العميد ونكات القاضي الفاضل وترسل ابن خلدون ، ذلك لأن الأدب العربي لم يكن أدب أمة واحدة ولا مظهر ثقافة واحدة ولا محصول لسان واحد ، وإنما هو مجموعة من الاخيلة والتصورات والمعتقدات التي امتزجت باقتراح الامم الاسلامية في شباب الدولة العباسية ، فهو أشبه بالبحر ، لكل نهر فيه مصب ، ولكل متلاح فيه طريق ، وفي كل ناحية منه تيار ، ثم هو من بعد مجتمع اللؤلؤ والمرجان ومستودع الحار والأحجار ، على أن الدهر ما لبث أن نظر الى هذا البحر العجيب الهادر ، فخفت روافده ، ونضبت موارده ، وجزر ماؤه ، حتى ارتد الى مثل الغدير الآسن يطن على متنه البعوض ، وتنق على حافتيه الضفادع ، انحسرت ظلال الأدب العربي قبل أن تعبد

طرقه وتمحص قواعده ويكمل نقصه ، وطمت سيول العجمة على ما بذر
عبد القاهر وأبن الأثير ، فاعتاقته عن النباء والتفرغ ، وأخذت الألسنة
العبية تتحرك في هذا التراث المضاع بالهراء والهذر ، فتعفوا طرائقه وشوهوا
حقائقه ، ثم ألقوه بين أيدينا جثة يتردد فيها ذمء ، وصورة لا يجول
فيها رونق ولا ماء .

فنظرنا فيه ، فاذا هو مسيخ الخلق ، منكر الطلعة ، لا إلى القديم ولا
إلى الجديد ، فوقفنا موقف الأثري من حلل فرعون ، يخيص جوانبها لتنظر
لا لتلمس ، وتؤثر لا لتلبس ، وأخذنا نحدد هذا الأدب البالي بالشرح
والتلخيص والدرس دون أن ندعم أساسه الواهي ولا أن نرفع بناءه
المنقوص ، فما برحنا نعتمد في البلاغة على تقسيم القدماء وتعليمهم ، ونقصرها
على تعليمهم وتمثيلهم ، فنفرد أهم دواعي التقديم والتأخير والحذف والذكر
مثلاً الى نحو ما قالوه من تعجيل الاساءة أو المسرة ، والتسجيل على
السامع وصون اللسان عن ذكره ، ونقول في التشبيه : إن الثريا كعنفود
العنب المنور ، وفي الاستعارة : رأيت أسداً في الحمام وعلى فرس ، وفي
الكناية : زيد كثير الرماد أو جبان الكلب أو مهزول الفصيل ، ونقرض
الشعر على النمط القديم من الوزن والقافية والأسلوب والعرض ، كأن
لم نسمع الى اليوم بالشعر القصصي التمثيلي ، ونعرف النشر في تدبيح
الفصول وإنشاء الرسائل ، والغرب يطرنا كل بريد فنوناً شتى من القصص
الرفيع يعالج فيه كتابه مشاكل الحياة ومسائل اليوم .

لقد اختلفت مذاهب الكلام ، وتعددت أغراض الكتابة ، وتنوعت
فنون الانشاء ، ورأى شبابنا في الأدب العربي صوراً حقيقية حية لما
يجول في نفوسهم ويتنزي في رؤوسهم من الهوى والأمل والفكر ، فأقبلوا
عليه ظمء مهطعين ، ينهلون العذب الروي من حياضه ، ويقطفون الحلو
الجني من رياضه ، وتركوا أدبنا الصناعي التقليدي المتشابه يدوي على

أسنة المحافظين وأقلام الجامدين من بقايا العهد القديم ، فالحال إذن تتادى بإعادة النظر في علوم الأدب وفنون الإنشاء ، فيصلح منها الفاسد ، ويتم الناقص ، ويفصل المحمل ، لتتسع لأغراض الحياة ومقتضيات الحضارة ومطالب العصر ، وبقيننا أن أقدر الناس على الاضطلاع بهذا العبء الخطير هم أساتذة الجامعة ، لِمَا يتهبأ لهم من وسائل الدرس وحرية البحث وقوة الأثر .

وختم كلمته الرائعة بقوله :

« لا جَرَمَ أنْ قد آن لمعلمي البيان أن يصيخوا الى هذا الهمس الساخر والانكار الحق ، » يريد همس الطلاب واستنكارهم لما يحفظون من قوالب بالية وأمثلة لا ذوق فيها ، « فيوفقوا بين موروث البلاغة ومستحدث الأساليب ، ويؤلفوا بين ذوق الاسلاف وذوق الأخلاف ، ويوسعوا نطاق الفن الكتابي ليشمل الملحمة والقصة والرواية ، فان الادب أصبح اليوم شعبياً فيه لكل نمط نصيب ، ولكل غرض سهم ، ولكل غاية مسلك ، ومسا مثل الذين يحاولون أن يحصروا فنون الأدب في حدود القدماء ، ولا يستذيق الشعر الا مسؤوم المدح والثناء ، الا كمثل الذين يحاولون أن يحصروا السيل الجحاف في المفيض الضحل ، ويتلهون بفقاقيع الماء عن المنطاد السبوح » .

الزيات يشارك في تأبين المرحوم السعدون :

أقيمت في بغداد حفله تأبين كبرى أثر انتحار عبد المحسن السعدون رئيس الوزراء ورئيس الأسرة النبيلة الشريفة أسرة السعدون التي كانت لها رئاسة عرب المنتفق ، وكانت انتفاضة وطنية اجتاحت العراق من شماله الى جنوبه إثر حادثة الانتحار ، فألبست لباساً وطنياً ، وألقي في روع الناس أنه ذهب شهيد الصراع بين مطالب الانكليز وبين رغبات الشعب التي عبر عنها بوصيته الخالدة : « الأمة تطلب الخدمة والانكليز لا يوافقون » .

وصل الأستاذ الزيات الى العراق والشعب لما يفق من أثر الصدمة ،
والحزن ما زال بادياً على وجوه الخاصة والعامة ، فتأثر أدب الزيات بالحادث
بكلمته الساحرة : (تأمل ساعة) ، ثم بمشاركته بكلمته البليغة هذه بالرغم من
أنه كان طريق الفراش لوعكة أمت به ، وهو لم يَعتَبدْ جوَّ العراق ، قال :
ومصر أيضاً تبكي السعدون :

« سعد » في مصر مفرو' لا يثنى جمعته العراق في « السعدون »

وقديماً كسر اعراب العراق نون الجمع ، فله ذاك الاسمان كيف اتحدا
في المادة اللفظية واتفقا في الغاية المعنوية ، واختارتهما عناية الله ليكونا
نبييً وطنيةً وباعثي قومية وعلمين من أعلام الهدى سار على هديهما
الضالون والحائرون والشرذ ! فكلها كان روحاً لبلاده ، ووحياً من الله
في وصاياه وإرشاده ، ومثلاً عالياً للنشىء في صدق جهاده ، وزعيماً صلب
العود في رأيه واعتقاده ، وحياة خالدة بتضحيته واستشهاده ، هكذا
علمنا « سعد » وسمعنا عن السعدون ، فإننا لله وإنا اليه راجعون .

صدع سعد بما أمر فصارح الخضم بمعاداته ، وملاً عليه الارض بخطبه
ونداءاته ، ونبأ عنه بثقته ووده طيلة حياته ، وآثر السعدون الرفق به
فابتغى الخير من صلحه ، تحرى له وجوه النصيح ، فما انتفع بنصحه ،
فكانت عاطفته الجياشة حتى استيأس من نجحه ، فتفجرت من قلبه ،
وسالت من جرحه .

هكذا علمنا من سعد ، وسمعنا عن السعدون ، فإننا لله وإنا اليه راجعون .

على النيل حياة عجيبة ، وعلى الفرات موت مرعب : موت هو الحياة ،
ويأس هو الأمل ، وعدم معناه الوجود ، ورسامة منقذة دوت في سكون
الليل الساجي ، فكانها صور القيامة أو صيحة الكرامة ، وكأف روح

السعدون - وقد أكرهت على مفارقة جسمه - حلت في كل جسم ، فترى
العراق بين يوم وليلة وقد فار كالبركان ، وثار كالعاصفة ، واهتز اهتزاز
الشجرة الفناء هاجمتها الزوابع الهوج .

يعزينا عن موت الحُر أنه حياة لأمته ، والشعب الناهض لا بد له
من التضحية في نهضته ، وطريق الحرية الغالية محمرة بالدماء ، محفوفة
بالأم ، والحرية منذ قدستها الشعوب وألتهتها ، شرهة إلى لحوم القرابين ،
ظميئة الى دماء البشر ...

فعزاء أيها الشعب الكريم ، وصبراً ، فإن من الشدة فرجاً ، ومن
العسر يسراً ، وأصخ الى صوت هذا الطلق يدوي من بعيد ، واكتب
إلى أبنائك صحيفة الفخر بدم هذا الشهيد ، وقل : يا رب ، هذه
الضحية ، فهل يكون لنا من بعدها عيد ؟؟ .

مشاركة الزيات

في حفلة تأبين عبد الرسول الجابي

كان الفقيه من نوابغ الشباب ، فذاً في ذكائه فرداً في صفاته حبيباً
لنفس كل من عرفه دؤوباً على الدرس برغم أنه سليل بيت عرف بالغنى
والجاه العريض ، وأولاد الأغنياء قليل منهم من يقبل على الدرس ويصبر
على التحصيل كشأن أبناء الأسر الفقيرة أو المتوسطة .

أنهى الدراسة الابتدائية والتحق بالأليانس لتعلم اللغات - الفرنسية
والانكليزية - وبعد أن أنهى الثانوية درس الحقوق وحصل على شهادتها
بامتياز ، وكانت وحدها تؤهله أن يتوسد أعلى المناصب لما له من شخصية
محبة وما لوالده من نفوذ ، ولكنه فضل المحاماة ، فزاولها برهة من الوقت ،
ثم انصرفت همهة الى الاستزادة من العلم ، فرحل الى انكلترا ، والتحق بجامعة
أكسفورد في كلية « الاقتصاد السياسي » ، فكان مفخرة للشباب العربي في

تفوقه على المثبتين من الشباب الغربي على اختلال صحته ونحول جسمه ، وعاد إلى العراق يحمل العلم والخلق والصلابة في العقيدة والوطنية ووسدت إليه وظيفة في مديرية الضريبة العامة فكان مثلاً حسناً للموظف الكفؤ عالماً وخلقاً ، ولكن القدر لم يمهله طويلاً فقد أصيب بمرض أعيا نطس الأطباء شفاؤه وحمل البرق نعيه وهو في باريس يوم ٢٧ حزيران سنة ١٩٣٠ ولما يتجاوز السابعة والعشرين فكان لنعيه صدى حزن وتفجع على الشباب الناصر والأمل الزاهر والوالد الصابر .

وفي أربعينيته أقيمت له حفلة تأبينية شارك فيها نخبة من الشعراء والأدباء في مقدمتهم الأساتذة أحمد حسن الزيات والشاعر الأديب ناجي النقشطيني والأديب الشاعر محمد بهجة الأثري والشاعر الشيخ باقر الشيبلي والدكتور الجمالي ، وأصدرت لجنة التأبين كراساً ضم هذه القصائد والخطب طبع في مطبعة العهد بعنوان ذكرى فقيد الشباب عبد الرسول الجلي .

كلمة الزيات

الشباب الدائل :

سادتي : دخلت حين مقامي الى بغداد على معالي وزير المعارف أسلمت عليه واعرف نفسي اليه ، فلقيني معاليه لقاء جميلاً ، وأنسني بحسن حديثه طويلاً ، ولكنني كنت ألمح من خلال نظراته ، ومن كلماته أن الرجل يتحامل على نفسه فكأنه يخفي وراء هذا الوجه المتهلل والحديث المتسلل ماضاً موجعاً وحزناً دخيلاً ، فحملت ذلك على طبعه واستأذنته وانصرفت فلقيني المستشار ، وكان أول ما قال لي بعد التحية ما معناه : آسف أنك لقيت الوزير وهو في أشد حالاته ، وأخرج أوقاته ، فإن ابنه مريض وقد تبلفت به العلة اليوم ، وهو شاب لا كالشبان ، وزهرة نضرة عاجلها الذبول قبل الأوان فمن حقه أن يعظم بثه ويشتد أساه .

كانت هذه الشهادة الزهية من لسان أجنبي أول ما وقع في سمعي عن الفقيه ، الكريم ، ثم أخذ بعدئذٍ لسان الحمد يروي إلى ذكره كلما جرى الحديث إلى ذكر الشباب العامل والخلق المصطفى ، والهمة البعيدة . فتمثل في ذهني لهذا الشاب صورة منسقة مهذبة ، لو ان « فدياس » تخيل مثالا للتواضع الابي والطموح الحي والعزم النافذ والحس اللطيف لما عداها . كان الحديث عن عبد الرسول من كل لسان ، وفي كل مكان مزيجاً من الأ كبار والأسف ، لأن شبابه كما سمعت من النمط الذي يعوز الشعوب الناشئة والأمم المهيضة ، لجمعه بين فقه الدين والدنيا ، وملائمته بين جدة الفكر وقدم الفضيلة ، وعزوفه عن ثروة الأهل ومنصب الحكومة ، وهو الحياة ابتغاء الكمال العقلي ، وطلباً للثقافة الصحيحة ، فكان تواتر هذه الأحاديث العطرة يعريني بلقائه كما يعريني غير النسائم بأفياء الرياض ، ولكن النفوس الكبيرة وأسفاها لا تتحملها أجسادها ولا تقوى على حبسها أقيادها ، فكانت نفسه الفتية الطموح لا تفتقر عن الزوج ، واجنحته القوية السبوح لا تني عن الخفوق ، حتى بلغت به على صغره ذرى العلياء ، ثم استشعرت هناك نعيم اللانهاية فطارت إلى السماء .

جاء النعي على جناح البرق ، يعلن استشهاد الغريب ، فأرفض عن القلوب المعروقة الصبر ، واستولى على الناس ذهول وكمد ، وذهبت مع الذاهبين إلى القصر الحزين أواسي الوالد الواله ، فلم أسمع من الكرخ إلى الكاظميه إلا ذكر الفقيه يتصاعد من القلوب المحترقة كما يتصاعد البخور من خلال الحجر ، فكانه قريب إلى كل نفس وحبيب إلى كل قلب .

فيا وحشة الدنيا وكانت أنيسةً ووحدة من فيها بمصرع واحد

ويا حسرتاه على الأنفس الكريمة كيف تموت ؟ وعلى الآمال العظيمة كيف تفوت ، وعلى الوالدين يفرسان المتى فيسقيانه بدم القلب ، وبكلاؤه ينور العين حتى إذا ورف الظل وأن المنصور الزهر أن يكشف عن

موفور الثمر ، قال لها الموت الجائر : حسبكما هذا نصيبي .

والموت نقاد على كفه جواهر يختار منها الجياد

ليست المصيبة في فقدان الفقيد مصيبة أهله فحسب ، إنما هي مصيبة الوطن والشباب والعلم ، فقد كان رحمه الله للوطن الناشئ عدة وقوة ، وللشباب الناهض زينة وقدوة ، وللعلم الصحيح رسولا وحجة .

إن الوطن لا ينهض إلا بشبابه ، وإن الشجر لا يثمر إلا بأغصانه ، أما الشيوخ والجدوع فهم الاصل والمدد والسند ، ولكنهم الصق بالارض وأميل إلى السكون وأقرب إلى الجمود ، فلا تقوى على تحريكهم رياح الامل ، ولا تغرد على حطيمهم طيور السماء . فالفجعية بالشباب الصالح فجعية لا يفيد فيها الصبر ولا يعوض منها الاجر ، لأن الاحتساب والثواب إنما يرجعان الى الوالدين . أما الامة فمصائبها في أمثال الفقيد الكريم ، يفت في سواعدها ويوهن من قواعدها ويضعف من قواها العاملة على حين تستغيث بأبنائها من « الندبة » وتهيب بهم إلى السعي متحدين لتنفيذ الكربة فلا عزاء لها عنه إلا بسد الخلة وتوثيق العقدة وانتهاج الشباب العامل خطة الكريم الراحل فيستكملون فضائل النفس ويستبطنون دخائل العلم ، ويطلبونه لنفسه لا للمنصب ويعملون به للامة لا للكسب ، ويشعر كل منهم أنه كلمة مفيدة في جملة الامة ولبينة قوية في بنساء الوطن ، فيسيرون بقومهم في طرق الاصلاح والتجديد ، ويقولون لمن أقام الوصاية إنها باطلة على دار (الرشيد) .

حينئذ تعرف الامة معنى العزاء ، لأنها لم تعرف معنى الشكل ، وحينئذ يحق لها أن تقول في أبنائها بلهجة الصابر الفخور .

نجوم سماء كسلبها غاب كوكب بدا كوكب تأوي اليه كواكب

سكن الأستاذ أولَ قدومه بغداد فندق « كارلتون » على صدر دجلة بالقرب من جسر الأحرار (جسر مود) ، وكان من أوسع فنادق بغداد وافخمها ، مدخله من شارع الرشيد مصاقبٌ لمدخل (أوزدي بك) ، ولهذا الفندق شرفات وحديقة تطل على دجلة يتخذها نزلاء الفندق مستراحاً لهم . ندب الزيات للتدريس بالعالية بتوصية وترشيح من زميله وصديقه الأستاذ عباس العقاد الذي رشحه استاذنا طه الراوي قبل الزيات ، فاعتذر لارتباطه مع الوفد وخوضه المعركة الانتخابية .

جاء الزيات العراق وشهرته تسبقه ، فقد عرفناه أديباً مشرق الديباجة بترجماته (آلام فرتر ورفائيل) ، وقرأنا له مقالاته في الصحافة المصرية ، فاستقبله المتأدبون والصحافة العراقية بالترحاب ، وتقاطروا على فندق كارلتون يسلمون عليه ويرحبون بمقدمه ، وفتحت جريدة البلاد صدرها لنشر محاضراته ومقالاته ، فنشرت له تحيته لبغداد ، ونشرت مساجلته الطريفة مع الأستاذ محمد بهجة الاثري ، كما نشرت كلمته في رثاء السعدون ، ومحاضراته القيمة في الأدب العربي . وفي ٢٦ شباط سنة ١٩٢٩ نشرت له البلاد مقاله الممتع (تأمل ساعة) ، فكان له صدى استحسان لدى القراء ، وأثار تعليقات كثيرة على صفحات الجرائد ، ونال تقدير الوطنيين ولا سيما الشباب ، وكانت الصحافة يومذاك تعنى بالمقالة وصفحاتها تغطيها القصائد الوطنية والمقالات الادبية والاجتماعية والتاريخية ، والقراء على قلتهم بالنسبة إلى المتعلمين اليوم كانوا يتلقفون الصحف والمجلات والكتب يقرؤونها ويستوعبون أخبارها ويتذوقون اساليبها ، وقلما تقابل شاباً متعلماً لم يتأبط كتاباً أو مجلة يقبل على قراءتها وقت فراغه في الاندية أو المقاهي .

« في الشرفة الوسيعة من فندق « كارلتون » جلست اطالع في صفحة

دجلة ما خطته يد القرون ، وكانت شمس الأصيل تنفض تبرها على أمواج
النهر وسطوح الكرخ وحواشي الافق ، والطبيعة الأنيقة تنعم بالصفاء
والبهاء والدفء ، بعد ما أجهدتها رعد الأمس وبرقه ، وأغصها وابل الغمام
وودقه ، فالسما مصرية الأديم ، والجو عبهري^(١) النسيم ، والأفق الغربي
مزدان بقزعات^(٢) من السحاب الأبيض الرقيق ، والماء قد استحال لجينيه
نظاراً من طول ما حمل اليه السيل من كنوز الجبل^(٣) ، أخذت أصوب
النظر وأصعده في النهر والجسر والشاطئ ، فأرى أنماطاً من الناس
وأخلاقاً من الاجناس ، وصوراً من الأشياء تنكرها العين ويعرفها القلب ،
لأنها شرقية ، ولأنها عربية ، ولأنها مظلومة .

ذكرتني هذه المناظر مناظر غابت في سويداء القلب ولفائفه ذكرتني
تقابل الرصافة والكرخ على دجلة ، تقابل القاهرة والجيزة على النيل
الاعلى ، وتقابل المنصورة وطلخاً على النيل الاسفل ، وفي هذه الاماكن
الحبيبة كان مدرج طفولتي وشبابي ، وملتقى أحبتي وصحابي ، فهاجت
شجوني ، وسالت شؤوني ، فوضعت جبھتي المضطربة على سياج الشرفة
البارد ، وعدت بالذاكرة وشيكاً الى بغداد ، ثم انطويت على نفسي ،
وأخذت أتفكر وأتذكر وأعمه في غيابة الماضي حتى انقطع ما بيني
وبين الحاضر ، فأنمحي من حولي العالم بأسره .

وحينئذ انبعث من جانب الكرخ صوت شاد يرتجع بالنغم العربي الشجي ،
فخيل إليّ أنني أرى دجلة « الامين » وجسر « ابن الجهم^(٤) » وكرخ المجان
والحلفاء من أهل بغداد المترفة ، ووقع في سمعي أن هذا الشادي يقول :

(١) العبهر : الباسمين .

(٢) القزعة : قطع من السحاب المنفرقة .

(٣) هو الغرين .

(٤) علي بن الجهم يشير الى قوله .

جانب الهوي من حيث ادري ولا ادري

عيون المهامين والرصافة والحسر

سقى الله باب الكرخ من مُتَسَنِّزَةٍ إلى قصر وضاح فبركة زلزل
 مساحب أذيال القيانت ومسرح الـ حسان ومثوى كل خرق معذل (١)
 وصور لي أني أسمع غناء الملاحين في الزلازل (٢) ، وأبصر « الدلفين »
 و « العقاب » (٣) يمخران العباب بالخليفة « الامين » وحسانه وقيانه ونداماه !
 وترأت لي على الشاطيء الشرقي قصور « البرامكة » الحزينة ، يقابلها
 على الشاطيء الغربي قصور الخلفاء والأمراء : تعج بالجواري والعلمان ،
 وتضج بالشعر والندمان ، وتموج بالسادة والقادة والجند ، وتفيض بالنعيم
 والجلالة والعظمة ، وتمثلت في خاطري بغداد الامس كباريس اليوم في
 عدد سكانها وفخامة بنيانها ، واتساع رقعتها ، وازدهار مدنيتهما ، وانبعث
 الحضارة من مجامعها ومنابرها ، وانبثاق الهداية من جوامعها ومنائرهما ،
 إلا أن باريس تشع في جواء مشرقة تسطع فيها شمس أخرى تضارعها
 وتضارعها ، أما بغداد التي عنت لها وجوه القياصرة ، وكان من جندها
 أبناء الدهاقين والاكاسرة ، فكانت شمساً واحدة ترسل الضوء والحرارة
 والحياة في القارات الثلاث ، فتبدد ما غشيها من ظلام وخود ونوم .

لا أدري متى كنت أصحو من نشوة هذه الذكريات الحلوة المرة لو
 لم يعدني الى وجودي صوت منكر من أصوات الحضارة الحديثة ، قد
 انطلق من جوف مركب بخاري عظيم كان يشق بجيذومه صدر دجلة ،
 فسرّحت طرفي في الافق ، فاذا شمس الشرق تجاهد ظلام الغرب ، وإذا
 القزعات قد ارتدت بياضها سواداً ، ضربت في حواشيه حمرة الشفق ،

(١) الخرق : الفتح الكريم الحلية ، والمعذل : من يعدل لافراط جوده .

(٢) الزلازل : وحداها الزلال : أي الزورق .

(٣) الدلفين والعقاب : مركبان من مراكب الامين .

فصارت كأجنحة الغربان الدامية ، أو كقطع من الفحم علقت بأطرافها
نار حامية ، ثم نظرت شمالاً فاذا المكان الذي سجدت فيه رسل « شارلمان »
أمام « الرشيد » يخفق فوقه علم غريب ^(١) لا هو أسود ولا أبيض ولا
أخضر ^(٢) .

وإذا قطع من السحاب السود قد انعقد فوقه ، ملبدة هنا ، مبددة
هناك ، فقلت في نفسي : ليت شعري أهذه بقايا أعلام الرشيد والمأمون ،
أم هذه أثواب الحِداد لبستها سماء العراق على السعدون ^(٣) ؟

-
- (١) هو العلم الانكليزي على دار الاعتماد في الكرخ .
(٢) هي ألوان أعلام العرب الثلاثة في القارات الثلاث آسية وافريقية وأوربة .
(٢) كان العراق يومئذ لا يزال مروعاً بانتحار الزعيم عبد المحسن السعدون .

مأساة الشاعر وضاح

كتب الزيات مأساة الشاعر وضاح اليمن ، ونشرتها له البلاد في ١٧ و ٢٤ كانون الثاني ١٩٣٠ ، فأرضت الفن وأغضبت التاريخ . كانت مثلاً رائعاً للإنشاء العالي ، فرد عليه الاستاذ الكبير محمد هبة الأثري بأسلوب أنيق ، وتحقيق دقيق ، وروعة من البيان لا يقل عن روعة أسلوب الزيات . وكان رده وتعقيب الزيات على الرد نموذجاً عالياً للنقد العلمي النزيه ، أوضح في رده أن القصة مختلفة من وضع الشعوبين ، لمحتها الاختلاق ، وسداها الدس للشرف العربي في أكرم بيت من بيوتات قريش ، والحط من كرامة الخليفة الأموي في أعز ما يحرص على صيانته كريم من أبناء هذه الاسرة العربية ، والقصة ظاهرٌ بطلانها ، ينفيها التاريخ ، وينكرها العقل ، ويهدمها النقد العلمي . كانت المساجلة مثلاً يحتذى في الوقار والتصون والادب والنقد البناء الذي يجب أن يتسم به العلماء والأدباء في المناقشة والمداولة والرد ، لا كما نراه اليوم عند بعض أدمع الأدمع من التهجم والاشتم والانسكار لكل مزية يتصف بها غيرهم ، والله تبارك وتعالى أدبنا في محكم كلامه الكريم فقال : « ولا تنسوا الفضل بينكم » وقال : « ولا تبخسوا الناس أشياءهم » .

وقد نشرت القصة والمساجلة بين الزيات والأثري في كراس سنة ١٩٣٥

وطبع بمطبعة العهد ، ودامت صلات المودة بين الكتّابين الأدبيين موصولة ،
تجدد وشائجها كل سنة في أثناء اجتماعات مجمع اللغة العربية في القاهرة ،
وعلى صفحات الرسالة التي كانت تزين أعدادها بقصائد الأستاذ الأثري .
ولما في الرسالتين من أدب ممتع ، ونقد نزيه ، وفائدة للقارئ ،
أثبت نصيها ، وهما بعد هذا وذاك من صلب موضوعي :

القصة (١)

- ١ -

في اليمن الخضراء ، وفي صنعاء ذات الظل والماء ، نشأ (وضاح)
أزهر اللون ، أصهب الشعر ، مليح القسما ، رقيق الأديم ، ثم ترعرع
بين خمائل الأودية ومروج السهول وأزاهير الرُّبَا ، فازداد رواء وجهارة .
وإذا كان الجمل يكتسب لون الصحراء ، والسماك يستفيد مرونة
الماء ، والطاووس يستعير أفواف الروض ، فإن اليانين لم تصلهم بطبيعتهم
ولا بينتهم صلة ، فهم سمر الوجوه ، ضئال الجسوم ، قصار القدود ؛
وأرضهم مشرقة الأجواء موقنة المناظر ، خصبة التربة ، لذلك رابهم
(وضاح) بقدر ما راعهم ، فقالوا إنه من أبناء (الفرس) الطارئین علی
اليمن في عهد (ابن ذي يزن) ، ولكن الحكم سفه هذا الرأي وقضى بعربيته .
لا يعنيك ولا يعنيني أن نكشف عن دخيلة هذا الشاب ، فنصف
تاريخ أسرته وحقيقة ثروته وطبيعة عمله ، إنما يعنينا من (وضاح) ذلك
الفتى الطرير الذي أشقاه شعره ، وأبأسه شعوره ، وقتله جماله .
نريد أن ننقل عن لوح القدر هذه الصفحة الدامية التي كتبت لهذا

(١) نشرت في جريدة البلاد ، في ١٧ و ٢٤ شعبان ١٣٤٨ هـ . ١٧ و ٢٤ كانون الثاني

البائس ، وجرت عليه في غير رفق ولا هوادة .

كان وضاح الجميل الشاعر كالبلبل ، يعرف في نفسه جمال الريش
وجمال الصوت ، فهو لا ينفك في حذر من الصائد ، وخوف من القنص ،
فكان يغشى المواسم والأسواق وهو مقنّع منتقب ، خيفة الحاسد ،
وحذر المرأة !

ولكن المرأة كانت تعترضه بكل سبيل ، وتترقبه في كل مرصد ،
وتترامى له في كل مكان : تحت النخيل ، وفي الأسواق ، وعلى الماء ،
وهو لا يزداد إلا تمنعاً وترفقاً ووحشة ، لأنه محبوب ، ومن طباع
المحبوب الإدلال ، ولأنه مطلوب ، ومن غرائز المطلوب الهرب ، ولم
يجد مسع ذلك فيمن رأى من النساء روحاً جذابة ولا قوة غلابة ولا
جمالاً أبرع من جماله ، على أن (وضاحاً) خلق للحب ، وكنبت عليه فيه
الشهادة ! فعيناه على غير علمه ترتادان الحبيب ، وقلبه من قلقه وانتظاره
يضطرب في حنايا صدره ، وعواطفه من اضطرامها وانبساطها تكاد
تسيل ، وكان يفر من ضوضاء (صنعاء) ومتاجرها وقوافلها إلى سكون
الصحراء الرهيب ، وهدوء الطبيعة الموحش ، فيقضي سحابة نهاره جالساً
في روضة ، أو مستلقياً على غدير ، أو نائماً في مغارة ، كأنه نبي من
أنبياء بني إسرائيل ينتظر الرسالة .

- ٢ -

ففي صباح يوم من أيام الربيع مشرق الأديم ، عنبري النسيم ،
منصور الخائل ، استهوته الطبيعة فأخذ يضرب الأرض حتى متع النهار ،
وإذا هو على ماء من أمواه (الخصيب) من قرى (اليمن) ، وفي
(الخصيب) شدة الجمال أطنابه ، وشاد الحب معبده ، والعرب يقولون
لك : « إذا بلغت أرض الخصيب فتهرول ! » .

فجلس (وضاح) ينضح ظمأه ، ويرفه عن نفسه ، إلى أن طاف
به الكرى فنام .

تنبه (وضاح) ساعة الأصيل على صوت رخيم الحواشي متسق النبرات
في رنين الفضة ، فنظر فرأى حورية من حواري الحقول قد حسرت عن
ساقها ، وغمست رجلاً في الغدير ووضعت رجلاً على الحافة ، وهي
منحنية على الماء تجمع ثوبها بيد وتملأ سقاءها بيد ، فرجف قلبه وبرق
بصره وخيل إليه أن عينه لم تقع من قبل على فتاة ، فنهض يملأ من
هذا المنظر الرائع عينيه ، فلفتتها حركته ، فرفعت بصرها إليه في
سكون طرف وقتور لحظ ، وكأنها همت بالنكوص لولا أن رأت منه
ما رأى منها ، فوقفت جامدة لا تتحرك وشاخصة لا تطرف ، بل
أحست من نفسها الهفوان إليه حين تقابل النظران وتجادب القلبان ،
ومشى إليها مشية الحباب في حياء ووناء ورقة ، حياء فردت التحية ،
واستنسبها فاستنسبت كيندية ، واستسهاها فقالت : (روضة) .

ثم جرى بين المحبين حديث الشباب الحي المضطرب الحائر .. ويكاد
نصه يكون واحداً على اختلاف الألسنة والأزمنة والأمكنة فلا تثبته ،
وكيف تثبت كلام الناظر للناظر ، وتدفق خاطر للخاطر ، وعناق
القلب للقلب ، وامتزاج النفس بالنفس ، ولحن اللسان للسان ؟

كانت (روضة) كما تشتهي كل فتاة أن تكون ، فهي كما صورها
(وضاح) في شعره « كاعب وضيئة الطلعة ، لطيفة التكوين ، مصقولة
الجبين ، يزينه شعر أبيض ، شعر كذنب الكميت ، زجاء الحاجبين كأنما
شقاً بقلم ، تقوساً على مثل عين الظبية ، ساجية الطرف ، ذلفاء
الأنف ، عسلة الذراعين ، لا ترى فيها عظماً يحس ولا عرقاً يحس ،
طفلة الكفتين ، تعقد إن شئت منها الأنامل ، مشوقة القد قد
أفرغت في قالب الحسن .

وجد كل منها في الآخر مَشَابِهَةً في زهرة الوجه وصهبة الشعر
وهجنة النسب بالدم الفارسي ، فتعارفا بلحظة ، وتفاهما بلفظة ، وتآلفا
تآلف الأخدان ، كأنما كانا على موعد .

طوت شمس الطَّفَّيل الغاربة مطارفها العسجديه عن السهول والحقول ،
فلم يبق منها إلا هلال على رؤوس التلال وشعاف الجبال وأعراض
النخيل ، وأخذ الرعاة يروحون بالقطعان إلى الحظائر ، وأن الراعية
الحسنة كذلك أن تؤوب ! فقامت (روضة) متناقلة ، وودعته متخاذلة ،
وسارت وراء قطيعها تتهادى في مرطها المفوف ونطاقها المحبوك وخمارها
الأسود كأنها إلهة للرعاة أو شمال الحسن . تلاقيا مرة أخرى في سره
الوادي المعشب ، وقد عملت فيه يد الطبيعة فأزرت به بعميم النبات ،
وطرزته بألوان الزهر ، وضمخته بعبير الخزامى وربنا البشام وأرج
الرند ، فجلسا ساعة تحت دوحة يتساقطان عذب الحديث ، ويتناشدان
حلو الغزل ، ويتساقبان كؤوس الهوى ، ثم نهضا يسيران صاعدين تارة
في مدارج السيل ، وهابطين تارة إلى قرارة السهل ، يحنيان الكأبة ،
ويقطفان البهار ، ويلتقطان الجزع المفصل . فلما نفضت الشمس على
الأفق الغربي تبر الأصيل ، توادعا ، ثم توادعا على اللقاء ، وتعاهدا
على الوفاء بعد أن شق عليها رداءه وشقت هي عليه برقعها ، استدامة
للحب وبقياً على الهوى .

- ٣ -

ظل العاشقان في غفلة الزمان والإنسان ، يتلاقيان كل يوم على خلاء ،
حتى نم على هواهما شعر (وضاح) ، فتنبه الغافل وتحرش العاذل
وتحذر الأهل ، فحاولوا بينهما وبين لقائه وتوعده . فكان (وضاح)
يأتي كل يوم على عادته ، فيجلس في الأماكن التي اعتادها ، ويرتاد
الغياض التي ارتادها ، ويستروح الشُعَامَى والخُزَامَى ، فلا يجد قراراً في

مكان ، ولا جمالاً في طبيعة ، ولا رَوْحاً في أَرَج ، فيدنون من « الخصب »
يترصّد غفلة القوم ، ويتنسم ربح « روضة » ، يقول :

يهددوني كسيما أخافهم هيئات أنسى يهدد الأسد

حتى لقي ذات مساء عبدها الذي كان يرعى عليها رائحاً بالقطيع
الى مراحه ، فحمله رسالة اليها يطلب فيها أن توافيه على الكئيب متى
غفت العين وهدأت القدم ، فوافته في إحدى أترابها ، فجلسا على الحصباء
يتشاكيان حرقة الجوى ، وتحكم الهوى ، وتعقب الرقيب ، وأخذت « روضة »
تحكي « لوضاح » كيف استفاض الخبر وخاض فيه الناس ، وكيف حجبتها
إخوتها وراقبوها بعين لا تغفل ، وذكرت له والدمع يتقاطر من عينها
انهم صمموا على رفض خطبته ومنع تزويجه ، وقرروا تزويجها من موسر
كثيف الظل جاني الحلقة ، وحذرتة أن يدنو من الحي ، فان قومها
يأتمرون به .

غلي جوف « وضاح » وعصفت في رأسه الحمية ، ونزلت بقلبه الصبابة ،
وعقد نيته على معالجة الأمر بالحزم ، ومواجهة الخطر بالصراحة ، وقرر
زيارتها بعد هذا الحوار البديع الذي خلده وضاح في هذه القصيدة :

قلت : ألا تَلِجَنَ دارنا	إن أبانا رجل غائرُ
قلت : فاني طالبٌ غيرةٌ	منه ، وسيفي صارم باتر
قلت : فان القصر من دوننا ،	قلت : فاني فوقه ظاهر
قلت : فان البحر من دوننا ،	قلت : فاني سابح ماهر
قلت : فحولى إخوة سبعة ،	قلت : فاني غالب قاهر
قلت : فليث رابض دوننا ،	قلت : فاني أسد عاقر
قلت : فان الله من فوقنا	قلت : فربي راحم غافر
قلت : لقد أعيدتنا حجةً	فأت ، إذا ما هجع السامر

واسقُطْ عَلَيْنَا كَسَقُوطِ النَّدَى لَيْلَةً لَانَاهِ وَلَا زَاَجِرٌ (١)

وفي الليلة التالية كان «وضاح» في طريقه إلى «الخصيب»، وكان إخوة «روضة» وعمومتها يرصدون سبيله، ويطلبون لقاءه بعد أن علموا من الرقيب اجتماع الكشيب، وكانت الحبيبة على علم بخروج القوم وقدم الحب المخاطر، فطرقت مضجعهما الموم، وتحالجت قلبها الوسوس، وأخذها عليه المقيم المقعد.

لم يطل انتظار الجماعة للفرد فتلاقوا وراء الوادي، ثم كان عتاب على الأشعار الجارحة، وسباب على الشهرة الفاضحة، وقتال انتهى بطعنة تلقاها في موضع حبه، ثم خلا المكان إلا من جريح يثن، وفرس يحمم، وتحامل «وضاح» على نفسه فضمد جرحه وركب جواده وقفل راجعاً إلى أهله.

قضى المسكين شهرين على فراش الألم يتضور من ضربان الجرح وهذيان الحمى وثوران الحب. ولكن الجرح كان قريب الغور فاندمل، والحمى كانت عارضة فأقلعت، والحب؟ هذا هو المرض الخامر والداء العيساء، فليس له غير الله من آس ولا طبيب، لذلك نصحوا «لوضاح» أن يهج البيت، فشد إليه راحله، وسنلقاه هناك بعد قليل.

- ٤ -

أذن مؤذن الحج للمرة الثمانين بعد الحجرة، فسالت فجاج الجزيرة

(١) هذا شعر مولد يتألف مع مجان بن العباس والغاوين من الشعراء الخلاء، ولا يقتاسب مع محب محبوب. وأين القصر من راعية بهم، بل أين البحر من أرض الخصيب؟ ولا أدري لماذا تنتهي كل قصص الحب في البيداء وعند الأعراب بهذه النهاية، منع المحبين من اللقاء والزواج، وتزوج المحبوبة من زوج غني بليد. إنسه الخيال الضعيف والوضع الواهي.

بالقبا ب والهوا دج ، وأشرقت دروب الحجاز ومسالكه بالناس رجالاً وعلى كل ضامر ، واكتظت بطاح مكة ورباعها بالحجيج من الشام والعراق واليمن ، ودوى الفضاء المشرق بأصوات التهليل والتلبية ، وروى الثرى المكروب من دماء البدن والضحايا ، وتعطر الجو القائظ بأنفاس الحسان الغيد ، وفاضت أندية « مكة » النبيلة بالقصف والعزف والغزل ، وخرج الشعراء من بني الأنصار والمهاجرين في مطارف الحز وبرود الوشي على النجائب المحضوبة ، يتعرضون للغواني المحرمات ، ويقطفون من فوق شفافها اللعس ألفاظ الدعاء ، قبل أن ترفع الى السماء . وهناك على الربوة العالية ، ضرب الفسطاط الرفيع العماد ، وفرشت الطنائف ، ونصبت الأرائك ، وصفت النارق ، ونضدت الوسائد ، وقامت الجوارى والولائد ، وعلقت السدول والستائر ، وبرزت من خلالها « أم البنين » زوج الخليفة « الوليد ابن عبد الملك » في زينتها وفنتها ترسل النظر قارة الى الأفق البعيد وتارة تتصفح به الوجوه المختلفة والأزياء المتعددة ، والناس يتحامون جانبها ، ويتهيون ظلالها ، لهيبة الملك وشراسة الجند وجلال الخليفة ، حتى الشعراء من شباب الهاشميين وخلفاء « ابن أبي ربيعة » لم يجرؤوا أن يعدوا الى جمالها الفاتن عيناً ولا لساناً ، لأن الخليفة كتب « يتوعد الشعراء جميعاً إن ذكرها أحداً منهم أو ذكر أحداً من قبعتها » . ولكن الملكة تريد على رغم الملك أن تكون من عرائس الشعر ، وأن تظهر في ديوان الشاعر كما ظهرت في ديوان الملك !

والشعر في « الحجاز » كان حينئذ للمرأة ، يصف حالها ، ويعرض جمالها ، فتصل من طريقه إما الى الزواج وإما الى الشهرة .

فقرأت « أم البنين » للناس ، وسهلت للغزلين الحجاب ، وكان « وضاح » يومئذ مشغولاً عن الشعر والشعراء بنفسه ، فهو يطوف بالبيت ويتعلق بستمور الكعبة ، ويسأل الله أن يشعب قلبه بالسلاوة : حتى إذا خرج الحجيج

الى « عرفات » ، وتطاولت الرقاب ، وتطلعت العيون ، وأرمأت الأصابع الى موكب الملكة الحاشد ، جذبه جلال الحاجة النبيلة وجمال وصائفها ، فدنا من فلكتها ، فوجد كهنة الحب وشياطين الشعر يسايرون ركلتها ويراقبون سناها ، فمضى بجانب الشاعر « كُئِيبِر » ، ووقعت عين « أم البنين » عليه فزاعها جماله وعلقتها حباله ، فأشارت بطرف العين الى جاريتها « غاضرة » فأثبتت معرفته ، فلما أفاض الناس من « عرفات » ، وانحدروا الى مرمى الجمرات ، وقفت بجانبه فتاة فتانة ناهد ، وأسرت اليه وهو يرمج الشيطان أن الملكة تريد لقاءه في تخيمها على « مَيْسَى » . اضطرب « وضاح » لهذه الارادة ، وخشي عاقبة هذه الدعوة ، وتردد طويلا في الذهاب الى هذا الموعد ، لأن هذا الحب المللي أكبر من عواطفه ، ولأن قلبه الجريح لا يزال يقطر في لفائفه ، ولأن خيال « روضة » يعتاده في جميع موافقه ، ولكنه عربي طمّاع طمّاح مخاطر ، فلماذا لا يبذل الشعراء ، ويكبت الأعداء بالسبق الى جمال الملكة ومال الخليفة ؟؟

أمسى المساء وكان هلال ذي الحجة قد توارى بضوئه الشاحب خلف الجبل ، وأخذت الأضواء المنبعثة من بواقي المشاعل والمصابيح والكوانين تكافح ظلمة الغسق ، وألقى الناس أرواقهم على الرمال مجهدين بعد نهار قانظ احمرت حواشيه من دماء القرابين ، وضرب الكرى على آذان العامة ، فلم يبق يقظان إلا ذو الحس الرقيق ممن جرم جمال الليل الى جمال السهر ، وإلا نَفَسَان شاعرتان بسط الحب عليهما جناحه ، وأزال ما بينهما من فروق ، ورفع ما يفصلهما من حواجز حتى التقى ابن آدم ببنت حواء وجها لوجه ، وأقبلت « أم البنين » على « وضاح اليمن » تنقله الحديث ، وتساجله الشعر ، وتنصب له شرك الفتنة في مطاوي اللفظ ، وتسدد الى قلبه سهم الغواية في مرامي اللحظ ، وحسبنا أن نروي من هذا الحديث المشقق العذب هذا الحوار :

- وكيف حال « روضة » بعدك يا « وضاح » ؟
 - على شرّ حال وأسفاه ! زوجها من موسم مجذوم ، فأعادها
 بالجدام ..
 - وما حالك أنت من بعدها ؟
 - أما قبل هذه الليلة ، فكنت لا أنتفع بنفسي ، ولا أشعر بوجودي .
 - ومنذ الليلة ؟
 - منذ الليلة عرفت نعم السماء بعد ما عرفت في « الخصيب »
 نعم الأرض .
 - اذن ستحبني (١) ؟؟
 - نعم ، ولو خبرت ما اخترت .
 - وستنسب بي في شعرك ؟
 - نعم ، ولو كره « الوليد » !
 - اذن ، اصحبني الى « دمشق » فامدح الخليفة ، وسأرفدك لديه ،
 وأقوي أمرك عنده .

- ٥ -

وعلى « نهر بردى » وفي القصر المشيد ، زكت شجرة الحب حتى
 عرشت على كل حائط ، وسطعت فوحتها في كل أنف ، وتهدلت أغصانها
 المزهرة على سرير الخليفة ، ودنت قطوفها المحرمة من فم الجنون وليلاه ،
 فأكلت منها « حواء » وجرت الى الخطيئة « آدم » ! وآدم دائماً هو الذي

(١) لو كانت من بنات الهوى لما جاهرت محبوبها بمثل هذه السرعة ، ولا أدري
 كيف استساغ الزيات هذه الرواية وصدقها ، وراح يزوقها ويمد أطرافها حتى جاز في أدبه أن
 وضاحاً أضحي عند أم البنين كمروس الأطفال تلعب به متى شئت وترده الى مأمنه
 متى خافت .

يكفر الخطيئة .

ظل « وضاح » ابن الطبيعة الطليقة سجيناً في قصر « الوليد » لا يبصر سماء ولا أرضاً ، ولا يرى غديراً ولا روضاً ، ولا يسمع حركة ولا صوتاً ، ولا يشعر بمجرى الحياة إلا حينما تخرجه أم المؤمنين من مخبئه ساعة يغفل الرقيب وتقفو العين المريبة ، فتطارحه أحاديث الغزل ، وتسقيه من سُلّاف الهوى عَمَلًا بعد نَسَهْل ، ثم ترده عند الخوف الى مأمنه .

ومضت على تلك الحال حقبة من الدهر ورفت عليها ظلال الأمن فيها ، ولكن وجه الجريمة وقاح لا بُدَّ من سفوره ، ذفيرَ مهما كتمته فلا مناص من ظهوره ، والخطيئة لا يطهرها إلا عقوبة أو توضحية . فأهدي الى « الوليد » ذات يوم جوهر نفيس ، فراقه حسنه وأحب أن يطرف به « أم البنين » ، فبعث به اليها مع خادم له ومعه كلمة رقيقة ، فمضى الغلام بالتحفة الى مجلس الملكة فلم يجدها ، وعلم أنها في بعض الغرف فدخلها عليها مفاجأة ، وكانت قد أحست بخطاه دون الباب فبادرت الى إخفاء « وضاح » فأدخلته في صندوق وأغلقته ، وحينئذ دخل الغلام فرأى أواخر جسمه تغيب تحت الغطاء ، فأدى الى الملكة الرسالة ، ودفع اليها الجوهر ، ثم قال لها بلمهجة الخبيث الماكر : ألا تهبين لعبدك يا مولاتي حجراً من هذا الجوهر ؟

فأجابته « أم البنين » بلمهجة العزيز المتعص : « كلا يا ابن اللخناء ولا كرامة » (١) .

(١) ان الذي دس هذه الفرية على البيت الأموي شعوبي ضعيف الخيال ، أحدنا لا يدخل على أمه او زوجته الا أن يستأذنها فكيف ساع بعقله أن يفاجئ العبد مولاته ، فأين وصانفها وحواضنها ، وبين قتل العبد وبجيء الوليد وقت كاف لاختفاء الخبيث إذا كان له حقيقة ، وإذا كان العبد قد قتل فمن أشاع الخبر ، وهو قد بقي سرأ بين الزوج والزوجة . فالقصة موضوعة ، وعقدتها فاهمة وحبكتها واهية بعد هذا تهمة لسيدة عزيزة عرفت بالصلاح وأخت للرجل الصالح عمر بن عبد العزيز وزوجة وأم أولاد .

ولعلمها لو كانت تحسن قراءة الوجوه لحشت فمه بهذا الجوهر حتى لا ينطق ، أو لعلمها فهمت لحن قوله ، ولكن نفسها الملكية الأبية أنفت الخشوع لهذا العبد ، فأثرت نعمة زوجها على نعمة خادمه ، وهي مع ذلك قوية الثقة في شفاعته الجمال ووساطة الحب ! ومهما تكن الدوافع الى هذا الجواب فان الخادم قد ارتدّ الى سيده يجليزية الأمر ، ولكن الأمر نزل من الخليفة « الوليد » في بال واسع ، فأمر بالغلام فَوُجِئِسَتْ عنقه ، ثم لبس نعليه ، ودخل على أم البنين وهي جالسة تمتشط في تلك الغرفة ، فجلس على الصندوق وقد علم وصفه من الغلام ، ثم قال بلمجته الهادئة الرزينة :

يا « أم البنين » ما أحب اليك هذا البيت من بين بيوتك ، فلم تختارينه ؟

- أختاره وأجلس فيه ، لأنه يجمع حوائجي كلها ، فأتناولها منه كما أريد من قرب .

- ألا تهين لي صندوقاً من هذه الصناديق ؟

- كلها لك ، يا أمير المؤمنين .

- ما أريدها كلها ، وإنما أريد واحداً منها .

- خذ أيها شئت .

- أريد هذا الذي جلست عليه .

- خذ غيره ، فان لي فيه أشياء أحتاج اليها .

- ما أريد غيره .

- إذن خذه يا أمير المؤمنين .

- فأشار الى الخدم ، فحملوه الى مجلسه ، ثم أمر العبيد فحفروا تحت

بساطه بشراً بلغوا بها الماء ، ثم دعا بالصندوق أو الناووس ، وقال له :
« إنه بلغنا شيء إن كان حقاً فقد كفناك ودفناك وذكرك وقطعنا
أثرك الى آخر الدهر ، وإن كان باطلاً فقد دفنا الخشب وما أهون ذلك ! »

ثم قذف به في البئر ، وهبيل التراب ، وسويت الأرض من وراء
البساط ، وأخذ الخليفة مجلسه ، واستمر الفلك يدور دورانه الأبدي المنتظم ،

كأن لم يكن بين (الحَيَّجُونَ) الى (الصفا)

أنيس ، ولم يسمر (بمكة) سامر

إلى الأستاذ الزيات^٧

أحييك بتحيةة العروبة ، وأحيي فيك « الأدب » الذي تصل بيننا
وشائجهُ ، وتجمعنا أوامرهُ ، والبيانَ الذي ألفتَهُ يترقرق على لسانك
سائفاً عذبا ليلةً ضمتني وإياك « دار البلاد » فأخذنا بيننا بأطراف
الأحاديث حتى ملكني تواضعك الجم ، وخلقتك السمح ؛ وبيانك المشرق
الذي دلني على أن وراءه قلباً كبيراً هو منبع ذيتك التواضع النبيل ،
وذلك الخلق السجيج ، وهذا اللطف الفياضة كله بالروح الشريف .
فأنا ما زلت أتذكر ذلك وأذكره مُكْتَبِرًا ومُعْجَبًا ، وما زلت أحب
لو أني أجسد في وقتي متسعاً فأجتمع بك وأتمتع بمحدثك وأستفيد من
مساجلتك وحوارك في أدب العرب وبيان لغتهم الساحر الأخاذ . أما
- وقد ضاقت بي رقعة الوقت حتى لم أوفق لبلوغ الأرب على نحو ما
أشتهي - فلا أقول من أن تكون لي منه قسمة تتسع لإنشاء رسالة
يحملها اليك عنى بريد « البلاد » بما يبدو لي من وجوه الرأي والفكر فيما

(١) بقلم الأستاذ الكبير محمد بهجة الأثري .

نشر الرد المفعم في غرة شهر رمضان ١٣٤٨ ٣١٨ كانون الثاني سنة ١٩٣٠

أطالعه من فصولك القيمة التي كان آخرها ما طالعت به الأدب منها
مأساة الشاعر وضاح ..



لقد قرأت بإمعان هذا الفصلَ الرشيقَ أسلوبه ، الناصعة ديباجته ،
الكريمة ألفاظه ، وما زلت أسايره وأقلب النظر في أعطافه حتى فرغت
منه ، وإذا أنا بإزاء أمر لا أعلم كيف أدبرت عنسي أوائله ، وأقبلت
عليّ أواخره ، وإذا أنا تجاه خبر لا أدري كيف غرب كسُنْهُ عن
بالك ، ولا كيف جرت به يراعتك شوطاً بعيداً ، والمظنون أنها يراعة
تتلكاً دون المشتبهات ، فلا تضرب في مجاهلها قبل أن تحبر أعلام
المذانب وتأمين الحَبَّار ووعوثة الموطيء الذي تطوّه ، فلقد راعني إيمانك
اليقيني بقصة وضاح وأم البنين على النحو الذي أوردته ، وراعني أن
يقدم أديب مثلك في عصر التمهيص على إثبات أخبار موضوعة نفاها
أهل العصور الغابرة واتهموها بالوضع . ولا أعلم هل تختلف معي في
أخبار الماضين وفهم التاريخ بأمر جوهرى ؟ فليني لم أقف على رأيك في
مزاعم الرواة وأهل الأخبار ، ولست أريد بمجرد ما لاح لي من الرأي
في مقالاتك أن أقولك ما لم تقل ، وأحكي على لسانك ما لم تحك ،
ولكنني أحب أن تعرف رأيي في ذلك ، لتدفع عني ما عسى أن
يختلج في صدرك من وجوه الشبهات في سبب دفاعي عن أم البنين زوج
الخليفة الوليد بن عبد الملك .

فاني على سلفيتي وحيي لقومي العرب لا أسبغ على الغابرين غلائل
التقديس والاجلال فيما ليس هو من الحق في شيء ، ولا أزعم أن الماضين
يجلون حتى عن إتيان اللهم ، فأخرج بهم عن البشرية ، وأخلع عليهم
نعوت النبيين والصدّيقين ، وإنما أنا أعتقد أنهم بشر مثلنا ، فيهم الطيب
والخبث ، وفيهم البر والفساجر ، وفيهم المؤمن والملحد ، وفيهم العالم

والجاهل ، وفيهم العاقل والأفين ، لا يفضلوننا ولا نفضلهم الا برجحان
كيفية صفة من هذه الصفات الفاضلة فينا أو فيهم . أما التشيع لنحلة
دون نخلة ، وأما العصبية ، وأما الحزبية لحزب دون حزب ، فمعاذ
الله أن يخطر لي شيء من ذلك ببال ، فما أنا في ديني بمقلد ، ولا في
قضايا التاريخ - ولا سيما الإسلامي - بندي عصبية ، ولكنني امرؤ
أستمع القول فأحصه ثم أتبع أحسنه وأحلّه منزلته في القلب ، وأحمد
الله على أن لم يجعلني علوي الهوى أو أموي الرأي ، بل جعل مني
إنساناً لا يعنيه بعد أن يبدو له رأي أفرغ له اجتهاده أو افق أهواء
قوم أم خالف أهواء قوم آخرين . ذلك قول الحق ، أفضي به اليك
لتعلم وليعلم من يعنيه الأمر أني لم أجاذبك بردة المساجلة عصبية لذوي
« عبد شمس » وأرباب التيجان من « بني مروان » ، أو تقديساً مطلقاً
للقوم لأنهم كانوا ملوكاً للعرب والإسلام ، يجلدون عن النقيصة ولا يعلّق
بهم ذام !

أقول هذا وأنا جدد مغتبط بأن أرى قلماً مثل قلمك مطبوعاً على
الجرى في ميسادين الإصلاح يتنزى في مجاله الذي انفرج أمامه ، ثم
لا يخرج عنه فيتخذ من الأخبار الموضوعة قصصاً لا ينتهي بمغزاه إلا إلى
غير ما يهوى منه الإصلاح ، ولئن أعجبتنا الغلائل المصنعة التي خلعتها
على هذه الأحداث ، والألوان التي رسمتها بريشتك التي يجدر بعشاق الإنشاء
الراقي أن يترسموا خطوطها - لم يعجبنا ما تحت ذلك من المعاني
والأخيلة ، فانها معان وأخيلة تؤلم الواقع ، وتخدش ضمير التاريخ الذي
لا يريد من أهل الأدب الانساني أمثالك إلا أن يبُبقُوا عليه ، هذا إذا
لم يروا أن يوسعوه تحيصاً فيحسنوا اليه بنفي الشوائب التي ما زجت
صفو حقائقه حتى أخنت منها على كثير .

وما تحدثت به في قصتك عن أم البنين ووضاح ، قد كنت تستطيع

- وأنت القدير - أن تقص نبأه كما قصه الأخباريون ، وتعلق عليه كما علقوا . هذا إن لم نطالبك بأن تبالغ أنت في نفيه أكثر منهم لما جدد في هذا العصر من أصول وطرائق في النقد والتحليل وتتقنها أنت وما كانت منهم على بال ، وكنت تستطيع أيضاً - إن لم تر بُدأ من كتابة هذه القصة - أن تقصها كما تريد مستبدلاً بأسماء أبطالها وأماكنها غيرها مما تختاره ، فتكون في منجاة مما صرت إليه . ما وجدنا هذه القصة أهما الفاضل ، تدخل في حساب الصدق والواقع ، لا من ناحية العقل ، ولا من ناحية النقل . فكيف يسوغ لنا أن نقبلها ؟ أم كيف يسوغ لنا أن نرويها واثقين مطمئنين ، فندنس بالتهمة شرفاً طاهراً ، ونلوّث بالوقية عرضاً نقياً ؟

أم البنين تعشق وضاحاً ، وتجمعه بها على غرّة من زوجها الخليفة ، تطارحه الغزل . ثم يطرّفها الخليفة بجوهر نفيس يحمله اليها خادم له ومعه كلمة رقيقة ، فيمضي الخادم اليها فلم يجدها ، ثم يعلم أنها في بعض الغرف ، فيدخل عليها مفاجأة ، فتجسّ بغطاءه دون الباب ، فتبادر إلى إخفاء وضاح فتدخله في صندوق وتغلقه - . وحينئذ يدخل الخادم فيرى أواخر جسم وضاح تغيب تحت الغطاء ، فيؤدي إلى الملكة الرسالة ، ويدفع اليها الجواهر ، ثم يستوهبها بلهجة الخبيث الماكر حجراً من هذا الجواهر ، فتمتعض منه ، فيتوارى ، فيرتد إلى سيده الخليفة يجليسة الأمر ، فتوجأ عنقه . ثم يلبس نعليه ويدخل على أم المؤمنين فيجدها جالسة تمتشط في تلك الغرفة ، فيجلس على ذلك الصندوق ، وما يزال بها حتى يأخذه منها ، ثم يأمر أن تحفر بئر فيقذف الصندوق فيها ، وهو يقول : « إنه بلغنا شيء ، إن كان حقاً فقد كفناك ودفنا ذكرك وقطعنا أثرك إلى آخر الدهر ، وإن كان باطلاً فقد دفننا الخشب ، وما أهون ذلك ! » .

فأنت ترى أن الأمر محصور بين أربعة : أم البنين ، ووضاح اليمن ،
والخليفة ، والخادم . فأما الخادم الذي نقل السر الى الخليفة فقد أمر
الخليفة به فوجئت عنقه فمات قبل أن ينث الحديث . وأما وضاح فقد
رمي في البئر وهيل عليه التراب ثم سويت الأرض ورد البساط إلى
مكانه . بقي الخليفة وأم البنين ، فهل يعقل أن واحداً منها حدث
بالخير حتى شاع وملاً الاسماع ؟

اللهم ، لا !

فان قلت : إن الخدم الذين حملوا الصندوق ورموه في البئر ، قد
حدثوا به .

قلنا لك : ومن أين لهم أن وضاحاً كان في الصندوق والخليفة نفسه
لم يفتحه ، ولم يدر أكان فيه شيء حقاً أم لا ، حتى قال فيما يزعم
الواضع : « إنه بلغنا شيء ... ان كان حقاً فقد كفناك ودفناك الخ ... » ؟

ثم هل يعقل أن الخليفة اليقظ الذي بادر إلى الخادم فقتله - على
افتراض صحة ذلك - يغفل عن هؤلاء ، ويدعهم أحياء يتمتعون
بخيراتهم ، ويتحدثون بما يجزع منه حتى لم يبق سمع لم يطره هذا النبأ ؟

حديث خرافة ، يا زميلي الأستاذ ، من أبين الأحاديث الخرافية
وضحاً ، وواضعه كذاب ضعيف الحيلة ، لا يحسن الوضع ، يخذل أول كلامه
آخره وآخره أوله .

فهل يليق في مذهب القصاص أن يتخذ هذا الكذب المتخاذل أساساً
لقصة ؟ وفي أساسها يرمي بخليفة عربي شريف 'مهام' ، وزوج خليفة هي
من أرومة قومها الغرّ في الذؤابة والسنام ؟

هذا بجمل من النقد والتحليل عرضنا له من ناحية العقل والمنطق .

ونحب أن نعرض الآن لتزييفه من ناحية النقل ، ولا أحسب أن هذا لا يدخل في محيط اطلاعك الواسع ، فلعلك قد حرثت « كتاب الأغاني » حرثاً وقتلته بحثاً ، حتى وفقت لاستخراج مثل هذه « الأقصوصة » منه ، ولعلك - لو أعدت النظر فيه - تجد أبا الفرج الإصفيهاني ، وهو من تعرف مذهبه ونحلته ، قد أفضى إلينا في كتابه هذا (١) بأن هذا الحديث من وضع شعوبي زنديق في عهد بني العباس ، وقع بينه وبين رجل من ولد (الوليد) فخار ، خرجا فيه إلى أن أغلظا المسابرة ، فوضع الشعوبي كتاباً زعم هذا الزعم .

ووضاح ، بعد ذلك رجل نكرة أشبه أن يكون خيالياً ، وضعه القصاص وضعاً متكلفاً ، فهم مختلفون في كل أمر من أموره : مختلفون في نسبه ، مختلفون في نشأته ، مختلفون في عشقه وأخبار من يعشق .

وقصته - كما يقول صاحب حديث الأربعماء فيما أتذكر الآن - مكوّنة من عناصر مختلفة منها السياسي ، ومنها العصبي ، ومنها المبالغات العامية . وهذا الرأي نوع من التحليل لقول صاحب الأغاني في تحدّثه عنه وعن عشيقته المزعومة روضة : « ... ولم نجد لها خيراً يرويه أهل العلم إلا لمعاً يسيرة وأشياء تدل على ذلك من شعره ، فأما خبر متصل فلم أجده إلا في كتاب مصنوع غثّ الحديث والشعر لا يذكر مثله » .

وبعد ، فهذا يجمل ثانٍ من القول في هذا الخبر المصنوع ، وإننا لنتقاضى قلم الأستاذ أن يصوغ لنا من عقود الأفاصيص كل ما يثير الإعجاب ويهز النفوس ويربي الفضيلة ويحيي القومية من معاني الشجاعة والفروسية والمجد والإرادة والهمة والمضاء وما إلى ذلك مما كانت تفيض به الأخلاق

(١) الأغاني ج ٦ ص ٣٢ ، ط. الساسي .

العربية ، وتفويض به عنهم الكتب والأنباء ، فما أشد حاجتنا اليوم الى مثل هذا النوع الذي أذكره ، وما أشد هذا النوع من المعاني العالية إلى قلم صَنَاع كقلم الأستاذ يجيد الصياغة ، ويبدع في تنويع الصور البيانية !

نص جواب الزيات :

الى الأستاذ الأثري^(١)

أدت اليّ « البلاد » كتابك الرقيق القيم ، فhez عطفي ما وجدت من سمو أدبه ، وُنبَل غضبه ، وجميل من رجال الأدب أن يصطنعوا الأدب ، ومن حماة الحق أن يتبعوا الحق ، وجدير بمن اصطفاه الله للحمل هذه البراعة القدسية أن يصل ضميره بربه ، ويقطع أسباب الهوى من قلبه ، فيبحث للعلم ، ويكتب للإفادة وينقد للحقيقة . إن فقه لسان العرب أيسر من فقه لسان الأدب ، لأن اللغة من الناس ، والأدب من الله ، والمرء حيلة فيما يكسبه ، ولكن لا حيلة فيما يوهبه .

أما بعد ، فتعمال يا زميلي نخض فيما بدأت من حديث وضاح ، لملك أخذت عليّ ما أخذت لأنك حسبتني كتبت ترجمة تاريخية أو حررت حادثة واقعية ، ولم يسدر في خَلْسدي حين قصصت نبأ هذا الشاعر البائس الا أن أصور الحياة البدوية ، والبيئة العربية في أفاصيص أنتزعها من الأساطير أو ما يشبه الأساطير ، فأنا في هذه القصة وفيما نشرت من أمثالها قصصي لا مؤرخ ، وبين القصص والتاريخ رحم جدًا وعداوة مستحكمة ، لأن التاريخ يروي ولا يبتدع ويحقق ولا ينمق ويصدق ولا يمين . أما القصة فانها تحتلق وتبالغ وتؤثر بالصور الكلامية

(١) نشر في جريدة البلاد في ٨ رمضان ١٣٤٨ هـ - ٧ شباط ١٩٣٠ م

الخلافة ، ثم ترتب الأحوال وتسوق الحوادث على حسب الخيال الممكن لا على حسب الأمر الواقع . وفي اعتقادي أن « ولترسكوت » ومن نهج نهجه من القصصيين قد أساءوا الى التاريخ والقصة جميعاً حينما أرادوا أن يصلوا رحمها ويوفقوا بينها بابتداع القصة التاريخية ، فإن القصة بطبيعتها تفسد التاريخ وتشوهه بقبولها الاغراق والاختلاف والرواية المتهمه ، والتاريخ بتوحيه الحقيقة وتمحيصه النقل بضيق مجال الخيالة ويحصر حدود القرينة .

فاذا اتفقنا ، يا سيدي الأستاذ ، على ما اتفق عليه علماء البلاغة الحديثة من أن للقصصي أن ينسج الأخبار ويسرج الاحاديث في حدود الإمكان ابتغاء التأثير والامتع ، لا ابتغاء التقرير والاقناع ، خرجت من عهد ما أخذت علي ، وأدخلنا مأساة وضاح في باب القصص الشعري ، ثم خرجنا معاً نضحك بمن يترك أسفار التاريخ المحررة ، ليدرس العصر الجاهلي في قصة عنتره^(١) .

ولكنك تقول لي : إن الاعتماد على فن القصص لا يكفي مساعياً للنسبة حادث متخيل الى انسان متحقق ، وأنا أقول لك : إن حادث وضاح لم يكن متخيلاً كله ، فان حبه لروضة واتصاله بأم البنين وقتله في دار الوليد أمور تواترت بها الرواة ، وتوافرت على حدوثها الشواهد ، وما كان عملي إلا خلق الظروف ووضع الالوان وربط السياق وجلاء الصورة .
هلم نعد النظر في (الأغاني) ، وهو أوفى وأوثق كتاب ترجم بوضاح ، فماذا نجد ؟ نجد أن أبا الفرج قد روى في أمر وضاح وأم البنين عشر

(١) حينذا لو أن الاستاذ الزيات وقف بالرد عند هذا الحد ، اذن لخرج من بعض ما اعترف ، ولكنه ماحك وجادل ، واراد إثبات باطل الرواية بباطل رواية ثانية ، فأخفق .
(المؤلف)

روايات في أسانيدھا الاصمعي والخليل بن أحمد والحرمي بن أبي العلاء وابن الكلي من أثبات الرواة ، وبديح وكثير من عاينوا الحادث ولا بسوا أهله . تتناصر هذه الروايات جمعاء على أن وضاحاً شيب بأم البنين ، وأن أم البنين هويته واستقدمته ، وأن الوليد قتله ودفنه في داره ، وإنما الخلاف في مسألة الصندوق ، فعلي بن سليمان الاخفش يروي في كتاب المغتالين عن ابن الكلي ان أم البنين هي التي وضعتہ في الصندوق على النحو الذي قصصناه ، وخالد بن كلثوم يقول إن الوليد لما همّ بقتل وضاح راجعه ابنه عبد العزيز ونصح له ألا يفعل حتى لا يكون في قتله تحقيق فعله ، فلم يقبل منه ، وجعله في صندوق ودفنه حياً .

أما وضع أم البنين اياه في صندوق اخفاءً لأمره عن الخادم المفاجيء ، فيقول خالد : إن رجلاً شعوبياً افتراه ، ليغيظ به رجلاً من أعقاب الوليد .

فالحادثة إذن قائمة الاساس باجماع الرواة ، وما كان الخلاف الا في مسألة تفصيلية مهما تعددت وجوهها فلن ترى فيها وجهاً أجمل من وجهه ! والذي حملني على الاخذ برواية ابن الكلي اتفاقها مع المنطق ، فان دفن وضاح في قصر الخليفة دليل ناهض على اقامته في مجلسه ، فان وضاحاً أهون على الخليفة من ذلك ، والوليد أقدر على أن يوعز بقتله بين أهله ، فيسلم لسانه من الختل ، ويده من القتل ، وعرضه من القالة .

على أن العقل يظاهر النقل في إمكان وقوع هذه الحادثة ، فان عصر الأمويين كان عصر انتقال من خلافة الى ملك ، ومن بداوة الى تحضر ، ومن بؤس الى نعيم ، وفي عصور الانتقال تتحلل القيود ، وتتعطل الحدود ، وتفسد الأخلاق ، وتطفئ الشهوات ، وتكثر هذه المخاطر الغزلية . ولا أريد أن أثقل على طبع الأستاذ بسرد ما يعلم من أخبار الشعراء مع النساء في موسم الحج في شباب هذه الدولة ، وحسي أن أذكره بجاذبة

من هذا النوع لا يتارى في وقوعها أحد ، وهي أشبه في طبيعتها بحادثة
وضاح من الليلة بالليله ، ووقوعها قرينة قوية على وقوع تلك ، أريد حادثة
أبي دهب الجمحي مع عاتكة بنت معاوية بن أبي سفيان ، فقد يعلم أن
أبا دهب الشاعر الجميل رآها في سرادقها بالحج ، فلأ عينيه من جمالها على
غرة منها ، فلما فطنت له سترت وجهها وشمته ، فقال فيها :

إني دعاني الحين فاقتادني	حتى رأيت الظبي بالباب
يا حسنَه اذ سبني مدبراً	مستتراً عني يجلباب
سبحان من وقفها حسرة	صبت على القلب بأوصاب
يذوب عنها ان تطلبتها	أب لها ليس بوهاب
أحلها قصراً منيع الذرا	يحمى بأبواب وحجاب

فلما اضطربت الألسن بهذا الشعر ، وسمته عاتكة إنشاداً وغناء
أعجبت به ، ووصلت الشاعر بالهدايا ، وجرت الرسل بينها وبينه ، وصدرت
عن مكة فتبعها ، ووردت دمشق فوردها معها ، وهي تتعمده بالبر والعطف ،
وانتشر الصوت بهذا الأمر انتشار الصبح حتى بلغ سمع معاوية ، فخللا
بالشاعر خلوة حذره فيها جوار يزيد ابنه (فان له سورة الشباب وأنفة
الملوك) ، وإنما أراد معاوية أن يهرب أبو دهب ، فتنقضي القالة عن ابنته ،
فخرج الى (مكة) هارباً على وجهه ، فكان يكاتب عاتكة ، وكان
لمعاوية من الخصيان رقباء على ابنته ، فجاءه أحدهم ذات يوم يقول : « إن
كتاباً سقط الى عاتكة ، فلما قرأته بكيت ، ثم أخذته فوضعتة تحت
مصلاها » ، فأمر الخصي أن يلطف لهذا الكتاب حتى يأتيه به ، فلما قرأه
الخليفة اعتلج في صدره الغم ، وبعث الى يزيد ، فلما جاء قال له : « إن
هذا الفاسق أبا دهب قد كتب هذا إلى أختك عاتكة ، فلم تزل باكية
منذ اليوم ، وقد أفسدها فما ترى فيه ؟ » فكان من رأي يزيد أن يكن
له عبد من العبيد في أزقة مكة فيريحهم منه . ورأى داهية العرب أن

رأي ابنه فائل ، فصرفه ، وحج في تلك السنة . فلما انقضى موسم الحج ، دعا اليه وجوه قريش وشعراءهم ، وكتب فيهم اسم أبي دهب ، ففرق فيهم صلات كثيرة ، ثم صرفهم واستبقى أبا دهب ، وأقبل يعاتبه على ما صنع في رفق ولين ، ثم سأله في آخر الحديث : هل تزوجت ؟

فقال : لا ..

فقال : أي بنات عمك أحب اليك ؟

قال : فلانة .

قال : قد زوجتكما ، وأصدقتهما ألفي دينار ، وأمرت لك بألف أخرى يجري عليك مثلها في كل سنة .

فعل الشاعر لسانه في فمه ، وكفن حبه المقتول في دمه ، وانصرف معاوية مسروراً الى دمشق ، ولم يحج في تلك السنة إلا من أجل أبي دهب .

أظني يا سيدي الاستاذ قد أدليت اليك في شي من الاجمال بحجج من الفن وبينات من التاريخ ، وشواهد من القرائن تتساعد كلها على تأييد مذهبي في هذه القصة . فاذا نعت نفسك ، وأراحت ضميرك ، حمدت الله على السلامة من الملامة ، وان وجدت مع كل ذلك ان الشبهة قائمة ، وجوه الخلاف لا تزال قائمة ، فأني أعدك ان اطوي هذه الأسماء متى عزمت على نشرها مع غيرها! للقراء (١) .

(١) تاريخ بني امية وضع بيد اعدائهم ، إما عداوة نحلة ، او عداوة سياحة ، او عداوة جنس ، وهذه الاخبار والمآل التي يتناقلها رواة اكثرهم عرفوا بالوضع وخلق المثالب تقرباً من هوى الخلفاء العباسيين ، او بدافع الخط من الاسرة العربية التي اعلت راية الاسلام خفاقة على سفوح الأنضول وسهوب التركستان وسهول البنجاب وعلى شرائع الوار ونجد البرنس ، وابن الكلبي رجل وضع مثالب العرب ، وهو كذاب مجاهر بالشعبوية يناصرها على العرب ، ومثله الهيثم بن عدي وهو شر من صاحبه ، ومثله بديع مولى عبدالله ، وكثير عزة هل ادل على غفلته وضعف عقله من ايمانه بركة محمد ابن الحنفية ، وانه في غاره حي بغنى المبن والعمل ؟ (المؤلف)

عود على بدء

الى الاستاذ الزيات (١) :

هبطت عليّ من محلك الارتفاع رسالتك بل طرفتك هبوط نثير الطل
على نظم زهر الروض في السحر ، فنقعت فؤاداً بات ظمناً الى نداها ،
وانعشت روحاً كان شيقاً إلى شميم شذاها ، وعكفت عليها امتع النفس
باستجلاء ما ضمنها من اغراض ومقاصد وإشارات ، واشوف وذيلة
الروح بما خلعت ريشتك الجميلة عليها من الوان ودهان ، واللسان يتحرك
رطباً بقول الشاعر :

ظفر الطالبون واتصل الوصل - وفاز الأحباب بالاحباب

أجل ، إن ظفري برسالتك ظفر باخائك ورضاك . ومن الحق على من
يصطنع هذا الأدب العلوي الطاهر أن يرضي بأفواله وافعاله « الأدب » ،
وكل من يتصل اليه بسبب ، ويمت اليه بنسب ، لأن الأدب في الحقيقة
ليس هو صنعة اللسان يحذقها الإنسان ثم يبرزها قوالب لا تجد تحتها إلا
الحسيس من معاني الروح الكرز الجاف ، وإنما هو أدب النفس : يصل المرء
بربه ويعلوه به عن مراتب الضعة والهوى ، ويقطعه عن جاذبات الارحام
وقاطعات حبال الإخاء ، وذلك مُصَاص هذا الفن الذي نمت اليه ، ونقيمه
فيا بيننا مقام الوالد ، ونعمل على رفع شرفه حين نتداول فنونه ونتجادب
أبحاثه حتى ننتهي بذلك الى مداولة التعارف فمجادبة حبال الإخاء
فأخذ بضبع الانسانية .. لذلك لا أراني في عودتي اليك أذاكرارك فيما
تضمنته رسالتك من فنون القول الا عائداً على التعارف أحكم وشائجه ،
وعلى الإخاء أوثق أواصره ، وأعوذ بالله أن أكون من ذوي اللجاج بالباطل ،

(١) نشرت في جريدة البلاد في ١٥ و ١٧ شهر رمضان ١٣٤٨ هـ - ١٤ و ١٦ شباط ١٩٣٠ م.

أو المساجلة على غير طائل .

لقد كان الخلاف بيني وبينك ، أيها الزميل النبيل ، يتناول حادثاً واحداً هو حادث وضاح مع أم البنين : هل يصححه العقل ويؤيده النقل ، أو يبطلانه ؟ وإذا به يصبح - ليها أوردت - في فنون مشتبكة من القصص والتاريخ والجرح والتعديل والمعقول والمنقول ، كلها يسترعي النظر ويستثير الانتباه ويستدعي التمهيص ، وأحسب أن في تناولها بالتحليل البريء ، خدمة للأدب والتاريخ والحقيقة أراك جد حريص عليها .

تقول أيها الفاضل في شرح مذهبك : « إنك حين قصصت نبأ هذا الشاعر الباتس لم يدر بخلدك إلا أن تصور الحياة البدوية والبيئة العربية من أقاصيص تنتزعها من الأساطير أو ما يشبه الأساطير ، فأنت في هذه القصة وفيما نشرت من أمثالها قصصي لا مؤرخ » .

حسن جداً ، وأحسب أنك لو وقفت عند هذا المعنى من تنصلك إذن لخرجنا من البحث ونحن ظافرون بالذي قصدنا اليه من القول بأن مأساة وضاح أسطورة من الأساطير ، وإذن لانقطع الخلاف بيني وبينك إلا في أمر الغاية التي ترمي اليها القصة الغرامية المنتهية بنتيجة يندى لها الجبين ، وفي أمر آخر هو أن القصة التي تختلق وتسرج الاحاديث وتمين لا يمكن أن تصور ألوان الحياة ما لم تجد من الواقع مستنداً وظهيراً . نعم ، لو أنك وقفت عند ذلك المعنى من القول لانقطع سبب الخلاف بيني وبينك في الجوهر ، وسهل الخطب فيما يستتبع ذلك من الرأي في القصص ومراميه . ولكنك عدت بعد هذا التقرير فوقفت من الأمر موقف المؤرخ ، لتدفع اعتراضي : (بأن الاعتماد على فن القصص لا يكفي مساعاً لنسبة حادث متخيل الى إنسان محقق) ، فقلت : (إن حادث وضاح لم يكن متخيلاً كله ، وان حبه لروضة واتصاله بأم البنين وقتله في دار الوليد أمور (تواترت) بها الرواة وتوافرات على حدوثها (الشواهد)

ثم سلكت لتأييد ذلك طريقة البحث في الأسانيد ، فسميت مَنْ سميت
من الرواة الذين سنعرض لهم ، ثم ظهرت ذلك بقصة لعلمها أو هي من
قصة وضاح في نظر النقد والتحليل ، وأكذب منها في مذهب الجرح
والتعديل كما سأريك .

وأنا أقول لك : إن وضاحاً رجل زكوة اخترعه الرواة ، وهم يروون
عنه الشيء ونقيضه ، ويختلفون في كل حال من أحواله ، فهو عربي حميري
تارة ، ومن سلالة الفرس تارة أخرى ، أو هو في مذهب الموفقين عربي
ولكن أباه مات عنه طفلاً فتزوجت أمه رجلاً من سلالة الفرس الذين
يسمون الأبناء ، ورواية رابعة تشعر أن أباه مات عنه وهو رجل متصل
بالخلفاء في دمشق وأنه رثاه بشعر .. فبأي ذلك نأخذ ، يا سيدي
الاستاذ؟ إن ما رأيت من الخلط والخبط في نسبه ونجاره ، تراه بعينه
فيما يتحدثون به عن أحواله وحبه ، وعن حبيته روضة ، أهي فارسية
أم عربية - ؟ وعن موته كيف كان أدفناً في البئر وهو في الصندوق ،
أم اغتيل اغتيالاً؟ إذ شبب بأب البنين في شعره ، فمني ذلك الشعر الى
الوليد فأوعز باغتياله؟ كل ذلك تضارب وتناقض يدل دلالة بينة لا
يدخلها الريب ، على ما أرى في أمر هذا الرجل المخترع . ورواة يختلفون
كل هذا الاختلاف ، ويسرجون كل هذا السرج الفاحش ، لا أستطيع ان
اجرؤ في مذهب العلم فاعتدّ معك اختلافهم وكذبهم (تواتراً) أصدق
به مثل خبر الصندوق الموضوع ، فأنت تعلم من غير شك أن
(المتواتر) هو ما يرويه جماعة لا يمكن تواطؤهم على الكذب لكثرتهم
وعدالتهم وتباين أماكنهم ، وأين توافر الشروط كلها أو بعضها فيما يروون
من أخبار وضاح فتؤمن بها؟

والله ، لو أني وجدت فيها خبراً واحداً سالماً من التناقض والاعتلال

لنزلت على حكيمك ، وسميت (متواتراً) كما تسمى ما لم يعد حتى من (الأحاد) ، وان كنت أخرج على مواضع العلم ومصطلحاته ، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن قط ، ومن اعتددهم أثباتاً من رووا أحاديث وضاح أو لابسوها كلهم متهم بجروح ، وأبو الفرج حين ينقل عنهم لا ينقل عنهم لكونهم ثقات ، وإنما هو يريد أن يكون أغانيه جامعاً لما تضرّب به اللسان إن حقاً وان باطلاً^(١) . فما على الناظر في كتابه الا ان يعرف ذلك ، ليمحص الحق من الباطل .

فمن أولئك الرواية هشام بن محمد بن السائب السكلي راوي خبر الصندوق ، وهو رجل كذاب أشير ، أجمع المحققون على اطراحه واطراح ابيه أيضاً لاشتهارهما بالكذب والوضع . وكان هشام شعبياً يتعصب على العرب ، وضع في مثالهم كتاباً نقضناه بكتاب سنخرجه للناس . وهذا صاحب الاغاني نفسه حين ينقل عنه يقفسي على ذلك بمثل قوله : « هذا من أكاذيب ابن السكلي » ، وقوله : « لعل هذا من أكاذيب ابن السكلي »^(٢) .

ومنهم الهيثم بن عدي ، وهو شر من هشام وابيه ، فقد ذكر الجاحظ في (البيان والتبيين^(٣)) : ان ابن السكلي كان يأكل الناس الاكلا ، حتى إذا رأى الهيثم بن عدي ذاب كما يذوب الرصاص ! وقد اجمع العلماء على جرحه وترك حديثه ، لكذبه وسقوطه وانكشاف قناعه^(٤) . وللحسن ابن هانيء ودعبل الخزاعي هجاء مرّ فيه لا نحب روايته .

ومنهم بديح مولى عبدالله بن جعفر ، يقال له بديح المليح ، كان مغنياً

(١) الأغاني ج ٩ ص ١٩ و ٢٠ .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، وميزان الجرح والتعديل للذهبي .

(٣) ح ٣ ص ٧٣ ط . السلفية .

(٤) راجع الخطيب البغدادي والذهبي .

يغني اغاني غيره ، وكانت امه بربرية . وكانت ترقى من عرق النساء ، فأخذ ذلك عنها ، وكان هو صاحب سَمَر ، ومثل هذا الرجل لا يعتد علماء الجرح والتعديل بمرويه .

ومنهم كُشَيْبَر عَزَّة ، وكان احق مسرفاً في الحق ، ضعيف العقل الى حد غريب ، كان الناس يتخذونه هزواً وسخرية ، فيصدق كل ما يلقي اليه ، ويسمع المزاح فيجيب جاداً مقتنعاً . مرض ذات يوم فدخل عليه نفر يعودونه ، فسألهم : هم يتحدث الناس ؟ قالوا : يتحدثون بأنك الدجال ، فأجاب : أما اذ قلم هذا فاني لاجد في عيني هذه ألماً منذ أيام ! وكان مذبذباً منافقاً ، يقدم محمد ابن الحنفية ويؤمن بالرجعة ، ثم يمدح بني أمية ويغلو في مدحهم ويفاخر بعشيرتهم زفاقاً ، بل كان يستبيح الكذب والنفاق في كل شيء (١) .

لا أريد ان أولف معجماً في رجال أسانيد الاغاني فاستوعب احوالهم ، وانما قصدت ان اضرب لك الأمثال ، لاثبت لك ما تسميه (تواتراً) وتأخذ به على انه ثابت صحيح استناداً الى روايات هؤلاء الكذبة من الشعوبيين والخباريين - لم يتوافر فيه شرط من شروط التواتر ، بل ولا الآحاد ، بل الادلة قائمة على تسميته كذباً واختلاقاً .

اما ورود اسم الاصمعي والخليل بن أحمد في بعض الاسانيد ، فلا ينهض دليلاً على صحة هذا الخبر . ذلك لان الراوي عنها ، وهو محمد بن المرزبان ، يروي عن الوضعيين والكذبة أمثال ابن الهيثم وابن السكيت وابيه ، فلا حجة فيه ، ولا خير بما يرويه .

ومن الغريب أن تقول ، يا سيدي الاستاذ ، باتفاق خبير الصندوق

(١) راجع اخباره في الأغاني ، ووفيات الاعيان ، وحديث الاربعاء .

الذي رواه ابن الكلبي مع المنطق ، بعد أن أتمت لك في رسالتي السابقة
الدليل النقلي والدليل العقلي على استحالاته . وليتك إذ قلت باتفاقه مع
المنطق كررت على دليلنا المنطقي فنقضته وأبطلته ، ليعلم أي الادعاءين
ألصق بالصواب ، ولكنك لم تفعل ، بل طويت الأمر على غيرهِ ، وتعرضت
لغيره ، فيكان كما عرضت عليك .

وذكرت (معقولا) آخر يظاهر (منقولك) في إمكان وقوع هذه
الحادثة ، فذهبت الى أن العصر الاموي عصر انتقال من الخلافة الى
الملك ومن البداوة الى التحضر ومن البؤس الى النعيم ، وذلك يقتضي أن
تتحلل القيود ، وتعطل الحدود ، وتفسد الاخلاق ، وتطغى الشهوات ..
واذن فالعصر الاموي في رأيك عصر فساد ولهو وعيث ومجون ، استحلال
به ظاهر الاخلاق الى رجس وفساد ، وغمر العهر الناس ملوكهم وصعاليكهم
وساغ فيه الجهر بالفحشاء فلا قيود ولا حدود : كل ذلك لأن الخلافة
استحالت الى ملك ، والبداوة الى تحضر ، والبؤس الى نعيم ، ونحن نعلم
من أمر الخلافة والملك أن الخلافة قائمة على الشورى في انتخاب الافضل
كأننا من كان لا تنتقل الى الأبناء والحفدة ، والملك قائم على القهر والقوة
وحصره في الأعقاب . وتغير صورة الحكم وتطورها على هذا النحو ليس
فيه شيء من دواعي تعطيل الحدود وانتشار موبقات الاخلاق ، والا
كان الملك في طبيعته سبباً في فناء الامم وتدمير الشعوب ، ولا قائل
بذلك ، بل الواقع المشهود قائم على خلافه ، كما أن انتقال كل أمة من
البداوة الى التحضر ، ومن البؤس الى النعيم ، لا يقضي بتفسيح الاخلاق
وتغلب الرذائل وان صح في بعض الامم لم يصح قط في العرب فجز

«الاسلام»^(١) اذ كان الدين في عنفوان شبابه ، والناس على نصره حراس ،
وشرائع الآداب مرعية الجانب ، وأولو الامر عليهما ساهرون من ايام
«الخلفاء الى عهد معاوية الى الوليد بن عبد الملك الى عمر بن عبد العزيز .

وحسبك أن تعلم ان الخمر التي هي الاولى في مرافق الامم المتحضرة
لم يستطع أحد من الشعراء المسلمين في عصرهم أن يجرؤ على ذكرها
ووصفها (هذا اذا استثنينا الوليد بن يزيد ، وفي أخباره مجال كبير
لشكوك الناقدين . ثم أبا الهندي أيام افول الدولة وانشغال الحاكم بتهدئة
الفتن وتسكين الاضطرابات) اذن فانتقال العصر الاموي من البسداوة
الى التحضر ، لم يكن من طبيعته - والدين الاثر العميق في النفوس -
فساد الاخلاق وطغيان الشهوات ، وانما كانت طبيعته التوسع في الفتوح ،
والاستبحار في العمران ، والتشييد لدعائم الملك ، والحرص على ضبطه
والاحتفاظ به ، واذا كانت مشاهد الحضارة المادية تدفع العرب بطبيعتها
الى الانغماس في « بحاج اللذات » ، فقد كانت طبيعة الدين المتمكنة
منهم تمنعهم أن يأخذوا منها الا ما لا يفسد مروءة ولا يدنس طهراً
ولا يمس عفافاً ، فكان القوم مع أخذهم بحظهم من متاع الحياة يحتفظون
بآداب الدين ، ويحرصون على شرائع الاسلام ، ولا يفرطون فيها ولا يفرطون .

وحسبك أن تعلم أن شعراء الغزل الذين نشؤوا في الحجاز وفي أكناف

(١) اني اتفق مع الاستاذ الجليل بفرية قصة وضاح وانها مزدس الوضعين الحاقدين على البيت
الأموي ولكني اختلف واياه باستحالة وقوع مثلها بل وافطع منها من العرب فجر الاسلام . ألم
يضرب الجيش الاموي الكعبة صدر الاسلام ألم يسبوا المدينة ويستبيحوها ثلاثة ايام ؟ ألم يسبوا
نساء آل محمد ويقتلوا حتى الاطفال ؟ فأين هذا من اقامة الحدود ؟؟ اكانوا على نصره حراساً
يوم قتلوا عثمان ؟

هذه شؤون سياسية وحربية ، وكلا الجانبين المتخاصمين شريك في تبعاتها . والكلام في قضايا
الاخلاق والآداب العام كما يرى من استمراره على هذا النحو في الصفحات الآتية .

البدواة كانوا الى العفاف أقرب منهم الى ما يُشَمَّ منه فجور ، حتى إذا استعرضت في (الأغاني) حديث زعيمهم عمر بن أبي ربيعة ساعة حضرته الوفاة مع أخيه ، علمت أنه كان امرءاً ماجناً في أقواله ، عفيفاً في أفعاله ، ومع ذلك ضج الناس من هؤلاء الأفراد الغزلين الذين كانوا يشببون بكل شريفة هاشمية أو أموية ، أو من سائر قبائل العرب ، حتى منعوا النساء من الحج . ومضوا يرفعون عقائرهم بالشكوى إلى الحكام ، وترصدوهم للاغتتيال ، على علمهم بأنهم لا يريدون بذلك إثماً ولا نكراً ، وإنما يذهبون في تشبيهم مذهب المديح والدعابة ، « والشعراء يتبعهم الغاؤون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون ... » . ولقد حدثنا الاخباريون أو قل حدثنا التاريخ بتواعد الوليد والحجاج والشعراء الغزلين إن ذكروا في غزلهم احدى نسائهم أو احدى وصانفهم ، وطارد عمر بن عبد العزيز الشاعرين الاحوص وابن أبي ربيعة ، وكذلك طارد هذا الثاني كل من عبد الملك بن مروان وسليمان بن عبد الملك ، ونذر مروان بن الحكم وهو على المدينة من قبل معاوية ليقطعن لسان جميل بن معمر لتغزله ببشينة ، إذ شكاه اليه أهلها بذلك مع مراقبتهم ووثوقهم بعفته ، ويحسن أن نعلم أن من هؤلاء الغزلين من كان يدفعه الكيد السياسي - ليس غير - إلى الغزل بنساء الولاة والحكام ، كما فعل العرجي حين تغزل بأب محمد بن هشام والي مكة زوجه حتى أدى ذلك الى الإيقاع به .. وغيره يومئذ كثير .

ومهما يكن من شيء فإن الروايات في هذا الباب وذاك كلها متضاربة على أن القوم كانوا أعفاء حراساً على الشرف والمجد ، والحكام ذوي حزم وغيره على الحرمات . ولو لم أجد من بينات التاريخ وقرائن الاحوال دلائل على أنهم كانوا بالمنزلة التي أصف لك ، لأمنت معك بأن عصر بني أمية عصر تحللت فيه القيود ، وتعطلت الحدود ، ففسدت الاخلاق

حتى لم يبال الناس ديناً ولا شرفاً ، ولكنني - والحال ما أرى - لا أستطيع ، في مذهب العلم ، أن آخذ بظاهر طرف من أقوال أفراد الشعراء ، وأغض عن « ماجرياتهم » مع الناس وأولي الامر ، وأتناسى الرجوع الى طبائع العرب ، فأؤمن بأن العصر الاموي هو كما أقرأ في أخبار هؤلاء الافراد الغزليين ، وأن هؤلاء الافراد الغزليين يمثلونه اصدق تمثيل ... هذا إذا اكتفيت بما تقدم ، ولم أنظر النظرة الدقيقة فيما يكتنف هذا العصر من عصبية الاحزاب السياسية ونكايه بعضها في بعض ، ثم استقلال الشعوبيين لخصومات هذه الاحزاب ونشاطهم لوضع كل ما يوافق مذاهبهم السياسية الباطنية : من تشويه للدين بوضع الاحاديث على لسان النبي صلى الله عليه وسلم ، وتشويه لتاريخ العرب باختلاق الاكاذيب والخط من ملوك العرب وخلفاء الإسلام وكبار صحابة النبي ، حتى كان من شجار الهاشمين والامويين والخورج ، واستغلال الشعوبية هذا الشجار الذي رسخت جذوره وامتدت عروقها - ما ترى من الانباء السيئة في الكتب تحمل على القوم وهم منها براء ، ومن هنا فان من يقدم على البحث في التاريخ الاسلامي ، وهو غير بعيد النظر في علم طبائع الاجتماع وأخلاق الامم ومنازع الشعوب يأخذ أخبار الحوادث بظواهرها ويلقي الكلام على عواهنه - يقع في خلط غريب ، ثم لا يسيء الا الى نفسه ، كما وقع كثير من المؤرخين والمفسرين وأئمة النقل في مقالات تزيى بحاكيها لاعتمادهم على مجرد النقل غشاً أو سميناً ، كما أفاض في ذلك العلامة ابن خلدون في أوائل المقدمة .

فاذا عرفت ، أيها الاستاذ ، مذهبي في البحث التاريخي ، عرفت مصدر الخلاف بيني وبينك في فهم العصر الاموي . فأنا لذلك لا أستطيع أن أطمئن الى أكثر ما يرويه (الاغاني) من احاديث السيدة سكينه والثريا بنت علي وزينب بنت موسى وأضرابهن مع الشعراء ، ولا الى ما نقلت من حادثة أبي دهب مع عاتكة وما هو منها بسبيل .

ولقد قلبت حادثة أبي دهب التي ترى أنه لا يتجارى فيها أحد على وجوه من النظر ، فما بانت لي إلا واهية سخيفة ، واهية من جانب السند ، سخيفة من جانب المنطق . أما سندها ففيه شيوخ الكذابين والوضاعين وزعماء الشعوبيين هشام بن الكلبي وأبوه والهيثم بن عدي ، ووجود واحد من هؤلاء في سند ما كافٍ مساعداً لاطراح الخبر واسقاطه .

وأما سخفها فلأن فيها استحالة ظاهرة ، وهي القول إن معاوية لما سمع بتشبيب أبي دهب بابنته ومراسلته لها من مكة غادر دمشق الى مكة ليعقل لسانه في فمه ، فدعاه في الشعراء ، ثم صرفهم واستبقاه عليه يعاتبه على ما صنع في رفق ولين ثم زوجه واحدة وأصدق زوجه ألفي دينار - وأمر له بألف أخرى يجري عليه مثلها في كل سنة ، فعقل بذلك لسانه ، وانصرف عنه مسروراً الى دمشق ، ولم يحج في تلك السنة إلا من أجل أبي دهب ! فأى شيء في هذه الاسطورة يتساهل له المنطق فيسف ويسف حتى يصدقه ؟ أينادر معاوية وهو ملك العرب العظيم دمشق الى مكة من أجل أبي دهب ليعاتبه وبزوجه ، ويتوسل اليه بالمال والمقال ألا يرسل ابنته ولا يتغزل بها في شعره ؟ أليس أبو دهب أهون عليه من ذلك ، ومعاوية أقدر على أن يأتي به اليه من مكة الى دمشق ، فيعاتبه أو يؤدبه أو يفعل به ما يشاء كما يوحى اليه دهاؤه ؟ أرايت ، يا سيدي الاستاذ ، أن الحكاية التي كتبتها ابن الكلبي ، فأردتها دليلاً لتأييد الاكذوبة الاولى : أكذوبة الصندوق ، كيف تشف عما تحتها من سخف لا يمكن أن يصدر الا من مثل ابن الكلبي وأبيه والهيثم الشعوبيين ^(١) .

(١) أوجزت القول في إبطال هذه الأكذوبة ، ولعلي أعود اليها والى ما هو منها بسبيل ما ورد في الأغاني وغيره ، في فرصة تسنح ووقت يتسع . (الأثري)

لقد جريت الى هذا المدى في التحليل مسائرة للبحث ، وأريد أن ألفت نظر الأستاذ الى أمر ساق له هذه الحادثة ، وهي تناقضه ولا تأتلف معه ، فذكر في أول رسالته أنه حين قصّ نبأ وضاح لم يدر في خلسه إلا أن يصور « الحياة البدوية » وهذه الحادثة الثانية حادثة أبي دعبل التي ساقها هنا لتأييد تصويره لتلك الحياة البدوية إنما ساقها هنا مثلاً لمؤثرات « الحياة المدنية » ، فكيف يجمع بين الضب والنون ؟ على أنه إذا وقع أمر ما للإنسان ، فهل يقتضي ذلك أن يقع مثله لغيره ؟ فليس من المعقول أن نجزم بوقوع حادثة وضاح لأن شبيهاً بها وقع لغيره ، وكلا الحادتين موضوع باطل في مذهب العلم وحجة المنطق كما رأيت .

وفي الجملة ان الحق الذي لا مرية فيه أن كثيراً مما نجده في (الأغاني) وأشباه الاغاني من كتب الرواية والنقل إنما هو سمر وقصص مكذوب منتحل بعيد عن مذاهب اليقين ، وليس مما يسوغ في دين العلم والنقد أن ينتزع من الاساطير المرقشة أفاصيص يراد منها تمثيل حالة الأمة الروحية والخلقية ، لأن الكذب الذي يوضع للهدم ، لا يمثل الواقع الذي يقرره العلم ، فان نفسية العرب في فجر الإسلام هي غير ما تحكيه عنهم الاساطير الشعبية ، فالقاص الذي ينتزع هذه الروايات ويزوقها بشيء من ألوان الخيال لا يعدو مرتبة القاص إلا إذا انتزع أو زوق ما ما يصدقه الواقع والمعروف من طبائع الاجتماع ، ونفسية الأمة التي يتحدث عنها ابتغاء التأثير والتمثيل ، وإلا فان إثم ما ينشئه أكبر من نفعه ، وأمره أقل من أن يذكر ويؤبه له ، وأجل براعة المنشيء الأديب المفكر أن تصرف في أمثال هذه الميادين .

★ ★

وبعد ، فهذا ما بدا لي تعليقه على رسالة الأستاذ الصديق ، فإن
وقع موقع القبول فذلك هو المأمول ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته (١) .

(١) لم يرد الزيات واغلاق باب الجدل خشية ان يجره الى نوع من المباحكة . كل يريد ان
ينصر حجته ، وقد يؤدي به الى مزالق لا يتقبلها الرأي العام العراقي يومئذ ، وهو اميل الى
اضفاء التصون والعفاف على الاسلاف ، ولا يستسيغ اعلان الفاحشة وهتك الاستار - عملا
بالقول المأثور (اذكروا محاسن موتاكم) . هذا اذا كانت لها حقيقة ، فكيف وهي احاديث
مخترعة لابيائ ماجنة يشك الرواة في قائلها ، وينكر اهل العلم حقيقتها ، ونحن كقراء قد ظفرتنا
بنموذج للمنقد النزيه والأدب العالي يمتدیان ، وكان لهما وقع حسن في نفوس المتأدبين .

مطارحة أدبية

ونشرت جريدة البلاد بعد ذلك في يوم الاثنين ١٠ شباط ١٩٣٠ مقالاً للأستاذ محمد مهدي البصير (الدكتور) يساجل بمقاله أو مطارحته الأدبية الاستاذ الزيات ، وقد وفي الأستاذ الأثري الموضوع كما أسلفنا ، وإني أورد نص المطارحة إتماماً للفائدة ، قال :

للأستاذ الزيات أيادي بيضاء على اللغة العربية وعلى الأدب العربي الناهض تستدعي اكباره وتستثير الاعجاب بمداركه ومواهبه ، ذلك لانه ترجم وألف آثاراً حسنة وأسفاراً جلييلة نافعة ، وما فتىء حضرته جاداً مثابراً بكل ما أوتي من النشاط والذكاء والحدق والمهارة على مزاوله الترجمة والتأليف . وكلنا رجاء أن تتكفل جهوده وأعماله بما تستحقه من النجاح والفوز . وقد قرأنا أخيراً للأستاذ أقصوصة رائعة انتزعها من حياة الشاعر وضاح ، ونفحها من أسلوبه السحري البديع ، فجاءت مثلاً في جزالة التركيب ولطافة الاسلوب وبلاغة التعبير وجودته ، بيد أننا إذا أمعنا النظر في ما وراء ذلك رأينا أنها لم تخل على بداعتها من شطحات غريبة طغى بها القلم السيمال أثناء تدفقه ، وسبحان المبرأ من كل عيب . فمن تلك الشطحات - المأمول أن يسعنا عفو الاستاذ قبل كل شيء - تصوير الشاعر وضاح بطل القصة تصويراً لا ينطبق على حياته ،

فقد وصفه الاستاذ بالميل الى العزلة والانصراف الى التفكير الهاديء
الوديع تحت ظلال الغابات وفي أفياء الحقول والمروج الانيقة الخضراء
شأن الفلاسفة وكبار المفكرين والانبياء ومن جرى هذا المجرى . والحقيقة
أن الشاعر وضاحاً لم تكن هذه الحياة الفلسفية المشبعة هدوءاً والسكينة
في يوم من الايام ، وان حياته لم تكن سوى حياة انسان تكتنفه الضجة
وتحيط به الجلبة . وهو لا يرى في هذا كله بأساً لأنه لم يخلق فيلسوفاً
في روحه أو حكيماً في طبعه ، انما خلق شاعراً بسيطاً يأنس بالضوضاء
ويتصل ما أمكنه الاتصال بالجمهور فيشاطره حياته ويشاركه في آرائه
واخلاقه وعاداته (هذا إن وجد هذا الواضح) . وهناك في مراحل
القصة العديدة شطحات أخرى رأينا أن نضرب عنها صفحاً لصغر قيمتها
وقلة الاعتداد بها إلا أن الذي هممنا كثيراً هو سرد الاكذوبة التي
تكوّن بيت القصيد في القصة واثباتها على أنها حقيقة مقررة لا تقبل
نزاعاً ولا جدالاً . تلك هي الاكذوبة التي وضعها أحد الشعوبيين
المتعصبين وحملها على أم البنين زوج الوليد بن عبد الملك المعروف بنبله
وغيرته وبصلاح سريره وسيرته ، ولم يكن ثمة سبب لوضع هذه الاكذوبة
المرذولة ، وحملها على ملكة جليلة القدر عظيمة المنزلة سوى أن خصاماً
عنيفاً حصل بين أحد أحفاد هذه الملكة وبين رجل من الشعوبية في
صدر دولة بني العباس ، فكانت نتيجة ما أشرنا اليه من اختلاق تلك
الاكذوبة وحملها على الملكة البريئة وتسييرها في الآفاق خسة ودناءة .

وأنت تستطيع أن ترجع الى الجزء السادس من الاغاني لترى مؤلف
هذا الكتاب يتحدث اليك بما أسلفنا ذكره من الاختلاق والافتعال
مؤيداً ذلك بعنناته وأسانيده على جاري عاداته ، على أنه لو لم يتصد
أبو الفرج الى بسط قصة الشعوبي المتعصب بأفعاله وخصومته لما جاز
للاستاذ الزيات أن يعتقد بإمكان اقامة شاب جميل غريب في بلاط ملكه

ارستقراطية متعجبة تغالزه وتسامرہ عند الخلوات وتنادمه في ظل الفرص
السانحة . والآن أود أن أقتطف لك نبذة طيبة مما قاله الاستاذ
الفاضل بوصف اقامة الشاعر الجميل وضاح في كنف الملكة الاثيمة على
ظنه ، قال حضرته :

« ظل وضاح ابن الطبيعة الطليقة سجيناً في قصر الوليد لا يبصر
سماً ولا أرضاً ولا يرى غديراً ولا روضاً ولا يسمع حركة ولا صوتاً ،
ولا يشعر بجري الحياة إلا حينما تخرجه أم البنين من مخبئه ساعة يفغل
الرقيب وتغفو العين المريبة فتطارحه أحاديث الغزل وتسقيه من سلاف
الهوى عللاً بعد نهل ثم ترده عند الخوف الى مأمنه . »

قال : « ومضت على تلك الحال حقبة من الدهر ورفت عليها ظلال
الامن فيها الخ ... » .

لنسلم على أن أم البنين قد تنازلت عن جلالها الملكي وواجهها الزوجي
فعاشرت وضاحاً واتخذته خليلاً أو عاشقاً عفا الضمير طاهر الذيل على
أقل تقدير ، ولنفرض جسداً أن الشهوة الحيوانية الحبيثة المتقلبة قد
حدث بهذه المرأة الضعيفة الطائشة على أن تحتقب عشيقها كما تحتقب
طرائف الحلي والحلل ، ولكن كيف تسنى لوضاح أن يعيش في ناحية
من قصر الوليد عيشة السجين كل هذه الحقبة ؟ من كان يتعهد بما لا بد
له منه من طعام وشراب وما أشبه ذلك ؟ من كان يتولى القيام على
شأنه ؟ أكانت أم البنين هي التي تفعل ذلك بذاتها ، أم كانت تعهد
به الى وصيفة ذكية مؤتمنة ؟ وسواء أكانت الملكة هي التي كانت تفعل
ذلك بذاتها أم أنها كانت تعهد به الى وصيفة ، ألم ينتبه الى تلك الحركة
المتكررة المتجهة دائماً الى ناحية المختبأ الامين أحد من سكان القصر وأفراد
الحاشية ، على كثرتهم ووفرة عددهم ؟ ألم تتهامس بذكرها الشفاء ؟
ألم تتغامز بشأنها العيون والحواجب ، ألم تتحول تلك الهمسات وهذه

الغمزات إلى ضججات عالية تهتز لها مناكب القصر وتتلوى بها مسامع
الوليد ، حتى يستيقظ من رقدته ويتنبه من غفلته ؟؟

كل هذه الأسئلة لا تيسر الإجابة عليها لأحد سوى الاستاذ . على
أننا إذا تدبرنا أمر هذه القصة وتفهمناها جيداً رأينا أن لا مندوحة لنا
من أن نعتبرها مختلفة محمولة على أم البنين وعلى وضاح معاً في عصر متأخر
لسبب من هذه الأسباب العدائية التي تبرر بنظر البعض اتیان أي عمل
كان من الأعمال التي لا يفتخر بها انسان ما دامت الغاية المتوخاة وهي
الانتقام من الخصوم تقتضي ذلك ، أو أن تذهب إلى أن وضاحا شاعر
ماكر وقد وسوس له شيطانه أن يصطنع الهيام ويتكلف الغرام والغزل
في أم البنين ليلحق بها وبزوجها الخليفة « النزارى العدناني » هذه الوصمة
الفظيعة والسبة الخالدة ، تنقصاً لشرفها وتهجماً على مقامها ، لا لشيء
سوى أنها نزاريان عدنانيان ، وأنه شاعر يمانى قحطاني ، وأنت تعلم ما
شأن العدنانية والقحطانية في أيام بني أمية ، وقد سبق وضاحا الى مثل
هذه الفعلة عبد الرحمن بن حسان الأنصاري ، وهو شاعر يمانى قحطاني
تشبب برملة بنت معاوية بن أبي سفيان وزعم أنها تبادلته الحب وتمن
عليه بالوصل ، إلا أن معاوية الداهية تمكن من حمله بحيلة لطيفة على
تكذيب نفسه بنفسه بغير ما إكراه ولا إجبار ، نعم انه لا مندوحة
لنا من أن نأخذ بأحد هذين الأمرين ، وبرهاننا على صحة ما ندعيه أو
نفترضه في هذا الشأن أن صحيفة حياة الشاعر وضاح قد طويت في أيام
الوليد بن عبد الملك ، وأن الرواة يروون له أشعاراً غزلية كثيرة يزعمون
أنه نظمها في أم البنين ، فينبغي أن تكون هذه الأشعار قد نُظمت
ورويت بعد وفاة الوليد ، أو قل بعد سقوط الدولة الأموية ، وأضيفت
اليها الأخبار والحوادث الغرامية المختلفة المفتعلة ، وحملت جميعاً على الملكة
البريئة كذباً وهتاناً ، وأنها « أعني أشعار وضاح » قد نُظمت ورويت

وجُهزت بما يلائمها من الحوادث المخجلة في أيام الوليد نكايه وتحدياً له
 وارضاء للخصومة القوية الشديدة المتبادلة وقتئذ بين العصبيتين العدنانية
 والقحطانية اللتين كانتا إذ ذاك أشد ما تكونان تعادياً وخصومة . وبدهي
 أن كلتا الوجهتين لا تفتضي سوى تبرة الملكة النزهة المتهمة . هذا ما
 تحب أن يكون ، وإلا فهل من المعقول أن شاعراً ليست له ضغينة سياسية
 تأكل قلبه وتفقد رصده وتضطره الى التضحية في سبيل غرضه ، يستطيع
 أو يجرؤ على التشبيب بملكة وذكرها علناً بما يسيء إلى سمعتها ويضر بشرفها
 وكرامتها سواء كان بينه وبينها غرام وصلات وعلائق غرامية
 في طبقات الخفاء أم لم تكن ، أليس من المحقق الذي لا نزاع فيه
 ان ذلك مما يعرض حياته الى خطر مسا وراهه خطر ؟ وقضية
 أخرى أود أن ألفت اليها أنظار القراء ، وهي : أن الشاعر وضاحاً
 قد جرب نفسه ما يستدعيه التعرض الى ذكر الخفريات والتحدث عنهن
 بصراحة في منظوم الكلام من نتائج وخيمة وعواقب سيئة ، فان رهط
 روضة (وهي أولى عشيقاته كما ذكر الاستاذ) أنفوا من تشبيهه بكرميتهم ،
 وغضبوا لذبوع اسمها مقروناً باسمه على السنة الخاصة والعامية فصمموا
 على الانتقام لشرفها ولشرفهم منه وكنوا له على طريقه الى الملتقى بها
 فحصلت بينه وبينهم معركة دامية تكشف عن سقوطه متخضناً يجرّوح
 بليغة الى الارض . فليت شعري أمن المعقول أن تكون نتيجة هذا الدرس
 البليغ الذي أتاحه القدر لوضاح في غراهه الاول أن يستهتر فيما بعد بنظم
 القصائد الغزلية الماجنة وحملها على السنة الرواة مصحوبة بتفاصيل رواية
 غرامية يمارس تمثيلها هو وعشيقته الملكة على ما يزعم ؟ ألم يكن هذا
 نظير ما نزل به من رهط حبيبتيه روضة عندما تعرّض لها في أشعاره
 وتحدث عنها في أشعاره . أما انه إذ جاز لنا أن نستخلص من كل ما
 تقدم نتيجة حاسمة ، فاننا نستنتج بمزيد الاطمئنان والثقة أن الرواية التي
 قيل ان الشاعر وضاحاً وأم البنين قد اشتركا فيها على مسرح الخلاعة

والاثم لم تكن سوى رواية خيالية مفتعلة في أخبارها ، منتحلة في أشعارها
مختلفة في كل شيء من الاول الى الآخر .

محمد المهدي البصير

وعلقت البلاد على كلمة البصير :

البلاد : « لقد أجاب حضرة الأستاذ الزيات على تعليق الأستاذ محمد
بهبجة الأثري حول هذا الموضوع نفسه .
وعلق الأستاذ الأثري على جواب الزيات بمقال مدعوم بالحقائق والوثائق
والمستندات ونشره في البلاد في ١٤ شباط ١٩٣٠ في صحيفة الشعر
والبيان . »

★

الادب وعوامله وحظ العرب من تاريخه :

ألقى الأستاذ أحمد حسن الزيات المحاضرة الأدبية الأولى في قاعة
(الثانوية المركزية) في ١٧ كانون الثاني سنة ١٩٣٠ م ، وكانت عامة حضرها
جمهور كبير من المعنيين بالادب ومن عشاق الزيات ، وإني ألخص المحاضرة
الاولى ، ثم أعود فأثبت المحاضرة الثانية لاهميتها ، وفي رأيي أن المحاضرة
الاولى كانت كمقدمة للثانية .

قال :

لا نريد يا سادة أن نهدم لنصبح من غير أدب ، ولا أن نظهر النقص
النسيء الى مجد العرب ، إنما نريد أن نغير ما بأنفسنا من خمود وتقليد
وجهل ليغير الله ما بنا من تأخر وعبودية وظلم ، لا نريد أن ترأم
جروحنا على فساد ونغل ، ولا أن نقيم صروحنا على خواء وخلل ، وإن
أدبنا بجمد الله لا يزال قويا فتياً ، يشادّ الزمن ويخالد الحوادث ويفيض
بالحياة فيضان النيل والفراطين وبردى ، وواجبنا أن لا ندعه يفيض في

الصحارى والسهول . واجبتنا أن ندبره باقامة القناطر والجسور ، وأن
نظهر مجراه من الاعشاب الدنيئة والصخور ، وأن نحول تياره الى الارض
القريبة الخصبه ، فنجعل منها ربوعاً عامرة وجناناً ناضرة ، فيها متاع
الاذن بالتغريد والشدو ، ولذة العين بالرواء والبهجة ، وشهوة النفس بالذكاء
والعطر ، وسعادة العالم بالسلام والوثام والمحبة . أما الزهاوي والرصافي
والمطران والزركلي وحافظ وشوقي ، فهم الاوتار السلمية الباقية من قيثارنا
المفقود ، يشجوننا غالباً بألحان الذكرى فنأسى على الماضي ، ويطربوننا
أحياناً بأنغام الامل فنفرح بالمستقبل ، وإنا لترجو متى وجد هذا القيثار
وأكملت الاوتار أن يصنع شعراؤنا ما صنع كتابنا فيؤلفوا من اللحان
الشرقية والغربية موسيقى جديدة يتقدمون بها كتائب الجهاد الى محاربة
الفساد وغزو الاستعباد وتثبيت الحرية .

بعد هذه المقدمة عرض للفظه الادب ، وفصل تأريخها ومعانيها في
الجاهلية وفي اليونانية والسومرية ومعناها الاسلامي . فلما بلغ العرب عهدهم
الذهبي الزاهي في بغداد وازدادت حضارتهم وازدان عمرانهم بالعلم تطور
لفظ الأدب كما تطور مدلولها ، وأخيراً عرفها الزنخشري بأنها تعني « علوم
الأدب التي يخرز بها من الحلل في كلام العرب لفظاً وكتابة . ثم تطور
مدلول الكلمة حين أخذنا نتلقى على الغرب العلوم والادب والفن
والحضارة ، فصار لمعنى الأدب مدلول عام ، فالمعنى العام لها تشمل جميع
ما صنفت في أي لغة من الابحاث العلمية والفنون الادبية . أما المعنى
الخاص ، فيراد بالادب التعبير عن مكنونات الضمائر ومشوب العواطف
وسوانح الخواطر بأسلوب إنشائي أنيق ، مع الإمام بالقواعد التي تعين
على ذلك .

وذكر أسباب جهل العرب لمعنى الادب العام ، وبراعتهم التي تميزوا
بها في التاريخ الادبي الخاص ، يريد تراجم الاشخاص « فقد بلغوا فيه

غاية الاتقان وجاوزوا حدود الافتتان وذهبوا فيه كل مذهب ، فقسّموا كتبه إلى عامة وخاصة ، فالعامّة تترجم للتأبين على تباين أوطانهم وأزمانهم وعلومهم ، وهي إما مرتبة على حسب الاسماء أو على حسب الانساب . فالاول منهج ابن خلكان في كتابه وفيات الاعيان ، وابن شاکر الکتبي في فوات الوفيات ، وصلاح الدين الصفدي في الوافي بالوفيات .

والثاني منهج عبد الکریم السمعاني في کتاب الانساب . وقد ترتب على أزمنة الوفيات كما فعل أبو الفداء والذهبي وابن كثير مثلاً . وأما الکتب الخاصة بأنواع شتى ، منها طائفة وضعت لمن اشتهر في علم أو فن بعينه في جميع العصور كبنية الوعاة للسيوطي ومعجم الادباء لياقوت وتاريخ الحكماء لابن القفطي ونزهة الالباء في طبقات الادباء لابن الانباري ، وهي مرتبة على حسب العصر . وأحياناً توضع بغير ترتيب كما فعل صاحب الاغانى ، ومنها طائفة وضعت لمن اشتهر في فن مخصوص في عصر مخصوص كيتيمة الدهر للثعالبي ودمية القصر للباخرزي وخريدة القصر لعقاد الدين الاصفهاني الخ ...

سيداتى سادتى :

ذكرت في المحاضرة السابقة أن تاريخ الأدب فرع من التأريخ العام ، لأن الأدب تعبير عن المشاعر والخواطر والأخيلة ، وهي تتأثر بأحوال العيش وأطوار المجتمع وأنظمة الملك وتقلبات السياسة ، وما للتأريخ الصحيح موضوع غير البحث في جميع ذلك .

هذه قضية مرسلّة مبهمّة ، يقتضي جلاؤها شيئاً من التفصيل والتدليل والأمثلة .

وسبيلنا الى ذلك أن نلم بالعوامل المؤثرة في الأدب ، وهي دستور المؤرخ وشريعة الأديب ونبراس الباحث فيما يصدر عن الإنسان من كدّ

الأذهان وفيض القرائح ، فالعامل الأول : طبيعة الإقليم ومناخ البلد ، وأثرهما في حياة الإنسان وسلائل الأجناس معلوم في بدائنه المعقول ، فأحوال الإقليم هي التي تمنح لساكنيه سنن معاشهم ونظام اجتماعهم ، وتكون الكثير الغالب من خلاقهم وطباعهم ، ومناظره هي التي تربى ذوق أبنائه ، وتفغذي خيال البدو : فألفاظه خشنة كالجبل ، ومعانيه وحشية كالأوابد ، وأساليبه متشابهة كالصخر ، وأخيلته مجذبة كالقفر ، ولن تجدوا في غير الجزيرة العربية أمثال الشنفرى وتأبط شراً والسليك بن السلكة من هؤلاء الشعراء الصعاليك الذين تغنوا بحياة البادية ومناظرها وأباعرها وغزلانها وكتبانها وأطلالها وجبالها بشعر متين الرصف صادق الوصف جاف اللفظ عنجبي الخيال .

وقد اختلف الشعراء في شبه الجزيرة نفسها باختلاف الأماكن : فهو في نجد غيره في الحجاز ، وهو في أهل الوبر غيره في أهل المدر . ولهذا العامل وحده أعزو انقراض الأراجيز ، وهي أقدم الأطوار لشعر البادية حين ارتحل ناظموها من الصحارى المجذبة الى سواد العراق وريفه ، وفي حواشي العراق وظلاله ، وخمائل نجد وجباله ، اخضرّ عود الشعر واستقام وزن القصيد ، ومن ثم قال القدماء : إن امرأ القيس ومهلل بن ربيعة وعمرو بن قميئة هم أول من قال الشعر وأطال القصائد . وما كانوا في الواقع إلا زعماء النهضة الأدبية في هذه البلاد .

وظل عامل الطبيعة يفعل فعله في الأدب خلال القرون ، فخالف بين الشعر في عواصم الشرق وبينه في الأندلس ، فقد وجد شعراء العرب في أوربا ما لم يجدوه في آسيا من الأجواء المتغيرة والمناظر المختلفة والأمطار المتصلة والجبال المؤزرة بعميم النبات ، والمروج المطرزة بألوان النور ، فهذبوا الشعر ، وتأنقوا في ألفاظه ومعانيه ، ونوعوا في أوزانه وقوافيه ، وديجوه تدبيج الزهر ، وسلسلوه سلسلة النهر ، وسلكوا به مسالك التنوع

والتجديد ، وهذا العامل هو الذي يخالف اليوم بين الأدب في مصر وبينه في الشام والعراق . فالطبيعة المصرية تكاد تكون نائمة ، فالجو معتدل في جميع الفصول لا يكاد يختلف ، وحقول الوادي الحبيب لا تعرى من الزهور والزرع ، والسماء السافرة والصحراوان الوسيعتان لا تكاد مناظرهما تتغير . فإذا لم تكن طبيعة بلادنا فهي على الأقل مسالمة ، لأنها لم تزعجنا بالزلازل العنيفة ، ولا تهزنا بالعواصف الرعُدن ، ولا تحزننا بالبرد القارس والحر اللافح ، فطبعت أهلها على الوداعة والفكاهة والبشاشة والكسل ، والمحافظة على القديم من العادات والأخلاق والآداب ، فلا تتطور هذه الأمور في مصر إلا بمقدار ، ولذلك تجدون شعرنا منضد اللفظ ، جيد السبك ، بطيء التجدد ، هادىء الأسلوب ، لين العطف لا يأخذ الأمور الا بالملينة والرفق . بينما تجدون الشعر في الشام شديد الحركة كثير التنوع سريع التجدد خلق الاساليب لتعدد المناظر واختلاف الصور وتقلب الطبيعة ونشاط الحياة . وهو في العراق قوي أبي ، فائر ساخط ، متوثب منتشر على أسنة الخاصة والعامة لالتهاب الخيلة وتوقد الشعور وصفاء الحس من إفراط الطبيعة في الحر والبرد وغلبة الحياة البدوية على كثرة السكان ..

على أن هذا العامل قد أخذ يضعف منذ أواسط القرن الماضي لسهولة المواصلات وكثرة المخترعات وانتشار المدنية ، فيستطيع الانسان أن يعيش في آسيا وافريقيا كما يعيش في أوروبا ، ويزداد ضعفاً في المستقبل دون أن يمحي ويبيد .

العامل الثاني - خصائص الجنس ، فشعر العرب يختلف عن شعر اليونان في المذهب والخيال والغرض ، وشعر ابن الرومي يختلف عن شعر ابن المعتز ، وقد نشأ في بلد واحد وعصر واحد ، لأن الجنس الآري أميل الى الاستقصاء والتفصيل والتحليل والتعمق ، والجنس السامي لذكاء قلبه

وحدة خاطره يفهم الشيء في لحظة ثم يلخصه في لفظة ، فهو أميل الى التعميم والاجمال والبساطة .

العامل الثالث - دوام الحرب بين جنسين أو أمتين ، لفتح بلاد أو صد عاد أو تحرير وطن . فان هذه الحروب لتمخض عادة عن أبطال ينمون في الخيال ويعظمون في الصدور ويكبرون في الزمن حتى تنسب اليهم الخوارق ، وتخلع عليهم المحامد فتسير بذكرهم الرواة ، وتحدث بأفعالهم القصاص ، وتنتقل شهرتهم من فم الى فم ومن جيل الى جيل ، وهي في خلال ذلك تتسع وتفيض حتى تصبح سيرهم لدى الشعب حديثاً وطنياً يجب أن ينشر ، وتراثاً قومياً يحرص أن يزيد ، فيفيض الله لهذه السير المتجمعة على طول الدهور شاعراً سمح القريحة ، فينظمها بأسلوب شائق ونمط جميل . كذلك دارت الالباذة الاغريقية على حروب اليونان لاهل طروادة ... والهاهاراته الهندية على الحروب التي نشبت بين نيندهو وبين كرو ، والشهنامة الفارسية على تاريخ الاكامرة ، ووصفت الحرب التي شملت أهل إيران وأهل طوران . وقد كانت تلك الحروب مفخرة الفرس الاولين ورمزاً للخلاف الدائم بين إلهي الخير والشر .

وكذلك دارت أغاني رولان الفرنسية على حروب الفرنج لعرب الاندلس . وهذا هو الشعر القصصي أو الملاحم الذي خلا منه الشعر العربي ، لاسباب لا يتصل ذكرها بموضوع اليوم . على أن عامل الحروب قد أثر في النثر والشعر العامي ، وان لم يؤثر في الشعر الفصيح ، فان نشوب الحروب الصليبية قد اقتضى تدوين بعض القصص الحماسية كقصة عنتره وسيرة بني هلال والاميرة ذات الهمة ، إثارة للنفوس ، وتحميماً للشعب ، وتفريخاً من الهم .

العامل الرابع - طبيعة العمران وتوزيع الثروة وما يتصل بذلك من حال الاجتماع ، فإن تقدم الحضارة ورفاهة العيش ونماء الثروة تؤثر في

الذوق ، وتزيد في الصور ، وتساعد على نشر العلوم ، وتنوع في معاني الشعر وأساليب الكتابة . وشاهد ذلك أن مدن الحجاز حينما زخرت بالمال ونعمت بالفراغ منذ خلافة عثمان إلى أواخر القرن الاول للهجرة ، تدفق أهلها في اللهو ، وعكفوا على الغناء ، وألقوا أزمتهم في يد الصبابة ، وانقطع شعراؤها الى الغزل فافتنوا فيه وتصرفوا في معانيه وأغفلوا سائر أنواع الشعر الاخرى كعمر بن أبي ربيعة وجميل بن معمر وكثير عزة . وشاهد آخر على تأثير الاحوال الاجتماعية في الفنون الادبية هو شيوع البذاء والفحش في شعر بعض البغداديين على عهد الرشيد والمأمون ، فقد حدث شيء من ذلك في الجاهلية وفي العصر الاموي حين كان الفرزدق وجريز ومن لف لفها يتجاوبون بالفحش ويتهاجرون بالبداء ، الا أن ذلك لم يكن مقصوداً ، وانما كان يقال هجاءاً للعدو وسباباً للخصم . أما الفحش في شعر أبي نواس ومطيع بن اياس وحسين بن الضحاك وابن سكرة وابن الحجاج ، فقد كان صادراً عن خلق ، وناقلاً عن طبع ، ومعبراً عن حالة ، فالشعراء يقولونه ويفعلونه ، وأهل البيوتات وذوو المثالة يسمعونهم ولا ينكرونه . فبماذا نعال ذلك الفساد الذي نال الطبائع العربية الحرة ، فجعلها تمتن الكرامة وتلقي شعار الحشمة ؟ إذا عللناه بمفاسد الترف ودنايا السرف حين تظفي الحضارة ويشور البطر ، كان هذا التعليل وحده غير فاصل ولا مقنع ، فان أكثر أمم التمدن الحديث اليوم قد غرقوا في اللهو وشرقوا بالنعيم وأمعنوا في الخلاعة ، ثم لا تجدون النوابغ من شعرائهم وكتابهم يجرؤون على أن ينهوا على أنفسهم بالفواحش أو يجهروا في كتبهم بالفضائح ، وناهيك بما حدث لفكتور مركريت حين نشر قصة لاجرسون .

إنما الاشبه بالحق أن هناك سبباً آخر يساعد هذا السبب ، وهو كثرة الرقيق . وتأثير الرقيق إنما حدث من جهتين ، أولاها قيام العبيد

على تربية الاحداث في كرائم الأسر ، وفي كثرة العبيد دناءة في الطباع ووقاحة في القول ، فأفسدوا النشء وعودوهم هجر القول وفحش الحديث . وأخراهما اقحام الجواري والسراري خدور العقائل ، فأعدينهن من أخلاقهن بالمجانة والخلع ، فسقطت المرأة من عين الرجل ، فأخذها بالعنف ، وضرب عليها الحجاب ، وأقام عليها الحصى على عادة الفرس ، وأقصاها عن تربية الولد وتديب البيت ، واتخذها للمتاع واللذة ، فكان في ذلك أن فشت في الخاصة أخلاق العبيد والإماء ، فتنادروا بالفحش ، وأكثروا الشعر في الإحماض والمجون . واليكم شاهداً آخر على تأشير الأحوال الاجتماعية والأمور المادية في فنون الأدب . ظهر أدب العامة أو الشعر باللغة العامية في بغداد والأندلس في عصر واحد ، ففي بغداد ظهر « المواليا » على لسان صنائع البرامكة من العامة ، وظهر نوع آخر ذكره ابن الأثير صاحب المثل السائر قال : « بلغني أن قوماً ببغداد من رعاة العامة يطوفون بالليل في شهر رمضان على الحارات وينادون بالسحور ، ويخرجون ذلك في كلام موزون على هيئة الشعر وان لم يكن من بحار الشعر المنقولة من العرب ، سمعت شيئاً منه فوجدت فيه معاني حسنة مليحة وان لم تكن الألفاظ التي صيغت بها صحيحة ، ولكن الشعراء والأدباء استخفوا به واحتقروه فلم يقلدوه ولم يدونوه ولم يأهوا لأربابه . وحاول بعض الأطباء وهو محمد بن دانيال الموصلية أن يبتكر نوعاً جديداً من الأدب اقتبس من ألعاب خيال الظل ، فألف كتاباً سماه (طيف الخيال) ، فحبط عمله وخاب أمه .

وأما في الاندلس ، فابتدع عبادة بن ماء السماء القزاز الموشح ، وابتكر أبو بكر بن قزمان الزجل ، فطرب الناس لها وأعجبوا بها ، وأقبل أمراء القريظ وزعماء الأدب على نظمها وجمعها ، فنسج فيهما النوابغ واشتملت على روائمها الكتب . فما السبب إذن في استهجان

البغداديين ، لأدب العامة وعزوفهم عنه ، واستحسان الأندلسيين له ونبوغهم فيه ؟ السبب يعرفه المؤرخ الباحث ، وهو أن بغداد كانت شديدة الارستقراطية ، لأنها موطن الاشراف وذوي الاحساب والمثالية والثروة ، فكانوا يترفعون عن الشعب ، ويستخفون بأدبه وذوقه وذكاؤه ، ويجدون من الغضاضة أن يتحلوا بحليته ، ويجروا على أسلوبه . ولكن الاندلس كانت ديمقراطية غنية كأمریکا اليوم ، فلم يعتز فيها بالنسب لتساويهم فيه ، ولا بالثروة لعموم الرخاء فيهم وحسن توزيع الثروة بينهم ، فكانت منازل الخاصة والعامة متصاقبة وأذواقهم متقاربة ، لذلك لم يتأب الشعراء والأدباء عن تقليد الأدب العامي وتدوينه .

العامل الخامس - الأديان وما يتمثل بها من الأخلاق والمعتقدات . وتأثير الأديان في الادب بمعنييه العام والخاص ، أمر ثابت بأدلة الطبع والسمع . فانها تخلق موضوعات جديدة لمصنفات جديدة ، وتؤثر في الأخلاق والعواطف تأثيراً يتردد صداه في مناحي الادب ، على أن تأثيرها الذي يعنينا الآن هو ايجادها لأنواع خاصة من النظم والنثر .

فان بني الانسان كما تعلمون منذ أفزعتمهم تهاويل الطبيعة ، وادهشتمهم تعاجيب الفلك ، أحسوا بقوة القوي فألهوها كما فعل اليونان والهنود . أو نسبوا الاعاجيب الممتعة الخيرة لمبدأ ، والتهاويل المفزعة الشريرة الى مبدأ آخر كما فعل الايرانيون الاقدمون . ثم امتلأت نفوسهم يجلالها وعظمتها ففاضت على ألسنتهم بالأناشيد والصلوات ، فكان من ذلك الشعر الديني ، وهو مبدأ كل شعر في كل أمة ، ومن أقدمه أناشيد (رع) عند المصريين ، وأناشيد (فيدا) عند الهند البراهميين ، وأناشيد (جالا) عند الايرانيين ، وأناشيد (ارقبة) عند اليونانيين ، وسفر أيوب عند العرب ، ورأيت الضعيف أن الشعر العربي لم ينشأ في الصحراء على ظهور الابل ، وإنما نشأ كذلك في المعابد العربية إبان انفصال العرب

عن الاسرة السامية الاولى ، فظهر على السنة الكهان باسم السجع ،
ومن أقدمه سفر أيوب على أرجح الاراء ، وربها عدت الى بسط هذا
الرأي في فرصة أخرى .

وتأثير الاديان في الاداب غير متّحد ولا متشابه ، لاختلاف العقول
في إدراك هذه القوة الخفية . فاليونان قد عددوا آلهتهم ، وجسدوها
على صور البشر ، ونسبوا اليها ما للانسان من كرم ولؤم وغضب وحلم
وحرب وسلم وعفة ودعارة وزواج ولذة ، ولم يميزوهم عن الناس إلا
بالقوة والخلود ، لذلك كان شعرهم الديني في الالهة أشبه بشعرهم الديني
في الملوك : يصنف الخوارق والعظائم والقوة ، ولا ينم عن رحمة الخالق
وخشوع المخلوق ، ولا يدل على الرجاء الذي يبعث على الطاعة ولا على
الخوف الذي يردع عن المعصية .

أما بنو اسرائيل ، فقد وحدوا الله ، وبرؤوه من النقص ، ونزهوه
عن المثل ، وملؤوا صدورهم بهيبته وعزته وجلاله ، فكان شعرهم في
ذاته العلية فياضاً بالتقديس والاجلال والابتهال والاكتمال والبكاء والرجاء
والخوف . كذلك يختلف تأثير الدين الواحد في الادب باختلاف الازمان
والبلدان وطبقات الناس ونظام الحكم . فسان في كل دين من الاديان
الساوية قسماً وجدانياً اجتهادياً يختلف أبنائوه في فهمه اختلافهم في الطبائع
والمنازع والغاية . فأشعار الخوارج مثلاً تنضح بالدماء ، وتطفح بالحماسة ،
لتعصبهم وتصلبهم وجعلهم غاية الاسلام جهاد مخاليفهم في الرأي . وأشعار
الشيعة تفيض باجلال زوج البتول وصهر الرسول وتمجيد ذكرى بنيه
وتمثيل آلامهم ورتاء من قتل من أعلامهم ، وأشعار الصوفيين تصف
مقاماتهم وتذكر اشارتهم وتكثر من الكناية بالخير والسكر والعشق
والعبق من شدة تعلقهم بالله . ولا يقتصر تأثير الاديان على النظم ،
وإنما تؤثر كذلك في النثر ، فلولاها لما كانت النبؤات عند الاسرائيليين ،

ولا التعازي عند الفرس ، ولا خطب المنابر ومقامات الوعظ عند المسلمين والمسيحيين .

العامل السادس : العلوم النظرية والتجريبية وتأثيرها في ترقية العقل وتقوية الشعور وتنمية الصور ، لا يحتاج إلى تمثيل ولا تدليل ، ولكن لها تأثيراً خاصاً في خلق أنواع طريفة من الأدب كالشعر التعليمي مثلاً ، وهو نوع من الشعر يجمع بين رشاقة اللفظ ودقة البحث وحقائق العلم . وترونه في الآداب الأجنبية القديمة والحديثة أرفع وأمتع منه في الآداب العربية ، فان من الغضاضة على الفن والاساءة الى الذوق ، أن ندخل فيه منظومة ابن عبد ربته في التأريخ ، وألفية ابن مالك في النحو . وقد استحدث اليونان في النشر المحاورات الفلسفية يرصونها بدرر الالفاظ وغزير البيان ، كمحاورات أفلاطون . وهي نوع طريف من الأدب الاغريقي قلده شيشرون في محاوراته في الاخلاق والفلسفة والبلاغة ، كذلك أحدث انتشار العلوم نوعاً من القصص الخيالية تمتزج فيها حقائق العلم بروعة الخيال وغرابة الحوادث تحقيقاً لرأي من الآراء أو تشويقاً لعلم من العلوم ، كما فعل الفرنسيان فللمريوي الفلكي وجون فيرن القصصي ، وكما صنع أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل الاندلسي في رسالة « حي بن يقظان » . فقد أراد بوضع هذه القصة أن يشرح كيف يستطيع الانسان بمجرد عقله أن يتدرج من المحسوسات البسيطة إلى أسمى النظريات العلمية ، ولكنه يعجز عن ادراك أرقى الحقائق بغير وحي من الله وهداية من نبي . ثم كان نفاق العلوم التأريخية في صدر القرن التاسع عشر ، وميل الجمهور الى دراسة الماضي أن ظهر في انكلترا القصص التاريخي . ابتدعه الكاتب الانجليزي (ولتر سكوت) ، واقتفاه في فرنسا الفريد دفتي في رواية خمسة مارس ، وفي ألمانيا جورج ايسبري في قصته المصرية ورد ، وفي مصر جورجي زيدان في رواياته الاسلامية .

وللعلوم فضل ظاهر على اللغة في المادة والأسلوب ، وأثر قوي في ترقية النثر خاصة لأنها تكسبه القوة والدقة والوضوح ، وما ارتقى النثر في أمة من الأمم إلا بعد تقدمها في الحضارة ورقبها في العلم ، لأن النثر لغة العقل ، كما أن الشعر لغة الخيال ، فالنثر اليوناني لم يرق إلا بعد عصر هوميروس بأربعة قرون حين دون تأريخ لوسديد ومحاورات أفلاطون وخطب ديمستين ، والنثر العربي لم يرق إلا أوائل الدولة العباسية على يد ابن المقفع ، والنثر الفرنسي لم يرق إلا بتأثير الفلاسفة الرياضيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر كديسكال وديكارت .

العامل السابع :

أحوال السياسة الداخلية ، فان لمدها وجزرها ، ولانتقاض حبلها أو اتساق أمرها أثراً بالغاً في فنون الأدب يختلف باختلاف حاله .

ففي خلافة معاوية مثلاً انتشر الهجاء المقذع في العراق ، وفاضت بحور الغزل الرقيق في الحجاز ، وما علة ذلك إلا سياسة هذا الخليفة ، فقد كان يخشى العراق على عرشه الواهي الدعائم ، فسأسه بالتفريق ، وإحياء العصبية ، وإذكاء التنافس بين الشعراء والقبائل ليشغل الناس عن الخصومة في خلافته بالخصومة في أمر جرير والفرزدق والأخطل . وكان يستوحش من ناحية الحجاز ، فاعتقل شباب الهاشميين في مدنه ، وسلط عليهم القرف وشغلهم بالمال وخلص بينهم وبين الفراغ ، فعكفوا على اللهو والصبابة والغزل . وبعد خلافة المتوكل العباسي ازدهر الأدب العربي وازداد ابتكاراً وانتشاراً وكثرة ، وعلت ذلك السياسة أيضاً ، فان الخلافة العباسية قد انتقض حبلها في أواخر عهد المأمون ، وانصدع شملها في عهد المتوكل باستقلال الولاة في فارس والشام ومصر والمغرب ، فكان ضعف السياسة قوة للأدب ، لأن الشعراء والادباء ، والعلماء بعد

أن كانوا مكذسين في بغداد لا يرمون عنها ، تفرقوا في الممالك الجديدة ، فوجدوا من أمراءها وأجوائها ما ساعدهم على وفرة الانتاج ورفع شأن الأدب . وللأحوال السياسية كذلك أثر في خلق فنون جديدة من الأدب أو ترقية ما كان منها .

وتطرق في محاضراته الثانية هذه الى القضايا التالية ، قال :

« ومن هذه العوامل اختلاط الأجناس المختلفة العقليات والعادات والاعتقادات بالمصاهرة والمجاورة في امة واحدة ، وأثر هذا العامل أظهر ما يكون في دولة العباسيين في بغداد ودولة الامويين في الاندلس ، ففي البلدين اتصلت المدنية السامية بالمدنية الآرية فالتقى التصور العميق بالتصوير القوي ، والعقلية العالية بالوجدان الشعري . ومنها : التقليد والاحتذاء ، ولقد كان التقليد في الآداب القديمة شأن نابه وأثر ظاهر . وضرب لذلك الأمثلة من الشعر اللاتيني وتقليده وأخذه من بحور الشعر اليوناني .

وتكلم على الأدب الفارسي والأدب التركي ، وقال : « انها صنعة التقليد ، ونفحة من نفحات الادب العربي . فان الفرس حينما استولى الإسلام على أفئدتهم ، ولغته على ألسنتهم ، ظلوا زهاء قرنين يقرضون الشعر بالعربية دون الفارسية . فلما هبوا في القرن الثالث يستردون مجد أجدادهم ويطاردون العربية ونفوذها من بلادهم ويوحون الى شعرائهم من أمثال الدقيقي والفردوسي أن يجددوا مفاخر الاسلاف بتأليف المنظومات القصصية والانشيد القومية ، لم يجدوا ذلك ميسوراً إلا باحتذاء الشعر العربي واقتباس أوزانه وبديعه ، وكذلك فعلوا في النثر .

وأما الاتراك العثمانيون فانهم حين أخذوا يدونون أشعارهم في أوائل

القرن الثامن اقتبسوا من الفرس بعض الاوزان العربية مدداً لأوزانهم القديمة ، ولكنهم ابتداء من القرن التاسع أغفلوا أوزانهم واصطنعوا العروض الفارسي ، وهو في الاصل العروض العربي . وفي منتصف القرن الماضي جدد الوزير ضياء باشا المتوفى سنة ١٢٩٥ هـ دعائم الشعر ، وخلصه من التقليد ، وانضوى الى طريقته رهط من الشعراء المجددين مثل كمال يكن وأكرم وناجي ، فأنقذوا أديهم من سخف التقليد ، وقووه بالابتكار والتجديد .

هذه أهم مقومات الحاضرتين .

نساءم النيل الى وادي الرافدين :

نقلت أنباء القاهرة وفاة العلامة اللغوي أحمد باشا تيمور ، فكان لنبا وفاته أصداء الأسي والفجعية في نفوس أهل الفضل والعلم ، فدعا صديقه الاديب الكبير الاستاذ محمد بهجة الاثري الى إقامة حفل تأبيني كبير في مقر جمعية الشبان المسلمين المجاور لقصر نقيب الاشراف السيد عبد الرحمن النقيب على دجلة في محلة المربعة ، وألقى فيه الاستاذ الاثري قصيدة جميلة قدمها بكلمة رائعة نشرت في جريدة البلاد ، كما ألقى مدير الجريدة المذكورة الاستاذ رفايل ترجمة ضافية للفقيد ، وكان الاستاذ الزيات ممن أسهم في هذه الحفلة بكلمة بليغة نشرتها البلاد في يوم الاحد ٨ حزيران ١٩٣٠ بعنوان : (نساءم النيل الى وادي الرافدين) ، هذا نصها :

سادتي الأفاضل :

باسم الأمة المصرية ، وباسم الجامعة العربية ، وباسم الشهداء في سبيل العلم والوطنية ، باسم أسرة الفقيد الكريمة أقدم جزيل الشكر وموفور الحمد الى حضرات الداعين والمدعويين الى هذه الحفلة الموقرة . وأذكر

بالأعجاب هذه العواطف النبيلة التي عبر عنها حضرات الخطباء ، فأحسنوا التعبير ، وأجادوا البيان . جميل جداً يا سادة أن تتجاوب أصداء الأسي في جميع الاقطار العربية كلما عبثت بأمالنا الخطوب ، وعدت على رجالنا عوادي السياسة أو الموت ، وأليم جداً يا سادة أن تتخطف المنايا أقطابنا وهداتنا والبحر الذي نسلكه مضطرب والمركب حائر والمرفاً بعيد .

إن المرحوم أحمد باشا تيمور ، برد الله ثراه ، كان علماً من أعلام الإسلام والمشرق ، احتقر الراحة والثروة والجاه في سبيل لغتنا وأدبنا وتاريخنا ، فلم يدع ريبة إلا نفاها ، ولا غامضة إلا جلاها ، ولا منقبة إلا نقب عنها ورواها . كان رحمه الله مثال الانسان الفاضل ، جعل قلبه لله ، وعقله للعلم ، ووجدانه للفضيلة ، وسعيه للخير ، فاكتسب رضا الله بالتقوى ، وشرف العلم بالعمل ، ومحبة الناس بالاحسان .

لم ينفق ماله في المجد الزائل ، ولا عمره في اللهو الباطل ، وإنما أنفق ثراه الضخم في صنع البر ، واقتناء عشرين ألف مجلد من أندر الكتب المخطوطة والمطبوعة في العالم ، ثم عكف عليها عكوف الصابرين ، فما ترك كتاباً منها الا قرأه ونقده ، واستفاد منه وكتب عنه وعلق عليه ، ثم وقف هذا الجهد الجاهد والذهن الثاقب على خدمة العلم والعلماء في الشرق والغرب ، يحقق المسائل ويحل المشاكل ويدبج المقالات ، ويؤلف الكتب وكل ذلك في تواضع شديد ، وأدب جم ، وسهاحة نادرة ، ثم ختم هذه الحياة الصالحة بحبس هذه المكتبة الثمينة على طلاب العلم بعد أن وقف عليها من أجود أراضيه عشرين فداناً تغل ثلاثة آلاف روبية في العام .

إن حياة الفقيه العظيم كما سمعتموها من الاستاذ بطي مثل من المثل العليا للحياة العاملة في غير ضجيج ، الناصبة في غير ملل ولا ضيق ،

الحافلة المثمرة في غير غرور ولا دعوى ، فهي أشبه شيء بالنبع العذب .
يسيل حلو الخرب في مطمئن الارض ، فيروي العطاش ، ويمرع السهول في
غير هدير ولا صخب ، او هي المزنة الغادية الهتون ظلمت اللاغب المحرور ،
وبللت الثرى المجهود ، ثم ذهبت تاركة وراءها الربيع المزهر والمرتع
الخصب ، شكر الله سعي من سارع في هذه الحفلة باللقاء أو الاصفاء ،
وحيا الله فيكم يا شباب الرافدين هذه النخوة العربية ، وهذا الشعور^(١) .
النبيل الذي تبدوونه من حين الى حين لجزء من أجزاء الوطن العربي المشترك
وعوض الله العلم والعربية عن الراحل الكريم خير العوض ، إنه سميع مجيب .

(١) الحق أن العراق كان ولا يزال سباقاً في مشاركة الأقطار العربية أفراحها وأتراحها
اذكاء للشعور القومي ، وتخليداً لذكرى أهل الفضل ، وإشاعة لأقدار أهل العلم والفن ، فما
كان يحدث حدث أو ينزل في مصر أو غيرها قضاء في علم من أعلام الأمة إلا وتجذ في نفوس
العلية من أرباب العلم صداه وأساه ، وقد أقيمت حفلات التأبين لزكي باشا ، وسعد زغلول
ولصاحب المنار السيد محمد رشيد رضا كما أقيمت حفلات التأبين لأحمد شوقي وحافظ ابراهيم ،
وعباس محمود العقاد ، إلا أن هذه العواطف الكريمة والمشاعر القومية لم تجد لها رعاية في مصر
قبل انتشار الوعي القومي على لسان صاحب الرسالة وأحمد أمين والسنهوري وزكي
مبارك وأضرابهم .

تاريخ ألف ليلة وليلة

ومما نذكر له بالاعجاب تلك المحاضرات الممتعة في الأدب العربي والحضارة العربية وفي تاريخ ألف ليلة وليلة، وقد توالى في أماسي الخميس الأول والثاني من شهر كانون الثاني سنة ١٩٣٢ فكانت تمتاز بأرواحنا بروحه ، وتنتشي نفوسنا بروعة أسلوبه ، ويسحرنا بحسن أدائه ، وبطربنا بنبهات جرسه الحلو وكلماته المنعمة الناعمة ، فكنا ننسى أنفسنا ونسهو عن الوقت ، ويدركنا المساء فيسكت عن السحر المباح ولما يدرك شهرزاد الصباح ، وما زال الكلام عليها يمتد وفينا رغبة ملححة أن يتصل الكلام ولو فاتنا مدفع الافطار ، وكانت القاعة على رحبها تقص بالمستمعين من المتأدبين عشاق أدبه الغض يحدها القاري، الكريم بنصها بلاحق الكتاب . والزيات في ما ترجم وألف وكتب من المقالات ، وما أكثر ما كتب منها في الرسالة والأزهر والرواية ، أديب مطبوع ، جمع رصانة الأسلوب مع عمق التفكير ، وطلاوة التعبير وجودة الصياغة والأسلوب المشرق ، جمع الثقافة القديمة والثقافة الحديثة ، وجمع اليها رقة الحاشية والشعور المرهف ، فهو أديب متأنق ، يقلب على أدبه التجديد والفن ، والنثر الفني لا ينفع معه الارتجال ولا يخدمه الخاطر العابر . والتأنق صفة أصيلة في الأستاذ الزيات ، تلازمه في حديثه ، وتلمسها في تفكيره ، وتراها في ملبسه ، وتلاحظها في مشيته وجلسته ، لا يرضيه الكاتب

المعجلان ، ولا الكاتب الذي يكتب عفو الحاطر ، وإنما يعجبه الأعداد والالتزام والتفكير والتدبر .

وصفه صديقه الأديب الناقد محمود محمد شاكر ، فقال : « ورأيت الزيات في كل أسلوب هو الزيات لا يختلف ولا ينفافر ، والكاتب إذا صار الى هذه المرتبة حيث نراه هو مهما اختلفت الاغراض ، وتباينت الأساليب ، فاعلم أنه إنما يشق لك ما يكتبه من حرّ نفسه ، ولا يقبل الزيف ، وهو يعطيك ولا يسألك ، ويبذل لك ولا يمن عليك ، ويعلمك ولا يدعي أنه أعلم منك ، وذلك بأنه قد بلغ في العقل والفكر والصفاء والبيان حيث يعلم انه ملك قارئه ، لأن القارئ ملك له ، وأنه مرشد لا مسيطر وأنه أخوك يناقلك الحديث ، وأنه كان بمنزلة الأب » .

وقال : « والزيات كما عرفته في كتاباته روح هادئة متكئة مسترسلة ، يسكاد يختفي في نفسه حين يفكر ، ويحاسب نفسه ولكن على التسامح والرضا والاستسلام ، فإذا أراد أن ينفجر خيل الي أنه عين حمة ترسل لواذعها ساكناً ساخناً حامياً كالماء إذا غلي ثم هدأ بعد هدأة لا يضرب بعضه في بعض ، ولذلك نرى نقده إذا نقد شديداً بالغاً ، ولكنه رقيق غير عنيف .. »

يرضيه الأدب الوقور العف ولا يرتضي البذى المكشوف ، ولا يسميه أدباً . آمن بالعروبة والاسلام ، ونافع عنها ، وعالج قضايا الامة العربية في مشرقها ومغربها ، وكتب في المناسبات الدينية ، وعمق مفاهيمها في نفوس قرائه ، فكتب في العام الهجري ، والمولد النبوي ورمضان والحج وليلة القدر ويوم بدر ، وكان في كل ما كتب صادق العاطفة قوي الشعور عميق الايمان ، كما كتب في الاستعمار ،

وجسد أخطاره في أرض العروبة ، وأوضح مخاطر الصهيونية وأبان أهدافها التوسعية ، وألّب الحماسة في نفوس المواطنين من أبناء العروبة ضدها ، ودعا الى توحيد القوى لمحاربتها واجتثاث جذورها من قلب الاراضي العربية قبل أن تقوى وتزاد فتكون مصدر قلق المنطقة وتشريد أهل فلسطين الشرعيين .

فلما وقع الخطب وقررت الدول الكبرى التقسيم وتخلت بريطانيا عن مسؤولياتها ، بعد أن زودت العصابات الصهيونية بالسلاح وأعدتهم للايقاع بعرب فلسطين وتشريدهم من أرضهم ، كتب رحمه الله : « هاهي ذي تقسم فلسطين احدى القبلتين وثالث الحرمين قسمة ضيزى بين العرب الأصلاء واليهود الدخلاء ، وتحمل الصهيونيين على ضمائرهم وبواجرها من أركان الارض الى فلسطين ، لينصبوا فيها الصليب للحق ، كما نصبوه من قبل لعيسى ، ويبذروا الشقاق للناس كما بذوره في يثرب - محمد - ، ليت شعري ما جريرة العرب والمسلمين على الأمم الاوروبيين والامريكيين ؟ هل جريرتهم عليهم أنهم فتحوا العالم وطهروه وأعلنوا دين الله ونشروه ؟ قد يكون الفتح ترة العنصرية ومع نشر الدين تعصب الكنيسة ..

ولكن ترة اليهودي المقهور وتعصب الكاهن ، لم يكونا وحدهما السبب في هذا الاستخفاف الدولي بالاسلام والعروبة ، إنما السبب الأقوى فيما أعتقد أن المسلمين عولوا على الحق دون القوة ، وعولوا على القول لا الفعل ، واعتقدوا الفرد ، ونسوا ان دينهم قرآن وسيف وتأريخهم فتح وحضارة ، وشريعتهم دين ودنيا ، وحرهم جهاد وشهادة ، وزعامتهم خلافة وقيادة ..

ولم يترك الزيات فرصة تمر أو تسنح إلا اهتبلها ، وعاود الكتابة في قضية فلسطين ، وعمق مفاهيم العروبة في نفوس الناشئة يوم

كانت فكرتها في نفوس الساسة والمثقفين باهتة بل غامضة. ونحن ما زلنا نذكر باعجاب مقاله القيم ، باعتزاز وفخر « فرعونيون وعرب » الذي ردّ فيه على من كان ينزع نزعة فرعونية أو يفكر تفكيراً أقليمياً ، قال :

« أفرعونيون نحن أم عرب ؟ أنقيم ثنافتنا على الفرعونية أم نقيمها على العروبة ؟ نعم ، قالوا ذلك القول ، وجادلوا فيه جدال من أعطي أزمّة النفوس وأعنة الاهواء ، يقول لها : كوني فرعونية فتكون ، أو كوني عربية فتكون ، ثم اشتهر بالرأي الفرعوني اثنان أو ثلاثة من رجال الجدل وساسة الكلام ، فبسطوه في المقالات ، وأيدوه بالمنظرات ، ورددوه في المحادثات حتى خال بنو الأعمام في العراق والشام أن الأمر جدّ ، وأن ثلاثة من الكتاب أمة ، وأن الفكرة عقيدة ، وأن مصر رأس البلاد العربية قد جعلت المآذن مسلات ، والمساجد معابد ، والكنائس هياكل ، والعلماء كهنة ... مهلاً بني قومنا لا تعتدوا بشهوة الجدل على الحق ، ورويداً بني عمنا لا تسيئوا بقسوة الظن الى القرابة ، إن الأصول والانساب عرضة للزمن ، والطبيعة تواشج بينها القرون وتفصل فيها الاجواء ، حتى يصبح تحليلها وتمييزها وراء العلم وفوق الطاقة . »

لقاءات وصلات :

وفي السنوات الثلاث التي قضاها الزيات في العراق قامت له مع أدبائنا وشعرائنا ورجالات المجتمع البغدادي صداقات وذكريات ، وثواشجت له مع الكثيرين منهم وشائج روحية ومودات رأينا صداها على صفحات مجلته الرسالة - وكانت مادة من مواد كتابه (العراق كما رأيته) . نبتت له صداقة مع جميل صدقي الزهاوي ، ومعروف والرصافي ، وطه الراوي ، ومحمد بهجة الاثري ، وساطع الحصري ، والشبيبي ، ورفائيل بطي ، ومصطفى علي ، وناجي الأصيل وكمال ابراهيم ، وتوكدت بينه وبين

طلابه مودات وصدقات دامت ذكراها في أنفسهم . ومن أبرز طلابه
 ناجي معروف وجواد علي ومزاحم الشابندر وعبد الغني الجرجفجي رحمه
 الله وناجي يوسف وغيرهم ، أحبوه وأحبهم ، وعرف العراق معرفة
 الدارس الناقد ، فكان لهذه الصلات صداها الذي تردد فيما بعد على
 صفحات الرسالة والرواية ، ومن أثرها كتابه «العراق كما رأيت» الذي
 أعد فصوله وأتم نسخه وتبويبه ، ولكن ظروفاً سياسية أرجأت نشره
 في وقته ، وبعضى السنين عصفت بأوراق الكتاب يد الإهمال وامتدت
 إليه يد الغفلة من صنّاع المنزل ، فضاع الكتاب ، ولكن مما يعزينا عن
 فقدته كله أن الزيات قد نشر بعض فصوله في الرسالة وفي الأجزاء ٤١ ،
 ٤٢ و٤٣ من أجزاء مجلة العربي التي تصدر في الكويت لسنة ١٩٦٢ .

ومما قصه علينا في شأن هذا الكتاب ، قوله :

« في مثل هذا اليوم من سنة ١٩٣٢ ولدي ولدان : طفل وكتاب ،
 أذكر هذا كل الذكر ، لأنني في ذلك اليوم المقرور عدت في متوع الضحى
 من دار المعلمين بالكرخ الى داري بالرضافة ، فلزمتها جالسا أمام المدفأة
 الموقدة أكتب الفصل الأخير من كتابي «العراق كما رأيت» . ثم جاءني
 النبأ من مصر بعد ذلك بأن «رجاء» ولدي في هذا اليوم نفسه وكان
 طفلي وكتابي أعز شيء علي ، لأن ابن نفسي كان نتيجة ثلاث سنين من
 خير عملي .

« أجل قضيت ثلاث سنين في تأليف «العراق كما رأيت» جمعت مادته
 من الآثار والأسفار والأساطير والكتب والمناظر والأحاديث في سنتين ،
 ثم حررته وأنشأته ببغداد في سنة . فلم اكتب منه في القاهرة إلا
 رحلتي الى كردستان والموصل وجبال عباد الشيطان^(١) وعودتي الى

(١) اراد سنجار والشيخان وسكانها من اليزيدية لا يعبدون الشيطان وانما يتقون شوه .

سوريا عن طريق دير الزور وحلب ، ثم وجهت عزيقي الى نشره ، فهياتته
 للطبع ، وتربصت به مواتاة الفرصة ، ولكن الفرصة اناقلت ، حتى
 وفد الى مصر صديق من رجالات العراق له بصر وخطر^(١) فرغب ان
 يقرأ ما كتبتة عن بعض الناس ، وما غلقت على بعض الحوادث ،
 فحملته اليه في « الكنتننتال » فحبس نفسه عليه نصف نهار لم يبرح فيه
 الفندق ، ثم رده اليّ في المساء وهو يقول في سمتة الرزين ومنطقه
 المتند : « أشهد أن كتابك أول ما كتب عن العراق في صراحة ولباقة
 وأخلاص وصدق ، ولقد طويت عني ما قلته في » ولكنني بعد أن
 قرأت ما قلته في غيري أكاد أعرفه بالاستنتاج والحدس ، ولعلّ من
 الخير لنا ولك أن تؤخر نشر القسم السياسي منه الى حين ، أما قسمه
 الادبي والاجتماعي فستكثر حولها الاقاييل والاحاديث ، ولكنها في
 الأدب والنقد والتأريخ نصر وفتح ..

نزلت على رأي الصديق العظيم - وليته لم يفعل - وعدت بالمخطوط
 الغالي الى موضعه من المكتب ، ثم أعلنت أنني سأنشر بعض صورته
 الادبية في « الرسالة » ، وقد نشرت بالفعل صورتين أو ثلاثا ، رتت
 بها الآذان ، وأصغت اليها الافئدة .

ولكن ، وأسفاه لم يعد للطفل الحبيب نفس ينسم على نفسي ببرد
 الجنة ، ولم يبق من الكتاب العزيز سطر يشعب فؤادي بذكرى العراق .

والهفتاه على ولدي الذي أبدعه الله ، وعلى أخيه الذي أبدعته
 نفسي ، جاءا معاً في الشتاء فلم أجد بفضل وجودهما برداً ولا عبوساً
 ولا كآبة ، وذهبا معاً في الربيع فلم أحس بسبب فقدما دفناً ولا

(١) هو الزعيم المغفور له ياسين الهاشمي .

طلاقة ولا بهجة . أودى بهما القدر العايب خداعاً وغيلة ، فسلب العين
الكلؤ ريبة الحذر ، وجرّد الدفاع اليقظة من فرصة الحيلة .

دبّ للطفل الموت الوحي^(١) في وعكة خفيفة من البرد ظنّها الطيب
زكماً عارضاً ، فإذا هي الخناق « الدفتريا » ، ومشى للكتاب القدر
المحتوم في ركام من الورق المتروك فذهب به الى النار .

وهكذا قضى الله أن تذهب الى العدم ، خلاصة العمر وعصارة
الفكر في فترة ضائعة من فترات الغفلة ، وهيهات أن يكون لهما في
الحياة عوض ، فان الفلذة إذا انقطعت من الجسم لا ترجع اليه
ولا تتجدد فيه ، وسحر المنظر الجديد لا يتكرر أثره في نفس
زائرة ومخيلته .

القهوة الضحيانة :

ومن أوراق الكتاب الفقيّد .. وصف لمقهى كان يقع على دجلة ملحماً
بفندق كارلتون جاء فيه :

« هذه القهوة الضحيانة التي رقدت على صدر دجلة النابض ، واستغرقت
في الدفء والضوء والسكون كانت أحبّ القهوات إلى القلب العميد ،
والخيال الشاعر . كنت كثيراً ما أغشاها بعيد الغداء ، فأجد جماعة أو
جماعتين يلعبون الورق هنا ، وفقى أو فتيين يتساقطان الحديث هناك ،
وبائع « الأبيض وبيض والعنبا » يسرق خطاه بين هؤلاء وأولئك ،
فيذكر بنداؤه البطون التي شغلها عن طلب الطعام سكرة القمار أو نشوة
المنادمة ، فأجمل ظهري إلى أحلاس القهوة ، ووجهي إلى دجلة ، وعيني
إلى الجسر ، ثم أشاهد « فلماً » عجيب الألوان من الناس والأجناس

(١) الوحي : السريع .

والصور .. فهذا قطيع من الغنم يعبر الجسر إلى المجزرة في حمى راعيه ، وهو مستسلم لصوته منقاد لعصاه استسلام الأمة للطاغية يقودها إلى الحرب ، وانقياد الخليفة للقدر يسوقها إلى الموت .. وهذا الملك « فيصل » يعود من قصر العرش إلى قصر الزهور ، من غير حرس ولا جلبه ، فيقف في غمرة الناس على فم الجسر ينتظر أن يعبر القطيع راعيه ، وهناك تلاقى راعٍ وراعٍ ، وتقابل قطيع وقطيع !

الحلقة :

وكتب صورة ثانية من كتابه المفقود تحت عنوان « الحلقة » وصف بها رفقة من رجالات العراق كان يطلق عليهم ياسين الهاشمي « الحلقة » قال :

« ستة من الاخوان جمعهم تشابه الذوق ، وألف بينهم تجانس الهوى ، فتساموا الصفاء ، وتقاسموا المودة ، وخلطوا حياتهم بحياة بعض . فما كانوا يفترقون أصائلَ الأيام ولا عشايا الليالي ، كانوا يتخذون سامرهم كل ليلة في دار أحدهم . فيتحلقون على مائدة الشاي السخية ، أو يتقابلون أمام المدفأة الواهجة ، ثم يديرون بينهم سقاط الحديث على أروع ما تشققه الأذهان الحصيبة من براعة الفكر ، وملاحة النكتة ، وطلاوة الخبر ، وسلامة النقد ، وصحة الحكم ، فلا يدعون شأناً من شؤون الحياة ، ولا وجهاً من وجوه السياسة ولا أمراً من أمور البلد ، إلا تناولوه باللسان المرهف والفؤاد اليقظ والنظر المستقل ، فهم معارضون ولا لسان لهم في حزب ، ومصالحون ولا يد لهم في زعامة ..

كانوا يمثلون نواحي النشاط الفكري في العراق أصدق التمثيل ، فقيهم رجل الجيش ، ورجل التعليم ، ورجل القانون ، ورجل الطب ، ورجل المال ، ورجل الشعب ، ذلك إلى امتياز كل منهم بسمه من سمات

الطبع ، وصفة من صفات الخلق .

فظه الهاشمي عذب الروح ، سريّ الأخلاق ، وقور النفس ، مصروف
الهم إلى القراءة المنتجة والتأليف المحكم فيما يتصل بالتأريخ والحرب ، ولو
ترك إلى نفسه لما خرج من مكتبته ^(١) .

وناجي الأصيل نبيل العاطفة ، حلو الفكاهة ، سمح المقادة ، أفلاطوني
الزعة ^(٢) ، يعيش في السماء ، ويحلم دائماً بالمدينة الفاضلة .

ويوسف عز الدين ^(٣) متشد اللسان ، حصين الصدر ، سريع الفطنة ،
يتبسط في هزل الكلام . ويتحوط في جده ، ولا ينفك لإخوانه موضع
السر ومرجع المشورة .

وكامل الجادرجي ^(٤) متوقد الذكاء ، متمرد الطبع ، متوثب العزيمة ،
دائب الحركة ، صليب الرأي ، يدين بالديمقراطية ، ويميل إلى الاشتراكية ،
ويرفرق بينناحيه على الفلاح والعامل والمتعطل .

(١) دخل الوزارة مرات ورأسها قبيل ثورة العراق ٢ مايس ١٩٤١ وترك بعد وفاته
مذكرات عالج فيها قضايا العراق بصراحة وإقتضاب ، حتى ثورة تموز ، وكان الواجب
يقضي عليه أن يبدي رأيه في أحداثها وما لازمها من تحريفات ومضاعفات وما أعقبها من
اضطرابات ولكنه آثر السلامة .

(٢) رأس الجمع العلمي العراقي ودخل الوزارة قبلها ، توفي في الاسبوع الأول من ثورة ١٤
ومضان ٨ شباط ١٩٦٣ ، رأيه فيه ان شهرته أكثر من حقيقته ، لم تعرف له مواقف جريئة ،
يسالم كل حكم ، ويفيد من كل وزارة ، ويتظاهر بالعلم والعفة .

(٣) يوسف عز الدين ابراهيم كان مديراً للمعارف ثم مفتشاً عاماً للمالية ، وعين وزيراً
للمعارف أيام انقلاب بكر صديقي ، رجل عملي قليل اللغو بعيد عن الادعاء .

(٤) دخل الوزارة أيام بكر صديقي ، ورأس الحزب الوطني الديمقراطي وعارض سياسة
نوري السعيد كما عارض الأحلاف ، يرجع اليه والى اعضاء حزبه شيوع الفكرة الاشتراكية
وعلى قنطرتة عبر الحزب الشيوعي العراقي ، ولما واتتهم الفرصة تنكروا له وللحزب الديمقراطي ،
توفي سنة ١٩٦٨ .

وموفق الآلوسي^(١) طموح القلب ، سربع البادرة ، بارز الشخصية ،
يعتمد برأيه إلى حد العناد ، ويعتز بنفسه إلى حد المخاطرة .

وشوكة الزهاوي^(٢) واسع البال ، ضيق الأفق ، رصين العقل ، قد
قصر جهده على عمله فلا يكاد بطمع في شيء ، ولا يشارك في رأي ، ولا
يحفل بمحادث .

وأولئك كانوا لما اجتمع لهم من ضروب الثقافة وشتى الحلال ، صورة
مصغرة للأمة ، يعيشون منعزلين وهم فيها ، ويفكرون مستقلين وهم
منها ، كأنهم كانوا لآمالها رموزاً تتميز تميز العنوان وتنفرد انفراد العلم ،
كانوا جميعاً في ربة الحكومة ، الا كاملاً ، فكان للجماعة الكلمة الحرة ،
والفكرة الطليقة ، وقف على السياسة الصريحة قواه ، وأيقظ لأطوارها
المختلفة رأيه ، فكان يناصر الحزب ما دام معارضاً ، فإذا قبل الحكم
تركه إلى غيره ، حتى انفرد هو ذات يوم بالمعارضة ، كان اليد اليمنى
لياسين الهاشمي في حزب الاخاء ، وياسين أمل البلاد المرجو ، وزعيمها
المنتظر ، فلما رآه يقصد الحكم عن طريق الملاينة والمسايرة ، خالفه ومعه
مقاعد البراهمان ، ووظائف الدبوان ، وخرج مغاضباً إلى الجهاد
بالنفس والمال ، فزاول المحاماة ، وعالج الصحافة ، ولقي في سبيل ذلك
ما يلقي المعارضون المتزمتون من الضيق والعنت ..

كان للزبات في هذه « الحلقة » كرسي وثير ، يلقاه أصحابها بالترحاب

(١) درس في الحقوق وانتخب عميداً لها ، وعين مديراً للخارجية ، وترك العراق بعد
انقلاب بكر صديقي ، واختير سفيراً للملكة العربية السعودية ، واخيراً احيل على المعاش ،
ويسكن سويسرا في الوقت الحاضر ، لم يترك أثراً عديماً ، وقد صلح حاله وابتعد عن عناده
وإدمانه .

(٢) طبيب حاذق في فنه ، ورغم ذلك أقحم في الوزارة وهو ابعد ما يكون عن السياسة
ومطاولها ، توفي في الخمسينات .

والتكريم ، وكان يجد لهم في نفسه من الطمأنينة والأنس ما لا يجده عند غيرهم ، فكان يناقلهم شجون الحديث ، فيعلم منهم ما لا يعلمه عن طريق الدراسة ، أو الصحافة ، أو الرسميات ، يقول في ذلك :

« كانوا يحملون في نفوسهم آمال العراق الناشئة ، وفي رؤوسهم ثورة الشباب الجديد .. سياستهم الجماعة قبل الفرد ، والعامية قبل الخاصة ، والعراق قبل العروبة ، ولكن آراءهم في رأيي أشبه بأحلام الفلاسفة ، تحت رواق المعبد ، لأنك إذا استثنيت « كاملاً » لا تجد فيهم من يفكر في انقلاب ، أو يجر بمعارضة . »

وكان ظن الزيات صائباً ، فقد اشترك كامل الجادرجي في انقلاب ١٩٣٦ بقيادة بكر صديقي ، وساند الانقلابيين بتكوين الجبهة الشعبية ، واندفع في إدخال المقترحات الاشتراكية مما سبب له معارضة اضطرته أن ينسحب من الوزارة ، وقد اشترك من أعضاء الحلقة في الوزارة آخران هما : يوسف عز الدين ابراهيم لوزارة المعارف ، وناجي الأصيل للخارجية ، وأخرج من الحلقة اثنان من العمل الرسمي ، طه الهاشمي : أبعاد عن رئاسة أركان الجيش ، وموفق الألوسي من الخارجية .

وكان هذا الانقلاب أول حدث زج الجيش فيه بالسياسة ، ولا شك أن فساد الحكم وتطلع الشعب إلى الإصلاح والحد من تدخل المستشارين البريطانيين هو الذي أدى إلى تدخل الضباط في الاشتراك بالانقلاب ، ولكن ما عتم أن استقل بعضهم مراكزهم فانحرفوا عن الأهداف التي جاهدوا الناس بانجازها مما دفع آخرين من عسكريين وساسة أن يدبروا انقلاباً مضاداً نفذت فيه خطتهم ونجحت باغتيال بكر صديقي ومحمد علي جواد ، ومن يومها لم تعرف البلاد طعم الاستقرار .

ذكريات الصيف في بغداد :

والصورة الثالثة التي احتواها كتاب الزيات المفقود ، وصف الصيف في بغداد ، الذي يصل حره أيام تموز وآب ، إلى خمسين درجة أو أكثر أحياناً ، وحق للمقرزي أن يقول : « إن من محاسن مصر ، أن أهلها لا يحتاجون في حر الصيف إلى الدخول في جوف الارض كما يعانیه أهل بغداد » .. يريد به السرداب .

ووصف حر العراق كاتب عراقي ، فقال : « حر لا يطيب معه عيش ، ولا ينفع فيه ثلج ولا خيش ، فهو كقلب المهجور ، أو كالتنور المسجور » ..

والزيات لم يقض الصيف كله في بغداد ، وإنما كانت الدراسة تعطل في اليوم الاول من تموز ، فيبأرح العراق إن لم يكن قد بارحها قبل ذلك ، ولكنه حر العراق الذي لم يألفه في مصر أو غيرها ! فقال في وصفه : « السنة في العراق فصلان ، شتاء وصيف ، وليس بين الفصلين المتعاقبين إلا استراحة قصيرة لا تزيد على شهر . فالحر يبدأ من أواخر مارس ، ثم يتدرج حتى يبلغ الأوج في أشهر «يونيو ، وبوليو ، وأغسطس» ثم تنكسر حدته بعد ذلك . هذا في العام . أما في اليوم ، فيطلع الحر بطاوع الشمس ، ثم يصعد بصعودها ، حتى إذا أقبل الضحى بلغت الحرارة خمسين درجة مئوية في الظل ، وانقلب البيت فرناً من غير وقود ، والهواء لهماً من غير دخان ، وحينئذ تحس كأن روحاً نارية تمتد إلى وجهك فتحرقه ، وإلى نفسك فتزهقه ، وإلى صدرك فتضيقه . فإذا كنت في الطريق لذت يجدار تحته ظل ، أو بقهوة فيها مروحة . وإذا كنت في دارك تجردت من أكثر ثيابك ، وألقيت بنفسك في السرداب فطلت به إلى أن تغرب الشمس . والسرداب في بيوت بغداد حجرة في أسفل الدار تنخفض عن سطحها مترين أو أكثر ، وليس فيها فتحة

شبر الباب ، وفي جدرانها التثني على السهيز شباك مربع يبيع ارتدانة
 ثائي الجدار « الباد كبير » وقد سدّ بما يشبه مرتبة السرير قد حشيت
 بأعصان الصفصاف المورقة ، يرشونها بالماء الحين بعد الحين ،
 فترطب الهواء ، وتحركه المروحة الكهربائية^(١) ، فينسم على الجالسين
 بالظراوة . ودور بغداد مبنية من طابقين ، فالطابق الأسفل للصيف ،
 والطابق الأعلى للشتاء . وهذا الطابق الشتوي لا ينفك يرسل في النهار
 والليل حرارة كوهج النار فلا يدخله في الصيف أحد ، إنما يبرون به
 سراعاً في الليل وهم صاعدون الى سطح الدار ، ليناموا أهنأ النوم
 تحت السماء .

وإذا كانت أيام الصيف في بغداد لفحات من سعي جهنم ، فان لياليها
 نفحات من نعيم الفردوس . وخير ما يعوّض الأجساد من ذوبانها المستمر
 في عرقها الدائم ، تلك العشايا الجميلة التي يقضيها البغداديون على ضفاف
 دجلة . فهم يخرجون اليه كل مساء عائلات وجماعات وأفراداً ، ومعهم
 الخدم والفرش والطعام والشراب والفاكهة ، فيركب بعضهم زوارق
 النزهة ، ويجلس بعضهم في جزائر النهر ، وهؤلاء يغنون ويرقصون
 ويقصفون ، فيمسي دجلة بمائه وشطآنه وجزره مقصفاً محدوداً بين
 الرصافة والكرخ ، يضح بالمتاع واللذة^(٢) ، ويفيض بالانس واللهمو ،

(١) هجرت السرايب بعد استعمال المكيفات الحديثة ، هذا في بيوت بغداد القديمة .
 (٢) رحم الله أيام زمانك يا أستاذ، فقد فقد البغداديون بما فيهم الموسرون واهل الرواتب العالية،
 تلك المنازه والمقاصف وسقف السمك واتخاذ شواطئ دجلة مصايف ، يقيم فيها الناس اشهر
 الصيف . كانت الحياة رخيصة ، ومواد العيش زهيدة ، لا تكلف إلا يسيراً من دخل الموظف
 او التاجر . اما اليوم فانها عشرة امثالها ، يومها كنت تبتاع السمكة التي تكفي العائلة بربع
 دينار او اقل ، واليوم لا تقدر ان تبتاعها بأقل من ثلاثة دنائير او اكثر ، وقس عليها غيرها .
 ولا شك ان وجود المباني الحديثة وما يلحق في الدور من الحدائق الواسعة قد عوضت عن
 منازه النهر وان كانت المقاهي على شارع ابي نواس ما زالت مكتظة بروادها الى اليوم .

ويتسع بالأسب والسمر .. رتاك عارة الاجتماعية ، ترارها البنداديون من
أسلافهم ، منذ أيام العروس في عهد الرشيد والأمين . ولا يزال لها في
تاريخ الأدب أثر قوي ، وفي قصص ألف ليلة وليلة صدى رائع .

وحسبي أن أذكر لك في سبيل الترفيه يوماً من أيام بغداد ، وليلة
من ليالي دجلة ، قضيتها مع صديقي المرحوم السيد عبد العزيز الثعالبي
الزعيم التونسي المعروف ، وكان يومئذ لاجئاً بعاصمة العراق من اضطهاد
فرنسا أم الحريات !

دعاني الزعيم ذات نهار من أنهار تموز الى الغداء ، فتحاملت على
نفسي ، وذهبت اليه في الظهيرة . فوجدته في الحجرة السفلى من داره ،
متهاكماً على فراشه ، وقد تعرى جسده البدين البطين ، إلا من إزار
كإزار الختم . فقلت مداعباً : أنتحرم يا أستاذ في غير رقت الحج ؟
فقال على البديهة ، وهو يضحك ضحكته العريضة العذبة : وكيف لا
أحرم وهذه شمس بغداد ترمي الجمرات ؟ فعجبت من جمال توريته ،
وحضور ذهنه ، على الرغم مما كان يقاسي من لثا الحر وتقصد العرق .
وتخففت من بعض ثيابي ، ثم جلست أناقله الحديث . وتعجبت كيف
ازدهرت حضارة العباسيين في هذا القيظ الطويل ، واستبحر عمرانهم في
هذا الخمود الملازم .. وكان الرجل قد وضع على مسافة متر منه مروحة
كهربائية كبيرة وتركها ترسل على جسده العاري الضخم هباتها القوية من
الهواء الحار ، فكانت لا تنفّس عن صدره ولا تخفف من كربه ، فيقوم
الى الحمام فينقع جسمه في الماء ، ثم يعود ليعود اليه الخناق واللهاث
والحر والعرق .. واشتدت الحال ، فعجزت عن الكلام ، وعجز هو
عن الاصغاء .

وظللنا نتردد بين غرفة الحمام وحجرة الطعام ، حتى سكنت فورة

الحر ، فاقترحت عليه أن نقضي هذه الأمسية على دجلة ، وكان ثالثنا صديقاً من ادباء بغداد . فهباً لنا العشاء والزورق ، وجذف بنا الملاح حتى توسط النهر ، فوقع في أسباعنا من جهة الكرخ غناء وعزف .. فقال أحدنا للنوتي : تتبع طريق هذا الزورق اللامهي . فقال الملاح بلهجة الغاضب الأنوف : ولماذا نتبع نحن ولا يتبعون هم ؟ ولم يدهش العراقي .

وحاذى المركب المركب ، فإذا جماعة من شباب اليهود لا يقلون عن العشرة ، قد انتظموا صفين على جانبي الزورق ، وفي الوسط مائدة مستطيلة عليها الطعام والشراب والزهر ، وشاب أنيق يعزف على الكمان . فلما رأونا خشعت الأصوات ، وشخصت الأعين ، ونادى ملاحنا بلهجة عراقية أمرة : تعالي يا بنت ، تعال يا ولد ، وانتظرت أن أرى الغضب والاحتجاج أو التردد ، فلم أرَ إلاّ القوم يخلون للجوقة الطربق واجفين ويساعدونها على الانتقال واقفين . ولو كنسا جرينا مع النوتي على مذهبه ، لنقل كل ما كان في مركبهم الى مركبه ، ثم سار زورقنا ، وهم يتبعون ، يغني ويعزف وهم يسمعون ... الخ ...

كدت أخرج من موضوع الحديث ، ولكن الأسي يبعث الأسي والذكرى تثير الذكرى ، والحديث شجون ، والأحداث عبر ، وكان في النية أن أتم الحديث بذكر الوسائل الصناعية التي كانت يتخذها أهل الترف من خلفاء بغداد ، وسراة العراق ، فيردون الجحيم نعيماً ، واللفحة اللاذعة نسمة رطبة ، ولكنها صفحة من تأريخ التمدن أرجو أن أجلو بعض سطورها .

كيف كان العراقيون يتقون الحر ؟

وتحت هذا العنوان كتب صورة أخرى كانت من مواضيع كتابه . « العراق كما رأيته » قال : « حدثتك بطرف من ذكرياتي عن صيف

بغداد ، ووعدت أن أتم الحديث بذكر الوسائل التي كان الناس في العراق يتقون بها هذا الحر قبل أن 'يكشف الكهرباء' ، و'يكيف الهواء' ، ويصنع الثلج ...

والناس منذ عايشوا الطبيعة ، قد حاولوا أن يدرؤوا عن أنفسهم غوائل الجو بشتى الحيل . فاتقوا البرد القارس والمطر الواكف ، والريح العاتية ، تقف عند باب السكن فلا تقتمحه على من فيه .

ولكن الحر تعسّر عليهم اتقاؤه ، لأنه يهاجمهم في الظل ، وفي الليل ، وفي داخل المسكن .. وغاية ما استطاعوه أن خففوا عنهم شدته بوسائل دلت عليها الطبيعة ، وهدت اليها التجربة كالتخاذ الملابس من الكتان ، واختيار الأبيض من الجلابيب والعمائم ، ورش الأرض بالماء وتحريك الهواء بالترويح ، وتبريد الجسد بالاستحمام . وقد قيل لأعرابي من بدو العراق : كيف تصنعون في البادية إذا اشتد القيظ ، وانتعل كل شيء ، فظله ؟ فقال الأعرابي ، ووجهه يتهلل بالرضى والغبطة : « وهل العيش إلا ذاك ؟ يمشي أحدنا ميلاً فيتصبب عرقاً ، ثم ينصب عصاه ويلقي كساءه في ظله يكتمل الريح فكأنه في إيوان كسرى .. »

على أن هذه الوسائل البدائية ، لم تلبث أن ارتقت بارتقاء الحضارة ، وازدادت بازدياد الترف . يحدثنا الطبري وبقاوت : أن الأكاسرة كان من عاداتهم إذا اشتدت وقدة الحر ، أن يؤتى لهم باطباق من غصون الصفصاف الذي نسميه شعر البنات ، فتجعل ركلاً حول الحجرة ، ثم يؤتى بقطع الثلج الكبار من قمم الجبال فتوضع ما بين أضعافها . وكانت هذه عادة الأمويين بالشام أيضاً . ولكن الناس في عهد الخليفة المنصور اتخذوا الخيش الغليظ للتبريد ، فكأنوا يغطون به جدران الحجرات طبقة فوق طبقة ، ولا يزالون يبيلونه بالماء فيبرد ما يلامسه من الهواء بفعل التبخر .

وكان المترفون يغشون هذا الخيش بظهارة من النسيج الدَّبِيقِي المصنوع بماء الورد والكافور والصندل . كان يجلب اليهم من مصر ، ثم اتخذوا بعد ذلك بيوت الخيش وهي قباب ينصبونها على شكل خيام المعسكرات اليوم ، يجري من فوقها الماء من قنوات صغيرة تبلها على الدوام فيبرد هواؤها أشد البرد ، حتى ضربوا ببرودتها المثل فقالوا : طبعه أو شعره أبرد من قبة الخيش . حكى ذلك المقدسي في كتابه « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » ، وكانوا يتخذون مع الخيش المراوح الكبيرة المعلقة . قال الغزولي في كتابه « مطالع البدور » : « وكان يستعمل في البيوت صيفا مروحة تشبه شراع السفينة ، تعلق في سقف البيت ، وبشد بها حبل يديرها ، وهي تبل بالماء وترش بماء الورد ، فإذا أراد الرجل ان ينام وقت القائلة جذبها من حبلها ، فتذهب بطول البيت وتجيء ، فيهب فيها نسيم بارد طيب » ..

ثم تأثرت هندسة العمارة بطبيعة هذه الحرارة في القرن الثالث للهجرة ، فبنيت القصور والدور في سامراء عاصمة العباسيين في عهد المعتصم وبنيه ، على طراز يقول الاستاذ آدم متر في كتاب تاريخ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع إنه منقول من آسيا الوسطى . وذلك أنهم يبنون الحجرات والأبهاء والمجالس في الطابق الأرضي ، سراديب أنيقة الوضع جميلة الزخرف حسنة التهوية بديعة الإضاءة . ثم يديرونها في شكل مربع على فنساء سماوي رحب ، تتوسطه بركة أو نافورة أو بستان . ولقد زرت وأنا في العراق أطلال سامراء أو « سرّ من رأى » - وشاهدت آثار قصر الجعفري الذي بناه الخليفة المتوكل على هذا الطراز ، وشق في فئانه بركته المشهورة التي يقول فيها البحري :

قنصبٌ فيها وفودُ الماء معجلة كالخيل خارجة من حبل مجربها
كأنما الفضة البيضاء سائلة من السبائك تجري في مجارها

إذا علتها الصبا أبدت لها حبيكاً مثل الجواشن مصقولا حواشيها
فحاجب الشمس أحياناً يضا حكمها وربيق الغيث أحياناً يباكيها
إذا النجوم تراءت في جوانبها ليلاً ، حسبت سماء ركبّت فيها

وهذا الوصف الدقيق الرقيق ، يدل على عظم البركة ، وفخامة القصر .

وفي القرن الخامس للهجرة ، يقول الرحالة الفارسي ناصر خسرو :
إن من خصائص مدينة أرجان أن فيها الأبنية تحت الأرض مثل
ما فوقها .

ومصدق هذا الخبر ما نراه اليوم في مدينة النجف بالعراق . فان
موقعها على طرف الصحراء وموضعها من شرف الأرض جعلها أفسى
البلاد حرّاً وأبيسها طبيعة . فبنى أهلها السرايب طوابق كطوابق الدار
ثم عمقوها حتى نزلوا بها خمسة وثلاثين مثراً في جوف الأرض ، ثم اتخذوا
من مائها الجوفي مجلساً رحباً تلوذ به الأسرة من حرّ الهواء ، فتجد به في
قيظ الصيف برد الشتاء . وقد نزلت في زيارتي للنجف سرداباً من هذه
السرايب العجيبة في مدرسة السيد كاظم اليزدي ، فوجدت فيه من بديع
الصنع ما لا تصدق الاذن إلا إذا رآته العين .

أما مرفهات الصيف عند المترفين من الخلفاء والكبراء والقادة ، فحسبي أن
ألخص لكم صفحة من صفحات هذا الترف المسرف سجلها ابن أبي أصيبعة في
كتابه « عيون الانباء في طبقات الاطباء » عند كلامه على العالم النصراني
بختيشوع بن جبرائيل طبيب المتوكل . وقد كان يذهب في عيشه مذهب الملوك ،
وهو أول من احتمل لتكييف الهواء في الصيف والشتاء . . فقد حدثت متحدث
أنه دخل على هذا الطبيب في يوم شديد الحر وهو في مجلس مغطى بطاقات
من الخيش ، بعضها فوق بعض . وفي وسط هذا المجلس قبة مجلاة بالكتان
الناعم ، مظهرة بالدّيبقي المصبّغ . وكان يلبس رداء من الخز فوقه جبة

من الصوف ، فعجب من زيته ، فلما دخل في القبة ناله من البرد أمر عظيم ، فضحك الطبيب وأمر له برداء وجبة ، ثم قال لفلانمه : إكشف جوانب القبة ، فكشفها فإذا أبواب مفتوحة من جوانب الإيوان في مواضع مكبوسة بالثاج وغلمان^١ يرواحون بالمراروح على ذلك الثلج ، فيخرج منه ذلك البرد الذي لحقه . ثم دعا بطعامه ، فأتي بمائدة عليها من ألوان الطعام كل غريب ، وأغرب ما كان عليها فراريج مشوية قانية الحمرة ، وجاء الطباخ فنفضها كلها فانتفضت . فلما سأله عنها قال : هذه فراريج تعلق اللوز المقشر ، وتسقى ماء الرمان .

ودخل عليه المتحدث في يوم قارس البرد ، وهو جالس في إيوان على بستان أنيق الوشي مسكي العبير ، وعلى الإيوان ظهارات من فراء السمور وأكسية الحرير ، وجلود اليمن ولبود المغرب ، وقد ارتدى غلالة رقيقة وبين يديه موقد من الفضة مذهب مخرق ، وغلان يحرق فيه البخور الهندي . فلما دخل معه الإيوان فإذا مواضع لها شبابيك من خشب بعد شبابيك من حديد ، وكوانين فيها فحم الغضا ، وغلان ينفخون ذلك الفحم بألكوار كما يصنع الحدادون . ثم دعا بطعامه ، فأحضروا له ما جرت به العادة من الشهي الطيب ، وعلى المائدة فراريج ناصعة البياض ، فظننتها غير ناضجة . وجاء الطباخ فنفضها فانتفضت . فلما سأله عنها قال : هذه فراريج تعلق الجوز وتسقى اللبن ، وهي ثلاثم البرد كما ثلاثم تلك الحر .

وبقية الصفحة رواية أخرى عن مأدبة أدبها بختيشوع هذا للخليفة المتوكل في يوم قانظ ، جمع له فيها ما لم يخطر على بال من فنون الترف والسرف والعلم ، فبرد الحرارة وطرد الذباب من الجو وأدنى متاع الجنة من الضيف .

وهذا النمط من العيش الرافه الراغد ، إنما كان مقصوراً على أولى النعمة من رجال الدولة ودهاقين المال . أما طبقات المجتمع الأخرى ، فقد راضتها الطبيعة على مكاره الحر ، حتى ألفوا رمضاء الصحراء ، كما ألف الاسكيمو ثلوج القطب . والطبقة التي ميزها الملك الموروث والحكم الفاسد والثراء الفاحش ، هي الآفة التي تقوض بناء الشعب ، والعاية التي تقتل سلام الأمة . وإن ما قرأناه من بذخ بختيشوع وأمثاله من أهل الترف ليزكرنا بما سمعناه عن بذخ يوسف كال وأشباهه من أهل البطالة ، والفرق بين ذلك الطبيب العالم ، وهذا الأمير الظالم ، هو الفرق بين الانسان والوحش ، أو بين المملِك والشيطان ، فقد كان أمير نجع حمادي يعيش هو وسائر الافطاعيين في هجير الصعيد كما يعيش في نعيم سويسرا . وكان يستخر مئات الالوف من الفلاحين ليعقدوا من دمائهم الذهب ومن دموعهم السرور ، ومن شقائهم السعادة ، ثم يولم الولاثم الفاخرة للأقارب من أسرته ، وللجانب من ندمائه ، ويأمر عماله وفلاحيه أن يصطفوا صفين عن يمين وشمال ، فإذا مر بينهم هو أو ضيوفه ركعوا جميعاً . وكان يحشد لهذه الولاثم كل متعة ويجمع فيها كل منكر ، ثم يرضن على الفقراء بالفتات والفضلات فيلقمها في نهر النيل للسماك . واستدرج الله هؤلاء الفاسقين وأملى لهم ثم استجاب لدعوة المظلومين المحرومين ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين ..

وكان ما كان من مملِك ومن مملِك

ثم انقضى وكان القوم ما كانوا ،

أقول : ليت الذين يتولون مصالح الناس يتعظون بما جرى للذين
حكوا قبلهم وأسأؤوا وانحرفوا واتجروا بطعام الشعب ، وأثروا علي
حساب نفوذهم ، وسخروا سلطانهم لاحتجاج المغانم والمكاسب لهم وللأقربين
والمحسوبين ، فأصبحوا بين عشية وضحاها يعيشون عيش البطر ، ويصرفون
مصالح البلد ، ويديرون السفينة وفق رغباتهم وأطماعهم ، وظنوا أن عين
الله تنام ، أو أن عين الشعب غافلة - (وما الله بغافل عما يعمل الظالمون إنما
يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار) .

الزيات والزهاوي

ومن الفصول الممتعة التي ضمها كتابه المفقود ، لقاءه الأول للزهاوي .
قال :

« كنت جالساً في يهو كارلتون ، صباح اليوم الثاني لقدمي بغداد ،
أروض قلبي على روعة الفراق ، وأذني على لهجة العراق ، وعيني على
غرابة الصور ، وإذا بأحد الندل يلقي الي بطاقة كتب عليها : « جميل
صدي الزهاوي » ولم تكذب تلوح في تخيلتي صورة الشاعر التي صورها
السماع والقراءة حتى رأيت على باب البهو شيخاً في حدود الثمانين ، قد انخرع
ممنه ، وثقلت رجله ، ورعشت يده ، فلا يحمل بعضه بعضاً إلا جهداً .

أقبل عليّ يتخلع على ذراع غلامه ، وقد انبسطت أسارير جبينه
العريض ، وانفرجت شفتاه الذابلتان عن ابتسامة نضرة عذبة ، ثم سلم
علي تسليم البشاشة ، بيد مرتجفة ، ورحب بي ترحيب الكرم ، بصوت
متهدج ، ثم انطلق يشكو جمود الأمة ، وإغفال الدولة ، وكيد الخصوم ،
وإلحاح المرض . وتطرق إلى خصومته عامشذ مع الاستاذ العقاد فذكر
والأسف المر يكسبه لهجة المظلوم ، وهيئة الشهيد ، كيف استغلها في
العراق من سدّد خطاه في الشعر ، وأرجف بها من تولاه بالرعاية ، وحمد
الله على أنني جئت بغداد بدل العقاد ، فقد كان وجوده تأليباً متصلًا

على فضله ، وازعاجاً مستمراً لسكينته .

لم يدع لي الزائر الكريم فرصة بين كلامه الدافق ، أدخل عليه منها بالتخفيف ، فإن الزهاوي - كما علمت بعد - ديدنُهُ أن يتكلم . كالببلبل ، خاصتهُ أن يفرد ، أو كالزهر طبيعته أن يفوح . فهو في مجلس الصداقة شاكٍ أو شاكر ، وفي مجلس الأدب محاضر أو شاعر ، وفي مجلس الأُنس ، مفاكهة أو محدث . كان الشيخ يتكلم أو ينشد ، ونبراته المؤثرة ، وقسماته المعبرة ، ولحيته الخفيفة المرسلة ، ووجهه المسنون الأعجف وشاربه النائم على فمه الأهرت ، وعينه البراقة ترأراً من خلف المنظار ، وشعره الأشمط يتهدل على نتوء الصدغ : كل أولئك كان يخيل إليّ أن طيفاً من أطيار الجدود ، أو نبياً من أنبياء اليهود ، قد انشق عنه حجاب الزمن فجأة في هذا المكان الصامت ، والنور القائم ، والجو الغريب ، ولكن الجدية التي تفيض من كلماته ، والعزيمة التي تضطرم في نظراته ، كانت تطرد هذا الخيال ، وتجعلني وجهاً لوجه أمام « كتلة » من الأعصاب القوية المشدودة تتكلم وتتألم وتثور وتهدأ ، وتسخط وترضى ، وموضوع مقالها وانفعالها لا يخرج أبداً عن « الأنا » إذا صح التعبير .

كنت ألقاه في خلال الأسبوع مع الناس في منتداه بشارع الرشيد ، أو على ضفة دجلة جالساً على الدكة الخشبية ينشد الأبيات الرائعة ، أو يرسل النكتة البارعة ، أو يروي الخبر الطريف في بشاشة جذابة ، وقهقهة ساذجة ، ويده المرتعشة لا تنفك تعبت بلحيته الصغيرة ، أو تصعد وتهبط بسيكارته العراقية ، أو تمتد « بالآننه » إلى غلام القهوة كلما طلب الشاي إلى صديق ^(١) .

(١) كان الزهاوي في الضحى يجلس في مقهى ما زال يسمى باسمه ، وفي الأمسيات يجلس على سيف دجلة في مقهى في الباب الشرقي يقع قرب وزارة الشؤون الاجتماعية مقابل سينما ←

دأبت « عربية » الشيخ بعد ذلك على أن تقف أمام منزلي صباح يوم الجمعة من كل أسبوع . فكنت أستقبله استقبال العابد المتحنث للكهان الملمم . ثم نقضي ضحوة النهار مما يحدثني فأعجب ، أو ينشدني فأطرب ، وقد تكون أذني إلى فمه ، وليس معنا ثالث ، ولكنه يجاهر بالإلقاء ، ويصوّر المعنى بالصوت والإيماء ، حتى يدهش المنزل وينصت الشارع .. وهو بين الفترة والفترة ، يعود إلى الشكاسة ، وشكواه لا تنقطع . وأظن أنا أمام هذا الجيوشان الروحي ساهماً حالمًا ، أفكر في الذهن الذي لا يكمل ، واللسان الذي لا يفتر ، والزهو الذي لا يتطامن ، والطموح الذي لا يتقاصر ، والقلق الذي لا يسكن ، والتمرد الذي لا يهن ، والشباب الذي يلبس رداء الشيخوخة ، والحياة تتخذ هيئة الموت .

وكنت أزوره في مثواه « بالصابونجية ^(١) » ، فأراه في مبادله قاعداً يشكو الوصب ، لأنه قضى الليل ساهراً يقرأ ، أو ذاهلاً ينظم . فالقصص والمجلات منتثرة على سريره وعلى مقعده ، والمسودات مدسوسة تحت مخدته أو في ثيابه ، فلا يتالك حين يراني أن يصيح : أنظر كيف أذيب عمري في شعري ، والأمة تقذفني بالبهتان ، والحكومة تخرجني من الأعيان ،

→ روكسي ، وكان من عادته إذا جاءه زائر ومعجب بشعره دفع عنه « الآنة » قيمة الشاي وتساروي خمسة فلوس ، وكان البعض من الحبيثاء من لم ينالوا « الورير » باصطلاح البغداديين يحتالون على كرمه بمدح قصيدة من قصائده أو بعض منها أو بشروا له بخبر يشم منه رائحة تعيينه في الأعيان بعد أن فقدته بالقرعة ، هناك يعلو صوته : أمينا شاي الأفندي . ويشير إليه بيده . وبعض الظرفاء حوادث يخادعون بها حتى ينالوا دعوته على الغداء معه في داره . ويقبضه بعضهم فيروي له قصيدة من شعر الرصافي ويفضلها على كل ما قاله الشعراء ، أو ينقلون له خبراً يعزونه إلى مصطفى علي صديق الرصافي وحافظ شعره ، فيحتاج ويسبهم أو يقوم عنهم إلى ركن آخر أو يركب عربته ويرجع إلى داره .

(١) الصابونجية محلة كان فيها بيوت آل الزهاري تقع بالقرب من الميدان وما زالت مأهولة بالسكان .

رأيتك يستكثر عني أن أكون شاعر البلاط .

اني سأذهب وستبقى أشعاري معبرة عن شعوري وناطقة بالآلامي ،
فهي دموع ذرفتها على الطرس ، وهي خليقة أن تبعث من عيون قارئها
دمعة هي كل جزائي من نظمها .

وكتب له ترجمة في أحد أجزاء الرسالة ، قال :

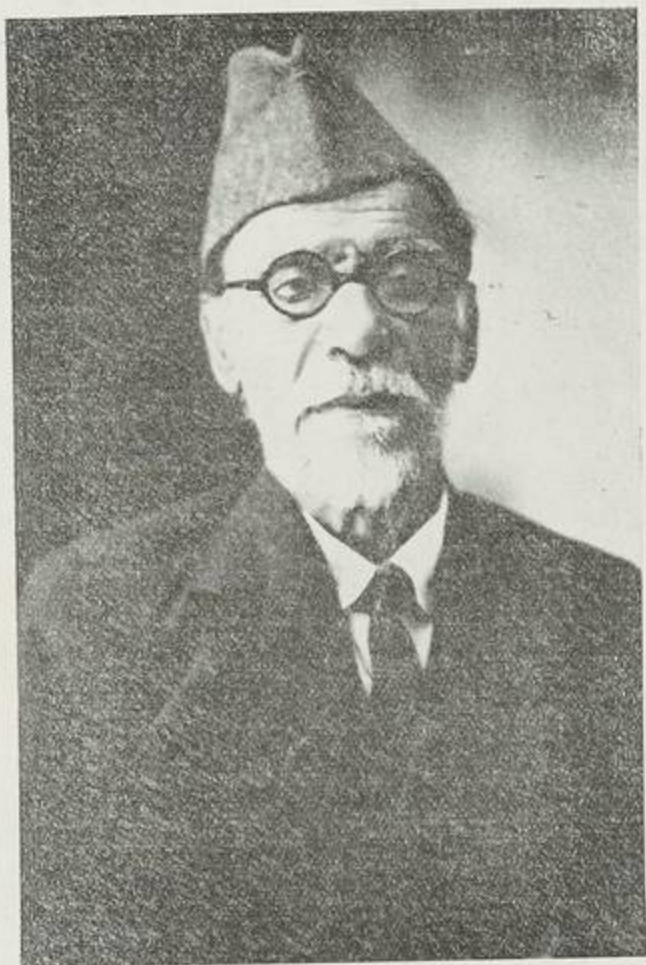
« ولد الزهاوي في يوم الاربعاء من شهر يونيو « حزيران » سنة ١٨٦٣
ببغداد لأبوين كرديين كريمين ، تميزت أسرتهما بالدين والفقه والأدب .
فقد كان أبوه محمد فيضي الزهاوي مفتياً لدار السلام ، وأخوه (١) فقيهاً
من فقهاؤها . فنشأ جميل بين أبيه وأخيه ، يرتاض عقله ليتثقف ، ويرتاض
خياله ليطير ، ولكن أخاه كما حدثني الزهاوي كان حثراً (٢) اللسان لا
يتذوق الأدب ، فكان يزوده عن رواية الشعر ويصده عن دراسة اللغة ،
ويأبى عناده هو وتسامح أبيه إلا أن يديم النظر في الأدب ، ويروض
القريحة على القريض . كان هم أخيه ، وأملى أبيه أن يستقيم على عمود
أسرته ، فيكون صاحب قضاء وفقه ، ولكنه استقام على محتوم طريقته ،
فكان صاحب دعوة وفلسفة . والاستعداد الموهوب في الطبع هو مشيئة
الخالق في الخلق ، جعل من الزهاوي أبا العلاء ، وقد كان أهله يريدونه
أبا حنيفة ، وجعل الرصافي أبا نواس ، وقد كان الألوسي يريد في معروف
الرصافة معروف الكرخ (٣) .

(١) هو محمد سعيد الذي كان من أعلم فقهاء بغداد ، وهو والد الشيخ أمجد الزهاوي رئيس
المجلس الشرعي ورئيس رابطة العلماء . والصواب مدينة السلام أي بغداد .

(٢) حثر اللسان : فاقد الذوق .

(٣) يريد به الشيخ معروف الكرخي الصوفي المشهور .

والألوسي هو الامام محمود شكركي الألوسي البغدادي الذي تخرج به الرصافي ودرس عليه
ولازمه مدة طويلة ناهزت اثني عشرة سنة ، وهو الذي لقبه بالرصافي .



جميل صديقي الزهاوي

كان العراق أيام نشأ الزهاوي تركي الساطان ، 'سنّي الحكومة ،
فالتعليم المدني فيه كان تابعا في لغته وطريقته وغاياته لسياسة الاجنبي
وهواه . فلم يخرج إلا رجال جيش يخضعون للنظام ، ورجال إدارة
يدعون للحكم . أما التعليم الديني ، فقد ظل في صحون الجوامع على ما
عهده الناس ، عربي اللسان ، حر النزعة ، طليق الفكرة ، مستقل الغاية .
وطبيعة هذا النوع من التعليم الجدلي المطلق أن يخلق المجهل للشعور
بالبليد فيضل ، ويكشف الآفاق للفكر الناقد فينبغ ، ويساعد الجبلّة
في الانسان على حسب الاستعداد فتعلو أو تهبط ، فهو يساعد المهمة
القاعدة على السقوط ، والنفس القانعة على القنوط ، والذهن المبطن على
التخلف ، كما يساعد العقل الحائر على التزندق ، والطبع القلق على
التمرد ، والارادة المستقلة على التزعم ..

ورجال الثورة والاصلاح في تأريخنا الحديث ، كانوا جميعا من أهل
هذه الثقافة كالافغاني ، وعراقي ، ونديم ، ومحمد عبده ، وسعد زغلول ،
والكواكبي ، والزهاوي ، والرصافي ، ومن الهم . والناهبون من أهل هذه
الثقافة ، لا ينفكون دائبين على القراءة ، والتتبع والمشاركة ليدفعوا عن
أنفسهم معرة الذم ، وهم عسيون - إذا جددوا - أن يسرفوا في التجديد ،
كذي العاهة يدفعه النفور من ذل الضعف إلى الافراط في العسف
والتجبر .. فالزهاوي الجريء بطبعه ، الطموح باستعداده ، تثقف بهذه
الثقافة ، ثم تنفست على أعصابه الشاعرة أمواج العروبة ترسلها على بغداد
الصحارى الملهمة ، ثم نزعة عرق العم والخال من الكردية ، فجاهد
وجالد وغامر . والكرد كالعرب إن لم يكونوا من العرب . ثم ابتلي
وهو في الخامسة والعشرين من عمره بداء في النخاع الشوكي لازمه
بقية حياته ، ورمي بعد ذلك بالشلل في رجله ، فبرم وكتب وتشاءم ،
ثم مني من أهل عصره بفساد السلطان ، واستطالة الجهل ، وانحلال

الخلق ، فدفعته هذه العوامل كلها إلى موقف المصلحين من الانذار والتضحية .

رأى وهو في الأستانة عبد الحميد يلقي الأحرار مغلولين في السجون ، أو في قاع البحر ، فأرسل مع أبي الهدى قصيدة منها :

أيامر ظل الله في أرضه بما نهى الله عنه والرسول المبجل
فيفقر ذا مال ، وينفي مبرأ ويسجن مظلوماً ، ويسبي ، ويقتل
تمهل قليلاً ، لا تغظ أمة إذا تحرك فيها الغيظ لا تتمهل
وأيدك ان طالت فلا تغتر بها فان يد الايام منهن أطول
فسجنه حيناً ثم نفاه ..

وسمع وهو عضو في مجلس « المبعوثان » من بغداد ، مقرر الميزانية يذكر في ميزانية وزارة الحربية مبلغاً جسيماً من المال ، جعلوه لقراءة « البخاري » في الأسطول ، فقال : أنا أفهم أن يكون هذا المبلغ في ميزانية الأوقاف ، أما في ميزانية الحربية فلا . فالمفهوم أن الأسطول يشي بالبخار لا بالبخاري . فثار عليه المجلس ، وشغب عليه العامة . والزهاوي كان يردد هذه الحكاية ، ويتفاخر بجرأته في اعتراضه . يحكيها بلهجته الساخرة يقول : « أفندم ، هذا لن يكون ، الأسطول أفندم يسير بالبخار لا بالبخاري ، أفندم أنقلوا المبلغ إلى ميزانية الاوقاف ، يقوم بها الشيوخ وأهل الطرق . ولهجته وسخريته من عادة قراءة البخاري تبركاً جعل العامة تشغب عليه بعد أن رد اعتراضه جماعة من النواب ذوي النزعة المدنية .

ورأى ما تعانيه المرأة من عنت الاستعباد والاستبداد والجهل ، فهب لايقاظها ، فكتب في جريدة المؤيد مقاله المشهور « المرأة والدفاع عنها » فزلزل الناس في بغداد وغير بغداد ، فسموا به إلى ولاة الأمور

ليعزلوه ، وحرشوا عليه دماء الشعب ليقتلوه ، فاضطر إلى لزوم داره .
الزهاوي عقلية « افاقة » ، وحيوية ، وطبيعة ساخرة . وهذا
النوئب الحماسي فيه هو الذي جعله يؤثر النظم في تقييد خواطره ،
وهذه الحماسة قد تنفك أحياناً عن الفكرة لكلاهما ، أو ابتذالها ،
فينذهب الشاعر ويبقى الفيلسوف ، ويكون الزهاوي معك كالآلة تدور
مليئة متزنة ما دامت على شيء ، فإذا نفدت مادتها فجأة ، انطلقت
تدور على الفارغ سريعة مضطربة . ذلك أن الفكرة الفلسفية هي المادة
الاصيلة في شعر الزهاوي . وليس الشعر كله فكرة ، وإنما هو - فضلاً
عنها - صورة يرسمها الخيال ، وشعور تبعثه العاطفة . على أن فكرة
الفيلسوف واضحة ، وجمالها في هذا الوضوح ، وفكرة الشاعر خفية
وسحرها في هذا الخفاء . إما أن تدرس الطبيعة لتعرفها وتشرحها
فتكون صاحب فلسفة ، وإما أن تدرسها لتقلدها وتصورها فتكون
صاحب شعر ، أما الخلط بين الفلسفة والشعر ، لأن الشاعر يدرس
ظواهر الكون ، فكالخلط بين التصوير والتشريح ، لأن المصور يدرس
بواطن الجسم .

كان الزهاوي كشوقي حريصاً على متابعة العصر ، ومسايرة التطور .
ومنشأ هذا الحرص فيهما طبع مرن يطلب التجدد ، وحس مرهف
يأنف التخلف .

وزيد الزهاوي أن الفخر يزهاه ، وأن التيه يذهب به فيحب الثناء
ويبغض النقد . فهو لعزفه من صفة القدم يسبق الشباب إلى التجديد ،
ولنفوره من معرة الجمود يذهب بالرأي إلى التطرف ، ولطمعه في نباهة
الذكر يحاري ميول الخاصة ، ويعارض هوى العامة . ومن ثم كان
أكثر شعره تشنيعاً على الاستبداد بمهاجمة أهل الحكم وزراية على الجمود
بجارية أهل الدين ، وتحقيراً للتأخر بمصادمة مألوف الأمة .

ونظم في أعقاب عمره « ثورة في الجحيم » ففزع المؤمنون من شرها إلى الملك فيصل ، فلما كلمه في ذلك قال : « ما أصنع يا مولاي » عجزت عن إضرام الثورة في الأرض فأضرمتها في السماء !

ورسم الزيات صورة ثالثة للزهاوي ،

وازن فيها بين عقله وبين أصحاب العلم والفلسفة ، وردّ أصول دراسته وما ترجم إلى الكتب والمقالات والمجلات ولا سيما « المقتطف » لأنه ما كان يحسن سوى العربية والفارسية والتركية والكردية ، وكلها لغات المترجم إليها من العلوم قليل ، لا يبيل صدى الظمان ، ولا يصل فكر الانسان بالتطور الذي نضج في أوربا وأمريكا .

قال :

« ومع ذلك استبطن الزهاوي دخائل هذه العلوم بعقله الناقد حتى ألف كتاب « الكائنات » في الفلسفة ، وكتاب « الجاذبية وتعليلها » ، وقال :

« سواء أنهض دلبله « في الجاذبية » أم دحض ، فإنه يدل على النظر الثاقب ، والفكر المستقل . ورجاحة عقله هي التي حملته وهو في ربيع العمر على أن يشرف على ظواهر الكون وحقائق الوجود ، من سماء فكره لا من سماء خياله . والمعهود في عامة الشعراء أن يكونوا على النقيض من ذلك . فلما هيأته الأقدار الجميلة لرسالة الشعر ، كان فكره أقوى من خياله وأسمى من عاطفته . والفكر والخيال والعاطفة هن ما يكات النفس الأدبية الثلاث ، يصدر عنهن فيض القرينة ، ويرد اليهن إلهام العبقرية . ولكن الشعر ، لا يهيمن عليه إلا الخيال والعاطفة . أما حاجته إلى الفكر فمحدودة بمقدار ما يضيء الطريق للخيال والعاطفة حتى يأمننا الضلالة . فالفكر للعبقرية بمثابة العين ،

والخيال والعاطفة لها بمثابة الجناحين ، فإذا تغلبا عليها كان الشمرود
والزيبغ ، وان تغلب عليها كان الجفاف والعقم . ومن هنا جردوا أكثر
ما قاله أبو العلاء ، وأقل ما نظم أبو الطيب ، من الشعرية ..

والزهراوي شاعر من شعراء الفكرة ، له البصيرة الناقدة ، واللفظة
النافذة وليس له الأذن التي «تمسق» ولا القريحة التي تصنع ، واللفظ
قد لا يختار ، والوزن قد لا يتسقى ، والاسلوب قد لا ينسجم ،
ولكن الفكرة الحية تعج بين الأبواب المتخاذلة عجاج الأمواج المزبدة
بين الشواطئ المنهارة .

«والزهراوي بعد هذا وقبل هذا ، كان رسولا من رسل الفكرة
الإنسانية ، وبطلا من أبطال النهضة العربية . كان يهزج بأغاريد الفخر
على ضفاف دجلة فتتردد اصداؤها الموقظة على ربوات بردى ، وسمائل
النيل ، وسواحل المغرب .

وأدب الزهراوي وأمثاله هو الذي وصل القلوب العربية في مجاهل
القرون السود بخيوط إلهية غير منظورة ، حتى استطاعت اليوم أن
تتعارف وتتألف وتتحالف ، ثم تسعى لتقود أمة كما كانت ، وتقوى
لتصبح دولة كما يجب أن تكون ..

وضوع العروبة لدى الزيات

فدب الزيات للتدريس في العراق سنة ١٩٢٩ ، وبقي في بغداد ثلاث سنين مليئة بالفكر والعمل . خالط فيها رجال القومية والداعين للعروبة في العراق ، وكانت الفكرة القومية تتردد على لسان المثقفين ، وكان ذكر العروبة تتعطر به شفاة المتعلمين . وبحكم اجتماعات الزيات بقيادة الفكر وأرباب السياسة وزعماء النثر والشعر ، واختلاطه بالأساتذة وهم حملة الأقلام والأفكار النيرة ، تلمى أفكار القومية والدعوة للوحدة ، وسبر عمق العروبة وما تعني . عرف أبعادها وأفكارها من كبار دعائها مثل ساطع الحصري الذي يعد بحق فيلسوف القومية وزعيم دعائها ، ومن الثعالبي والهاشمي والشبيبي والراوي وغيرهم ممن زامله في دار المعلمين العالية ، فأمن بالعروبة وأصبح من دعائها ، وساهم في تأسيس الجمعية الثقافية التي تأسست يومذاك في بغداد . ومن أهدافها أن تقوم مثيلات لها في مصر وسوريا ولبنان وفي أقطار العروبة كلها ، وترمي هذه الجمعيات الى نشر الوعي القومي عن طريق إحياء التراث العربي والثقافة العربية ، وقد تبلورت فكرة قيام هذه الجمعية إثر المحادثات وتبادل الأفكار بين ساطع الحصري والأساتذة العراقيين من جهة وبين أساتذة الجامعة المصرية الذين زاروا العراق في شباط سنة ١٩٣١ من جهة أخرى . فتم الاتفاق بين الزائرين والمضيفين على وجوب التعاون في سبيل نهوض

الثقافة العربية وضمأن ازدهارها . يقول ساطع الحصري في مذكراته :
ورأينا أن أحسن طريقة لذلك ، في ظروفنا الحالية هي :

« أن نؤسس في كل من بغداد والقاهرة جمعية تسمى « جمعية الثقافة العربية » ، لتتولى هاتان الجمعيتان مهام الاتصال بين مثقفي البلدين وتنسيق وتوحيد الجهود التي يجب أن تبذل في هذا السبيل ^(١) . »

كانت هذه السفارة الثقافية الاستكشافية برئاسة الأستاذ العلامة أحمد أمين وعضوية عبد الرزاق السنهوري القانوني الضليح ، والأستاذ عبد الوهاب عزام ، وشفيق غريبال ، ومصطفى عامر ، يرافقهم عدد من طلاب الجامعة من أصبحوا هم وأساتذتهم يتسمنون مراكز حساسة في الحكومة المصرية حلوا ضيوفاً على وزارة المعارف ، أو على دار المعلمين العالية على الأصح . ووضع الحصري منهاج الزيارات والاحتفالات ، واختار الأساتذة المتحمسين لفكرة العروبة ليكونوا برفقة الوفد طلاباً وأساتذة .

أقيمت للوفد حفلات ، خطب فيها درويش المقدادي ومتى عقراوي . وألقى فيها جميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي قصائد مناسبة . يقول الأستاذ ساطع الحصري :

« ان الخطب التي أُلقيت في هاتين الحفلتين (حفلة دار المعلمين العالمية ونادي المعلمين - في فندق كارلتون المطل على نهر دجلة ، في يومي ٨ و ٩ شباط ١٩٣١ . ان هذه الخطب التي ألقاها المحققون والمحتفى بهم) شغلت مكاناً هاماً من صفحات الجرائد ، وأوجدت حركة فكرية وقومية تلفت الأنظار ، ولا سيما قصيدة معروف الرصافي التي كان مطلعها :

(١) مذكرات الحصري ، الجزء الثاني ص ٧٢ .

أرى بعد نوم طال في الشرق يقظة
نهوضية فيها طموح الى المجد
ففي مصر شيدت للعلوم معاهد
على أسس التحليل والبحث والنقد

وأكد أحمد أمين في خطبته على الروابط التاريخية التي تربط مختلف البلاد العربية وان كان قد أكثر من استعمال تعبير « الأمم العربية » تارة « والأمم الشرقية » تارة أخرى ، وهذه التعبيرات كانت موضع حوار ونقاش بين ساطع الحصري وأحمد أمين في جلسات خاصة .

ويقول الأستاذ ساطع الحصري : ولكن أهم الآثار الفكرية تولدت من اختلاط طلاب الجامعة المصرية بطلاب دار المعلمين العالية ببغداد .

وقال : « كان المصريون يستغربون أشد الاستغراب من تكلم العراقيين في القومية العربية ، ويسألونهم : أنتم عراقيون فكيف تشعرون بأنكم عرب ؟ وأما العراقيون فكانوا يستغربون أسئلة المصريين هذه ويسألونهم : أنتم أستم عرباً ؟ صحيح انكم مصريون ولكن أليس المصريون كلهم عرباً ، فكيف لا تشعرون بعروبتكم ؟ » يقول أبو خلدون : كنت أشعر بسرور عميق عندما أطلع على هذه المحادثات خلال تجوالي بين موائدهم دون أن أستغربها ، اعتقاداً مني بأن ذلك لا بد أن يفتح أمام الشبان المصريين آفاقاً جديدة ، كما أنها كانت لا بد من أن تقوى عند الطلاب العراقيين روح العروبة .

قلت . لم أستغربها لأنني كنت أعرف أن بصر ، كانت تحصر كلمة « العرب » بصورة رسمية في البدو ، فان الأحصاءات الرسمية بعد أن تذكر ما يعود إلى كل محافظة واحدة فواحدة تذكر ما يعود إلى العرب . كان أبناء المحافظات ليسوا عرباً » أقول إن هذا الاستعمال كان معروفاً

في العراق فاذا قال أحدنا إني أريد الغدوّ إلى العرب ، غنّى الريف أو البدو ، ولكن الوعي القومي أبطله تدريجياً ..

الزيات عضو في الجمعية الثقافية العربية :

وكان أعضاؤها المؤسسون بترتيب حروف الهجاء :

(١) إبراهيم الشابندر (٢) أليس قندلفت (٣) أحمد حسن الزيات
(٤) داود الجلبلي (٥) درويش المقدادي (٦) رفائيل بطي (٧) ساطع
الحصري (٨) سامي شوكة (٩) طالب مشتاق (١٠) طه الهاشمي (١١) متى
عقراوي (١٢) موفق الآلوسي (١٣) ناجي الأصيل (١٤) يوسف زينل .

وبعد الحصول على الأذن القانوني انتخب الدكتور داود الجلبلي مدير
الصحة العام رئيساً للجمعية ، والدكتور متى عقراوي «سكرتيراً» لها ،
وابراهيم الشابندر محاسباً وأميناً للصندوق ، ووزعت الجمعية المنشور التالي
على عدد كبير من المثقفين ، أثبت نصه لما فيه من تفكير عميق وحماسة
للفكرة القومية .

بعد العنوان :

« لم يبق أحد إلا وقد شعر بأن الشرق العربي يتجه اليوم اتجاهاً
جديداً نحو الحياة ، بعد أن شملته يقظة الأمم والشعوب عقيب الحرب
العظمى . ولكن الوضع السيامي للناطقين بالضاد وما خلفته أعوام الركود
جعل الأقطار العربية مبعثرة من حيث النفوذ السائد عليها والنظم التي
تخضع لها ، فعدت تختلف حالاتها الاجتماعية والأدبية بعضها عن بعض
اختلافاً بيناً . وهذا ما جعل هذه الأقطار بعيدة عن اجتناء ثمرات
النهضة الحديثة التي استروحت نساؤها في العهد الأخير . لذلك كان

التفكير في التقريب بين أقطار الشرق العربي من طلائع الغايات التي يجب على المنورين في كل قطر أن يضعوها نصب أعينهم . ونخالكم تتفقون معنا على أن المشرع الأول الذي يجب أن تتضافر عليه الجهود في هذا الباب توحيد الثقافة ، وهذا لا يتم إلا بإيجاد الصلات الفكرية والروابط الأدبية بين البلاد العربية للحصول على وحدة ثقافة شاملة .

تلك حاجة شعر بها الغياري على مستقبل الشرق العربي ، وشغلت أذهانهم ، فصاروا يبذلون المساعي لسدها بالسبل القويمة ، وقد حفزت هذه النزعة الشريفة جماعة من المشتغلين بالعلم والأدب في بغداد ، فعنوا بمناقشة الموضوع مع طائفة من الاساتذة المصريين الذين أموا مدينة الخلفاء في بعثة الجامعة المصرية في الشتاء الماضي ، فاستقر الرأي على تأليف جمعيات في ديار العروبة تتخذ واسطة الاتصال بين المفكرين فيها ، وأن تسلك هذه الجمعيات الطرق المؤدية الى توحيد الثقافة العربية الخ .

ومن هذا البحث أريد أن أخلص إلى أن فكرة القومية ومفاهيمها قد نضجت في صدر أستاذنا الزيات في اثناء اشتغاله في العراق ، فلما عاد الى مصر وأنشأ الرسالة كانت بحق مجلة الرسالة القومية الحاملة لواء الدعوة الى العروبة وغرسها في نفوس قرائها من أبناء الشعوب العربية .

لقد اشتد الجدل يومئذ بين نفر من عمل بتوجيه من المستعمرين والمستشرقين ينزعون نزعة إقليمية ، هذا يقول بالفرعونية وذلك يقول بالفينيقية ، وذلك يقول بالبربرية . واتهم أساتذة كبار من أمثال طه حسين والمعقاد ، بأنهم تنكروا للعروبة ، وكثر اللفظ والجدل حول هذا الموضوع ، وتوضحت الأفكار وصححت المفاهيم ، ووضح ما كان مبهماً ، وتخلص الكتاب من كثير مما كانوا يقومون فيه من الأخطاء والخلط في مثل التعبيرات « الأمم العربية » والصواب الشعوب العربية ،

« الشرق العربي » وكان المغرب العربي لم يكن أهله عرباً .

ومثل « إحياء عظماء الشرق » ويريدون به عظماء الأمة العربية لأن الشرق يشمل الهند والفرس والصين واليابان الخ ... وإلى القارىء الكريم خلاصة من المقالات فيها الدلالة على التحول الكبير الذي أحدثته التوعية القومية وشيوع فكرة العروبة في كتاب مصر بفضل الزيات وكتاب رسالته . من تلك المقالات التي كتبها الزيات في القومية مقاله المشهور (فرعونيون وعرب) : فقد كان له تجاوب في الأقطار العربية ، وصدى على أسلات أقلام الكتاب . قال :

« عفا الله عن كتابنا الصحفيين ، ما أقدرهم على أن يثيروا عاصفة من غير ربح ، ويبعثوا حرباً من غير جند !

حلا لبعضهم ذات يوم أن يكون بيزنطياً يجادل في الدجاجة والبيضة أيتها أصل الأخرى ؟ فقال على هذا القياس : أفرعونيون نحن أم عرب ؟ أنقيم ثقاتنا على الفرعونية أم نقيمها على العربية ؟

نعم ! قالوا ذلك القول ، وجادلوا فيه جدال من أعطي أزمة النفوس وأعنة الأهواء . يقول لها : كوني فرعونية فتكون ، أو كوني عربية فتكون ، ثم اشتهر بالرأي الفرعوني اثنان أو ثلاثة من رجال الجدل وساسة الكلام ، فبسطوه في المقالات وأيدوه بالمناظرات ، ورددوه في المحادثات ، حتى خال بنو الاعمام في العراق والشام أن الأمر جد ، وأن الفكرة عقيدة ، وأن ثلاثة من الكتاب أمة ، وأن مصر رأس البلاد العربية قد جعلت المآذن مسلات ، والمساجد معابد ، والكنائس هياكل والعلماء كهنة .

مهلاً بني قومنا لا تمتدوا بشهوة الجدل على الحق ، ورويداً بني عمنا لا تسيئوا بقسوة الظن الى القرابة ، فبأي شيء من هذا يتأري إخواننا

الجدليون ، وهم لو كشفوا في أنفسهم عن مصادر الفكر ومنابع الشعور ومواقع الالهام ، لرأوا الروح العربية تشرق في قلوبهم ديناً ، وتسري في دماهم أدباً ، وتجري على ألسنتهم لغة ، وتفيض على عواطفهم كرامة .

لا نريد أن نحاجتهم بما قرره العلماء المحدثون من أن المصرية الجاهلية تنزع بعرق الى العربية الجاهلية ، فان هذا الحجاج يقطع فيه النفس ، ولا ينقطع فيه الجدل . وكفى بالواقع المشهود دليلاً وحجة . هذه مصر الحاضرة تقوم على ثلاثة عشر قرناً وثلاث من التاريخ العربي نسخت ما قبلها كما تنسخ الشمس الضاحية سوابغ الظلال . وذلك ماضي مصر الحي الذي يصيح في الدم ، ويثور في الأعصاب ، ويدفع بالحاضر الى مستقبل ثابت الأسس شامخ الذرى عزيز الدعائم .

أزهقوا إن استطعتم هذه الروح ، واحموا ولو بالفرض هذا الماضي ، ثم انظروا ما يبقى في يد الزمان من مصر . هل يبقى غير أشلاء من بقايا السوط ، وأنضاء من ضحايا الجور ، وأشباح طائفة ترتل « كتاب الأمواج » ، وجباه ضارعة تسجد للصخور وتعنو للعجاوات ، وقبور ذهبية الاحشاء ابتلعت الدور حتى زحمت بانتفاخها الارض ، وفنون خرافية شغلها الموت حتى أغفلت الدنيا وأنكرت الحياة ؟ وهل ذلك إلا الماضي الأبعد الذي تريدون أن يكون قاعدة لمصر الحديثة ، تصور بألوانه ، وتشدو بألحانه ، وتحيا أخيراً بروحه ؟ ولكن أين تحسون بالله هذه الروح ؟ إن أرواح الشعوب لا تنتقل إلى الأعقاب إلا في نتاج العقول والقرائح ، فهل كشفتم يجانب الهياكل الموحشة والقبور الصم مكتبة واحدة تحدثكم عن فلسفة كلفسفة اليونان وتشريع كتشريع الرومان وشعر كشعر العرب ؟ أم الحق أن مصر القديمة دفين فنبت روحه مع الآلهة ، وصحائف موت ذهب سرها مع الكهنة ؟ والحامد لا يبعث حياة ، والجماد لا يلد حركة .

لا تستطيع مصر إلا أن تكون فصلاً من كتاب المجد العربي ، لأنها لا تجد مدداً لحيواتها ، ولا سنداً لقواتها ، ولا أساساً لثقافتها إلا في رسالة العرب . أما أن يكون لأدبها طابعه ولغتها لونه فذلك قانون الطبيعة ، ولا شأن (لينا) ولا (ليعرب) فيه لأن الآداب والفنون ملاكها الخيال ، والخيال غذاؤه الحس ، والحس موضوعه البيئة ، والبيئة عمل من أعمال الطبيعة يختلف باختلافها في كل قطر ، فإذا لم يوفق الفنان بين عمله وعمل الطبيعة ، ويؤلف بين روحه وروح البيئة ، فاتته الصبغة المحلية وهي شرط جوهري لصدق الأسلوب وسلامة الصورة . وقد يما كان لون الأدب في الحجاز غير في نجد ، وفي العراق غيره في الشام . وفي مصر غيره في الأندلس ، دون أن يسبق هذا التباين دعوة ولا أن يلحق به أثر .. انشروا ما ضمت القبور من رفات الفراعين ، واستقروا من الصخور الصلاب أخبار الهالكين ، وغالبوا البلى على ما بقي في يده من أكفان الرميم ، ثم تحدثوا واطيلوا الحديث عن ضخامة الآثار وعظمة النيل وجمال الوادي وحال الشعب ، ولكن اذكروا دائماً أن الروح التي تنفخونها في مومياء فرعون هي روح عمّرو ، وأن اللسان الذي تنشرون به مجد مصر هو لسان مضر ، وأن القيثارة الذي توقعون عليه ألحان النيل هو قيثارة امرئ القيس ، وأن آثار العرب المعنوية التي لا تزال تعمر الصدور وتملأ السطور وتغذي العالم هي أدعى إلى الفخر ، وأبقى على الدهر ، وأجدى على الناس من صفائح الذهب وجنادل الحجارة .

إنما تتفاضل الأمم بما قدمت للخلقة من خير ، وتفاوت الأعمال بما أجدت على الإنسان من نفع . أليس « الحزان » خيراً من الكرنك ، والأزهر أفضل من الأهرام ، ودار الكتب أنفس من دار الآثار ؟

وبعد ، فإن ثقافتنا الحديثة إنما تقوم في روحها على الإسلام والمسيحية ،

وفي آدابها على الآداب العربية والغربية ، وفي علمها على القرائح الأوربية الخالصة . أما ثقافتها (البردي) فليس يربطها بمصر العربية رباط ، لا بالمسلمين ولا الاقباط (١) .

الزيات من دعاة الوعي القومي :

من مقال نشره بعنوان « مصر وأخواتها » في ٤ مارس ١٩٣٥ ، جاء فيه .

« كأنما السؤال من الناس كسؤال الناس ، لا يتفق مع الرخاء ولا يكون مع الفنى ، فإن مصر والعراق يكادان من سعة العيش لا يذكوران من وراء الحدود ، والوحدة العربية في البلدين على الرأي الاغلب حديث خرافة أو حديث مجاملة ، فلولا الأدب الذي يجمع الفؤاد بالفؤاد ، ويربط البلاد بالبلاد ، ويصل الأحفاد بالأجداد ، لظلت منابت العروبة ومواطن الاسلام أغفالا لا تعرف ، وأرحاما لا تبلى .

يزور المصري من أقطار العرب ، فيكون أول ما يرد على سمعه عتب المحبين على الهجر ، ولوم الأقربين على القطيعه ، وعذل الجيرة على التخاذل ، فيلقى معاذير الموم المخرج في منطق عي ودفاع غير ناهض ، ثم يزداد حرجه وتتخاذل حججه كلما رأى قلوبهم تزخر بمواطنه ، وصدورهم تجيش بامانيه ، وألسنتهم تضطرب بأخباره ، ونهضتهم تسترشد بنهضته ، ووجهتهم تسير مع وجهته . فصحفه تقرأ ، وكتبه تدرس ، وسياسته تحتذى ، وزعامته تتبع . ثم خصومته هي لهم خصومة ، وقومه لقومهم أهل ، وبلده لبلادهم قبلة ، حينئذ يقول لنفسه ، والحجبل

(١) وحي الرسالة ١ - ١٠ - ١٩٣٣ .

والعجب يتعاقبان على وجهه ، إن وطني مترامي الحدود ، فلماذا أحدثه
على الضيق ؟ وقومي ضخام العديد ، فلماذا أحصرهم على القلة ؟ وجيراني
كرام يصفون المودة ويصدقون العطف ويولون المعونة ، فلماذا أجعل
بيني وبينهم سداً من الإهمال والغفلة ؟ إن الأمم القوية الناضجة لترخص
الأموال والأنفس في التمكين لأدبها ونفوذها وعروضها في الشرق ،
فكيف نعرض نحن عن ذلك ، وهو بأثينا عفواً عن طريق القرابة
والنسب والوحدة في اللغة والادب والمثابرة في الحظ والحالة ؟ « وختمها
بقوله : « إن من وراء حدودنا - يا قوم - آداباً لا تقل عن آدابنا
يحسن أن تعرف ، وشعوباً تتصل بأنسابنا يجب أن تؤلف ، وأسواقاً
تفتقر إلى انتاجنا ينبغي أن تكشف ، أما النظر في حدود البحر ،
فادمان يفرق البصر ويجمع الخطر وينجم بقوميتنا وأمانينا على الفرق... » .

هديقة النادي العسكري

كان الزيات يسكن في السنة الأولى من حياته في العراق ، السنة الدراسية ١٩٢٩ - ١٩٣٠ في بيت قرب دار جريدة الزمان الكائن بمحلة الميدان ، اختارها لقرنها من المدرسة التي اتخذت معهداً للمعلمين العالية ، فكان إذا وجد متسعاً من وقته عرج على حديقة النادي العسكري ، يغشاها عند الصباح الباكر ، يجتلي محاسنها ويتنسم عبير أزهارها ، ويتبرد بأفياء أشجارها فكان لمجتلها الساحر أثر فعال في إبداع ذلك الوصف البارع الذي ديجو قلمه البليغ في وصف تلك (الحديقة) ، قال :

كان ألذ ما أتذوقه من جمال بغداد وقفة في حديقة (النادي العسكري) كل صباح ، فكنت تراني أحرص عليها حرص العابد المتحنت على أداء صلاته ، أو العاشق المتوجتد على لقاء فتاته . كنت أغشى كل يوم هذا المجتلي الساحر في رونق الضحى أو في متوع النهار ، فأجد الشمس قد لآلت ذوائب النخل وغوارب النهر ، وأخذت ترشف بأشعتها الظلال النديّة من خلال الشجر ، وبنات الهديل ^(١) يبحثن كمادتتهن في عساليج ^(٢) التين

(١) بنات الهديل : كناية عن الحمام .

(٢) العساليج : جمع عسلوج ، وهو ما لان واخضر من أغصان الشجر .

وأغصان التوت بأرجلهم ومناقيرهن ، وهن يرجعن على التعاقب ألحان
الخريف . وأرى الحديقة مطبولة النباتات منضورة الزهر ، تنفس
بالفاغية (١) تنفس الطفل الحالم ، فأشعر بالسكون مرهوب الجلال ،
أنيس الوحشة ، يعمق ثم يعمق حتى تكاد تسمع بأرض (٢) النبات وهو
ينبت ، وأجد النادي خلواً من أهله ، فلا تجد إلا بستانياً يعمل في صمت ،
وغلاماً يكنس في هدوء ، وطفلين جميلين يجيئان أحياناً فيجلسان في
الشفرة أو يمشان في الحديقة ، فلولا نشوز خادمها الكهل ، ومنظر هندامه
الزري الشكل ، لحسبتها زهرتين من زهورها أو عصفورين من طيورها .
فأسير في الروضة متشد الخُطى مرسل النفس مرهف الحس ، قارة بين
بماشيا ، وقارة فوق حواشيا ، فأقف عند كل شجرة ، وأحيي كل زهرة ،
وأسال النسبته الوليدة بالأمس ما حظها اليوم من سر الحياة ونعمة الوجود؟
ثم أصعد درجة الى الشرفة ، وأنعم ساعة بتلك الوقفة ، أتشم هواء
النهر ملء رثي ، وأخذ جملة المنظر بمجامع عيني ، وأي منظر يسحر
الطرف ويملك اللب كهذا المنظر الفاتن؟ الحديقة من ورائي توضع بالنسيم
الأريج ، وتروق بالرواء البهيج ، وتروع بالسكون المهم ، ودجلة الخالد
من أمامي تتجاوب أصدااء الأمم خافتة في لبحه ، وتتهادى خفاف
القوارب راقصة بين أمواجه ، وأنا بين الشجر والماء ، كالطائر بين الأرض
والسما ، يسبح خاطري في أجواء الماضي القريب والبعيد صاعداً إلى
فكرة ، أو هابطاً على ذكرة ، أو حائماً حول منظر كهذا المنظر ، تدفق
به قلب في قلب ، وامتزجت فيه نفس بنفس ، وتجمعت الاحلام والاماني
كلها فوق رقعة صغيرة من أرضه ، وتحتم سرحة فينانة من روضه . لا
تظنّ هذه الحديقة فيحاء ، قد تأنقت فيها يد الطبيعة وتألقت بها فن

(١) الفاغية : كل زهر له رائحة .

(٢) بأرض النبات : أوله .

الانسان ، انما هي مرتبة من الأرض على قدر ما يتسع له فناء كبير في منزل
فخم ، يشقها ممشيان معروشان قد تعارضا على شكل صليب ، فقسماها
الى أربعة أقسام سواء ، وفي هذه الأقسام وما ألحق بها قام دوح السرو ،
وبسق سرح الكافور ، وانتظمت على جوانب مماشيهما أشجار النارنج ،
وانتثرت على معظم أرضها ألوان قليلة من النور الجميل والورد العطر ،
فساؤها - كما ترى - للشجر ، وأرضها للزهر ، وجوها للعطر ، وهي كلها
لنوع من الجاذبية يجعلها على بساطتها فتنة الفنان وجنة المفكر .

ليت شعري ، ما مصدر هذا السحر الذي يشع في عيني ، ويشيع في
نفسي كلما دخلت هذا المكان ؟ أهو ذاك البناء المتآكل الذي يقوم في
جنوبه كأنه المعقل البالي أو الدير المهجور ؟ أم هو ذلك المزيج العجيب
من جلال القدم في المكان ، وجمال الطبيعة في البستان ، وعظمة الحياة
الماثلة في النهر ؟

ليس الروح العسكري في هذا المكان الشعري مظهر ولا أثر ، فما
تعهد من الحشونة في الشكنات ، والعنف في الحركات ، والقسوة في
الانظرات والكلمات ، يحول هنا إلى ذوق فنان ، ورقة شاعر ، وهدوء
فيلسوف .

كادت هذه الخواطر الجريئة الملحة تذهلني عن حديقتي ، واليوم عيد
من أعياد الطبيعة ، برزت فيه عارية من الحلل ، غانية عن الحلى . والخريف
في العراق هو الربيع احترقت غلاله الوردية في لظى تموز ، فهو على تجرد
أرضه من الأنوار والأزهار ، وتحجب سمائه أحيانا بالغيوم وأحيانا بالغبار ،
جميل البسات ، عليل النسبات ، رفاف الأديم . فها نحن أولاء بين أعقاب
الخريف وطلائع الشتاء ، والشمس لا تزال في ثغر السماء ابتسامه حلوة ،
تضاحك النهر الحبيب ، فتزيده طلاقة ، وتداعب الزهر الكئيب ، فتكسبه

أناقة ، وتطالع الجو المبرور ، فتقبسه حرارة ، وتصارع برد الموت في أوراق النارج وأطراف التوت ، فتطيل بقاءها فترة أخرى من الزمن . وهذه الأيام السوامع ما زان بأوين إلى أعالي الشجر ، ويرحن في الضوء ، وينعم بالدفء ، ويهتفن بالأهازيج كأنهن في أمنة من حائل يناير ، وهو منهن على ليال قلائل . وهذا دجلة السعيد يتنفس موجه بالنعم ، ويطفح غرينه بالذهب ويقذف تياره بالغشاء والزبد ، بعد ما بخره القيظ فنش حتى انكشف ضميره ، وانقطع خريره ، وكاد يزحف الشبوط والزورق فيه على القاع ، فالبواخر تصعد صافرات في سرعة ، والأطواف^(١) تنحدر صامتات في بطء ، والقفف تعبر موقرات في هوادة ، وقوارب الصيادين وزوارق الملاحين تتعارض وتتهادى في عباب النهر كأنها الخواطر الحائرة في الفكر العميق ، والطيور الصائدة تحوم على وجه الماء بأجنحتها الشهب حومان الآمال على ستر الغيب الصفيق ، والبجعة^(٢) الملكية تطعن في صدور الموج بمنقارها الطويل العريض ، وهي تسبح آمنة في حمى البيت العميق ، وأنفاس دجلة اللاهت من عبء القرون تتصاعد إلى حامللة أنين الأمواج وخفق المجاذيف وغمغام الكرخ ، فتختلط بتجاوب الأيام على الشجر ، وتناوح الرياح بين الغصون ، وحشجة الأوراق الداوية على الأرض ، فتتألف من هذه الأصوات الخافتة موسيقى روحية شجية ، تبعث رواقد الأحلام ، وتثير كوامن الآلام ، وتقطع بين النفس ووجودها الحاضر .

(١) الأطواف : جمع طوف وهو الرمث وجمعه أرماث ، وهو ما يعرف بالكلك . والقفة : نوع من السفن العراقية الأثرية مدورة ومقمرة يرجع تاريخها إلى عهد الكلدان مملية بالقار .

(٢) البجعة كانت تعيش في قصر الملك فيصل الذي يقابل النادي العسكري ويقع على النهر ، ثم اتخذ مجلساً للنواب والأعيان ، ومن قبل كانت مدرسة للصنائع في العهد العثماني ، وأصبح اليوم مقراً للأشغال العسكرية .

إيسه يا دجلة يا سجل الأمم وراوية العصور ، لشد ما فنيت في خيريك
ضحكات ، وامتزجت بنميرك دموع ، وخفيت في ضميرك أسرار ! لقد
رأيتك بالأمس ضارعاً قد لصق خدك بالأرض حتى همّ بخوضك الخائض ،
وهمدت حياتك حتى أوشك أن يسكن عرقها النابض ، ثم رأيتك اليوم
وقد غائسك الغيث ، فجاشت ينابيعك الثرة بالنماء والثراء والقوة ، ثم
أقبلت كدأبك منذ آلاف السنين 'مدوي' الدارات ، صحاب اللج ، تعرض
هذا النعيم ملحاً على بنيك ، فيعرضون عنه إعراض البطر ، ويؤثرون
على فيضك الميمون ودق المطر ، ثم يهينون كبريائك يا أبا الحضارات ،
فيجعلون مبلغ همك حمل الأرمات ونقل القفف ، فهل يعجبون إذا فار
غضبك فجرفت السدود وجاوزت الحدود وأصبتهم بالفرق ؟

ومن كتابه المفقود

فيصل الاول :

كان الملك فيصل الأول حركة دائبة ، ووطنية متوثبة ، ونشاطاً متواصلاً ، وسعيًا مدعوماً بالتفكير والتعقل ، وكان قلبه يجيش بالحياة ، ويعمر بالآمال ، وكانت نفسه تتطلع إلى معالي الأمور برغم عوائق الاستعمار ، وبوائق الانكليز .

جاء إلى العراق برغبة من أهله ، وبطلب من زعمائه ، وسعي من أصدقائه الانكليز الذين أرادوا أن يكفروا عن خيانتهم له ، وتنصلهم مما وقع من حلفائهم الفرنسيين ، وإخراجهم اياه من سوريا ، بعد أن أسس ملكاً كان معقد الرجاء وموضع الآمال العربية .

فاستقبل يوم مقدمه بالابتهاج والأفراح ، واحتفل بشخصه الوطنيون ، ومسا أحسب يوماً عرفت نفوس البغداديين كيوم وصول فيصل ، لأن العراقيين رأوا فيه معقد الآمال ، في تحقيق الاستقلال .

رأيت بعيني فرحة العراقيين وأنا منهم - وكنا طلاب دار المعلمين - نحف بسيارته ، والجماهير كتل متراسة كالموج خلف سيارته وأمامها وعن يمينها وشماتها فلا تكاد تحبو متراً أو تقطع ذراعاً إلا بصعوبة .

والبشر يعلو الوجوه ، « والهوسات » تدوي في الفضاء ، وزغاريد النساء تستقبله من شرفات المباني وأعالى السطوح .

ورأيت العراقيين يبكون فيصلا ، ومواكب البغداديين تملأ الشوارع والطرقات والساحات . يلطمون صدورهم على فيصل ، لأنهم فقدوه يوم تلاطمت الحن وتألّب على العراق الخصوم^(١) ولأن بفقده ضاعت آمال ، وتبددت جهود ، وخابت مساع ، وخيف على السفينة أن تتقاذفها الأمواج من كل مكان ، بعد أن فقدت ربانها القدير .

فكتب الزيات مقاله الأسبوعي في ١٠ أيلول سنة ١٩٣٣ بعد ثلاثة أيام من وفاة الملك فيصل ، فقد كانت وفاته في « برن » من الجمهورية السويسرية ليلة السابع من أيلول . قال الزيات من ذلك المقال :

« فلما نعاى البرق الى الآفاق ، فزع الناس إلى الشك ، يدفعون به هول الخطب ، ويرجّم بعضهم بالظنون ، يعللون به بغمة الحادث ، وتعدّر على العقل أن يفهم الموت مقروناً الى فيصل « صقر قريش » ، وقد كان الى أمس يقطع بعزمه الجبار أجواء الشرق والغرب حاملاً في يمينه العراق ، وفي يسراه سورية ، وفي قلبه « دولة العرب » ، ثم انجلى الشك وانجابت الظنون ، فاذا العراق ، واذا سورية ، واذا العرب أمام الفاجعة التي روّعت النفوس ، وضرمّت الأنفاس ، وقوضت حصون الرمل ...

لم يجزع العرب حين نعى الناعي اليهم فيصلاً على نفس كسائر النفوس تفوص في لجج العدم ، وانما جزعوا هذا الجزع الهالع على آمال أمة ،

(١) كان العراق قد خرج لتوه من قمع ثورة الآشوريين ، وكانت المحافل السياسية الغربية وصحافتها قد تألّبت على العراق ، وراحت تندد بنا ويحيشنا ، وترميننا بالهمجية والتوحش ، وتتهمنا بالتعصب . وكان فيصل يشجب هذه المفتريات ، ويفند أقوال الصحافة . في هذا الظرف العصيب ، وقف القلب التابض ..

وجهود نهضة ، ومستقبل فكرة ، لأن ملك العراق كان مناط هذه الآمال ، ومبعث هذه الجهود ، وعدة هذا المستقبل ...

ومن العجب أن يكون مصدر هذا الجزع كثرة الزعماء الأكفاء ، لا قلتهم ، فإن هذه الكثرة كانت دائماً وبالأعلى وحدة العرب ، إذا لم يقم على رأسها زعيم يعتمد في قيادتها على سلطان الدين وشرف النسب ، وقد اجتمع الملك فيصل مع هاتين القوتين ، عقل كيس ، وخلق نبيل ، ونفس طموح ، وجاذبية قوية ، فلا جرم كان رجل الساعة لهذه الأمة الناهضة ، يجمع كلمتها حول رأيه ، ويوحد وجهتها وراء خطاه .

وقال :

« عرفت جلالة ملك العراق ، أثناء مقامي ببغداد ، معرفة وثوق وخبرة ، وكانت حال البلاد في ذلك الحين محنة ابتليت بها كفاية الملك النابغ ، فالانتداب البريطاني كان قبل الملكية يعمل في العلن ، ويحمل التبعية ، فأصبح بعدها يعمل في السر ولا تبعه عليه . والحكومة العراقية كانت يومئذ بادية البلى ممزقة الجوانب ، لا تستطيع بخروجها أن تستر العرش ، فالملك بحكم الوضع كان يستر الانكليز ، ولكن الوزارة بحكم الضعف كانت تكشفه ، فكانت أوزار أولئك وأخطاء هؤلاء تحمل في رأي المعارضة والشعب على الملك ، وكانت الحاشية بعبثها تنفض ظالمته على جدّ البلاط ووقاره شيئاً من العبث ، والشعب العراقي على اختلاف منازعه وعقائده وأجناسه ناقد متمرد طموح ، لا يصبر على نقص ، ولا يغفل عن خطأ .. فقدّر في نفسك كيف كان مصير الملك لو كان غير فيصل (١) .

(١) كان العراقيون يتهمون فيصل أنه يتألم الانكليز ، ويضلع في ركايمهم ، وينفذ سياستهم . وعميد الانكليز يتهم فيصل بأنه يتألم المعارضة ، ويدفعها للمطالبة ، ويحرك الشعب عليهم ..

اضطلع الملك فيصل وحده بأعباء الملك والحكم والزعامة ، في هذه الحال المضطربة ، فكفكف بحكمته من شرّة الانتداب ، وخفف بحنكته من عسف الوزارة ، ولطف بجلسه من غضب الشعب ، وصرّف من شؤون الدولة على قدر ما يسلم الرأي الحصيف من خبث الاستشارة ، وضعف الوزارة ، ثم سهّل حجابيه لأمرء العشائر ورؤساء الطوائف وزعماء الأحزاب ، فاستل ما في صدورهم بالقول اللين والعتاب الهين والشخصية الجذابة ، حتى كان الرجل منهم يدخل قصره وهو عليه ، فلا يخرج منه إلا وهو له . ثم نظر إلى خارج العراق فرأى على حدوده دولاّ يتنزى في صدورهما حقد الماضي ، وطمع الحاضر . فزار تركيا وفرنسا وإيران ، فأحال عداها صداقة ، وجفأها مودة . ثم اجتمع بملك الحجاز ، وأرشد إلى امام اليمن ، فأحكم أواخيه المودة بينها وبينه . ثم هداه تفكيره العملي المرت أن يعالج الانتداب البريطاني بالمصانعة والموادعة حتى انتهى به إلى نوع من الاستقلال يحفظ الكرامة ويعين على النهوض .

دخل الملك فيصل العراق دخول الإمام الحسين ، لا مال أمامه ولا جند خلفه ، ولكن الحسين جرى على سياسة عليّ فهلك ، وجرى فيصل على سياسة معاوية فملك . ثم اعتمد في تأثيل ملكه وإنهاض شعبه على الإخلاص العامل ، والجد النزيه ، وتحامل في ذلك على دمه وعصبه وروحه ، حتى ذهب فيصل شهيد الواجب ، كما ذهب الحسين شهيد الحق .

كان الملك فيصل ملكاً من طراز خاص ، ولعله كان أقرب إلى خلفاء الصدر الأول منه إلى ملوك اليوم : كان ناصع الظرف ، جم التواضع ، رحب الأناة ، طاهر الموادعة ، زاهداً في أهية الملك ، عازفاً عن مظاهر السلطان ، فلا يخدج بتحية ، ولا يمشي في حرس ، ولا يتشدد في حجاب ..

وفي صباح أحد الأيام غدا على المدرسة المأمونية^١ الابتدائية ، ففضى
ردحا من الزمن فيها ، ثم سجل اسمه في ثبوت مدرسيها^(١) .

« كان الملك فيصل في العراق ملك دولة ، ورئيس حكومة وزعيم
أمة . وهو في الاقطار العربية مؤسس نهضة ويمثل فكرة ، ورسول
وحدة ، وداعية سلام ، ومعقد أمل . فإذا هفت النفوس جزعاً لفقده ،
واستولى على العرب الوجوم والخيرة من بعده ، فإن في منطق الحوادث
وطبيعة الأمور ما يسوغ هذا الجزع ، ويعمل هذه الخيرة .

« وكان من أجمل مظاهر ديمقراطيته الأصيلة ، أن تراه في
شارع الرشيد أو في طريق الصالحية ، يقود سيارته بيده ، ويشق
طريقه بنفسه ، دون ربيثة من خلفه ، ولا طليعة بين يديه ، فيسبقه أي
سابق ، ويزاحمه أي سائق ، وقد تبكر ذات صباح الى مدرستك ، أو
ديوانك ، فتراه في ذرور الشمس قد طلع عليك بوجهه المسنون ، وقده
السمهري المشوق ، ورشاقته الرياضية البارعة ، فيسلم عليك ، ويتحدث
اليك ، ثم يتعهد المكان ، ويعرف العمل ، ويودعك بابتسامته الرقيقة ،
وملحوظته الدقيقة .

دعا مرة مؤتمر المعلمين العراقيين ، إلى الشاي في حديقة قصره ، فكان
يجلس الى كل منضدة من المناضد الكثيرة جلسة يفاكه أهلها بجوان
الحديث ، وبنقاشهم في وجوه الاصلاح ، ثم خطبهم في شؤون التعليم
خطبة جامعة ، تمني في سياقها أن يكون معلماً مع المعلمين يؤدي إلى الأمة

(١) كانت تشغل مبنى مدرسة الاتحاد والترقي وقد ازيل بناؤها واصبح ساحة لموقف
السيارات جنب مبنى ادارة اسالة الماء العامة .

هذا الواجب المقدس (١) .

حكى الأستاذ الكبير ساطع الحصري أن وفد الأساتذة المصريين أخذهم العجب وأذهلتهم الدهشة لديمقراطية الملك فيصل يوم دعاهم إلى مائدة الإفطار ، وكان الوفد الجامعي يرأسه أحمد أمين ويصحبه السنهوري والعبادي ، وظلوا أياماً يتحدثون عن ظرفه وتواضعه ورحابته صدره وسعة اطلاعه ، ويقارنون بين ما عندهم في بلاط مصر من الحجاب الكثيف ، والتعالي على الخاصة بلبه العامة ، وكان قد شهد هذا الإفطار الأستاذ ساطع والزيات وبعض أدباء بغداد .

الزيات بصحبة الملك علي

كان الأستاذ الزيات كثير الاصدقاء ، له من وقته الموسع ، وتخففه من واجبات البيت والعائلة ما يفسح له المجال لهذه الزيارات التي يقوم بها في أماسي الأيام وضحوات الجمعة ، فتراه في الصابونجية في زيارة الزهاوي ، وبصحبة الشاعر وبعربته يفسدو إلى ندوة الجمعة في بيت الدفتري ، ويفشى جريدة البلاد يقضي بعض الوقت مع مديرها رفائيل بطي الصحفي الأديب ، ويزور نادي المعلمين ويصحب الاستاذ مصطفى علي في زيارة الرصافي ، ويحضر في أصائل الأيام مجلس الملك علي بن الحسين الذي له ذوق أدبي مرهف . فإذا عساد إلى غرفته في بيت شفيو ، سجل صوراً من تلك اللقائات ، ورسم خطوطاً جلية من ملاحظهم بقلمه الفنان ، فيعرض قسماهم بارزة ، وبصور صفاتهم واضحة ، من ذلك ما كتبه في الملك علي .

قال : -

« كان رضوان الله عليه - مثال الفطرة العربية النقية ، يقبل علي

(١) كان ذلك بعد مؤتمر عام ، وكنت قد حضرت هذه المأدبة السخية ، واستمعت الى خطابه الارتجالي الذي أهب نفوس المعلمين ووطنية ، وأشاع في نفوسهم الرضى عن حركتهم .

زائره بأنسه ، ويمكن جليسه من نفسه ، ويزيل الفوارق بين محدثه وبين شخصه ، حتى يصدر عنه الوارد عليه ، وفي ذهنه صورة من جلاله لا تحول ، وفي قلبه عاطفة من حبه لا تزول ، وفي نفسه أثر من ذاته لا يعفو .

لا يلقي في روعك حين تلقاه طموح الزعيم ، ولا جفاء القائد ، ولا دهاء السياسي ، ولا سورة الملك ، وإنما تجدد في خلائقه فوحة المجد ، وتقرأ في ملامحه عنوان الطيبة ، وتعرف في حديثه لهجة السيادة ، وتذكر في نبرات صوته ولحظات عينه ولفترات ذهنه ، ذلك الروح القوي الذي أنبت في موات الوجود من بني هاشم .

وقارن بينه وبين أخيه فيصل فأعطى كل واحد منهما صورة صادقة . قال :

« حكم فيصل في شروق ملك عائد ، فكان عزيمة لا تسعها قدرة ، وفكرة لا يحصرها أفق ، وطموحاً لا تحده غاية . ولأن علياً حكم في غروب ملك باند ، فكان أمراً لا يمضيه سلاح ، وأملاً لا ينهضه جناح وصلاحاً لا تواتيه فرصة . ثم كان مصير الرجلين مصير خلقين مختلفين ، خلق اتسع لحسده السياسة ، وشبه الحكم ، وأهواء النفوس .. وخلق انحصر بين حدود الشرف الموروث ، وسنن الدين المتبع ، وتقاليد العرب المحتومة . وكان قصره القسائم بالكرادة على الشاطئ الأيمن من دجلة بلاطاً للجلالة الحائرة بين الحجاز والعراق وسورية ، تقضى بين أهبائه الأمور الجسام ، وترف على أفنائه ، الآمال الباسمة ، ولكن حياة بغداد الدافقة بالنعيم الغارقة في اللذة ، لم تستطع أن تنسي الملك الحزين عرشه الصخري في الوادي الجديد ، فكان لا يفتأ يحن إلى ملكه المقصوب حنيناً شعرياً صامتاً يذيب السكلى ، ويستوقد الجوانح ، إلا أن أثره كان لا يبين تحت سمة الملك إلا لمن دخل في أمره ووقف على سره .

« كنت كثيراً ما أقضي أصائل الأيام في حضرته ، وكان مفتي (١) بغداد يومئذ لا ينقطع عن مجلسه . وكان للملك - رحمه الله - عطف عليّ منشوء فيما أظن حبه للأدب ، وميله إلى مصر ، وأنسه بالغريب . فهو يحب أن يناقني الحديث ، ولكن المفتي سألني الله رجل يرى من حقه أن يقول في كل شيء ، وأن يجيب عن كل شيء ، وهو لا ينطق إلا بببيت من الشعر أو أثر من الحديث أو آية من القرآن . أما ارتباط ما يقول بما يسمع ، فذلك ما كنا نعجز دائماً عن فهمه . كان الملك يبدأ الكلام ، فلا يكاد يمضي فيه حتى يقطعه المفتي بحكاية عرضية ، أو مسألة فقهية . فأرفع طرفي إلى الملك لعلي أرى عزة الملك تشع في عينيه ، أو تثور في وجهه ، فلا أجده إلا باسمًا للمتكلم ، صاغياً كالمتعلم ، هادئاً كالشجاع الشاحب في شفق الخريف . على أنه كان يصحح ما يقمض الشيخ من الشعر ، وينتف من الأمثال ، ويتخذ ذلك مادة للحديث ، وموضوعاً للمشاركة فيسفر قوله عن ذوقٍ صاف وبصيرة نافذة . »

رستم حيدر :

وكتب في رستم حيدر ، الذي كان من أساطين الفكر ودهاقين السياسة في العراق ، ومن رجال الجهد والعمل . رافق فيصل الأول يوم تولى أمر العراق ، ودبر ماليته ، ووزر في الوزارات العراقية أغلبها .

(١) المفتي المقصود الشيخ يوسف العطا كبير فقهاء بغداد وخير من كان يدرس المجلة في كلية الحقوق ، أصابه في أيامه الأخيرة مرض عقل أسانه ، كان يجلس إلى الشيخ إبراهيم الراوي كل أمسية يقرأ له على ماء فيبيل به فمه ، فإذا صادف أن حضرت طلب إلي أن أقرأ له في كتاب أو مجلة أو ديوان شعر . وكان ديوان الراوي يزدحم بالزائرين رحمها الله ورحم أيامها ، كانت مطمئنة والناس فيها في بلهنية من العيش الهني .

وكان يتصرف عن فكر ثاقب ، ويعمل بحزم دائب ، ولكن السياسة مع النفوذ الأجنبي غول ، ومع الشعب الناشئ خطر على صاحبها ، ومع الحاشية الطامعة صاحبها يقف على قم البركان . فراح رستم ضحية الجهل والطمع والتعصب . وصفه الزيات بحذر ، وعرض جملة خبره باقتضاب ، فقال :

« رحم الله رستم حيدر ، لقد كان وحده فصلاً في تاريخ العراق الحديث ، وإذا كان في بعض حواشي الملوك رجال للهو والزهو ، وآخرون للتجسس والتمويه ، فإن رستم حيدر كان في حاشية الملك فيصل رجل الجد والعمل . ولم أرَ في المهاجرين إلى بغداد مع صقر قريش أعلم ولا أفهم من رستم حيدر وساطع الحصري . وقد أبلى الرجلان في اذكار النهضة العراقية البلاء الحسن ، هذا في ميدان الثقافة ، وذلك في ميدان السياسة . وكان بينهما مشابهة من جهات كثيرة ، فكلامهما مستقل الفكر له في كل مسألة رأي ، وعلى كل رأي اعتراض ، وكلامهما متقن للعمل يتقضى أطرافه ، ويستبطن دخائله ، وكلامهما صلب الرأي ، يعيبك أن يتابعك على ما تريد . وإذا كان بين الرجلين اختلاف ، فهو الاختلاف الطبيعي بين رجل السياسة الذي يتأثر بالأحوال والرجال والحوادث ، وبين رجل العلم الذي لا يستخدم غير المنطق ، ولا يتوخى غير الحقيقة .

كان المرحوم رستم حيدر ، ظاهر الوقار ، دائم الانقباض ، كثير الصمت ، خافض الصوت ، هادئ الحركة ، ولكن هدوءه كهدوء الماء العميق ، تضطرب في جوانبه الأفكار والأسرار ، وهو ساكن السطح بارد الأديم .

وكان منذ اشتغاله بشؤون العراق مستشار المغفور له الملك فيصل

في سياسته الداخلية والخارجية ، لبحره بعلوم السياسة والمال ، وعلمه بدخائل الأمور ومخارج الحيل . فكانت أعمال العاهل العظيم تجرد مصاديقها غالباً في أقوال المستشار اليقظ .

كان من سياسة رستم الاعتماد بعد « التاميز » على الفرات قبيل دجلة ، لأن الفرات شيعي المذهب ، على ضفافه الحصيبة تنزل القبائل البدوية القوية ، وفي تقويته بالشيعية حيطة من نجد ومودة لإيران . وكان يشيح بوجهه عن مصر لأن هواها في ثورة الحسين على الترك كان مع الخلافة ، ولأن اشتغال طلبتها بالسياسة كان في رأيه مرضاً مخطرأ لا ينبغي أن تسري عدواه إلى العراق . ولعله السياسي العراقي الوحيد الذي يهتم بأحوال مصر ولا يتصل برجال مصر . وكان من رأيه توسيع التعليم الأولي والمهني ، وتضييق التعليم الثانوي ، وحصر التعليم العالي في مدرسة لتخريج الموظفين ورجال الإدارة ، خشاة أن يكثر المتعلمون المتعطلون فيكونوا مصدراً للشغب والإضراب والفوضى . وفي ذلك العهد الذي أرجع بذاكرتي اليه أغلقت المدارس العالية جمعاء ، إلا مدرسة الطب . وكان من أشد المعارضين لهذه السياسة التعليمية الأستاذ ساطع الحصري ، لأنه كان يحاول أن ينشئ الثقافة العامة على قواعد العلم الخالص ، دون أن يحفل بأحوال الطوائف وأغراض السياسة ، ولذلك نحى حينئذ عن سياسة المعارف ..

وكان من خطة المرحوم رستم أن تظل الأراضي الزراعية ملكاً للحكومة ، لتضمن بمنح الزمة ، ومنعها طاعة القبائل وتأديب العصاة . ومتى تحضرت العشائر ، وتوحد القانون ، وعمت المدنية الاجتماعية ، أمكن أن توزع ملكية الأرض على نظام عادل .

لقد كان رستم حيدر عنيداً في رأيه ، صليماً في خطته .

والعناد والصلابة صفتان لا تحسنان فيمن يتولى أمر العراق .

دخلت عليه ذات يوم من عام ١٩٣٢ وهو وزير مالية ، أسأله أن يرد على صديقي حسن السهيل أمير بني تميم ما أخذته الحكومة من أراضيه الملتزمة ، وهو يبلغ خمسة عشر ألف فدان ، فأجلسني إلى جانبه من يسار المكتب الذي 'سفك عليه دمه من أيام ، ثم أخذ يقنعني بالحجج والشواهد أن الحكومة محقة وأن الشيخ مبطل ، ثم عزا المصادرة إلى أمور تتعلق كلها بسلامة العشيرة ، واقامة العدل ، ولم ير نفسه في حاجة إلى ذكر السبب الأول ، وهو أن سيد تميم عضو قوي في حزب المعارضة . فأدهشتني جرأة الوزير ، وأعجبتني لباقته ، وعجبت كيف يصر على مناوأة الشيخ ، وفي سبيل خمسة عشر ألف فدان تخشى الخصومة ، ولكنه نجا من مناوأة الأمير ، لأن الأمير طالب بجد ، ولم ينج من مناوأة الموظف ، لأن الموظف طالب قوت .

قلت لنفسمي :

بهذا العنوان كتب الزيات عن رئيس من رؤوس العراق (أحسبه طه الهاشمي) يحدث نفسه عن أمر الناس في عصرنا ، ويعجب من أثرهم وأنانيتهم ، وأنهم أصبحوا لا يكاد أحدهم يعطف على آخر إلا للطمع في ماله ، أو الخوف من سلطانه ، أو الرغبة في نفوذه . أما تعاطف الجنس للجنس ، وتراحم الرحم للقرابة ، وابتهاج النفس لعمل الخير ، واهتزازها بأنس الصديق ، فقد أصبحت من الصفات الأثرية . والحقيقة أن الناس هم الناس من عهد آدم إلى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها لا تبديل لخلق الله . المصلحة هي التي تحركهم ، والرغبة والرغبة هما اللتان تسيطران على تصرفات الانسان ، إلا في ما ندر ، ولا حكم على النادر .

والشكوى من بني آدم قديمة : (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك
الدماء ؟) الناس مع الزمان ، يقبلون متى أقبل على أحدهم ، ويدبرون
متى أدبر عنه . جاء في مقالته :

« كان ذلك والزمان كـكَلْبٍ يـجـري وراء سيده ، ما دام الرغبة
في يده ، أما اليوم فالزمان حر مفكر لا يتبع إلاّ المبدأ ولا يطيع
إلاّ الضمير .

ولكن الواقع وا أسفاه علمنا أن الزمان لا يزال كـكَلْبِياً ، وأن
المال لا يزال ربا ، وأن حكمة الأولين لا تزال صادقة .

لي صديق من رؤوس العراق المرفوعة بالفضل والنبل والكفاية ، كان
وهو في سلطان السيف وعزة القلم مرجع الرأي والهوى والحاجة ، فلما
نكبتة في نفسه وأهله السياسة' العشواء الجموح ، تجرد كالسيف ، وتفرد
كالأسد ، وأصبح فإذا الوجوه أقباء ، والأنصار أعداء ، والأحياء في
دنياه موتى ، فلا رأس ينحني ، ولا لسان يحمي ، ولا يد تصافح .
وظل وحده ، يعالج مرارة الحزن والحрман والغربة ، حتى صحا الدهر
من غفوته ، ونهض الحظ من كبوته ، فعاد إلى الوزارة ، وعاد الناس
إلى الزيارة ، وقال الوجه العبوس وقال الوجه الذي عبس وأشاح ،
واللسان الذي ذم ونمّ : والله يا مولانا لا يعدل حزننا لغيبتك إلا
فرحنا بأوبتك ، ثم انعكست الصفات في الصحف ، فصارت الخيانة
أمانة ، والبلادة زكّانة ، والعقوبة شهادة »

الملك غازي :

وكتب في مقتل الملك غازي كلمته الافتتاحية الأسبوعية لمحلة
الرسالة وهي تشف عن ألم صادقي ، ومواساة محزون ، لما كان ينطوي

عليه قلبه من الحب للعراق ولكل من يحب العراق . وغازي كان محبوب العراق ، وهو بعد هذا وذاك في فوران الصبا وزهرة العمر ، ربي تربية وطنية ، ونشئة تنشئة بغدادية ، وهذب تهذيباً اسلامياً عربياً ، وأشرب قلبه بغض الاستعمار . لذلك كان مهوى قلوب العراقيين ، وممقد رجاء العرب . كان طموحه هو الذي أوردته موارد الحتف ، وإذاعته الخاصة التي يبدتها بنفسه هي التي أدخلت حبه إلى كل بيت . فحين نعام النزاعي إلى الشعب العراقي كانت الفجعية وكأنها قد حلت في قلب كل أم وأب ، وكان الفقيد أحد أفرادها ، وقامت المظاهرات في كل ربوع العراق ، يندبون - غازي - ويكون الصديق الذي بيت اغتياله بليل ، وهاجم المتظاهرون دوائر الاستعمار ، واتهموا الانكليز وعملاءه بتدبير مقتله ، ولم يصدقوا أنه مات قضاء وقدرأ باصطدام سيارته بعمود البرق ، وأختفى العبد الذي كان خلفه ، ولم يعثر له على خبز ، واتهموا عبد الآله بالمؤامرة .

قال الزيات :

«عرفت خليفة فيصل وهو ولي عهده ، ولم أنل شرف لقائه وهو ملك ، لأنني تركت العراق وأبوه لا يزال على عرش الرشيد ، يدبر الامر بذكاء «علي» ودهاء معاوية . وكانت جلساتنا الليلية في حديقة البلاط المزهرة المقمرة ، حيناً في حضرة الملك وحيناً في حضرة خاله ، تكشف لي قليلاً قليلاً عن مصائر هذه النفس الرغبية الطبيعة التي نبتت في هجير مكة ، وأزهرت في ظلال بغداد ، فكنت لا أنفك منها أمام طبيعتين : طبيعة تتأثر بحاشيته فتسامح وتساير وتمرح ، وطبيعة تتأثر بأبيه فتصعب وتسمو وتطمح ، ولكن المقرر في الازهان كان أن الشبل سينتهي بالضرورة إلى طبيعة الأسد مهما يؤثر فيه طبع الناس وينزل منه قفص الحديقة .

قلّ في الشباب من كان كغازي في سماحة نفسه ، وسماحة خلقه ، ونبيل شعوره ، وسمو تواضعه ، وظرف شمائله . وتلك هي الصفات الهاشمية التي تنتقل في بني الحسين بالإرث ، وتقوى إذا ساعدتها القدوة ، وساعتها البيئة . ولكن ما ورثه هو عن أبيه - صقر قريش - من الجناح الرفياف ، والبصر النفاذ ، واللّب الحصيف ، كان يتيقظ رويداً رويداً مع الزمن والخبرة . فلم يكن بعد قد توثقت آرابه للاضطلاع بالعبء الفادح الذي ألقى على ظهره فجأة . والعبء الذي كان يحمله فيصل من أمور العراق ، هو العبء الذي قسمه الدستور على سلطات الدولة الثلاث ، فجمعته هو على عاتقه . من أجل ذلك لم يضع غازي يده من سياسة العراق العليا موضع يد أبيه للتعديل والموازنة ، وإنما تركها في أيدي الزعماء تجري سفيتها على مشيئة الريح ، تضطرب حين تنور ، وتستقر حين تسكن .

من أجل ذلك امتحن الله الفراتين بالقوة الغشوم ، فحكم الجيش ، واستبد الطيش^(١) ، واضطرب العيش ، وسطت الأيدي المجرمة على عباقرة الأمة . ومن أجل ذلك لا نتوقع لسياسة العراق بعد غازي ما توقعه لها الناس بعد فيصل . والغالب في الظن أنها ستجري في عهد فيصل الثاني

(١) يشير الزيات الى انقلاب بكر صديقي ، وما أعقبه من مقتل جعفر العسكري وزير الدفاع الذي كان يسمى أبا الجيش وله مكانة في جميع الأوساط العراقية والأجنبية ، لما يتمتع به من وطنية ، وطيبة وانسانية ، ومحبة لعمل الخير ، ولو أنه بقي في بيته أو في مقر الدفاع لما أصابه مكروه ، وربما استوزر في وزارة حكمة سليمان لما يربط بينه وبين بكر صديقي من وشائج وصلات ، ولما كان بينه وبين حكمة من صداقة ، ولكن قضاء الله غلب ... وأراد بعباقره الأمة - بسن الهاشمي ورشيد عالي ونوري السعيد وطه الهاشمي وأمثالهم وما أعقب ذلك من الاعتداءات والاعتقالات . وأشدها خطراً هو زج الجيش في السياسة لأول مرة ، فراحت البلاد تتخبّط من سيء الى أسوأ ، وتسابق المغامرون والطامعون باسم الشعب ، والشعب على أيديهم يشقى ويلقى الدواهي عقب كل انقلاب ..

كما كانت تجري في عهد فيصل الأول .

إن مصرع غازي على هذه الصورة الأليمة ، فاجعة تدمي العيون ، وترمض الجوانح . وإن العالم العربي كله يشاطر العراق الحزين أساه على سيد شبابه ومناط أمله ، ولكن للدواهي النسكرك صدمات تهز الشعور ، وتوقظ الفطنة . فتنبه على قدر ما تدهل ، وتوجه على أثر ما تضل . والشعب العراقي من الشعوب الكريمة الحرة التي تصقلها الخطوب ، وتلمها الأحداث ، فتقف بفطرتها السليمة أمام الخطر هوى واحداً ، ورأياً جيمعاً ، وعزيمة صادقة ؛ وسيرى الذين يتحيلون ويتقولون أن ارادته الصارمة الحازمة ستثبت لدواعي الشقاق ونواجس البغي ، وستثبت أن عصر فيصل الثاني سيكون عصره الذهبي^(١) ، فيشتمد بنيانسه ، ويمتد سلطانه ، ويتسع عمرانه ، وتهب من جوف الهلال الخصب عبقریات غفت في أحضان الخلود ، ولكنها لم تمت .

(١) لم يشهد العراق دوراً مضطرباً كدور فيصل وهو طفل غير مسؤول ، وإنما التبعة تلقى على وصيه عبد الاله وروساء الوزارات المتعاقبة ، والتطاحن الحزبي وسوء الادارة . ساس البلاد رجل حقوق لدود لثيم ناعم ، هو الوصي وولي العهد ، فصرف أمور البلاد وفق شهواته ونزواته ، وجر العراق الى مصائب وانتفاضات وانقسامات ، وانقسم الساسة القدامى الذين عملوا مع فيصل الأول وغازي ، وراح يكيد بعضهم بعضاً ، وتحزب الناس ، واشتدت الطائفية ، وتقسمت الى عناصر ، بل والى مدن ، واصطرع الشعب ، ونسوا الاستعمار وكيديه والصهيونية واستفعال أمرها ، وابتعد العراق بسبب هذه السياسة عن شقيقاته ، بل راح يجاهر مصر ورئيسها العدا ، ويفري الاستعمار به بدلاً من مد يد العون له ، وهو الزائد القائد الذي حور مصر من الامبريالية وأمم القناة . وعاش العراق ساخطاً متبرماً يتطلع الى ثورة عارمة تبدل أوضاعه وتقلب مفاهيم أولئك الساسة ويتخاص العراق من عبد الاله وزمرته ، فكانت ذلك صبيحة الرابع عشر من تموز ، فقوبلت بالأفراح ، وابتهج الشعب بالقادة المحررين ، وأمل أن تكون حداً فاصلاً للمآسى والأحزان ، وفاتحة خير لعموم الشعب ، ولكن وأسفاه فقد رافقها الانحراف من ختام الشهرين الأولين لحياتها، وشهدنا انقسامات ومصائب واعتقالات ومظالم وفتناً سوداً راح الناس يترحمون معها على الماضي ، وما زال الحال ، ندعو الله أن يولي أختيارنا . فاذا دعاؤنا يرد علينا فيتسلط أشرارنا وصدق من قال : « كيفنا تكونوا يول عليكم » .

شباب العراق في مصر :

تحت هذا العنوان كتب الزيات حين زار وفد كلية الحقوق مصر في ٣ مارت ١٩٣٦ جاء فيه :

« قبل لأولئك الذين زعموا أن مصر نبت على العروبة ، فقطعت الأسباب الموصولة ، وأبيست الأرحام الندية : تعالوا فانظروا كيف بشتت بالعراق بشاشة الألفة ، ورفست لبنيه رفيف القرابة ، وأشبلت عليهم إشبال الأمم ، قل لهم : تعالوا واسألوا شباب الفراتين : هل كانوا على ضفاف النيل في أرض غير أرضهم ، وبين قوم غير قومهم ، وفي بيئة غير بيئتهم ؟ » .

لقد كان اقبالهم على محطة القاهرة كأقبال الربيع ، واستقبالهم فيها كاستقبالهم العافية . نزلوا من القطار على أكتاف البهاليل من شباب النيل ، وحلوا في قلوب الميامين من رجال الوادي ، وتلاقت العواطف الظامنة على وردي الإخاء والمودة . ودخل الطلاب العراقيون في غمار الألوف المتهلمة ، فتجاذبت الدماء ، وتمازجت القلوب ، وتعاطفت الذكريات ، وتجاوبت الأماني ، وترجمت اللغة ، ثم كانوا طوال الأسبوع المنصرم ، غبطة القاهرة ، وبهجة الأندية ، وحديث الصحف ..

وقال :

« أزيلوا قائم الحدود ، وجددوا دارس الطريق ، تتلاق الوجوه ، وتتعارف الأخوة . واعملوا ما يعمل في العراق رسول الوحدة (يسن^(١)) » .

(١) يسن الهاشمي : كان رئيس الوزارة العراقية يوم زار الوفد الحقوقي مصر ، وكان من أبرز زعماء العراق صدقاً وكفاية .

وفي مصر أمثال الوزير محمد علي^(١) والزعيم « طلعت حرب » ، أزيلوا الحدود تجددوا الاتحاد العربي جارفاً كدعوة « محمد » ، سريعاً كفتوح أمية ، خصيباً كحضارة العباس . هذه هي مصر الصحيحة يا شباب الرافدين ، لا يزال دينها دينكم ، ولغتها لغتكم ، وهواها هواكم . إنها لم تترك ولم تروها لأنها في جوف الحوت ، وها انكم تسمعون حشرجتها الأليمة في حلقه ، وستجيش بين معدته وأضراره جيشان السم الزعاف حتى يلفظها حية سليمة « كيونس » .. حينئذ تتجه « ابنة الشمس » إلى مطلع الشمس ، وهناك يكون مجد العرب اليوم كما كان مجدهم بالأمس ..

« لقد كانت زيارة الطلاب العراقيين فرصة ميمونة لتوثيق الصلات التاريخية المقدسة .. صافحونا بالأيدي ، وخاطبونا بالألسن ، وسمعونا بالآذان ، وزالت الفوارق العارضة ، وانجابت الحجب الكشيفة ، واستبان للناس أن الخيال جان على الحقيقة ، وأن السماع كاذب على العيان ، وأن الوحدة المستحيلة أمر من الواقع » .

وقال :

« إن تاريخ الجدود لينبجس فواراً حاراً في صحون المساجد الجامعة . هل تذكرون ثورة بغداد في جامع الحيدر خانة ؟ وهل رأيتم غضبة دمشق في الجامع الأموي ؟ هل سمعتم صرخة القدس في الجامع الأقصى ؟ هل علمتم وثبة القاهرة في الجامع الأزهر ؟ إن لذلك معنى عجيبيلاً لا يندت عن خاطر ، ولا يلتوي على ذهن . ذلك أن المنارة التي يذكر عليها اسم الله لا تزال هي المكان الذي يرتفع فيه صوت الحرية ، وأن المحراب الذي يقوم فيه الدين لا يزال هو الركن الذي يأوي إليه الحق ، وأن

(١) محمد علي : يريد به محمد علي علوبة باشا، الذي يعد من لوائل الوزراء العاملين لتجميع كلمة الأمة العربية .

الاسلام الذي أَلّف شتيت البدو في الاول هو النظام الذي يجمع شمل العرب في الآخر .

نعي الزهاوي :

« نعي البرق شاعر العراق الزهاوي ، والمصريون والعراقيون في حفلة اتحاد الجامعة ، فكان وقع المصاب في نفوس الفريقين واحداً لا يختلف ، وقام كبير الادباء « طه حسين ، فأبتن كبير الشعراء بكلمة تلقاها الإخوان بمعاطفة وشعور مشترك ؛ لان الزهاوي كان يهزج بأغاريد الفجر على ضفاف دجلة فتتردد اصداؤها الموقظة في ربوات بردى وخمائل النيل وسواحل المغرب . وأدب الزهاوي وأمثاله هو الذي وصل القلوب العربية في مجاهل القرون السود بخيوط إلهية غير منظورة ، ولولاها لما تهبأ للعراق هذه الزورة . وهذه الزورة وأمثالها تتعارف وتتآلف وتتحد . فتعالوا يا أخلاف المجد العتيد ، وأسلاف المجد الوليد ، نتعاون على دفع الأذى عن العزة المهانة ، تعالوا نقر في سمع الزمان أن أمة الرسالة تريد أن تؤدي الامانة » .

هكذا كانت مقالات الزيات تعبر عن إيمانه بالعروبة ، وتعرب عن عقيدته في الوحدة وضرورة التمسك بها ، من أجل تحرير أرض العروبة من يد الغاصب الدخيل . وظل قلم الزيات يواصل الكتابة عن أحداث العراق كلما عراها حادث ، أو حلّ بها مصاب . كتب في حادثة الملك غازي كما رأينا ، وفي الزهاوي والرصافي ، وأبتنها أجمل لتأبين ، لولا جملة انحرف بها قلمه وهو يكتب كلمته في الرصافي ، أسخطت أصدقاء الرصافي على أساس « اذكروا محاسن موقاكم » ولا أحسبه يريد إسقاط أحد أو يريد أن يبغض الرصافي منزلته أو يحط من قدره ، وهو الذي يقول فيه :

« كان الرصافي لسان العراق الصادق ينقل عن شعوره ، ويترجم عن أمانيه ، ويحدو ركبته المجاهد في سبيل استقلاله وعزته بالحداء الحماسي المطرب ، وبصور خلجات نفسه ووساوس أحلامه بالشعر الصريح المعجب . وظل هو والزهاوي ، وشوقي وحافظ ومطران ، حقة من الدهر يؤلفون الاوتار الخمسة لقيثارة الشعر العربي ، ولكل وتر درجته في الرنين والجهارة والأثر » .

أغاخان والرصافي :

وكتب مقارنة بين الرصافي الشاعر العظيم يموت على فراش البؤس والفاقة وأغاخان الذي يزنه أتباعه المؤمنون كل عام بالماس ثارة ، وبالذهب أخرى .. قال :

« في الاسبوع الذي كان الرصافي ، شاعر العربية ، يعالج فيه آلام المرض ، ويكابد غصص الموت على فراش القلق ، في المضجع الموحش ، وكل ما يملكه في حياته الطويلة العريضة ، أسمائه البدوية ، وأشعاره المخطوطة ، في ذلك الاسبوع نفسه كان أغاخان زعيم الاسماعيلية يقعد في كفة الميزان المأثور المشهور ، وبإزائه في الكفة الاولى مئة كيل من سبائك الذهب المصفى ، هي مثقال الزعيم العظيم في هذا العام . خرج له أتباعه في الهند ، وفي غير الهند ، ونفوسهم راضية ، وقلوبهم مطمئنة . إي والله مئة كيل من الابريز الخالص ، هي ضريبة العقيدة ، يقدمها المؤمنون المحبتون كل سنة الى أميرهم المقدس ، ورقابهم من الجلالة خواضع ، وعيونهم من المهابة نواكس ، فيتعطف صاحب السمو بأخذها ، ليظهرهم بها ، ويزكيهم لأجلها ...

وكان الرصافي كذلك أتباع يؤمنون بأدبه ، ويتصلون في الحياة



شاعر العرب الأكبر
المرحوم معروف الرصافي

الروحية بسببه ، فما بالهم تركوه يكتب في وصيته الأخيرة هذه الفقرة التي تستدر الشؤون ، وترمض الجوانح ؟

والفقرة التي أشار اليها الزيات هي : (كل ما كتبته من نظم ونثر لم أجعل هدفي منه منفعتي الشخصية ، وإنما قصدت به خدمة المجتمع الذي عشت فيه والقوم الذين أنا بينهم ، لذلك لم أوفق إلى شيء في حياتي يسمى بالرفاهية والسعادة في الحياة . لا أملك سوى فرائي الذي أنام فيه وثيابي التي ألبسها وكل ما عدا ذلك من الأثاث الذي في مسكني ليس لي بل هو مال أهل الذين يساكنوني) .

وقال : -

ولو شاء الرصافي أن يهادن السلطان ، ويمالئ الحكومة ، وينافق الشعب ، لعاش في أرغد العيش ، وبلغ أرقى المناصب ، ولكنه آثر الحرية على الرق ، واستحب الصراحة على الرياء ، فذهب شهيد كرامته وعفته (١) .

(١) كثر كلام المتأدبين وكررته الصحافة العربية عن البؤس الذي كان يعانيه الرصافي ولا سيما في أيامه الأخيرة ، وراحوا يلومون الحكومة ، ويعنفون في النقد والتثريب ، لاملأها الشاعر الذي أفنى حياته في سبيل العروبة والعراق ، والسياسة يد طويلة في إشاعة هذه الانتقادات واختلاق جو التشويش ..

والحقيقة : أن المواريد التي كانت تتدفق على بيت الرصافي تكفي عائلة كبيرة ، ولكنها تقع في يد خادمه عبد صالح ، فيبيدها ويحتجها لنفسه ، كان له تقاعد بسيط يساري ١٤ ديناراً ، وخصص له الحسن العربي الكبير مظهر الشاوي . : ديناراً يرسلها اليه كل شهر مدى حياته ، وزودته مديرية الخصار التبغ باجازة تدر على من يحسن تصريفها مع ما يخصص معها من الورق والسكر نحواً من مئة دينار على اقل تقدير ، وكان محمود السنوي ومراد سليمان واخوه حكمة سليمان يتعمدون به بالحليب واللبن والرز ، والحكومة تخصه من حين لآخر بالمساعدات.

وقال واصفاً حياة الرصافي :

« قلت لصاحبي - الأستاذ مصطفى علي - ذات ليلة من ليالي في بغداد : أريد أن أزور الرصافي ، فقد زارني مراراً ولم أزره ، فقال : أتشجع علي أن تدخل حي البغايا ؟ فقلت له : وما صلة هذا بذلك ؟ قال : إنه يسكن بينهن ، وقد تزوره واحدة أو أكثر منهن . فقلت له : هلتم ، فما يسع زواره من العذر يسعنا . ودخلنا البيت ، فإذا هو بيت الشاعر الأعزب المتلاف ، لا أثاث ولا نظام ، ولا حرمة . وكلمة الشاعر هنا بدل الأديب تدلك على أن ليس بالمنزل مكتب ولا مكتبة ، فقد كان الرجل لا يقرأ ، وإنما يتكلم على شدة ذكائه ، وحدة فهمه ، ويكتفي بما حصل في شبابه من أدبه وعلمه .

كان في الردهة قوم يأكلون ويشربون ، وفي حجرة النوم آخرون يسمرون ويلعبون ، وكان الرصافي يتصدر هؤلاء : في يمشي كأس وفي يسراه ورق . فلما رأني ، فضّ اللعب ، وأقبل بأنسه عليّ ، ثم أخذ يشرب ، ويتحدث باللغة العامية عن الحقائق العامية ، في غير اكتراث ولا تحفظ . ويظلم الرصافي من يقيد عليه في مثل هذه الحال . ولكن نداساه يروون شعوه ، أو يذيعون حديثه ، فيبلغ صاحب الملك فيغضب ، أو صاحب الحكم فيعجب ، أو صاحب الدين فيصخب ، أو صاحب الخلق فيثور . كل أولئك يعادون الرصافي ، ولكنهم يهابونه لشخصيته ، ويحترمونه لعبقريته ، ويتربصون به سوء المصير .

هذه صورة مصغرة لحياة الفقيه الكريم . أما عقيدته ، فالأمر فيها لله ، لا للناس . وأما شاعريته ، فالحكم عليها للناقد ، لا للمؤرخ ...

واستطرد قائلاً :

« ستقول إن الزعيم اغا خان كذلك صريح حر .. وان صراحته

السافرة وحرية الطليقة لم تبغيا عليه في قومه ، ولم تجر الى الكلام في صلاته وصومه .. والجواب : أن اتباع الزعيم الديني يصورونه في نفوسهم بصورة العقيدة التي يدينون بها ، ويجعلون هيكله المادي رمزاً لهذه الصورة ، ولهذا الرمز ظاهر يراه الأوزاع ، وباطن يستأثر بعلمه الاتباع . فهم يقوّمون ما يبصرون من زيفه ، ويؤولون ما يسمعون من باطله ، ويسبلون على عمله المريب ، ما يسبله الصوفيون من القداسة على الطبل والدف ، والناي والصنج . هذه الآلات في أيديهم غيرها في أيدي القيان والمجان : وهي في نظر الناس لا تختلف في شيء عنها . قل إنها الجهالة ، أو السذاجة ، أو البلاهة ، فلن يقدر ما تقول في الحقيقة ، ولن يغير من الواقع .

أما أتباع الزعيم الأدبي ، فانهم يتخذون صورته من فنه وروحه ، فاصورته في كل ذهن شكل مختلف ، وفي كل قلب أثر خاص (١) .

وطبيعة هذه الصورة أو تلك الصور ، مشتقة من طبيعة الفن ، تتضح تارة وتختفي حيناً وتلوح حيناً ، على حسب استعداد النفوس لتقبل الجمال الفني حالاً على حال ووقتاً بعد وقت ، لذلك كانت عقيدة هؤلاء الاتباع في زعمهم كالعرض المنفك تزول ثم تؤول ، فاذا زالت نسوه كما ينسون السرور والحزن واللذة . وإذا آلت سمعوه ، كما يسمعون البلبل على فنن الدوححة ، يطربون لشده ، ويعجبون بريشه ، ثم لا يعينهم بعد ذلك أيجد الحب والعش ، أم يجيد الفخ والقفص؟ وكذلك

(١) سألت الصديق الكريم مصطفى علي عن زيارة الزيات الرصافي ، فقال : وعدني ان يلقاني في نادي المعلمين ، وكان بطل على شارع الرشيد قرب سوق الصفارين ، فصحبته الى دار الرصافي في (كوك نظر) . وكان الرصافي على علم من زيارتنا له ، فرحب بالزيات وانس بزيارته ، واشركنا في امره .

شأن أصحاب السلطان ، وأرباب الحكم مع رجال الأدب الذين يقتبسون من عقولهم النور إذا أظلمت الخطوب ، ويستمدون من نفوسهم اللهب إذا خمدت العزائم ، حتى إذا استوثق لهم الأمر ، وتنازعوا الغار ، وتقاسموا الفياء ، وأنكروا ما بذل الأدباء وقالوا بلمهجة الساخر البطرة وماذا صنع هؤلاء ؟ لقد قالوا وإن الكلام طبع ، وكتبوا وإن المداد رخيص ، ذلك أن أكثر عشاق الأدب مفاليك لا يملكون لأربابه إلا الدعاء في الحياة ، وإلا الرثاء في الموت . وإذا كان لدى بعضهم فضل من القوت ، لم يجد في نفسه من سلطان العقيدة ما يحمله على المواساة به . ذلك هو الفرق بين العقيدة الأدبية والعقيدة الدينية . فالعقيدة الأدبية سلمية لا تتجاوز الإعجاب بالكلام والإنفاق من الكلام ، فإذا وجدت من يبذل في سبيلها المال ، كان ذلك قطعاً للسان الهاجبي ، أو شراءً لضمير المادح ، أو تزييفاً لصور الحق . وليس في مثل هذا البذل كسب للأدب أو نفع للأديب .

حظك يا معروف هو حظ الأديب منذ كان في الناس أدباء وفي الأرض أدب . يموت أمثالك شرقاً بالبؤس ، كما يموت أمثال أغاخان شرقاً في النعمة ، فلو أن ربك حقق لك ما كان يرجوه شيخك (الالوسي) من رسوخ قدمك في الدين ، وعلو منزلتك في التصوف . إذن خلفته في الزعامة الدينية ، وبلغت في «طريقك» ما بلغ أغاخان في الدنيا ، وتلت من صوفيتك ما نال معروف الكرخي في الآخرة ..

رسالة :

وهذه الرسالة جاءت من آنسة عراقية مفتونة بالأدب ، مشوقة لما يكتبه الزيات . وأرسلت مع الرسالة صورتها ، وكتبت اليه معتذرة

لمفاتها اياه بالكتابة والإهداء من غير تعارف سابق ، وفي ذلك خروج على العرف لصدوره من فتاة . قال :

« يحلو لي أن أهرب أحيانا من زمني الحاضر لإثقاله ، أو إملاؤه ، فأرجع إلى ذكرياتي أجتز منها ما ألدّه ، أو إلى مذكراتي أقرأ منها ما أحب .

وفي هذه الساعة التي أكتب فيها للرسالة شعرت بضيق في الصدر والفكر ، فألقيت بالقلم ، وقلت لنفسي : دعي الكتابة اليوم ، وتعالى نتفرج من هذا الهم برجمة إلى دنيا الماضي ، فلعل في أصدائها الباقية ما يؤنس هذه الوحشة . وتذكرت أن شهر يناير « كانون الثاني » قد عودني الجميل فيما مضى من عمري ، فقد سجلت فيه أكثر ضحكات القلب ، وحسي منها ميلاد ولدَيّ : « رجاء » والرسالة .

فتحت مذكراتي عن صفحات هذا الشهر ، فوجدتني قد كتبت في يومه العاشر من عام ١٩٥٠ هذه السطور :

« ألقى البريد الجوي إليّ في صباح هذا اليوم غلافًا من العراق ، على ورقه طابع الذوق ، وعلى خطه سمة الظرف ، فلما فضضته وجدت فيها رسالة وصورة . قرأت الرسالة والامضاء ، ثم تأملت الصورة والاهداء ، فاذا هما لأنسة من أوانس^(١) بغداد المثقفات قد أولعت

(١) هي مليحة اسحق: فتاة يهودية معجبة بجمالها وشبابها وحوار عينيها وقامتها الفارعة وامتلاء جسمها الغض . هويت الادب فراحت تتعرف على الادباء وتبادئهم باهداء صورتها وتدعوم الى بيتها إن رأت منهم استجابة ، وهي مليحة كاسمها ، خفيفة الروح ، جذابة ، حلوة الحديث .

بالادب ، وأغرمت بأهله . ثم عدت أقرأ ، وعدت أتأمل ، وطال تردد
البصر والفؤاد بين الصورة وهي رسالة الجسم الجميل ، وبين الرسالة وهي
صورة الروح النبيل ، حتى غاب حسي في سكرة من سكرات
الاحلام .

ترامت لي في خلالها أطراف من تعاجيب الهوى والشباب ، تتراقص
نشوى في أزقة « الوزيرية » و « رأس القرية » من مغاني بغداد العزيزة .
ولما عاد الحس أو كاد نظرت إلى الفم الحلو الذي يريد أن يبتسم ،
وإلى الطرف الاحور الذي بهم بأن يقول ، وإلى الشعر المغدودن الفاحم
الذي يسيل على الاذنين ، وأطراف الخدين ، فيجعل الوجه كله صورة من
الفتنة ، فتعود إليّ الغفوة ، وأعود انا إلى الحلم ، وأخيراً تخلصت
قليلاً من سحر الصورة لارى صاحبها الادبية تقول أول ما تقول :
« أعتذر اليك من الكتابة والإهداء على غير تعارف » ، ولم يخجل اعتذارها
الصريح من احتجاج ضمني على العرف الذي يفرق في مثل هذا الصنيع
بين الرجل والمرأة ، فلو أنها كانت فتى كما تقول لما وجدت في الكتابة
إلى مثلي ما يعتذر منه . ثم تحدثت طويلاً عن صلتها بالرسالة وحرصها
على أن تقرأ كل ما أكتب ، وخصت بالذكر رثائي للشاعر المرحوم علي
محمود طه ، وخرجت من ذلك إلى الكلام عن شاعريته وعبقريته .
ثم طلبت إليّ آخر الامر أن أخصص لتأبينه عدداً من الرسالة أكتب
أكثره . كل أولئك في اسلوب رقيق يوحى أكثر مما يعبر ،
ويمتع أكثر مما يقنع . ولم أكد أستوعب الرسالة بفكري ،
وأناقش موضوعها في سري ، حتى تنسألت القلم وفتحت « الالبوم »
وأجبت عن الرسالة برسالة ، ورددت على الصورة بصورة ، ولكن
هيات وأسفاه ! لن تجيب رسالة عقل عن رسالة قلب ، ولن ترد صورة
قبيحة على صورة « مليحة » !

ما أيسر السعادة على ابن آدم لو يدري أو لو يريد ؟ إن كلمة
من قلب مفتوح ، أو بسمه من شفة بريئة ، أو نظرة من عين حبيبة ،
أو فقرة من رسالة شاعرة ، أو نسمة من صورة فاتنة ، لتستطيع أن
أن تنير ما أظلم قلبه ، وأن تفرج ما اشتد من كربته .

إن السعادة فئات وفترات ، فلا تكون في واحد صحيح ، ولا تدوم
في زمن متصل .



موقف الزيات من مقتل حسن سيف

في نهاية السنة الدراسية ١٩٣٨ وقعت حادثة مروعة كان لها صداها المؤلم في العراق وفي مصر ، هي مقتل الأستاذ حسن سيف أبي السعود المدرس في كلية الحقوق ، فقد أطلق عليه أحد الطلاب الرصاص صبيحة يوم الاثنين ٢٠ / ٦ / ١٩٣٨ في مبنى كلية الحقوق وأصيب عميد الكلية الدكتور محمود عزمي برصاصة في كتفه . واستغل الحادث أعداء الأمة العربية ، وراحوا يروجون دعاياتهم المغرضة . وجل قصدهم تمزيق عرى الاخوة والتعاون بين القطرين الشقيقين ، وقد تجلّى تعاونهم بالعديد من الاساتذة المصريين للمعاهد والكليات العراقية ، وكان الحساد مجرداً عن أي عامل سياسي ، وانها نتيجة تصرف شخصي من طالب خائب فاشل ، حدا به جنونه أن يودي بحياته وحياة أستاذ فاضل مخلص في أداء واجبه ، حريص على أمانة العلم والمعلم .. فساء الاستاذ الزيات جموح بعض الاقلام في تعليقاتها على صفحات الجرائد والمجلات ، فكتب يرد على تلك الاقلام ، ويدفع قالة السوء يوم ٤ تموز سنة ١٩٣٨ :

« بين مصر والعراق »

« تجري أحكام القدر على أسباب خافية من حكمة الله ، لا يؤثر

في منطقتها مقتضيات السياسة ولا مناسبات الظروف ولا مجاملات الصداقة ، ولو كان لهوى النفوس ومشينة العقول أثر في تدبير الأحداث ، وتغيير الأقدية ، لما اختل في ذلك الوقت هذا الطالب العراقي المسكين فأراق على ثرى دار الحقوق البغدادية نفس الدكتور سيف ودم الدكتور عزمي . وهما يجاهدان غريبين في سبيل العلم ، يؤديان مخلصين للعراق فروض المودة . وأقول : « في ذلك الوقت ، لأن وقوع هذا القدر المروع في هذه الساعة التي تمنعدها فيها أواخي المصاهرة بين مصر وإيران ، أتاح لبعض النفوس الجاهلة المريضة أن توازن بين ما يفعل إخوان النسب ، وبين ما يفعل إخوان العقيدة .

ومثل هذا الحادث المشؤوم يقع في كل قوم وفي كل يوم ، فلا تضطرم له القلوب ، ولا تضطرب به الألسنة ، ولا تهن منه العلائق . ولكن وقوعه ظمناً على الغريب النافع من القريب المنتفع أعطاه معنى التضحية ، وجعل له تأثير الشهادة . وابن الوطن إذا قُتل في وطنه كان مصابه مصاب أسرته ، وإذا قُتل في وطن غيره كان مصابه مصاب أمته .

أضف إلى هذه الملابس شائعات مكذوبة ، وتعليقات مشوية ، استطار بها السماع فدلست على ألسن الناس وجوه الحكم ، وآذت أصدقاء العرب وعارفيه ، فهبوا يصححون الخطأ في المجالس ، ويعلمون الصواب في الصحف ، رعاية لأسباب الاخاء ، وادامة لتعاون الفكر ، وضماً بأخلاق هذا الشعب النبيل على الأفواه القارضة .

شهد الله أني قضيت بالعراق ثلاثة أعوام ، لم تنلني فيها كلمة تؤذي ، ولا فعلة سوء . إنما كنت أتقلب في بغداد كما يتقلب الطفل على أحناء الصدر الحنون : لا أحسّ غربة ، ولا أستشعر وحشة ، ولا أجد في العميون ولا على الشفاه إلا العطف عليّ والإعجاب بصر .

وربما وجد المصري في غير مصر تناكراً بين وجه ووجه ، وتدابراً بين عاطفة وعاطفة ، إلا في العراق فإنه يجد وجهه في الوجوه ، وهواء في الأهواء ويحس ان الأدب الذي درس ، والتاريخ الذي قرأ ، يتمثلان لبصرته وذاكرته ، في كل شخص وفي كل شيء ، ويرى أن هؤلاء الناس 'خلقوا كما خلق من النهر ذى الغرّين الخصب ، وعاشوا كما عاش على الأرض ذات الطلع والحب ، لا يختلفون عنه في سحنة ولا خلق . والعراقيون من جهتهم يؤيدون حسبانته ووجدانه بالطلعة الآنية والمروءة الجزلة ، والكرم الخض .

كانت مصر اذا ذكرها في المجلس ذاكراً ، نزعَت اليها قلوب القوم ، كما تنزع الأسرة الى عصبتهما النازحين الي بلاد الذهب والأدب والجمال .

وكان للمصريين في بغداد ، على قلتهم ، منزلة ملحوظة بين الجاليات الأخرى ، لا تحوم حولها شبهة الارتفاق ولا سبة التشرّد ، لأن العراق ، وان كان ضئيلاً بخيره على الأجنبي الواعل ، يعرف عن المصري ما يعرفه كل الناس ، من عزوفه عن النقلة من قرية الى قرية .. فكيف بالرحلة من وطن الى وطن ؟ وهذا الذي رأيته بعيني لا أزال أسمع به بأذني من الاساتذة المصريين الذين لا يزالون يسفرون بين الشعبين الشقيقين بالثقافة والمودة . فالأحاديث التي تندس اليوم الى الأندية اندساس الفتنة لا ترجع الى حق ، ولا تذهب الى منفعة .

وهذا الحادث على فظاعته ، ظاهرة من ظواهر المجتمع ، يحدث في الأمم المتمدنة كما يحدث في الشعوب الهمجية ، ويقع من القريب على القريب كما يقع من المواطن على المواطن ، وحققت النفس على النفس من طبائع الإنسان ، وضلال العقل ووهن الأعصاب من آفات الحي ، وما يستطيع غير الله أن يعلم خوافي الصدور وخوائن الأعين . فماذا كانت

تعمل حكومة العراق لتدراً ذلك العدوان الفردي المحتوم ، وقد تهبأت أسبابه خفية في نفس مضطربة ، وأعصاب موهونة وبأس مذل ؟ ان الذين قالوا كان وعيداً كتب ، وتهديداً قبل ، لم يثبتوا بأن الصديق الحليل ، عزمي قد عالج بهذا الوعيد أو أخبراً الحكومة بهذا التهديد ، واذن لا يبقى الا نزع الشباب الذي لا طيب له ، وقدر الله الذي لا حيلة فيه .

إن العلاقة بين مصر والعراق طبيعية ، لم يفتعلها طمع الاقتصاد ولا طموح السياسة ، إنما هي علاقة الدم واللغة والأدب والتاريخ والمجد والعقيدة ، فإذا طاشت يد هناك أو هفا لسان هنا ، فلا ينبغي أن يقع ذلك من البلدين الأخوين الا موقع العبث الضروري الذي لا تكون الحياة الدنيا حياة الا لوقوعه فيها ، ولا يكون الانسان بشراً الا لوقوعه منه . هذه كلمة كنا نود ألا نقولها ، فان الحاجة الى تقرير الود بين الصديقين مظنة لوقوع الشك فيه ، ولكن قعائد البيوت وأحلاس المقاهي لا يحبون أن يزجوا فراغهم الثقيل الا بزخرفة الاحاديث على حساب الحق ، فلم يكن لنا ولهم من هذه الهمسة بد . وقد انبرى كاتب احب العراق والعراق احبه ، هو الأديب صاحب النثر الفني الدكتور زكي مبارك ، فقد كتب فصولا مسهبة دافع فيها عن العراق ، وكان من شهوده . انظر كتاب الامتاز عبد الرزاق الهلالي (زكي مبارك في العراق) .

نضج التفكير القومي :

قدمت نماذج واضحة من نضج الوعي القومي بفضل الكتاب العرب ودعاة القومية ، وأن هذا الوعي وإن بدا مختلفه في بعض الاقطار العربية ، ونوه في بعضها الآخر إلا أن الهزات العنيفة التي تقع في قطر

من أقطارها تثبت ان التماثل والتماسك ، واهتزاز وشائج القربى ، هو الإدراك الحقيقي للامة العربية وانه هو القدر المشترك المجسد للشعور القومي والوعي المتنامي . وان الحكم على شعب لمن يحلو له ان يحكم - بتصريح أديب أو هفوة زعيم من أبناء ذلك الشعب ، بأن الشعب كله يتنكر لأمته ولعروبته بما سبق من هفوات بعض الافراد ، ذلك حكم لا يمثل حقيقة ، وإنما الحقيقة الناصعة هي أن الامة العربية ما فتئت ، منذ مطلع العشرينات من هذا القرن ، تتقارب وتتفاهم وتتناصر وتتوحد برغم القيود المشددة ، والحدود المفككة ، والاحزاب المتخالفة . تراها في أقطارها تتجاوب وتتناصر وتتعاون وتتنادى لدعاء الحرية والاستقلال . في مصر ثورة على الاحتلال ، وفي العراق ثورة على الاستعمار ، ونرى ثورات في سورية وفلسطين وفي المغرب العربي . كل ذلك يثبت للدراس المنصف أن الوعي القومي ينمو وينضج وينتشر حتى عمّ الأقطار العربية مشرقها ومغربها . وهل أدل على نضج هذا الوعي من تلکم المشاركات الجماعية والانتفاضات الشعبية كلما حدث حدث لقطر من أقطارها؟ فترى أبناء الأقطار الأخرى تتجاوب ، وتهتز فرحاً إن نال ذلك القطر انتصاراً على الاستعمار ، وتأسى حزناً ان حلت بأهله نكبة ، فتسارع للمساهمة مادياً وروحياً . وهل نسينا صدى حروب الخطابي وانتصاراته في المغرب وأفراحنا لها ، وأسانا يوم نفي (سعد) وصحبه الى جزيرة سيشل ؟ أولاً يذكر الناس أفراح الامة العربية يوم جلا الاستعمار عن سورية ولبنان ، فاهتزت أقطار العروبة من المحيط الى الخليج ابتهاجاً وغبطة . وتعزيزاً لذلك أثبت مقالة الدكتور طه حسين الذي أشاع عنه البعض آراء كانت سبباً لإشاعة تقولات واتهامات تعدت الافراد الى الشعب كله فراحوا بحسن نية وبسوء نية يرمون الشعب المصري بالفرعونية .

رأى الدكتور طه حسين عن عروبة مصر

أشاع بعض الطلاب في أوائل الثلاثينات رأياً للدكتور طه حسين في عروبة مصر ، وأذاعوا في الصحف ان الدكتور يقول : إن مصر فرعونية ، وانها تتنكر للقومية العربية . أجرى هذا الحديث طلبة عراقيون وشاميون التقوا بالدكتور ، على ظهر الباخرة « شامبليون » وهم في طريقهم الى باريس ، ونشره الكزبري في صحافة الشام ، وتناولت صحافة لبنان والعراق وسوريا الحديث منكرة على الدكتور هذا الزعم ، وراحت تدل على عروبة مصر . وشاع هذا الرأي وتناقلته الجرائد ، وتداولته اللسان ، وصدقه أناس ، ونفاه آخرون . وقد يصح أن يقال إن مصر يجوز لها ان تتشاغل عن القضايا العربية بقضاياها الخاصة ، ويصح أو يجوز أن يقال إن الوعي القومي العربي كان ضعيفاً في نفوس ساستها يومذاك ، لان كفاحهم متركز على مقاومة الاستعمار او منصب في المنافسات الحزبية ، وقد طغى كفاحهم للاستعمار على كل تفكير ، وجعلهم يشغلون عن قضايا غيرهم ، فظهروا بمظهر الاقليمية . ومن هنا جاء عتب ابناء العروبة .

فاستغلت الدعايات المغرضة التي دبرتها الصهيونية ، وروجها عملاء الاستعمار ، وأخذوا يعمقون القالة القائلة بفرعونية مصر ، وينشرون حولها الاحاديث ، ويقابلون الزعماء المصريين وأعمالهم الوطنية بالشبهات ، ويرمونهم بالتنكر للعروبة .

ولا شك أن فكرة القومية والعمل لها في مصر ظلت خافتة ومبهمة في نفوس الكثيرة السكاثة من الساسة المصريين في مطلع العشرينات من هذا القرن ، فلا عجب أن صدرت بعض الاقوال والآراء المرتجلة من

بعض الادباء والساسة . ولكن هذا الوعي قد تبديل بفضل اللقاءات والزيارات بين الاساتذة المصريين وبين اخوانهم من أبناء العروبة من عراقيين وسوريين ، ورأوا بأعينهم ولمسوا بأنفسهم ما كان يمكنه بنو عمومته من الحب والاحترام والتقدير لمصر والمصريين ، وانهم ينزهنلوا منزلة الرأس من الجسد ومنزلة الاخ الاكبر .

فكتب الدكتور طه حسين مقالاً بعنوان :

- بين العروبة والفرعونية - قال فيه :

« الشعب المصري يتكلم اللغة العربية منذ قرون طوال ، ويعيش على الحضارة العربية وعلى التراث العربي منذ قرون طوال أيضاً .. ويشارك في إحياء التراث العربي وتنميته ، شأنه في ذلك شأن الشعوب العربية في اقطار الارض على اختلافها ، من الخليج الى المحيط كما يقال اليوم . وليس من شك في ان حظ الشعب المصري في إحياء الحضارة العربية والتراث العربي ومن ترقية اللغة العربية أكثر وأوفر وأغزر من حظوظ الشعوب العربية الاخرى ، ولا سيما في هذا العصر الحديث . بل في عصور أخرى قديمة كانت الشعوب العربية فيها معرضة لضغط أجنبي يأتيها من الشرق حيناً ويأتيها من الغرب حيناً آخر . وكانت مصر وأهلها أقل البلاد العربية والشعوب العربية تأثراً بهذا الضغط الاجنبي . وليس من السهل أن ينكر مؤرخو الآداب فضل مصر في حماية هذا التراث على اختلاف ألوانه . بهذه الكتب الضخمة التي ألفها علماء مصر أثناء العصر الابوي وعصر المماليك حتى في العصر العثماني حين أطبق الظلام على أكثر الشعوب العربية ، وفرض عليها الجهل فرضاً ، وقطعت الصلة بين الاقطار العربية نفسها . حتى في هذا العصر الذي هو أسوأ العصور في التاريخ الاسلامي ، كان الأزهر الشريف مضباحاً يضيء للعالم الاسلامي

ظريقه ، ويحفظ عليه تراثه العربي والاسلامي .

كذلك كان الشعب المصري منذ ازدهرت الحضارة الإسلامية حفيظاً على هذه الحضارة ، منمياً لها ، مضيفاً إليها ما كان يستطيع أن يضيفه بفضل جهوده الخصبه .

ثم يجادل المجادلون في أن الشعب المصري عربي ، ويزعم الزاعمون أن المصريين يتأثرون بالتاريخ القديم أيام الفراعنة أشد مما يتأثرون بالتاريخ العربي . والغريب أن الناس جميعاً يعلمون أن مصر كانت تجمل التاريخ الفرعوني القديم ، ولا تعرف منه إلا ما كان مسطوراً في كتب التاريخ العربية من هذه الأخبار التي تروي من العصور الانسانية القديمة في غير تحقيق ولا تمحيص ، ولم تعرف مصر تاريخها الفرعوني إلا في هذا العصر حين استكشفت بعض الآثار الفرعونية ، وحين قرئت الكتابة المصرية القديمة . وكل هذا لم يكن إلا في القرن الماضي . فكان حظ مصر إذن من العلم بتاريخ الفراعنة كحظ غيرها من البلاد العربية الى أواسط القرن التاسع عشر . وكانت أثناء العصور الإسلامية للعروبة وللحضارة العربية والتراث العربي واللغة العربية .

أضف إلى ذلك أن القرن الماضي لم يشهد البدء في معرفة التساريخ الفرعوني وحده ، وإنما شهد البدء في معرفة التساريخ اليوناني في مصر والتاريخ الروماني في مصر أيضاً . ومصر ، كغيرها من البلاد الحية المتحضرة ، لا تستطيع أن تقرك علماء الغرب يستكشفون ما كان في أرضها من الآثار ، ويستخرجون من هذه الآثار تاريخ الوطن المصري في عصوره المختلفة قبل الاسلام دون أن يشارك في البحث عن هذه الآثار . وفي استخراج التاريخ منها ، بل في استخراج فروع الحضارة التي عاشت

في أرضها قروناً تعد بالعشرات ، بل ان استكشاف هذه الآثار يفرض عليها أن تحميها وتجدها في فهمها واستنباط العلم منها ، لأن مصر بطبيعتها مضطرة الى المشاركة في كل ما ينفع الناس من العلم والفن والأدب وسائر ألوان المعرفة على اختلافها .

فهل كان الذين يتهمون المصريين بهذه التهمة السخيفة ، تهمة الفرعونية ، والاعراق فيها ، والاعراض عن العروبة ، لا لشيء الا لأن مصر تجدها في حماية ما يستكشف في أرضها من الآثار وفي استخراج ما تدل عليه هذه الآثار من فنون المعرفة كأنهم يريدون أن تعتمد مصر الجهل بما في أرضها من كنوز ، وتحلى بين علماء الامم المختلفة وبين هذه الكنوز يستكشفونها وينقلونها الى بلادهم ، ويستنبطون منها العلم ، ويدرسونه في جامعاتهم ، ويملاون بها متاحفهم ، وتظل هي غافلة لا تسمع ولا ترى ، جاهلة والناس من حولها يملأون صدورهم بالعلم وينشرون من حولهم في بلادهم وفي غير بلادهم ؟ أم هل كانوا يريدون أن تمنع مصر من البحث في هذه الآثار ، وتحظر استنباط العلم منها ، وتفرض على الانسانية وعلى نفسها الجهل بتاريخ أرضها وبالحضارات التي قامت فيها ؟

من أجل هذا لا أعرف أبلغ من السخف ولا أدنى الى هذيان المحمومين من هذا الكلام الذي تردده السنة الفتنة الباغية في سورية من أن مصر فرعونية حريصة على فرعونيتها ، معرضة عن العروبة متنكرة لها .

ومن يدري ؟ لعل هؤلاء السفهاء كانوا يريدون من مصر أن تدمر كل ما يستكشف في أرضها من الآثار الفرعونية واليونانية والرومانية ، لتثبت عروبته وتثبت حرصها على هذه العروبة ومشاركتها في إحياء التراث العربي وترقية اللغة العربية والأدب العربي وسائر ضروب العلم

التي عرفها العرب ، ونشروها في أقطار الأرض ، وأتاحوا لغيرهم من الأمم أن تنهض وتتحضر وتتفوق في الحضارة ، إذ كان هؤلاء الناس يؤثرون الجهل لأنهم خلقوا محبين للعلم مؤثرين للمشاركة في كل ما ينفع الناس ، ولأن وطنهم قد امتاز بحفظ الحضارة الانسانية وحمايتها منذ العصور القديمة .

حفظ حضارة اليونان التي تعيش الانسانية عليها الى الان ، وحفظ الحضارة العربية الاسلامية التي شاركت في إنهاض أوروبا واحيائها ، وسيظل هذا الوطن كذلك وإن رغمت انوف ، وسيظل هذا الوطن الذي نشأت فيه حضارة الانسانية الأولى ، وانتشرت منه ، وملأت الارض من حوله نوراً ، وسيظل هذا الوطن الذي حفظ الحضارة اليونانية وأتاح للباحثين والعلماء منهم كنوزاً لا تقدر ، وسيظل هذا الوطن الذي حفظ الحضارة العربية والتراث العربي ، وأتاح للعرب ولغير العرب أن ينتفعوا بهذا التراث وتلك الحضارة .

فلتردد السنة الفثة الباغية ما شاءت من هذا السخف وأمثاله ، فهي لن تضر مصر ولن تضر المصريين في شيء ، وهي لن تمس عربوية المصريين قليلاً أو كثيراً ، ولن تستطيع أن تنازع المصريين فضلهم في إحياء الحضارة العربية والتراث العربي ، باذلة في ذلك من الجهد والوقت والمال ما لم يبذله شعب آخر . ولتطمئن هذه الفثة الباغية فلن يتحول المصريون عن عربيتهم ، ولن يقصروا في حماية العروبة وفي إحياء التراث العربي ونشره ، لينتفع منه القريب والبعيد ، ولينتفع منه العربي وغير العربي . لأن مصر لا تستطيع أن تغير طبيعتها ، وأن مصر هي ، على رغم الجاحدين والمعاندين ، الأرض التي أثمرت فيها الحضارة العربية والتراث العربي . كما لم يثمر في غيرها من البلاد العربية ، ولا سينا هذا العصر الحديث . وأن تاريخ مصر قد فرض عليها واجباً تراه مقدساً ،

وتأبى أن تقصر فيه مهما تكن الظروف ، وهو أن تتعلم ما استطاعت الى التعلم سبيلا ، وتنتشر العلم من حولها ما وجدت الى ذلك سبيلا ، ولا عليها أن تجحد فضلها في ذلك قلة قليلة من أعداء العروبة ومن أعداء الشعب السوري ، فئة لا هي في العير ولا هي في النفير ،^(١) .

من الجحود ، إي والله من الجحود ، أن نرمي مصر بالفرعونية لنزوات بعض الكتاب من أمثال سلامة موسن ولويس عوض وأصراهما . وهي دعوة روجها الاستعمار وبعض من يطلع في ركابة من المأجورين وتكرار هذه النعمة من بعض كتاب العرب في سوريا أو العراق انسياقا مع دعوة أعداء العروبة الذين يعملون لتمزيق وحدة العرب الفكرية والسياسية . وأرض الكنانة كانت ولا تزال تنزل أبناء العروبة منزلا رحبا ، كانت أيام الاستبداد العثماني مهبطا للمجاهدين من أبناء العروبة من أمثال الكواكبي وآل العظم والشدياق وآل الرافعي وزيدان ومحمد كرد علي ومحمد رشيد رضا والكاظمي . وكانت موثلا للمجاهدين من أحرار العرب من الخليج الى المحيط في حروبهم التحريرية من الاستعمار ، يلقون فيها البذل والعون والعطاء بسخاء وتنزلهم منزلة كريمة ، مثل الثعالبي والخطابي والبشير الابراهمي وأبو رقيبة والبرزاز والسامرائي والدره والصفواني ، وغيرهم كثيرون . تغدق عليهم بكرمها وتنزلهم منزلا كريما ولا تمن على أحد . ورأينا مبادرتها لنصرة الجزائر وتونس وليبيا ولبنان وسوريا والعراق واليمن ، كما رأينا نصرتها للاقطار العربية شرقا وغربا ، وهي تتحمل اليوم العبء الأكبر في كفاحنا مع الصهيونية والاستعمار .

(١) انظر كتاب كلمات للدكتور طه حسين من ص ٢٦ - ٣١ منشورات دار

الملايين ١٩٦٧ .

وهذه جامعاتها تفتح أبوابها لأبناء العروبة من مختلف شعوبها وأقطارها ،
ولا تقف بوجه طالب قصدها حتى ولو تجاوز الوافدون العدد المحدود ،
وفد تتجاوز بذلك نصوص القوانين المبطّقة على أبناءها المصريين .
والنمضة الحديثة في شق أقطار العروبة مدينة لمصر ولأساتذتها الذين
يعملون مخلصين في حقل التعليم الجامعي والثانوي ، فهل بعد كل هذه
التضحيات التي تقدمها مصر للعروبة مجال لتقولات المغرضين من أعداء
الأمّة العربية ؟ وهل يصدق تخرصاتهم عربي في نفسه بقية من أنصاف ؟

الدكتور زكي مبارك يدافع عن العراق

على أثر ما أشاعه المغرضون ، ورددته السنة السوء ، وبعيد مما
دحيته أقلام الذين يحبون أن تشيع الفاحشة ، كتب الدكتور زكي مبارك
في ١٩٣٨/٦/٢٩ مقالاً بعنوان « فاجعة بغداد » نشرته جريدة الأهرام ،
وأثبتته في كتابه « من وحي بغداد » ، ومما جاء فيه :

« أما بعد ! فقد تكون لهذه الفاجعة عقابيل ، ولكن واجبي نحو
وطني أن أعلن جهرة ، أن هذه الفاجعة لا يجب أن تفسد ما بين مصر
والعراق عن الصلات الثقافية ، فالطالب الجاني كان مريضاً ، وقد ضعفت
أعصابه تحت تأثير المرض والقيظ ، فجنى ما جنى غير مسؤول ، ثم قتل
نفسه بعد ذلك ... »

أشهد صادقاً أن مصر لها في قلوب أهل العراق أجمل مكان .

وأشهد صادقاً أنني لم أر من أهل العراق غير الجميل ...

وأشهد صادقاً أن حكومة العراق وجمهور أهل بغداد عزونا في هذه
الفاجعة أجمل عزاء .

وأشهد صادقاً أن العراقيين إخوان أعزاء ، لا يضمرون لنا غير
الحب والعطف والوداد .

وقال : « ما لقيني إنسان بعد هزد الفاجعة في بغداد إلا قال : ما عسى أن يقول فينا المصريون ؟ فكنت أجيب : لن يقول المصريون فيكم شيئاً يا أهل العراق ، فتلك أقدار قضت بما قضت ، ولا يثور على الأقدار إلا غافل أو مخبول .

أيها العراقيون : إن همومكم من همومنا ، وأحزانكم من أحزاننا ، وقد شاء الله أن يجمع بيننا وبينكم رباط من الحزن والدمع وهو رباط وثيق ، وقد تفردت مصر بأن يكون لها في أرضكم شهيد ، فارعوا هذا العهد ، فهو أصدق العهد ..

أيها العراقيون : ثقوا تمام الثقة بأننا نحبكم ، ونعطف عليكم ، ونتمنى لكم الخير والعافية . ثقوا بأن مصر يسرها ويرضيها أن يقال إنها اتصلت بكم بسبب الدماء .

أيها العراقيون : هل تذكرون قول شاعركم المتنبي :

فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً
فأفعاله اللاتي سررن أوف

إن ذكرتم هذا البيت ، فنحن نذكر أنكم إن كنتم أسأتم إلى أحد فقد أحسنتم إلى أوف ، وما أسأتم إلى أحد منا ، وإنما أساء شاب مسكين بكينا عليه حين رأينا أهله يصرخون ويولولون ، إن من الجريمة أن تنسب هذه الجريمة إلى أهل العراق ، هي جريمة فردية يسأل عنها جانبها المسكين الذي قتل نفسه بلا ترفق ، هي سحابة صيف ، سيعقبها الصحو والصفاء .

أيها العراقيون : لقد ساعني أن تنزعج صحافتكم وأنديتكم على سمعتكم القومية ، فاسمحوا لي بأن أعتذر عنكم وأن أصرح بأن الله حكمة في

مستور الغيب .

وقانا الله وإياكم شر الفتن ، وهدانا جميعاً إلى سواء السبيل^(١) .
والدكتور زكي مبارك مواقف متعددة تنضح بالقومية ، وتلهج بأواصر
القريبى ، وقف بالمرصاد لكل من كانت تسول له نفسه ببذر بذور الفتنة
بين مصر والعراق ، فكتب مقالاً بعنوان :

« مكانة مصر في العراق »

« ليت قومي يعلمون كيف يحبهم أهل العراق ؟
ليت قومي يعلمون كيف يفرح أهل العراق لفرحهم ، وكيف يحزنون
لحزنهم ؟

ليت قومي يعلمون كيف يسير ابنائهم في بغداد والحلة والموصل
وكركوك والنجف و كربلاء والبصرة وما إلى هؤلاء من حواضر العراق ؟
ليت قومي يعلمون كيف تسود مجلاتهم ومؤلفاتهم وأناشيدهم في
مضارب العشائر ، وكيف تكون أغانيهم راح السامرين على شواطئ
دجلة والفرات ؟

إن العراقيين يحبوننا أصدق الحب ، فليعرفوا جيداً أننا نحبههم ، ونتمنى
لهم كل خير ، وننظر إلى بلادهم نظرة الأخوة الصادقة التي لا تضمّر غير
العطف والصدق .

وستذكر مصر أن العراق رآها أهلاً للحمل الأمانة العالمية ، فسكنها من
غرس أصول الثقافة الحديثة في رحاب دجلة والفرات ..
وسيدكر العراق أن مصر كانت عند ظنه الجميل ، فلم ير من أبنائها
غير الصدق والاحلاص ، ويرحم الله من قال^(٢) :

(١) كتاب الهلاي : زكي مبارك في العراق ص ٢٠٧ - ٢١٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢١٣ - ٢١٤ .

أذكرونا مثل ذكرانا لكم ربُّ ذكرى قربت من نزحنا
واذكروا صبأ إذا غنتى بكم شرب الدمع وعاف القدحا .

وكتب الدكتور زكي تقريراً إلى وزير المعارف ، وكان يومئذ المؤرخ
الأديب الدكتور محمد حسين هيكل مؤلف « حياة محمد » وكتاب في « منزل
الوحي » وشفع تقريره بهذه الرسالة :

« أيها الأستاذ الجليل ،

سترى في هذا التقرير صفحات تشرح الحوادث التي كانت سبباً في
وقوع فاجعة بغداد ، فاقراً تلك الصفحات - غير مأمور - لترى أن
ما وقع لم يكن أثراً لعداوة موجهة الى الأمة المصرية ، وإنما هو نتيجة
تصرفات أوقعت فيها المقادير بعض الناس لنعرف ما في أنفسنا من
الصلاحية للاستبسال في خدمة المقاصد العالية بمعاهد الشرق .

وكان في نيتي أن أطوي تلك الصفحات من هذا التقرير ، ولكن
دعاني إلى اثباتها ما عرفت من أن بعض المفسدين يريدون أن يجعلوا
تلك الفاجعة نهاية الصلات الودية بين مصر والعراق ..

وأرجو أن تعرفوا أنني لم أتلف في سرد تلك الأسباب ، ولم أضف
اليها شيئاً يلميه الفرض في مراعاة مصر أو التحامل على العراق ، وإنما
وقفت موقف الرجل الأمين الذي يقدر المسؤولية أمام الله وأمام التاريخ .
وعند قراءة الفصول الخاصة بتلك الفاجعة ، سترون أن الله قدر ولطف ،
فلم تكن تلك الحوادث الا سحابة صيف ، وقد تقشعت بفضل الله
الكبير المتعال .

وإنما أدعوك إلى النظر في الأسباب التي دونتها بنزاهة في هذا
التقرير ، لأن تلك الفاجعة عرضتني إلى شبهات أشد ظلاماً من حظوظ

الأحرار من الأدباء ، فقد أشاع المرجفون أن لي غرضاً في دفع مقالة
السوء عن العراق في هذه البلاد . وما اذاع هذه الفرية الأنيمة إلا أناس
حميت أعراضهم بقلمهم ولساني ..

يرجون عثرة جدنا ولو اتهم لا يدفعون بنا المكاره بادوا
وقال فيها :

« لقد قلت ما قلت ، وكتبت ما كتبت في الدفاع عن العراق ، ومن
الله وحده أنتظر حسن الجزاء . فمن كان له هوى في أن يصدني عن قول
الحق ، فليمض في ضلاله كيف شاء ، فما أنتظر العطف من أحد ، وقد
أقمت حياتي الأدبية على قواعد من الحديد » .

تاريخ العراق المعاصر

في حياة الشبيبي

نقشة مصدور لما كان يلقاه الأحرار من الذين صرفوا أمور العراق وفق مصالحهم الخاصة وما كان يرسم لهم .

قرأت في بريد مصر الأخير النبأ التالي : « وافقت مشيخة الأزهر الشريف على قرار يقضي بتعيين الاستاذ أحمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة مديراً لمجلة الأزهر براتب قدره ٢٠٠ جنيه » .

هذا ما روته صحف مصر في الايام الأخيرة ، وهو نبأ رأيت أن أفق عنده لحظة للعبرة ، وهذا الخبر لا يعنيني الا من حيث دلالة البالغة على ارتفاع قيم الادب ورواج بضاعته في بلاد ، وكسادها في اخرى .. نحن نعيش في بلد تطاول غيرها بالكلام الفارغ والدعاوى الباطلة ، لا بالعمل . فما أبعد الشقة بيننا وبين هؤلاء الذين نطاولهم من هذه الناحية .

ان اختيار صاحب مجلة الرسالة لادارة مجلة الأزهر اختيار موفق فان صاحب الرسالة كاتب أو صحفي مصري ، عرف ببلاغته وترسله وبمقالاته التي يدبجها في مجلته . ولا شك أن أمثاله غير كثيرين في

أقطار الشرق العربي . ولكن هذه الاقطار انجبت كتاباً وصحفيين وأدباء من طبقة الاستاذ المذكور . ما في ذلك من ريب . الا أن الفرق بين البلدين بعيد ، فهذا بلد يعيش اعلام الأدب والترسل والصحافة فيه معززين مرفهين مقبلين على شأنهم في الانتاج والتأليف ، وهذا بلد آخر تعاني هذه الطبقة فيه أنكد عيش يمنعها عن العمل والانتاج ، فيموتون وتموت معهم بنات أفكارهم بدون أن يحسب لهم حساب في كثير من الأحيان .

لماذا يفتت هؤلاء المبدعون من الأدباء - ناظمين وناثرين - حبات قلوبهم ؟ ولماذا يذيبون أدمغتهم ؟ أليس من أجل سنّ المناهج اللاحقة وتعبيد الطرق الواضحة ، طرق الهداية والارشاد ، ليسلكها الناس الى الفضائل والمحامد ومكارم الأخلاق .

أجل ، هذه هي رسالة المبدعين من الأدباء ناظمين وناثرين . وإلى ذلك مرد هذا الاكبار والاجلال لهم ، والحفاوة البالغة بهم لدى الشعوب الناهضة قديماً وحديثاً . وكثيراً ما رأينا في بعض البلدان المتأخرة ان المحول والزراية والاحتقار نصيب الأديب أو الكاتب المبدع .

لذلك نرى للادب دولة في عصور دون عصور . ولا يعرف الفضل إلا ذووه والناس أعداء ما جهلوا . وما أكثر عدد الأغبياء والجهال المنحطين بين المعننين بشؤون الحكم والسياسة في هذه الأيام !

* * *

عقد مجمع اللغة العربية في القاهرة حفلاً تأبينياً للفقيد الشيخ محمد رضا الشبيبي ، كان المتكلم فيه زميله وصديقه فقيدها الزيات ، قال :

« رحم الله أخسانا الشبيبي .. كانت كرسیه في مؤتمر المجمع متميز الوجود ، مرموق المكانة ، ظاهر الجلالة . وكان جهده العملي في المؤتمر واضح الأثر جاني الثمر خصب الانتاج ، وكان مكانه في العراق مكانة

القائد المتبع ، تحلقت من حوله النوازع الجديدة في النجف ، وتجمعت من ورائه المبادئ الحرة في بغداد ، فقاد حركة الاصلاح الديني في الجامع ، وجاهد في سبيل الاصلاح السياسي في الحزب ، وشارك في معركة التحرر من الانكليز في الشعبية . وكان تاريخه كله مثلاً في الشجاعة والحفاظ والاستعلاء والأنفة ... ومن جرائر هذه الحلال عليه انه لم يتول منصباً ، أو يتقلد وزارة الا استقال بعد قليل . أما الباعث فإمسا يرجع إلى وطنيته ، وإمسا إلى سبب يمت إلى كرامته .. استقال من وزارة المعارف مرتين ، مرة في سنة ١٩٢٥ لاختلافه مع رئيس الوزراء على اتفاقية النفط الأولى ، وأخرى سنة ١٩٣٥ ، لاختلافه يومئذ على سياسة التعليم واختيار المعلم ، واستقال من رئاسة المجمع العلمي العراقي وعضويته سنة ١٩٤٨ لعوائق من الأذى وضعها في طريقه خصيمه المبين نوري السعيد ، واستقال من مجلس النواب سنة ١٩٥٠ مع النواب المعارضين الخمسة والثلاثين ، لاستطالة بعض الأعضاء الحكوميين على حرم المعارضة ... ثم دعاه التصوّت والاحتشام إلى ضرب من العزلة الشاعرة ، ابتدأت في حوش من أحواش النجف ، وانتهت إلى قصر من قصور الكرادة ، فقليلاً ما كان يغشى مجلساً ، أو يشهد مجتمعاً ، أو يحضر منتدى . لم يكن كمعاصرَيْه الرصافي والزهاوي حديث مجلس ، أو نديم ملهى ، أو سمير أنس أو شاعر حفل أو صاحب فكاهة ، إنما كان طريقة وحده في سمو الخلق وشرف الصحبة ونبيل الغرض . ولذلك انحصرت شهرته بين طلاب الأدب الرفيع من الخاصة وأقطاب الرأي المعارض من الساسة .

كان وهو متربع في حجراته المتواضعة في النجف على حشيشته الضيقة فوق حصيرته الواسعة ، وأوراقه منشورة أمامه ، وكتبته منشورة حوله يرقب طالع العهد الجديد من بلاط الملك الهاشمي في الرصافة ومن دار المعتمد البريطاني في الكرخ ، فيرى الإرادة العربية مكبلة بالقيود



الشيخ رضا الشبيبي

الانكليزية ، لا تتحرك إلا بقدر ، ولا تتصرف إلا بإذن ، فيجيش صدره بالشعر المثير ، ويتحرك لسانه بالنثر الموقظ ، فتتناقل الأفواه هذه الصيحات على شواطئ الفرات من الكوفة والحلة إلى الناصرية والبصرة ، فتفعل فعلها الساحر في نفوس الشيعة الناقمين على الاحتلال والحكم والملك ، وعلماء النجف ومنهم الفقيد ، كانوا في عهد الغزو الانكليزي كما كان علماء الأزهر في عهد الغزو الفرنسي لمصر ، اليهم يرجع الأمر ، وعنهم يصدر التوجيه ، وعليهم يعتمد العامة .

كنت في مطلع العام الثلاثين من هذا القرن في بغداد أؤدي واجباً أدبياً في دار المعلمين العالية ، وكان الملك في أيدي العرب ، والحكم في أيدي الانكليز ، والمناصب أعلاها في يد هؤلاء ، وأدناها في يد أولئك ، فكانت الحال في ذلك الحين محنة ابتليت بها كفاية الملك ؛ فالانتداب البريطاني كان قبل الملكية يعمل في العلن ويحمل التبعة ، فأصبح بعدها يعمل في السر ولا تبعة عليه .. والحكومة العراقية ، كانت بادية البلى ممزقة الجوانب ، لا تستطيع بحرقها أن تستر العرش ، فالملك بحكم الوضع كان يستر الانكليز ، ولكن الوزارة بحكم الضعف كانت تكشفه ، فكانت أوزار أولئك وأخطاء هؤلاء تحمل في رأي المعارضة والشعب على الملك ..

والشعب العراقي على اختلاف نوازعه وعقائده وأجناسه ناقد متمرد ، طموح ، لا يصبر على مقت ولا يفقل عن خطأ . وكانت الشيعة أشد الناس ضيقاً بهذه الحال ، لأنهم كانوا على كثرة عددهم ووفرة ثرائهم ، قلبلي الحظ من المناصب القيادية . ومرجع ذلك إلى أن الذين مالوا فيصلا في ثورة العرب على الترك في الحجاز وآزروه على تبوء العرش الأموي في الشام وهاجروا معه بعد ميسلون إلى حاضرة الملك العباسي في العراق .. كانوا من الضباط العراقيين السننيين الذين ربّتهم تركيا في

مدارسها ، وأعدتهم للحكم والحرب ، كجعفر العسكري وياسين الهاشمي ونوري السعيد ، فثبتوا أركان الدولة ، وتقلدوا مناصب الحكومة ..

والشيعيون في العراق ، والمارونيون^(١) في لبنان ، كانوا في خلافة بني عثمان كالموالي في خلافة بني أمية . أبعادوا عن مناصب الدولة ، فاشتغلوا بالعلم ، وحيل بينهم وبين موارد الثقافة في عاصمة الخلافة ، فاعتمدوا في التعليم على أنفسهم^(٢) . وكان اعتماد الشيعة في التعليم على النجف . والنجف كانت كالأزهر لا تخرج الا فقهاء في الدين وعلماء في اللغة . أما سائر الشعب فقد ظل تابعا لهؤلاء ، يسير على هديهم ، وينزل على حكمهم ، ويجري أمور دينه ودنياه على سنتهم . فلما كانت الملكية الفيصلية لم تجد في أكثرهم من يصلح للوظائف العامة ، فتولاها إخوانهم من أهل السنة . لذلك كان أول ما أثار عجيبي بعد قدومي الى بغداد أني وجدت وزير المعارف أمياً يختم ولا يوقع بقلم . فلما سألت عن السبب ، قيل لي : إن العرف جرى بأن يكون في الوزارة عضو شيعي ، وهذا الرجل ثري مسالم ، فوقع اختيارهم عليه .

ولا ضير أن يكون وزير المعارف أمياً ما دام الأمر كله بيد المستشار الانكليزي . وقد جربوا في الوزارة من جربوا من أئمة الشيعة فلم يحمدوا التجربة ، لأن هؤلاء العلماء كانوا يستريحون بحاشية القصر ، ويستوحشون من دار الاعتماد ، فأرادوا أن يغلوا أيديهم ويكفّوا من ألسنتهم ، فمنعهم وردّ الفرات ، والفرات نهر الشيعة تنزل على ضفافه الخصبية القبائل البدوية ، ويفرض المجتهدون بقواه المادية والزوجية ،

(١) لأن الشيعة في نظر العثمانيين هوامم مع ايران ، وان المارونيين ضلعهم مع فرنسا .

(٢) المدارس لم تمنع عنهم ولكنهم هم أمتنعوا عنها . لأن أكثريتهم اشتغلوا في التجارة ، وقليل منهم طلبوا الفقه رعلوم الدين لأنه مصدر للدنيا والآخرة .

وتقسمت الأهواء والآراء سياسة البلاد ، فحزب يؤيد الانتداب لأنه سند العرش وانتظام الحكومة ، ومصدر القوة ، ويتزعمه نوري السعيد . وحزب يناصر الشعب لأنه صاحب الأرض ومادة الجيش ومصدر الانتاج . ويتزعمه ياسين الهاشمي . وهوى الشيعة طبعاً مع هذا الفريق لبعض الأسباب التي ذكرت^(١) (كذا) ، وفقيدنا الشبيبي كان في بؤرتها من الاحداث ، يتجمع فيه شعاع الوطنية ثم ينتشر عن شعره ونثره هدى للقلوب وضياء في الاعين . كان هواه مع المعارضة فاذا وزر ياسين أدناه ، وإذا وزر نوري أقصاه ، فتولى وزارة المعارف خمس مرات لم يلبث في كل مرة إلا بمقدار ما يصمد بحزبه من دسائس البلاد ووساوس الانتداب ، وقليلاً ما يصمد . فما الذي جعل من طالب العلم الديني في النجف الاشرف عالماً ذا كتاب ، وكاتباً ذا قلم ، ومحارباً ذا سيف ، وسياسياً ذا وزارة ، ومصلحاً ذا رسالة ، وجميعاً ذا رأي ؟!

إن نسبه العريق في العلم ، وإن حياته الطويلة في العمل ، ليجيبان عن هذا السؤال أبلغ الجواب :

ولد محمد رضا بن محمد جواد بن شبيب بمدينة النجف سنة ١٨٨٨ في أسرة معروفة بالعلم ، موصوفة بالسيادة ، فقد كان جده شبيب الذي ينتسب اليه ، من اعلام الفقهاء المحدثين في عصره ، وقد ورث بنوه فيما ورثوا ، الميل الى علوم الدين وما يقيم عليها من وسائل ، فتهمساً رضا لتلقي الأمانة بحفظ القرآن وتعلم الخط على مقرئةٍ صالحة ، ثم طلب علوم اللسان والعقل على طائفة من خيرة علماء العرب والفرس ، ذكرهم في ترجمة حياته . . وكان ميله الغالب الى علوم المنطق والفلسفة والأدب ، فقرأ فيها أمهات الكتب ، وجمع منها نواذر المخطوطات ، وكان منهج

(١) العناوين والكثرة مع الحاكم القائم ، ولا رأي لهم .

التعليم في النجف على النمط القديم ، يلزم الطالب أستاذاً بعينه ، حتى يخرج منه فيه ويخبره به .

الا أن مجالس كانت تعقد في أروقة النجف يفتشها كثير من الطلاب ليستمعوا إلى محاضرات في الأصول والفقه يلقىها أئمة العصر ، كمجلس الأصول للملاّ كاظم الخراساني ، ومجلس الفقه لفتح الله الملقب بشيخ الشريعة . وكان من بين هؤلاء الطلاب فقيدها الشيخ الشيباني .. فلما استجار شبابه واكتملت آلاته وبرزت شخصيته ، تحركت في نفسه نوازع القيادة الأصيلة في بيوت العلم في النجف . وعلماء الشيعة في العراق وإيران ظلوا في جميع العمود قوامين على الناس ، لا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا بإشارة من مجتهد أو مقالة من عالم . لأن وراثته الأئمة الاثني عشر كانت فيهم ، وجباية الصدقات كانت في أيديهم .. ومن هناك نشأت لهم في المجتمع الشيعي أرسنقراطية طبقية وزعامة قومية ، كان لها في أقاليم الفرات الأثر الفعال في كل ثورة ..

والشيباني كان واحداً من هؤلاء العلماء يرى في نفسه ، بحكم مرابه ، وطبيعة بيئته ، زعيماً بطبعه ، سياسياً بنشأته . فلم يكف فجر اليقظة العربية يسالوح في الأقطار العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى ، ومنها العراق ، حتى ألتف من شباب النجف والكوفة وكربلاد والحلة جماعة تدعو إلى الإصلاح السياسي والاجتماعي ، وجعل يذيع منهج هذا الإصلاح بشعره ونثره في المجلات المغربية والسورية والعراقية . ويقول مؤرخو الأدب العراقي الحديث إنه من أوائل من طرق الموضوعات الاجتماعية وتناولها في شعره من بين شعراء العراق ، وأولهم على الاطلاق بين شعراء النجف . ومنذ يومئذ أخذ ذكره يسير ، وشعره يروى ، وأمره يظهر ، حتى احتل الانكليز العراق ، وأقاموا حكومة من ضباط الجيش تستند إلى حاكم بريطاني عام ، لا إلى زعيم عربي مستقل . فرأى العراق أن

وعد مكاهون مكذوب ، وأن عهد الحلفاء منقوض ، وأن الغدر بالعرب مبيّت ، فهبّ يطلب من المحتلين أن يكشفوا الغطاء عن بصره ليرى ، وأن يرفعوا الكمامة عن فمه لينطق ، وأن يعقدوا مؤتمراً يمثل الشعب العراقي ليقرر نظام الحكم ، ويختار رئيس الدولة . فأبى الانكليز عليه ذلك ونفوا من نفوا واعتقلوا من اعتقلوا . فثار العراقيون عليهم ثورة الأباة الأعزة بعد أن أفتاهم أئمتهم بالجهاد المسلح ، وغذاهم أدباؤهم بالشعر المثير ، وذلك قول الشيبني :

بني يعرب لا تأمنوا للعدي مكرًا
خذوا حذرکم فالقوم قد أخذوا الحذرا
يريدون فيكم بالوعود مكيدة
ويبعثون إن حانت بكم فرصة غدرا
فلا يخدعنكم لينهم ، وتذكروا
أضاليلهم في الهند ، والكذب في مصرا
ومن مات دون الحق ، والحق واضح ،
إذا لم ينل فخرًا ، فقد ربح العذرا

وكان من رأي الشيبني في الاجتماع الذي عقده الحاكم الانكليزي في النجف أن تقوم في البلاد دولة عربية سيّدة ، وحكومة دستورية مستقلة . فلم يكد الحاكم العام يدرك ما قال حتى قاطعه بضربة من يده على المنضدة . فثارت الحفيظة بالعربي الأبي ، فانتفض انتفاضة الغضب ، وولى ظهره الحاكم وخرج . وخرج معه أكثر القوم . ثم أخذ يورث النار على الغزاة بين قبائل الفرات ، مرة بالدين ، ومرة بالشعر . حتى رأى هو ورفاقه أن يصلوا أسبابهم برجال الثورة العربية في الحجاز وسوريا ليوحدوا ألوية الجهاد في مختلف البلاد ، فجمع الحقائق ، وحرر الوثائق ، وسافر مندوباً

عن العراقيين في أواخر سنة ١٩١٩ إلى مكة عن طريق البادية ليقابل الحسين ، ثم إلى دمشق ليلقى فيصل ، فكانت واثقه التي حملها ، وحقائقه التي رواها ، قوة من الحق والواقع تجهّز بها فيصل أمام الحلفاء في مؤتمر الصلح . ثم قرّر قراره في دمشق سنة كاملة شارك في حوادثها وجرى في مجارها ، واجتهد لياسين وصحبه بالمشورة ، وتحجى الملك وحاشيته وجوه النصيحة ، حتى قررت عصبة الأمم أن الأقطار التي انفصلت عن تركيا لم تبلغ الرشد ، فلا بد أن تقوم عليها وصاية من الدول الكبرى ، فانتسدت انكلترا لفلسطين والعراق ، واختيرت فرنسا للبنان وسوريا . فخرج العرب بذلك القرار من ظلم معلوم إلى ظلام مجهول ، ومن استبداد الفوضى الى استعداد منظم ، ومن سلطان دولة ضعيفة إلى سيطرة دول قوية .. هنالك عصفت النخوة في نفوس الأدياء ورؤوس القادة ، فقطرت الأقلام سماً في هجاء الحلفاء ، وسالت النفوس دماً في وقعة ميسلون ، ولكن قدر الله غالب ، والمعتمد على غير الله مغلوب ، فانتقم الصليبيون من العرب ، وانتصر القائد غورو على الملك فيصل ، وتبددت فكرة الجامعة العربية كما يتبدد الحلم الجميل في حقيقة اليقظة ..

رأى الشبيبي ذلك كله بعينه . رأى العرش العربي وهو ينشل في دمشق ، والملك الهاشمي وهو يفرّ من فلسطين ، فلم يجد بداً من النجاة بنفسه على ظهور الإبل إلى العراق .

وفي النجف رأى ثورة الفرات وقد تركها شراراً يتطاير هنا وهناك وقد أصبحت أواراً يرعى العدو رعي الهشيم ، فشايب الثوار ، وشيخ النار حتى رأى الانكليز أن الثورة جدّ ، وأن مقاومتها هزيمة ، فأذعنوا كعادتهم لسلطان القوة ، واستجابوا على رغهم لمطالب الأمة ، ووطأوا عرش الرشيد للملك فيصل ، فاعتلاه في أغسطس عام ١٩٢١ . وذكر رجال العهد الجديد للكريم الفقيد مواقفه الجلستى من قضية الاحتلال

وتورة الاستقلال ، فكان الملك يستزيره ويستشيريه ، ثم أسند إليه منصب الوزارة خمس مرات ، أولاها في وزارة الهاشمي سنة ١٩٢٤ وآخرها في وزارة الصدر سنة ١٩٤٨ . واختير عضواً في مجلس الأعيان فرئيساً له سنة ١٩٣٧ ، ثم انتخب عضواً في مجلس النواب فرئيساً له سنة ١٩٤٣ . وكان كما قلت ، لا يلبث في كل منصب تولاه إلا ريثما يبدأ عمله المستقل ويبدى رأيه المعارض ، والاستقلال والمعارضة بأبهما العرش القانم على كواهل الانكليز^(١) .. والانكليز كانوا الفاعل المستتر في جميع أعمال الدولة ، وهم لا ينسون أن الشبيبي حاربهم مع الأتراك في القرنة ، وقاتلهم مع العرب في الثورة ، فمن الطبيعي أن يسלטوا عليه جلادهم نورى السعيد^(٢) . فوضع في طريقه العوائق ، وراح يدس من حوله الدسائس حتى يعيده يائساً إلى عزلته في الكرادة ، يبحث وبؤلف ، ويحقق ويحاضر ، ويد المحامع العلمية في بغداد ودمشق والقاهرة بثمرات فكره ، وحصيلة اطلاعه . وإن بجمع اللغة العربية ليشهد أن فقيد الكرم لم يتخلف عن شهود مؤتمر من مؤتمراته منذ انتخب عضواً فيه سنة ١٩٤٨ إلا مرة واحدة ، ولم يحضر دورة من دوراته إلا مزوداً بطائفة من البحوث القيمة والملاحظات الصائبة والاقتراحات السديدة ، كان يلقيها علينا في تواضع فيه عزة ، وتؤدة فيها ثورة ، وثقة فيها يقين ، جاءه من سعة علمه وصحة تشبته .. ذلك إلى سمو في خلقه ، ونبل في هواه ، وبروز في ذاته ، جعلته طوال عضويته في المجمع عميداً لأعضائه الشرقيين بحكم الواقع .. يتكلم عنهم يوم افتتاح المؤتمر ويوم اختتامه . ولجهاده الطويل المثمر في

(١) كان الانكليز يتهمون الملك فيصّل بأنه يشجع المعارضة ويوحى إليها بالرأي المطالبة ليحصل الوطن بعض حقوقه من يد الاستشارة الانكليزية ويستخلص القليل من المتمدن المتصلب .
(٢) كان الشبيبي قد شارك انقلاب بكر صدقي بقبوله منصب رئاسة الأعيان ، ونوري يحقد على كل من أسهم في الانقلاب أو قبل عملاً مهماً في حكومته ، ولا ننسى أن الشبيبي من جهة الهاشمي في المعارضة ومن أصحاب المدغمي ..

سبيل العرب والعربية ، كرمته جامعة القاهرة حتى منحته درجة الدكتوراه الفقهية في الأدب والتاريخ ، واحتفت به أندية الأدب ومعاهد العلم في عواصم العروبة ، تقديراً لجهوده للعلم والسياسة . ثم كان من آثاره على الوحدة أن دعا إلى عقد مؤتمر المجمع في بغداد توثيقاً للرابطة وتوحيداً للوجهة ، فانعقد هناك استجابة لدعوته وتحقيقاً لرغبته ، ولكن صاحب الدعوة وأسفاه لم يحضر الدعوة ، كان يشهد الاحتفال بليلة الإسراء في القدس في جمع من علماء المسلمين ، فلم يكذب يدرك المؤتمر حتى أدركته الوفاة وخلا مكانه ، وذهب هذا الفضل كله ، وهذا العلم كله في فجأة من فجآت القدر ، وخلجة من خلجات المنون ، فلم يغن عنه طب الطيب ، ولا حب الحبيب ، ولا أمس الحاجة إليه .

كان الشيخ محمد رضا الشيباني من العلماء المكثرين والشعراء المقلين ، فله في العلم عشرات المؤلفات والمقالات . وأما الشعر فله ديوان مفرد ، ذلك لأنه كان يبذل العلم للناس ، ولكنه كان يقول الشعر لنفسه .. ونفسه كانت لا تكلفه الشعر إلا لحاطرة تجيش في ذهنه ، أو عاطفة تندس في حياته ، أو واقعة تنطبع في حسه . فلم يفرض الشعر عن طلب ولم يقرضه لمناسبة . وقد سأله بعضهم أن ينظم في معنى معين ، فقال له : لا ينبغي لأحد أن يقول للشاعر : إنظم في كيت وكيت ، إنما الشعر شعور يجيش في النفس فيجري على اللسان ..

وشعره ، على قلته من محكم الشعر وجيده . نحا في معانيه منحى المعري في النقد والحكمة ، ونهج في أسلوبه نهج الحمصاني في الجزالة والعدوية ، فمن معرياته قوله :

يا لمرزية ! كم يفرق بيننا
جادت علينا عصبه روحية
ذلوا بجهنم المعاش وبرهنوا
ذهبوا بدعوى في الصلاح عريضة
يتناقضون ويحينون عن العلى
لا يحسدون على المعالي أمة
إن الزعامة سلمت لزعانف
أنظر إلى الأعجاز كيف تصدرت،
شر العصور، وفي العصور تفاوت،
عصر به تتقدم الأوغاد

ومن حمدانياته قوله في مدينة صيدا، وقد زارها في رحلته السياسية

سنة ١٩٢٠ :

رحلت اليها بالصباية انهما
مدام فتي مثلي صباياته كثر
عدت الى كأس السلو فذقتها
وكأس الجوى طعمان أحلاما المر
لقد أطلقت صيداء طائر أيككة
ببغداد أعياء وأرهقه الأسر
غريباً من الأطيار فيها توافرت
خوافيه واشتدت قوادمه العشر
وأزعجني من بلدي مزعج القطا
فهل أنت يا صيداء - لابلدي - وكر
نعم لم يزل يعتاد قلبي اضطرابه

كما اضطربت ضمن الشباك القطا الكدر
أأنسى زمان الكرخ والكرخ معرس
وتذهب عن ذكري الرصافة والجسر؟
هو البحث أقصاني ومالي جانب
- أبي الله - عن زوراء دجلة مزور

ومما انفرد به عن أبي العلاء وأبي فراس وطنياته التي توثب النفوس

على المستعمر ، وتشيع الوثام بين الأخوة ، وتدعو العرب إلى الوحدة :

كوتونا الوحدة لا تقسمها نزعات الرأي والمعتقد
أنا بايعة على أن لا أرى 'فرقة' ، هاكم على هذا يدي

ثم اجتماعياته التي تصور العيوب ، وتظهر النقص باللسان العفّ الذي
يتميز به ، والبيان الحق الذي ينطبق عليه ، وذلك كقوله :

فتنة الناس ، وُقينا الفتنا ! باطلُ الحمد ومكذوب الثنا
ربّ جهم حوله قمرا وقبيح صيراه حسنا
أها المصلح من أخلاقنا أها المصلح ، الداء هنا
كلنا يطلب ما ليس له كلنا يطلب ذا حتى أنا
ربما تعجبنا مخضرة أربّع بالأمس كانت دمنا
لم تزل - ويحك - يا عصر أفق عصر ألقاب كبار وكسنى
حكم الناس على الناس بما سمعوا عنهم وغضوا الأعينا
فاستحالت ، وأنا من بعضهم ، أذني عينا وعيني أذنا
إننا نجني على أنفسنا حين نجني ثم ندعو: من جنى؟
بلغ الناس الاماني حقة وبلغناها ، ولكن بالمنى
أخطأ الحق فريق بائس لم يلومونا ولاموا الزمنا
خسرت صفقتكم من معشر شرّوا العار وباعوا الوطننا
أرخصوه ولو اعتاضوا به هذه الدنيا لقلّت ثمنا
يا عبيد المال ، خير منكم جهلاء يعبدون الوثنا
إنني ذاك العراقيّ الذي ذكر الشام وناجى اليمننا
إنني أعتد (نجداً) روضتي وأرى جنة عدن (عدنا)

أما أحاديث نفسه ومطامح هواه ، فقد عبر عنها باللفظ المونق ،
والاسلوب البكر ، والخيال القصد بين العقل والقلب . ومن يسمع عنه

شيئاً لا يجد في أذنيه صدى يتجاوب لشاعر سابق ، ولا نعمة تتردد من لحن قديم ، ولو كان المقام مقام تفصيل وتحليل لذكرت الأدلة ، وسردت الأمثلة ، ولكن حسي في مقام الأسى أن أذكر أبياتاً تدل بمبناها وبمعناها على أن الشاعر الفقيده كان إذا تخلص من كساد التقليد ، وأخفت في مسمعه أصوات الماضي ، عاد إلى طبعه الأصيل وفكره الحر ، فيأتي بالمعنى الطريف في الأسلوب البديع . كقوله في واقعة ، حال تردد في عزمه بين العقل والهوى :

قلبي يريد بلا غبّ زيارتكم والقلب ينهائ إلا بعد إغباب
 قضية بقياس الروح موجبة والنفس جنبنا سلب وإيجاب
 ما أنت بمن يريد الحب فلسفة - يا قلب - ذات براهين واسباب
 تنبيه القلب للسلوى يحركني فنبهت حركات الشوق أعصابي
 ما زال في الصلوات الخمس ذكركم نجوى مصلاي أو تسبيح محرابي
 لم أدر ما أتهجتي ، غير أنكم في اللحن لحن ، وفي الإعراب إعرابي
 قد يحجز الدهر ما بيني وبينكم مذ ساعة فأراها منذ أحساب
 وطالما حرت في وجه ولم أرني الا وقد علقت يميني بالباب (١)

وكان للشببي رضوان الله عليه ، تجديد في عمود الشعر ، ولكنه تجديد المحافظ لا تجديد المضيع . جدد في المعاني والأغراض ، وحافظ في الأوزان والقوافي ، فهو يقول على نحو ما قال أبو نواس ، بالامس من قبل :

الى الآن لا يستملح الشعر إن علا ولا يستجاد القول إن لم يلفق
 قريض طول دارسات وأربيع وشعر جمال سائرات وأينق

(١) الابيات اشبه بشعر الزهاري ، وفلسفته الباردة ، بل هي من غزل الفقهاء .

مقيّدة أبوابه وفنونه وأدهى دواهي الشعر تقييد مطلق
إذا لم يحدك الشعر عفواً تحامه^(١) وان لم يسمعك الخلق لا تتخلق^(١)

وهو بعد ذلك كله يؤلف مع الرصافي والزهاوي والسكاظمي والنجفي الأوتار الخمسة لقيثارة الشعر العراقي في الثلث الأول من هذا القرن . على تفاوت بينهم في الجهورية والهمس والغلظة والرقّة والضحولة والعمق . وكان هو من بينهما الوتر الحساس الذي ولا يمله سمع لا يمجّه ذوق ولا ينكره فن .

أما نثره فهو نثر العالم ، لا نثر الأديب ، لأن النبوغ في الصناعتين قلما يتفق لأحد .

وميزة الأسلوب العلمي أن يكون لفظه قدراً لمعناه ، وطريقه قصداً لغايته ، كقوله مثلاً : « نحن الآن في عصر الشك كما يقول فريق من أهل الغرب . ومن ذلك أن شكنا الآن يتناول حتى أسس الثقافة التي يريدنا معظم الغربيين للشرقيين ، ومن بين هذه الأسس غمز الشرقيين ، والتنديد تصریحاً أو تلميحاً بقيمة أثرهم في الحياة حتى ضعفت ثقة شباب الشرق بأنفسهم وببطولة أسلافهم ، وتلاشت في بعض الجهات وحل محلها الثقة المطلقة بتفوق الغربيين إلى أن نشبت الحرب العالمية الأخيرة وأسفرت بعد أن ظهرت أسبابها ونتائجها للعيان عن حركة فكرية عامة تجتساح الآن أفكار البشر بدون تمييز . ويتوقع أن يكون من هذه الحركة الفكرية رجوع القوم عن الشطط في أحكامهم على الشرق والشرقيين ، ونبذ دعوة التفوق الغربي الموهوم والتسليم بتكافؤ المواهب والكفايات في أصل فكرة الجنس البشري . فليس في الدنيا من هذه الناحية شرق ولا غرب ، بل بشر يتداولون التفوق والغلبة وفق أحكام سنة الكائنات

(١) حذف فاء جواب الشرط من تحامه ولم يجزم ، ومن « ولا تتخلق » ، وهي ضرورة لا تجوز .

العامة .. ولا شيء أفضل في تجديد شباب الشرق ، واستئناف قواه للعمل في سبيل حضارته من رسوخ هذه العقيدة فيه .

وما كتبه في أواخر أيامه قوله لمقدمة كتابه « أدب المغاربة والأندلسيين في أصوله المصرية ونصوصه العربية » : « من أهل زماننا قوم شغفوا بالجديد ، لأنه جديد ، وذهبوا إلى استبعاد القديم من تراثنا في الأدب والفنون لأنه قديم ، والحق يقال إن العبرة في الشعر ليست في حداثة عهده على ما يراه قوم ، ولا في قديم عصره كما يذهب إليه آخرون بل العبرة في هذا الباب بلطف المعنى ، وسلامة المبني ، وبلاغة العبارة ، وصدق العاطفة ، وجمال الشعور والتصوير . وان من الشعر لما يهز النفس ويرضي الوجدان ، وان من الشعر لما يلهم الصواب ويهدي إلى الحكمة .. فإذا توافرت في الشعر القديم هذه الخصائص ، فهو شعر جديد . وإذا خلا منها الشعر الحديث ، فهو شعر رث عتيق ، هذا ولا أبلغ إذا قلت إنني عاهدت نفسي واخواني الدارسين ألا يجدوا في هذا البحث إلا كل شيء جديد ، جديد في الجوهر والروح ، قديم في الشكل والصورة . وهذا هو أسلم المقاييس في حكمنا على القديم والجديد » . فأنتم ترون - أيها السادة - من هذين النموذجين أن أسلوبه سلس وواضح مقرب لا تغريه تصاوير البيان ، ولا تحليه تحاسين البديع ، لأن التلاؤم والموسيقية والأناقة وغيرها من صفات النثر الفني ، لا تقتضيها أحوال العلوم . والموضوعات التي كان يعالجها فقيدنا الباحث كانت أدخل في باب العلم ، فسبيلها الاقتناع ، لا الاصناع^(١) ، ودليلها المنطق لا الخطابة . فمن مؤلفاته : تأريخ الفلسفة من أقدم عصورها إلى اليوم ، وأدب النظر في المناظرة ، وتذكرة فيما عثر عليه من الكتب والآثار

(١) لعلها : الاصطناع .

النادرة ، وفلاسفة اليهود في الإسلام . لخص فيه فلسفة ابن كمونة وابن ملكا ، والمأنوس من لغة القاموس ، ومؤرخ العراق ابن الفوطي ، والمسألة العراقية ، وتاريخ النجف ، وأدب المغاربة والأندلسيين في أصوله المصرية ونصوصه العربية ، ثم «تراثنا الفلسفي» وهو آخر كتاب طبع للفقيد . ومن بحوثه التي ألقاها في مؤتمر المجمع : النهضة الأدبية في العراق ، والألفاظ الايوبية في كتاب تقويم النديم ، وبين الفصحى ولهجاتها ، وفي فقه الاساليب ، ومصادر الشك في كتاب العين ، وسنة التطور في اللغة ، وفي تاريخ اللهجة المصرية ، وبلهجة اللهجات وأصول اللهجة العراقية ، وابن خلكان وفن الترجمة ، ولهجات الجنوب ، وتراثنا القديم في المصطلحات ، وثقافتنا اللغوية في عصر المغول ، وبين مصر والعراق في ميدان العلاقات الثقافية . وقد سردت هذه العناوين سرداً لأقول إن طبيعتها هي التي فرضت هذا الأسلوب العلمي ، فأبنت بين صيغ الفن في شعره ونثره ..

أما بعد أيها السادة ، فهذا موجز حياة رجل عظيم ، أقل مفاخرها موضوع كتاب ، وجملة مآثرها تأريخ خطبة ، والرجولة والعظمة صفتان يجمعهما ما أوتي من مناقب ، مصدرها خلقه ، ومواهب مصدرها علمه . كان رجلاً بالمعنى الرفيع الذي يفهمه المهذب من لفظ الرجل ، وكان عظيماً بالمعنى البديع الذي يدركه المثقف من كلمة العظيم ... ولو ذهبت لأحلل حياته إلى عواملها الأولية لوجدتها من الحلال : الصدق ، والصراحة والاباء ، والشجاعة . وهذه هي الرجولة ، وفي الاعمال : العمق ، والشعور ، والانتقان ، والتفرد . وهذه هي العظمة . وفنقدهُ رجل كهذا الرجل ، حياته تأريخ ، وعمله رسالة ، وخلقُه قدوة ، وكفائته ثروة ، خسارة انسانية لا خسارة قومية ، ومصاب أمة لا مصاب أسرة ، وفجعية منفعة لا فجعية عاطفة ..

وكان ، لا ينافق ، ولا يخالق ، ولا يسداهي (١) ولا
يداجي ، ولا يقول إلا ما يصح في رأيه ، وهذه الصفات قد تجعل
المصلح عظيماً ، ولكنها لا تجعله زعيماً .. ولا أقصد الزعامة السياسية ،
فإن السياسي في أمم الشرق كان إذا تجهز لها بالضمير والمنطق والصرامة
والصدق ، هاجمه خصمه بالأباطيل العاشية فيظهر عليه . ووقف منه
جمهوره على الحقيقة العارية فينفرد منه . لذلك عجز الشبيبي آخر الأمر
عن التوفيق بين هواه والعامه ، وبين خلقه والسياسة ، وبين ضميره
والحكم ، فارتد إلى العلم والأدب يؤدي عن طريقها واجبه ، ويشغل
بمطالبها وجوده ، وفي هذين الميدانين جاهد فأبلى ، وقاد فانتصر ،
وأصلح فزعم . رحم الله ذلك العربي الحر ، والوطني الصادق ، والمجاهد
المخلص ، والوزير النزيه ، والعالم الحجة ، والمجمعي الباحث ، والشاعر
المجيد ، والناقد البصير ، والأديب المطلع . وألهمنا على فقده جميل
الصبر ، وعوضنا من بعده خير العوض ..

(١) لعلها : يداهن .

بين الزيات والراوي

كان استاذنا الجليل طه الراوي كثير الاهتمام بالأساتذة العرب الذين يفدون إلى بغداد ، زائرين ، أو تستقدمهم وزارة المعارف . ويشرف لرفقتهم ويفتح صدره وبيته لهم ، يكرمهم ويولم لهم ، ويتعهد مصالحهم ، ويصفي لهم المودة . ولا سيما الأدباء منهم ، والذين يقومون بتدريس العربية . وقد جرى استقدام أكثرهم بدلالته واستشارته ، فله رحمه الله صداقات ومودات مع أحمد أمين والعبادي وإبراهيم مصطفى وعبد الوهاب عزام وعبد الرحمن عزام وزير مصر في العراق وزكي مبارك ومبروك نافع وهاشم عطية وبدوي طبانة ، ومنهم الزيات . وهذه رسالة من الزيات تفصح عن هذه الرابطة :

من الزيات الى صديقه الراوي

القاهرة في ٧ - ٣ - ١٩٣٨

صديقي الاستاذ الجليل السيد طه الراوي .

لا أحب أن أتحدث في هذه الرسالة عما أحمل لك في قلبي من جميل الأثر ، وأكن لك في نفسي من عظيم التجلّة ، فان معرض ذلك في خطاب يشبه أن يكون رسمياً فيه معنى لا أرتضيه لنفسي .

فلأترك ذلك اذن الآن ، ولأتحدث اليك حديث رجل يخدم الثقافة
لرجل يهيم عليها في قطر من أقطار العروبة . الرسالة يا سيدي الأستاذ
هي المحلة الوحيدة الروحية والثقافية . وتكاد اليوم تكون لسانا للأدب
العربي في جميع أقطاره . وهي كذلك تساعد المدرسة على أخذ الناشئة
بالأخلاق العربية والأساليب الأدبية ، وفي سبيل ذلك تضحى بالوسائل
الصحفية التي تجلب المادة وتكسب النفوذ . فهي لا تتعلق شهوات
الجمهور ، ولا تستجيب لرغبات الحكومات ، ولا تعتمد على الاعلان ،
ولا تستغل فضائح الناس . عرفت ذلك الحكومة المصرية ، فساعدتها
بالاشتراك فيها لجميع مدارسها ومكاتبها بألف نسخة ، وكنت أرجو أن
تعطف عليها وزارة المعارف العراقية بعض العطف فتزيد في اشتراكها
بعض الزيادة . وقوى في نفسي هذا الرجاء منذ أسندت ادارة المعارف
إلى كفايتكم وخبرتكم ، فانكم أعلم الناس بالخدمة التي تؤدي بها الرسالة
إلى الطلبة ، لذلك أكتب اليكم هذه الكلمة أسألكم بها النظر في أمر
الاشتراك في الرسالة والرواية لعلكم تجسدون الفرصة مواتية لإرضاء
خميمكم من هذه الناحية ، وإني أقدم إلى الأخ الفاضل خالص تحياتي
وموفور شكري .

المخلص

احمد حسن الزيات

رسالة الاستاذ الراوي الجوابية

أخي الاستاذ الفاضل السيد أحمد حسن الزيات المحترم

تحية مشفوعة بالاحترام : أما بعد ، فاني تناولت كتابكم الكريم
ببدي الاجلال والابتهاج ، واني لأشكر لكم ما تدفق به شعورك النبيل



الاديب طه الراوي

تجاه أخ يحمل لكم في أعماق نفسه من الود المقرون بالاكبار والاعزاز
ما لا قبل للقلم بتصويره . واني لمعجب جد الاعجاب بما تسديه رسالتك
للعلم وأهله من خدمات ، وما تجديه عليهم من يانع الثمار مع البعد عن
ضوضاء التهويل والتهارش ، ومع المشايعة للحق والمنافحة عن الصدق في
أي المواقف كانا ، هذا وقد أشرنا على الدائرة ذات الاختصاص في
وزارة المعارف أن تضاعف عدد ما اشتركت به منها ابتداء من أول
نيسان^(١) ١٩٣٨ ، وقبل الختام أرجو قبول خالص الاحترام .

المخلص

طه الراوي

الدكتور عاتكة الخزرجي تشمن أدب الزيات :

ليس أندى على قلب المرء ، وأطرب لنفس الأديب والشاعر ، من
كلمة طيبة منصفة يقولها ناقد ، أو يكتبها كاتب يقدر بها أدبه ويشمن
بها اسلوبه ، وقد أدبنا الله باريء النسم وخالق الطبائع بقوله الكريم :
« ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة : أصلها ثابت وفرعها في السماء »

(١) اشتركت وزارة المعارف بمجة الرسالة للمدارس الثانوية والمتوسطة ودور المعلمين
والكليات والمعاهد وبأعداد لاقياسها الادارية والمكتبة العامة . وكانت الرسالة المجلة المتميزة من
دون بقية المجلات ، مصرية أو لبنانية أو غيرها . تحظى باقبال المتعلمين والاساتذة والموظفين ،
فكان يصرف منها بضعة آلاف اسبوعياً ، وكانت عاملاً مهماً في اشاعة مفاهيم الادب العربي
وانتشار الوعي القومي والعلمي معاً ، وكانت سبباً من أسباب ارتقاء النشر الفني وشيوع الاسلوب
الفصيح على أقلام الكتاب ، ولا شك ان في اختفاء الرسالة خسارة كبرى للقاريء العربي والمبلاغة
العربية ، تلام عليه وزارة الثقافة والارشاد في مصر الشقيقة .

والشجرة الطيبة تؤتي أكلها بأذن ربها ، فتنفع الناس والحيوان ، يأكلون من ثمارها ويتقيؤون ظللالها ويتنسمون أرواحها ، وكذلك الكلمة الطيبة يقولها المرء لأخيه ، فتدخل إلى نفسه بالبسمة والرضى ، وتشيع في نفسه البشر والبهجة ، وتمده بالعون ، فيمضي على الطريقة المثلى ، وتشد من عزيمته وتشجعه على صالح الأعمال ، وتدير له الطريق .

والكلمة الخبيثة « كشجرة خبيثة اجتمت من فوق الارض ما لها من قرار ، يبس جذعها ، وتساقطت أوراقها ، وجفت أغصانها ، فلا تصلح إلا للوقود . والكلمة الخبيثة الحاسدة تشبط العزيمة ، وتدخل إلى النفس الظلام ، وتشيع السخط ، وتوهي وشائج الصداقة ، وتوهن الهمة ، وتنتشر في القلب الهمّ والنغم .

وبعد فأدب الزيات جدير بالتقدير ، واسلوبه الرصين قمين بالتممين . وحق الاكفاء أمثال الزيات أن يقدرّ أدبهم الأكفاء من أمثال الدكتور الخزرجي . فما زال أدبه يبشر بالفكرة الرصينة ، ويتضوع بالأدب الأصيل ، لا يرضيه الا الحق والجمال والخير ، ويبشر بالمثل العليا ، ويهدف إلى احياء وعي عربي سليم . والزيات في رسالته لم يقصد إلى النجاح واجتذاب الجمهور بتملك الرسائل الرخيصة التي يتوسل بها بعض الكتاب في إثارة الجنس واستهواء القراء بالقصص الغرامية ، لاقتناص الربح بأرخص المغريات ، والإسفاف بالأسلوب إلى مستوى العمامة . وإنما كان من دأبه أن يرفع الجمهور إلى المستوى الذي يتذوقون به الأدب القويم والاسلوب الفصيح ، ظلت رسالته حلقة تمثل في الأدب المذهب السديد الذي يزاوج بين القديم والجديد ، وتحرص على الرفعة والجدة ، وتؤدي ثقافة سليمة بأسلوب عربي مبين . وقد ثمنت الدكتورة

الفاضلة أدب الزيات باسلوها الرصين قبل أن تعرفه شخصياً ، وقبل أن يكتب مقدمة ديوانها ، فكانت بحق كلمة رائعة جاءت تقدير الكفاء للكفاء ، وتثمين الناقد المنصف للاديب الأريب . والدكتورة عاتكة لها ملكتها الفنية وتربيتها الأدبية وحسها المرهف الشاعر ، وقد أوتيت الأداة الصالحة والتميز الصادق لهذا التقويم القويم .

واني لمغتبط أن أضم هذه الباقة العبقية من حديث صاحبة (أنفاس السحر) و (لألاً القمر) إلى كتابي .

★

اسلوب الزيات

للدكتور عاتكة الخزرجي

استاذة الأدب بجامعة بغداد

الأستاذ أحمد حسن الزيات أديب كبير من أدباء العرب المعاصرين ، وإمام تَسَبَّتْ ثقة من أئمة البيان ، في لغة القرآن . وإن الفكر ليحار ، وإن اللسان ليعجز إن أراد أن يحصي بعض ما للرجل من أيادٍ عُغْرَ على العربية وأهلها في ميادين الأدب والعلم والسياسة . وما أثره في هذه الميادين جميعاً كثر ، ليس إلى حصرها من سبيل .

فالرجل في الأدب إمام من أئمة النثر الفني ، وهو ذو أسلوب أيسر ما يوصف به أنه السهل الممتنع والقريب المحال والمطمع المعجز . وناهيك بأسلوب هذه سماته وتلك مميزاته .

وإني لأرجو ألا أكون بجانبه للحق إن قلت لك إن الزيات أوضح من الرافعي ، وأسمح من العقاد ، وأوجز من طه حسين . على أن أسلوب الرجل يضم محاسن هؤلاء الثلاثة جميعاً ، أعني متانة الرافعي وعمق العقاد ودماثة طه حسين ، مضافاً إليها سمته هو . وسمت الزيات في أسلوبه شيء فوق الاحاطة ، لأنه فوق الوصف وفوق البيان .

وإننا لندرجو هنا - وحديثنا عن الأديب مرهون بدقائق^(١) - ألا نخفق في محاولتنا وصف أسلوبه ، هذا الأسلوب الذي حسبه من فخر أن يقال فيه إنه أسلوب الزيات ، وكفى .

من حقلك أن تسألني بعد ذلك : ما يكون هذا الأسلوب الذي وصفته لك أول ما وصفت بالسهل الممتنع والقريب المحال والمطمع المعجز ، والذي رفعته فوق الرفاعي والعقاد وطه ، أساطين النثر في أدبنا المعاصر ؟ .

الحق أن أسلوب الزيات الأدبي أسلوب فرد ، يتميز بطابعه الخاص الذي يرتفع به عن سواه من أساليب الأدباء قدامى ومحدثين ، وهو عندنا أسلوب جامع لأخص خصائص الشعر والنثر معاً ، فله من الشعر خياله المبحر وعواطفه الحادة ووشيه المنعم ، وجرسه العذب ، فهو في جوهره ووشيه شعر لولا أنه غير موزون ، وهو في ستمته وهيكله نثر منتظم بارع في نظامه واتساقه ، باهر في فنه وانسجامه ، وهو نثر فني بليغ ، فيه أدق سمات الفن وأجلّ خصائص البلاغة ، وأول ما يسترعي النظر فيه إنما هو إعجازه الواضح ووضوحه المعجز من عمق مركز وتركيز عميق ، وهو بحق أعلى مثل وأرفع صورة للسهل الممتنع القريب المتعذر . . إن هذا الأسلوب إنما جاء ليحقق لنا في البلاغة قول ابن المقفع المأثور : « البلاغة هي التي إذا سمعها الجاهل ظن انه يحسن مثلها فإذا حاول عجز » .

وأسلوب الزيات بالغ الأثر مبنى ومعنى . فكما كان لجرسه في مسمعيك صدى كذلك كان لمعانيه في نفسك أصداء .. ولا عجب « فإذا كان المعنى شريفاً ، واللفظ بليغاً ، وكان صحيح الطبع ، منزهاً عن الاختلال ،

(١) احسب ان الحديث اذبيع اولاً ثم نشر ضمن احاديث الدكتوراة التي كانت تلقبها من اذاعة بغداد ..

مصوناً عن التكلف ، صنع في القلب صنع الغيث في القربة الكريمة « على نحو ما يقول لنا الجاحظ .

والزيات ممن هيئت له الاجادة بأسبابها ، واتفق له الاحسان بدواعيه ، فواته طبعه وحسه ، وأسعفه علمه وفكره ، وطاوعه بيانه وفنه ، فأخرج لنا هذا الأدب الملهم الملهم ، وهذا النغم المسكر المطرب ، وهذا الفن المؤنق المعجب ، حتى إنه ليحق لنا أن نقول فيه ما قال ابن الأثير بالبحثري ، من أنه : أراد أن يشعر فغنى .

إنك لا تدري وأنت تقرأ الزيات من أين تؤخذ ، أهي براعة الكاتب في انتقاء ألفاظه ومواءمتها وموسيقيتها حتى لكأنه يعالج منها فناً عالياً في الجرس وحسن الإيقاع ؟ أم هي عبقريته في تصيد حسان المعاني وشوارد الأخيلة ودقائق الأفكار وعرضها في هذا الثوب الرائع في الحلي المنمنم والوشي الجميل ؟ أم هو فنه المغلق الخفي الذي تبهرك آية وتخفى عليك كوامنه وأساراه ؟ أم هو مزيج بين هذا وتلك وذاك ؟ أسكر الحس وأطرب النفس ، وأعجب الأذن ؟ ونحن إذا آمننا بقول الزيات نفسه من أن « الاسلوب انما هو خلتق مستمر : خلق الالفاظ بواسطة المعاني وخلق المعنى بواسطة الالفاظ ، وأن الاسلوب إنما هو مركب فني من عناصر مختلفة يستمدها الفنان من ذهنه ومن نفسه ومن ذوقه ، تكشف لنا بعد ذلك سر تجويد أديبنا الكبير في أسلوبه وانفراده به بين أئمة النثر الفني في أدبنا العربي على توالي العصور . إذ أن قدرة الزيات على المواءمة بين الالفاظ والمعاني ، والتفنن فيها جميعاً قدرة لا يختلف فيها اثنان . هذا إلى توقد في ذهنه ، ورهافة في نفسه ، ورفعة في ذوقه ، قلما تواتي أحداً أو تتفق لأديب .

واني أضيف إلى هذا كله أن السر الاكبر الذي يكمن وراء إعجاز

الزيات في أسلوبه انما هو أصالته . فالزيات يستقي من نبع ثر وورد صفو ، وماء عذب ، فيه ري للشاربين . لانه يصدر عن ذات أعلى ما يميزها الصدق ، وأغلى ما تزدان به الإيمان ، فليس الزيات الا أصيلاً في أدبه ، مؤمناً برسالته ، صادقاً في تأديتها على الصورة المثلى التي يجب أن تؤدي بها الرسائل العليا . ولا تسل بعد ذلك عن أدب معينه الطبع لا التطبع ، وقوامه الصدق لا التصنع . وأنا أقول في أسلوب الزيات ما قال ابراهيم بن العباس الصولي الكاتب في شعر العباس بن الاحنف :

« ما رأيت كلاماً محدثاً أجزل في رقة ، ولا أصعب في سهولة ، ولا أبلغ في إيجاز ، من شعر العباس ... »

وان سألتني بعد ذلك عن أشبه الزيات في أسلوبه بين الادباء ، فأقول لك انه أعجزني أن أجد له الشبه بين النثرين جميعاً قدامي ومحدثين ، وما أراي أخطأته بين الشعراء ..

ولا تعجبين لهذا القول بعد أن ذكرت لك أول الحديث أن أسلوب الزيات في جوهره ووشيه شعر لولا أنه غير موزون ، ولك أن تسألني من بعد عن هذا الشاعر : من يكون؟ وأراي أسرع لأقول لك إنه صاحب « سلاسل الذهب الوليد في حلب .. انه الشاعر الذي أراد أن يشعر فغنى » ، صفى المتوكل على الله ، ونجى علوة الحلبية : أبو عبادة الوليد بن عبيد المحترى ، فكللا الرجلين ساحر الأسلوب : يعنى بالجرس ، ويحفل بالموسيقى . وكلاهما يشف عن طبع صاف وفن أصيل ، وكلاهما احتفى باللفظ وما أهل المعنى ، ورفرق الخيال وما أبعث عن الحقيقة ، وصدر عن الطبع وما جافى الفن ، وأشد ما يلتقي عنده الأديبان .. احتفاء كل منهما حفاوة بالغة بلون واحد من ألوان البيان .. أريد به الطباق المرسل والمقابلة المستملحة ، واحسانها في ذلك احساناً ما بعده مستزيد زيادة .. احساناً يدفعك إلى الدهش والحيرة ، فما تدري أهى



الاستاذ محمد بهجة الاثري والاستاذ احمد حسن الزيات وعزيز اباضه وعضوان من
اعضاء مجمع اللغة العربية شباط ١٩٧٠

الصنعة التي ما بعدها صنعة ، أم هو الطبع المواقي الذي ما بعده طبع .

وليس أحب إلى نفسي من أن أختار لك من أدب الرجلين الشاعر والنائر ما يوقفك على هذا التشابه الذي ذهبت إليه ، والتوافق الذي أريد لك أن تقرّني عليه . هاك البحثري واستمع اليه مستمتعاً بنمنمة وشبه ورقة جرسه وطرب موسيقاه واعجاز مقابلاته المعجبة المونقة .. اسمعه ينسب ثم يعتب :

يهون عليها أن أبيت متيماً
وقد جاوزت أرض العراق وأصبحت
بكت حرقه عند الفراق وأردفت
فلم يبق من معروفها غير طائف
يكاد وميض البرق عند اعتراضه
ولم انسها عند الوداع ونثرها
خليلي كفتا اللوم في فيض عبرة
ولا تعجبا من فجعة البين إنني
وأصيد إن نازعته اللحظ رده
ثناه العدا مني فأصبح معرضاً
وقد كان سهلاً واضحاً فتوعرت
أمتخذ عندي الاساءة محسن
ومكتسب في الملامة ماجد
أعيدك أن أخشاك في غير حادث
ألست المواي فيك نظم قصائد
ولو أنني وقترت شعري وقاره
لأكبرت أن أومي اليك بأصبع
ولكنني أعلي محلك أن أرى

أعالج أمراً في الضمير مكتماً
حمى وصلها مذ جاورت أ برق الحمى
سلوا نهي الاحشاء أن تتضرماً
يلم بنا ونحن إذا الركب هوّماً
يضيء خيالاً جاء منها مسلماً
سوابق دمع اعجلت أن تنظماً
أبى الوجد الا أن تفيض وتسجماً
وجدت الهوى طعمين شهدا وعلقما
كليلاً ، وإن راجعته القول جمجماً
وأوهه الواشون حتى توهمما
رباه ، وطلقا ضاحكاً ، فتجهمما
ومنتقم مني امرؤ كان منعماً
يرى الحمد غنماً والملامة مفرماً
تبيّن أو جرم اليك تقدماً
هي الأنجم اقتادت مع الليل أنجماً
وأجلت مدحي فيك أن يتهمماً
تضرع أو أدنى لمعذرة فما
مدلا وأستحييك أن أتعظماً

وليكن مسك حديشي اليك عن الزيات حديث الزيات نفسه اليك ..
هاكه في قصته عن «نورا» يسمعك البطلة تروي مأساة قلبها .. أستمع
اليها واليه ، وقابل بعد ذلك بين ما قدمنا لك من أبيات أبي عبادة
وبين ما سنتلوه عليك من نثر الزيات .. استمع اليه يقول على لسان
البطلة :

« وبعد .. فقد سمعت الصدى ولم تسمع الصوت ، وأحسست الوهج
ولم تمس النار ، وعرفت الجملة ولم تعرف التفصيل ، والحال كما ترى تشتد
ولا تخف ، وتستحکم ولا تنفرج ، فهل عندك لقصتي مساع ولأزميتي فرج؟
والزيات يقول في موضع آخر من القصة نفسها :

« وانقسمت الاسرة بحكم الطباع والغرائز إلى فريقين بيدي وبين القنصل ،
فريق الخير وفريق الشر ، أو فريق النور وفريق النار ، أو فريق المعنى
وفريق الحس ، فالبينات وأمن فريق ، والبنوت وأبوم فريق ، ففي
غرفتي تجتمع نورا وأختاها ومعهن الكتاب والبراءة ، وفي غرفة السيد
بكيير يجتمع الياس وأخواه ومعهم الشراب والريبة . »

ويقول الاديب الكبير في صدر فصل من كتابه « الدفاع عن البلاغة »
ما نصه :

« آفة الفن الكتابي أن يتعاطاه من لم يتهيأ له بطبعه ، ولم يستعن
عليه بأداته . وأكثر المزاويلن اليوم لصناعة القلم متطفلون عليها ، أغراهم
بها رخص المداد ، وسهولة النشر وإغضاء النقد ، فأقبلوا يتملقون بها
الشهرة ، أو يزجون بها الفراغ ، أو يطلبون من ورائها العيش ، وكل
جهازهم لها ثقافة ضحلة ، وقريحة محللة ، ومحاكاة رقيقة . ومن هنا شاع
المبتذل ، وندر الحر ، ونفق الرخيص ، وكسد الغالي ، وكثر الكتاب ،
وقلت الكتابة . »

ألا بورك بالاديب الكبير وبورك لنا بالميد في عمره ، ونفعنا الله
بالمزيد من غره .

الدكتوره عاتكة الخزرجي
كلية التربية ، جامعة بغداد

لألاء القمر :

الدكتورة عاتكة الخزرجي الاستاذة في كلية الآداب ، أديبة ناثرة
وناقدة بارعة وباحثة ناجحة ، وهي إلى ذلك شاعرة رقيقة العواطف
مشبوبة الاحاسيس أنيقة الاسلوب ، وفي قصائدها أقباس من الوجد ،
وأنفاس محترقة من الحب الإلهي في لفظ منمق ، ونغم مونق ووشي هو
السحر الحلال . نشأتها دراسة متصلة تدرجت بها وقطعت مراحلها بتفوق
حتى تسنمت قمتها ، وتسلمت شهادتها العليا من السوربون . وخرجتها
ممارسة في النظم والنثر ومعاناة في الدرس والاطلاع على محصول الإنسانية
للأدب الحديث والقديم . طبع أسلوبها الرشيق على الطريقة المثلى في فن
القول . أخرجت ديوانها (أنفاس السحر) فقدم له الشاعر الكبير عزيز
أباطة ، وطبعت ديوانها الثاني (لألاء القمر) فقدم له الاستاذ الزيات .
والدكتورة عاتكة كثيرة الاعجاب بأدب الزيات ، كتبت عنه وهو حي ،
وأبنته بعد وفاته ، وثمنت أدبه ، وقدرت أثره وخدمته للغة العربية
وآدابها . والمقدمة صفحة رائعة من انشاء الزيات الممتع الرشيق ، رأيت
أن أثبت نصها لصلتها بموضوع الكتاب ، فهي جانب من جوانب أدبه
في العراق :

« هذا الديوان الثاني من شعر الدكتورة « عاتكة الخزرجي » ، استاذة
الأدب بكلية الآداب من جامعة بغداد ، صدر منذ أسابيع في القاهرة

وقد قدم له الاستاذ رئيس التحرير بهذه المقدمة^(١) :

« في الكرخ نشأت ، وفي الكرخ تعيش . والكرخ منذ تعطر جوه الصافي بأنفاس الملائكة يسبحون بالجسمال ويهتفون بالحب على أسنة المصطفين الأخيار من المتصوفين والزهاد ، الذين اجتسبهم الله ليكونوا حقيقة لشريعته ، وشريعة لحيه ، لا يزال مبعثاً للحب الإلهي المجرد ، وصرحاً للجمال الروحي المطلق ، ومشاراً لذكريات « الجنيد » و « الخلاج » و « معروف » وأضرابهم ممن يتمثلون جمال الله في خلقه ، ويعبرون عن حبه إياه ، وفنائهم بالرمز الموحى ، والغزل المشير ، فيفتشي بباطنه الزاهد ، ويلتهي بظاهره الماجن ، والقصور إنما هو في اللغة المحدودة التي لا تستطيع أن تعبر عن معاني الروح إلا بالفاظ الحسن ، ولا أن تتصور مداخل النفس إلا بمخارج الحروف .

فبينما كانت الشياطين في الرصافة تنزل بالغزل الجسدي الشهوان ، على القبان والمجان ، فيجدون الألفاظ الطيبة والتراكيب السمحة ، كانت الملائكة في الكرخ تنزل بالمواجد الروحية والاحاسيس العلوية على العباد والزهاد ، فلا يجدون الكلمة المواتية ، ولا الجملة الدالة ، فيصطنعون لغة بشتار وعباس وأبي نواس ، فينعتون المرأة ، ويصفون الخمر ، ويذكرون السكر والعشق والشوق والغناء ، يرمزون بذلك كسله للمعبود الأزلي الأبدى الذي لا يحيط به علم ، ولا يتعلق به وهم ، ولا تعبر عنه لغة ..

فاذا جمعت الى ذلك أن « عاتكة » صريحة النسب في العروبة ، فأبوها خزرجي وأمها عبيدية ، وانها عريقة النزعة في الصوفية ، فجدها

(١) مجلة الأزهر اكتوبر ١٩٦٥ .

كان يقرض الشعر الصوفي ، وأبوها كان يكثر من المحفوظ منه ، وأنها قوية الفطرة بحكم الطبع والوراثة والبيئة على استقبال مواحي الحب واستكناه أسرار الجمال ، أدركت سر هذا التفتح الذهني الباكر في التلميذة عاتكة . وهي على صبوات الذكر في مغاني الكرخ ، وشدوات الطير في أعالي النخل ، وصفقات الماء على غوارب دجلة . كان شعرها في هذا الطور إرهاف شاعر ، ودندنة قيثارة ، وسقسقة بلبل ؛ ثم لم يلبث أن صار بقوة السليقة وسخاء القريحة وفيض الخاطر وعمق التأمل واكتمال الاداة ، أغاريد صباية ، وأناشيد حماسة ، وتراويل أرغن ، وتسابيح صلاة . إن الينابيع السافية الثرة التي ارتوى على فيضها واغتدى على جناها شعر الدكتور عاتكة ، هي : الله والطبيعة والنفس والينبوع القدسي ، هو أندى على كبدها وأروى لشعورها من الينبوع النفسي والينبوع الطبيعي ، لأنها حين تصف النفس أو تصور الطبيعة يتمثل فيها بديع السموات والارض الذي أحسن كل شيء خلقه ، ومنح كل جميل جماله .

بالذي رقرق الصباية في القلب ووشى بالحب اثناء نفسي
والذي أبرأ الحنايا وأصفاها صفاء الأنداء في ضوء شمس
أنت عندي معنى به أجد الله حياي في الصبح أو حين أمسي^(١)

وإذا تقسم هواها خواطر النفس ، وظواهر الحس ، فقالت في النخل والنهر ، ونوهت بالوطن والانسان ، وغنت بالحب والحبيب ، فذلك لأن الحب من طبيعة قلبها ، يصدر عنها كما يصدر العبير عن الزهر أو النور عن السراج ، لا يقصد به سمعاً بعينه ، ولا بصراً بذاته ، إنما هو الحب للحب ، والعبق للعبق ، والفناء في الوجود ، واللذة في الألم . وكثيراً ما يضيق جسدها المشغوف بقلبها المشغوف كما يضيق الغلاف البلوري الشف بوهج المصباح المحرق ، فتقول :

(١) ديوان انقاس السحر .

أنا أهواك يا دنيائي أم ذلك قلبي شأنه العيش، ولا عيش له من دون حب
انه يحيا... وان كان بحياه عذابي سادراً نشوان يحسوا الخمر من كرم شباب
إنه ريان لا يعنيه من يشكو الأواما آه لو حطمته، حتى ولو كنت الخطاماً

إن الشبابة من قصب ، ولكن اللحن من نار ، فكلمنا نفخت فيها
من روحها ذاب قلبها في حبها ، فتئن أو تحن أو تشكو أو ترجو أو
تثور بألفاظ منسقة كالنغم ، مونقة كالزهر ، منمقة كالوشى . تسري
فيها المعاني الشاعرة سريان الفشوة في الرحيق ، أو الفوحة في الطيب .
فأسلوبها نسق مطرد من الفكر والخيال والعاطفة ، يصقله طبع وذوق ،
ويقومه درس واطلاع ، فلا تجد فيه ما تجد في أكثر الشعر النسوي
من قلق في لفظ ، أو 'نبوة' في قافية ، أو غموض في معنى ، أو تجويز
في قياس ، أو شذوذ في غرض . ولقد وقاها كل ذلك تنشئة عربية
قوية ، ودراسة أدبية عميقة ، ومرانة فنية طويلة ، وحصيلة متخيرة
من روائع الشعر الخالد ، طبعتها على الأسلوب الصحيح ، وهدتها إلى
الطريق الواضح ، وعصمتها من الزيغ الذي أصاب نفرأ من الشعراء
والشواعر ، فسموا العجز فناً والنثر شعراً والفوضى طريقة . فهي تتصرف
في المضمون الشعري تصرف الفنان المتطور الحر الذي يواكب ركب
الحضارة ، ويتعمق أسرار الطبيعة ، ويتقصى أطراف المجتمع ، ويدفع
المتخلف بفكره إلى امام ، ويرفع المتدلي بشعره الى فوق . ولكنها تقف
في الشكل الأدبي عند الخصائص التي تميز أدباً من أدب ، وتفصل جنساً
من جنس . فهي تعدد في الأوزان ، وتنوع في القوافي في حدود الأوتار
الستة عشر التي تتألف منها قيثارة الشعر العربي .

وما كان لابنة بغداد ، وفتاة العروبة ، ومريدة الحلاج ، وصاحبة ابن
الأحنف ، وريدية المعلمين ، وخريجة السربون ، وأستاذة الأدب ، أن

تنتكر لأدبنا ، وتمرد على شعرنا طمعاً في اقتحام الأدب من الباب الخلفى ، واكتساب الشهرة بالرأى المخالف ، فإن موهبتها الأدبية ومنزلتها الاجتماعية وثقافتها الجامعية ونتائجها المتصل لتربأ بها عن التحلي بالعطل ، والتفرد بالشذوذ .

تهيات لي الفرصة مرتين أو ثلاثاً للقاء صاحبة « أنفاس السحر » و « لآلاء القمر » بالقاهرة .

وكانت اللقيا الاولى وهي على وشك الرجوع إلى بغداد فلم يكن بين السلام والوداع إلا بعض ساعة ، تبادلنا فيها التحايا ، وتهاديننا الكتب وتذاكرنا الادب بالقدر الذي يشير ولا يعرف . ثم عادت الى الكرخ وفي نفسها أن تزيدني معرفة بها ، وعلماً بأدبها ، فكانت ترسل الي مسا تجيد من شعر ، وما تصدر من بحث ، فأنشره في الرسالة ، ومن طريق هذا الاتصال الادبي المتجدد استطعت أن أعرف أي كاتبة كانت ، وأي شاعرة تكون .

فأما الشاعرة فلعلك تستخرج رأيي في شعرها من جملة هذه الكلمة ، وأما الكاتبة فالامر بينهما وبين الشاعرة جسد مختلف . الكاتبة تستمد موضوعها من الحقيقة التي يثبتها العلم ، ويؤيدها المنطق ، ويصقلها الطبع ، فالتعبير عنها واضح لا مبهم ، مفصل لا مجمل ، مقيد لا مطلق ، مجسد لا مجرد ، كما تراها في كتابها القيم عن العباس بن الاحنف . والشاعرة تستنبط شعرها في الغالب من وعيها الباطن لا من حسها الظاهر . فهي تعبر عن حب لا صورة له ، وعن معنى لا ذات فيه ، وأحياناً يدق الخيال ويرهف الحس ويصدق الحدس ، فيجتمع في غزلها وضوح الصورة ودقة العبارة وقوة التأثير . فيقول الناقد الذي لا يؤمن بصوفيتها : إنها تدخل في الغزل باعتباره باباً من أبواب الشعر لا يجري من مجاري الشعور ، فهي تعبر بالفن لا بالوحي ، وتؤثر بالصنعة لا بالطبيعة ، ومهما

يكن الاختلاف في عاتكة بين الكاتبة والشاعرة ، فإنه لا يتطرق إلى بلاغتها في الحالتين وبراعتها في الصناعتين ، وقديماً قالوا إن إجادة النثر والشعر قلما تتفق لاحد ، وصاحبة الانفاس من هذه القلة .

أما اللقيا الثانية فكانت منذ أيام في فندق البرج على النيل ، وكان قد مضى على اللقيا الاولى قرابة عام ، توثقت فيما بيننا صلة الادب بما تحدثت عني في الرسالة والإذاعة ، وبما قرأت لها من المقطعات والمقالات . فلما التقينا ، التقينا على ألفة ، وجرى بيننا الحديث كأنه صلة حديث انقطع لا بداية لحديث نشأ .

ثم أخرجت من حقيبتها مخطوطة ديوانها الجديد « لآلاء القمر » ، وأخذت تنشدني بعض مقطعاته ، وأقول (تنشدني) لان إلقاءها المطرب المعجب ، بصوتها الرخيم وجرسها الواضح ، ونبرها المجهور ولهجتها المعبرة . كان أشبه باللحن الموسيقي في حسن تنويعه ، فاذا أضفت إلى ما تسمع بعض ما ترى من أناة في الشكل ولباقة في الدل وسحر في الجاذبية ، تذكرت أو تصورت « ممي » وهي تحدثك حديثها الشهي الذي يمتزج بالقلب والروح ويتصل بالعقل والعلم ، وتيقنت أن الله جل شأنه لن يخلي دنيا العروبة من (ممي) ما دام في الارض حياة ، وفي الناس حي .

من ذكريات بغداد

نشر الاستاذ الزيات ثلاث مقالات بمجلة العربي الكويتية في الاجزاء ٤١ و ٤٢ و ٤٣ من سنة ١٩٦٢ ، اشتملت على ناحية خاصة من حياته التي قضها في بيت أسرة مسيحية معروفة ، دله عليها صديقه رفائيل بطي صاحب جريدة البلاد ويونس بحري صاحب جريدة العقاب ، وحبذا له العيش في هذا المنزل القريب من وسط العاصمة ، لا يبعد كثيراً عن مدرسته إلا مسافة يقطعها ماشياً بدقائق ، والسكنى مع هذه العائلة توفر عليه كثيراً من النفقات التي يتطلبها الفندق ، وتوفر له الهدوء وراحة البال وتبعده عن ضجة الفنادق وازدحام الزوار ، والكاتب والمدرس المغترب يحتاج إلى كل ذلك ولا سيما وهو يعيش مفرداً لم يصطحب زوجته . والأسرة التي أقام عندها الزيات أسرة مرحة مفتوحة خدومة . ولا حاجة بي لشرح أحوالها وقد أغناني عن سرد خافيتها وبادها قلم الزيات ، فلأترك له الكلام :

* * *

« في سنة ١٩٣٢ ، وهي السنة الأخيرة من سني الثلاث في بغداد كنت أعيش في أسرة مسيحية تؤثت في دارها الوسيعة غرفتين أو ثلاثاً لينزل فيها من تصطفهم من نزلاء العاصمة .

كانت هذه الدار كسائر دور بغداد تتألف من طابقين يدوران على

فناء سماوي رحب ، يشتمل الأسفل على ردهة يسميها العراقيون « طارمة » وسرداب أصمّ تلوذ به الأسرة في الصيف من وقد الحر ، ومرافق الدار من حمام وسقاية ومطبخ . ويشتمل الأعلى على بهو فسيح الأركان فخم الأثاث ، تغطي أرضه مجموعة متخيرة من سجاجيد ايران ، وتزين جدرانها ونوافذه طنافس الحرير وستائر الخمل ، ويتصدره « بيان » عريض نضدوا عليه تحفاً من تماثيل المرمر وبراويز الأبنوس ، ونثروا على الكراسي القريبة منه آلات الموسيقى من عود وكمنجة ودف وناي . ويتوسطه منضدة دقيقة الصنع أنيقة المنظر ، قد وضعوا عليها ما يحتاجه لاعبو « البردج » و « البوكر » ، ثم يشتمل بعد ذلك على ثماني غرف لنوم الأسرة والنزلاء ، تتلاصق وتتناسق في صف واحد على ممشى دائري يطل على الفناء ، وقد صفوا على حواشيه مقاعد طويلة أو قصيرة لمن يريد أن يتصل بالسماء ، أو يتمتع بالهواء ، على نحو ما تجد على ظهر الباخرة (١) .

أما الأسرة فكانت تتألف من زوجين كهلين ومن ثلاث بنات وثلاثة بنين . وكان سر الوراثة الذي يجعل من الزوحين الاسودين من الكلاب الطليقة ستة جراء فيها الاسود والابيض والأبقع والاصهب والاعبر والاشهب والاشقر ، قد جعل من هؤلاء الأولاد الستة تشكيلة عجيبة من الصور والألوان والطباع ، لا يشترك في شيء منها أخ وأخ ، ولا أخت وأخت ، ولكنهم يشغفون جميعاً في الأولاد بالموسيقى والنبوغ في العزف على آلاتها المختلفة .

(١) هذه البيوت المقورة المكشوفة الفناء كانت هي الشائعة في بغداد القديمة . أما اليوم فقد شاع الطراز الغربي ، واختفى السرداب والحوش المكشوف واستعويض عنها بوسائل التبريد الحديثة .

فيوسف الاخ الاكبر ، يهدف للرابعة والعشرين من عمره ، أزهر اللون ، أشقر الشعر ، ممشوق القامة ، فسميح الوجه ، ينظر فيكسر من عينيه ، ويبتسم فيضم من شفتيه ، ويتكلم فيفيض من صوته . فلولا أن الشعر قد أخذ ينبت على عارضيه وشاربه لقلت إنه فتاة في رونق الشباب وميعة الانوثة . يعلم الموسيقى في المدارس والبيوت ، ويعزف الالحان في السوامر والاندية .

وكان « ألفريد » طريده في العمر ، قمحي اللون تشوبه صفرة الخمر ، مليح القسما ، تشيع فيها جاذبية قوية ، أسود الشعر ، تجتمع منه خصلة على جبينه المنصقول قد فرقها عند فوده الايسر ، في قده طول ، وفي صوته غنة ، وفي حركاته مرح ، وفي هندامه أناقة . وهو لا يزال طالباً في إحدى المدارس الثانوية الفرنسية . بينما « ألبير » أصغر الاخوة ، وضئ الطلعة شاحب اللون دقيق البدن ، يسيل شعره الاصفر المغدود من وراء أذنيه على قذاله ، هادئ الطبع خفيف الظل شاعري العواطف ، يقعد ، على الرغم من صغر سنه ، مع أخيه الاوسط في فصل دراسي واحد .

أما البنات فكانن عند نزولي على الاسرة اثنتين ، « مرجريت » وهي فتاة في ربيعها السابع عشر ، مسنونة الوجه ، مرسله الشعر ، طويله العنق ، مسحاء الثدي ، تميل إلى الطول ، وتقف وسطاً بين النحيفة والبدينة ، ولعل محيائها المظموس لا يوحى اليك شيئاً من ذكاه ، أو أثراً من عذوبة ، ولكنك إذا جالستها أو لابستها لا تعدم أن تسمع منها حديثاً يتبع ، وأن ترى فيها خلة تعجب .

وثانيتها « جورجيت » صغرى الاخوات ، صبية لا تزال في عمر البدر ، مطهمة الوجه ، بضه البشرة ، ممتلئة البدن ، في جفنيها انتفاخ ،

وفي شفتيها غلظ . ولكنها على قلة حظها من الجمال ، لطيفة الروح ،
فكهة الحديث ، مرحة الطبع ، تتكلم ولا تستحي ، وتمزح ولا تعف .
وهي مع أختها الوسطى بمدرسة امريكية للبنات في حي « باب الشيخ » .

تلك هي الصفات البارزة المميزة في أولاد هذه الاسرة ، رسمتها
خطوطاً مجردة من غير تظليل ولا تلوين ، لتبين على التقريب الفروق الخلقية
بين بعضهم وبعض . وإذا كان شكل الجسم من الحسن والقبح ، ومن اللطف
والغلظ ، ينم عن طبيعة الروح من الخير والشر ومن الطيبة والحُبث ،
فان هؤلاء الاولاد من بنين وبنات ، يختلفون اختلافاً بيّناً في الخلق
والطبع والسلوك والنزعة . فمنهم الخادع الحصيف الذي يسعى المال من كل
طريق ، والمماجن الظريف يطلب اللذة من أي نوع ، والفنان الرقيق
الذي يعيش الجمال في أي صورة ، ومنهم الساذجة السهلة التي تصدق كل
خبر ، وتفشي كل سر ، وتلي كل طلب ، ولا يهمها أن تخرج مع سيد
أو خدام ، والطائشة الوقحة التي جعلت مهمها اللعب والحلوى ،
ودأبها العبث والضحك . ولا يختلف عندها أن تنال ما تريد بالحق
أو بالباطل .

لا يمكن أن تنشأ في هؤلاء الأولاد هذه الفروق الظاهرة والباطنة
من فعل الوراثة القريبة المباشرة ، فإن الوالدين يعقوب وماري لم يجعما
في أخلاقها الشيء ، ونقيضه ولا المعنى وضده ..

فالزوج من رجال الاعمال المجدين ، يتصرف لعياله في التجارة ،
يتقلب من صنف إلى صنف ، ويضطرب من أرض إلى أرض ، لا يدخر
جهداً ولا يضيع فرصة ، يصدر الجلود والتمور ، ويستورد الآلات
والسلع . لا يتقيد بصنف واحد ولا ببلد معين . وإنما يتقيد بحاسته
التجارية التي تهديه إلى سلعة اليوم وحاجة المستهلك . له مخزن للحفاظ

وليس له متجر للعرض . وسبيله في البيع أن يستعين بالوصولية
والميكافلية على إقناع ذوي النفوذ في الوزارات والشركات أن يشتروا
بضاعته جملة .. وهو من خلفات العهد التركي في العراق ، يتكلم
التركية ، ويلبس الطربوش ، ويحسن إحناء الظهر عند السلام ، ويتقن
إذابة الملق في الكلام ، ويعرف كيف يدخل إلى هواك ورضاك من
الباب الذي يؤدي . والزوجة من ربات البيوت الصالحات ، يظهر عليها
كلال السنين الخمسين ، وعناء الحياة العاملة . وهبت نفسها لخدمة زوجها
وبنيها ، لا تكاد تخرج من البيت ولا من المطبخ . على أن كثرة عملها
وطول همها لم يحميا جسمها من الشحم ، فتراكب لحمها واسترخى ، ثم
اعتراها على الكبر صم خفيف ، فزهدت في الاجتماع بالناس ، واكتفت
من نعيم دنياها برؤية أولادها وزوارها ، يثلون على عينها الجانب البهيج
المرح من الحياة . كانت لا تشارك في الحديث لأنها لا تسمع أكثر
ما يقال ، ولا تدخل في اللهو لأنها لا تعرف أكثر ما يلعب ، إنما
كان دورها في حفلات الدار أن تعد الحلوى ، وتهيء المزة ، وتقدم
الشراب ، وتعنى براحة السامرين والسامرات ، فلا يشوب صفوهم كدر ،
ولا يدرك لهُم نقص .

كانت «ماري» طيبة القلب ، ولا تكبره حتى العدو ، وكانت
سمحه القيادة فلا تعارض حتى في الضرر ، وكانت ضيقة الثقافة فلا تنظر
حتى في الصحيفة . كان مصدرها الوحيد الذي تستقي منه العلم والخبر
والرأي هو زوجها يعقوب حين يخلو أحدهما إلى الآخر في غرفة الطعام
بعد انصراف الأولاد كل إلى شأنه .

كانت هذه الدار بعد ضجة الصباح وخروج الوالد وأولاده إلى العمل
أو إلى العلم ، تسكن سكون الدير ، وتوحش وحشة الطفل فلا تكاد
تسمع صوتاً ولا حركة .

كانت السيدة والطاهي يعملان في صمت ، وكانت الخادمة والخدام ينظفان في سكون ، وكنت أنا في الغرفة أو في الشمس أقرأ أو أكتب أو أنام . ثم تعود الحياة فتنتعش وقت الغداء ، ولا تلبث أن تهمد . فإذا أقبل الليل أمست الدار ، ردهتها أو سردابها أو بهوها على حسب الفصول ، مقصفاً لا يشبع من القصف ، ومرقصاً لا يفتر من العزف ، ونادياً لا يكف عن اللعب . يوسف يدق بأنامله العشر على معزف البيان ، وألفريد يغمز بريشته المرهفة على مضرب العود ، وألبير يمر بقوسه المشدود على أوتار الكمنجة ، ومرجريت وصواحبها من حسان الجيران والأقارب يراقصن الزائرين والمدعويين . فلا تخرج إحداهن من ذراع شاب إلا لتدخل في ذراع كهل . وفي الأركان المختلفة من الصالون يجلس هنا بعض أصحاب النفوذ في الوزارات أو الشركات ، يقارعهم يعقوب الكأس ، ويفاوضهم في صفقة ذات وجهين من صفقاته العظيمة : وجه لهم ووجه له ، ويجتمع هناك بعض أرباب اللهو من الشباب : يعابثون الفتيات ، ويتسابقون إلى قلوبهم بالنظرات المعبرة والكلمات المغرية ، وبين هنا وهناك تجلس مع الأم امرأتان أو ثلاث ممن ودعن الصبا والغزل ، يثرثرن في أخبار النساء وأسرار البيوت ، ويقبل عليّ رجلان أو ثلاثة ممن قصد بهم الحياء على هامش الحفلة يخوضون في حديث الأدب والسياسة .

فإذا انقضى الهزيع الثاني من الليل ، وقضت النفوس حاجتها من اللهو العازف والراقص ، انصرفت طائفة ، وتحلقت طائفة أخرى حول موائد الحظ يلعبون « البوكر » ، ويتبادلون السعد والنحس ، ويتقارضون الرضا والسخط . والمتفرجون من الرجال والنساء ينظرون « الفيشات » تتجمع وتتفرق أمام اللاعبين كأنها كثران الرمل في يوم عاصف تنقلهما رياح الصحراء من هنا فتكومها هناك ، فيبتج قوم ويكتئب آخرون ،

الا الزوجين يعقوب وماري ، فقد كان ابتهاجهما لا ينقطع ، لافي الريح
ولا في الحسارة ، لان حصة المائدة من القمار (الوار) كانت تضاف إلى
حصيلتها في كل دور على أي حال ..

وهكذا كان صاحب الدار ، بفضل بنيه وبناته ، يستفيد من طائفة
الزائرين جملة من الوعود يروج بها سوقه ، ومن طائفة المقسامرين حفنة
من النقود يصلح بها أمره .

ثم عرج الزيات على وصف قنصل لدولة من الدول الإسلامية كان
يسكن في الجهة الجنوبية من الطابق الاعلى . من غرفة نائية كانت تحمر في
أكثر الليالي ، لم يجد الزيات من نفسه دافعاً إلى أن يصل ما بينه وبين
ذلك القنصل بسبب المودة ، وربما كان منشأ ذلك النفور سلوك ذلك
التمنصل المبتلى بالشذوذ والقذارة ، وليس له علاقة بالقصة أو بالاسرة ،
لذلك لا أجد داعياً لفضح أمره وان كان الاستاذ الزيات لم يتحرج من
كشف حاله ، ثم قال الزيات :



حسبك ما ذكرت من التعريف بالدار والاسرة ، ولعلك قد تهيات
الآن إلى أن تسمع القصة :

في فترة القبولة وهي فترة يخشع فيها الصوت والحركة عادة في جميع
البيوت ، ولكنني لم أكد أجتاز الدهليز الطويل المظلم حتى رأيت الردهة
المهجورة قد أخذت زخرفها من الوجوه الحسان من الجنسين ، والضحكات
الرقاق والغلاظ يتجاوبن فيطردن الوحشة عن صحن الدار ، والام
وأولادها يخطرون في زينتهم بين المقاعد ، يؤهلون ويرحبون بالزوار .
فألقيت على الحضور نظرة عابرة ، ثم أومأت بالتحية الخاطفة إلى من

وقع بصري عليهم. من أعرف ، وأخذت طريقي إلى غرفتي الخاصة . وبعد قليل أقبلت الخادمة على عايتها تحمل اليّ دورقاً من الماء المثلوج ، فسألتها عن سبب هذا الحفل في هذه الساعة ، فقالت : إنّ الأئسة «نورا» قد عادت من دمشق منذ ساعتين ، وقد قدمت معها عمّتها وبناتها ، وهؤلاء هم مستقبلوهم من الأقربين والمحبين والمعجبين ، وعددهم يزداد من لحظة الى لحظة .

«نورا» آه ، لشدّ ما لهجت ألسن الأسرة بهذا الاسم ، ولطالما تحدث الزوجان بإسهاب وإعجاب عن صاحبة هذا الاسم . لقد عرفت عن «نورا» بالسمع ، مثل ما أعرف عن مركريت وجورجيت بالعيان .. عرفت أنها البنت الثالثة الكبرى ، وأنها تطلب العلم منذ أربع سنوات في مدرسة ثانوية للراهبات في دمشق ، وأنها تقيم مع عمّتها بباب توما ، ولم تعد إلى بغداد زائرة منذ عامين ، وأنها على حظ عظيم من الجمال والذكاء والعقل والحساسية والانوثة ، قلما تؤثاه فتاة في سن العشرين ، وأنها مخطوبة بالوعد لشاب من موظفي البنك العثماني عرفته فيمن يكثر من التردد على مجلس هذه الدار ..

لم أجد في نفسي الرغبة الملحة في أن أنزل لأهنيء الأسرة بقدمها وأشارك القوم في الاحتفال بها ، فقرأت قليلاً ، ثم نمت . وفي المساء عاد الحفل فانتظم في البهو الواسع ، فدخلته فيمن دخل ، وقبّدت إليّ الأب يعقوب ابنته «نورا» ومن قدمن معها من قريباته ، فسلمت الفتاة في استحياء ، وغضت من بصرها وهي تتمم بالعبارات المألوفة عند السلام والتعارف .

لم تبدأ هذه الليلة كسائر الليالي بالرقص والحز ، لتنتهي كالعادة بالوجوم والقمر ، وإنما بدأت وانتهت بالأنس الخالص واللهو البريء .

تشاجن فيها الحديث عن موضوعات شتى في العادات واللهجات بين سوريا والعراق ومصر ، وكان جلّ الحديث واقعاً على العمّة اللبقة التي تدير فندقاً كبيراً في سرة دمشق ، وعلى تاجر فكه يكثر التصرف والتقلب في أقطار العروبة .

وكانت «نورا» كالعروس على المنصة : تسمع في صمت ، وتنظر في خفر ، وتتكلم في وقار ، وكنت أنا مثبت العينين مفتوحهما في وجه «نورا» لا أكاد أطرف ، مصيخ الأذنين مرهفهما إلى حديث المتحدثين ولا أكاد أعي . كان وجه «نورا» جملة من القسمات الحلوة ، والملامح المعبرة في صورة من الفن الإلهي المبدع ، لا يقع مثلها في الإمكان لإزميل مثالي ، أو ريشة مصور ، أو قلم شاعر . ولا تظن فيما قلت مبالغاً من زخرف الحديث ، فان كل من رآها يعترف بأنه لم يجد لها مثيلاً فيما رأى أو سمع ، وليس لإقبال الشباب أو الكهول على الاحتفال بها والارتياح لها سرّاً ، إلا جمالها الفائق وجاذبيتها الطاغية .

ربما لا يجد المتحدلقون من خبراء الجمال جسمها منطبقاً على مقاييس الفن إذا أخذوه عضواً عضواً ، ولكن الروح التي تثبت فيه ، والفتنة التي تنبعث منه ، والعذوبة التي تهيم عليه ، شيء يسمو على المقاييس ، ويخرج من دائرة الفن . لم أكن أنا وحسبي الذي انعقد نظره بوجه «نورا» واشتغل قلبه بحسنها ، وإنما كان أكثر الجالسين يُنقلون أبصارهم عند الضرورة من شخص الى شخص ومن شيء إلى شيء ، ثم يعودون فيضعونها على محيّا «نورا» . أما الأم فقد كان يظهر من نظراتها وبساتها أنها تقيه على النساء بأنها ولدت هذا الحسن . وأما الأب فقد كان يبدو ، من هيئته ولهجته ، أنه يفخر على الرجال بأنه أوجد هذه الفتنة . وأما الخطيب فقد كان يلوح ، من حركاته وكلماته ، أنه يزهي على الشباب بأنه استأثر بهذه التحفة .

ولندع بعد ذلك الحوادث تتوالد وتتوالى في الأيام التي ستمتاعب على هذه الليلة .

أصبحت «نورا» مركز الجاذبية في الدار ، فحيثما تكن يتهافت عليها الناس من العشيرة والجيرة ، وكأنت لهذا التهافت في الأيام الأولى أسباب تختلف باختلاف السن والطبع والحالة .

فالاختان وأترابها كنّ يتطلعن إلى أن يعرفن منها ما استحدثت من ضروب الزي والزينة في سورية ولبنان ، والأخوة ورفاقهم كانوا يتوقون إلى أن يسمعوا شيئاً من صبوات الشباب وخلوات الهوى في دمشق وبيروت ، والوالدان وأقرباؤهما كانوا يحاولون أن يكشفوا سرّ هذا التغير الذي طرأ على نفس «نورا» فهي لا تنشط لحديث ، ولا تهش لزائر ، ولا تنبسط للهو ؛ وكان عهدهم بها أن لسانها الحلو لا يكف عن الدعابة ، وأن وجهها الطلق لا يفتر عن الضحك ، وأن روحها اللطيف لا ينقبض عن الأنا .

وكنت لاحظت ، وأنا بعيد ، أن الصلات الواهنة بين أعضاء هذه الأسرة قد عادت إلى طبيعتها من الأحكام والوثوق منذ عادت هذه الفتاة . كان أفراد هذه العائلة أشبه بنزلاء الفندق ، يضمهم بناء واحد ، وتجمعهم مائدة واحدة ، ولكن لكل منهم عمله وبيئته وخطته ووجهته وغرضه . فلما عادت «نورا» كانت كالخيط الذي ينظم العقد المنثور ، والروح الذي يمسك الجسد المنحل . ولعل السر في ذلك أن المرء بطبعه يحب في غيره ما ليس فيه . فالجبان يحب الشجاع ، والقبيح يحب الحسن ، والهيبوب يحب الجريء ، والعمي يحب الفصيح . ولهذا كان الأبطال يحبون الأبطال والآلهة . والله قد كتمل «نورا» بما نقص أهلها من جمال الجسم والروح ، فهم يحبونها جميعاً ، ويرون فيها الجزء المتمم لكل منهم ،

والحب سر التجاذب ، والتضام في الكون كله ، هو الذي يجعل من حبات الرمل جبلا ومن قطرات الماء بحراً ومن أفراد الناس أمة .

لم أر «نورا» قبل اليوم حتى أدرك ما أدركوا من الفروق بين ما كانت عليه وما صارت اليه ، الا أن ما رأيت منها كان يختلف كل الاختلاف عما سمعت عنها ، كانوا يقولون إنها بهجة الدار ، وزينة البهو ، وروح الحديث ، ولحن البيان ومرح الرقص . ولكنني أراها منذ قدمت ساهمة الوجه تطيل السكوت ، مضطربة البسال تطلب الهدوء ، ضيقة الصدر تؤثر العزلة . وعبثاً حاول أهلها أن يوقظوا فيها رواقد اللهب ، وأن يشعروها أن يجانبها خطيباً برّح به الشوق ، وثقل عليه الانتظار . فمن حقه أن يجلس اليها وأن يخرج معها . وأقام أبوها حفلة ساهرة في الطابق الاسفل من الدار . وكانوا قد أنزلوا اليه الفرش والاثاث من الطابق الأعلى في أواخر مارس حين يبدأ الصيف في بغداد . وينقلب البيت فرناً من غير وقود ، والهواء لهباً من غير دخان ، ففصت الردهة والفناء والسرداب بالمدعوين من رجال المال والاعمال واللبه ، تصحبهم نساؤهم وبناتهم في بزاتهن الجميلة وزينتهن الرائعة . وكان الخواجة يعقوب قد أراد باقامة هذه السهرة الراقصة أن يحتفل بأخته السيدة (صوفي) ويرجو من وراء ذلك أن يدخل الانس على قلب «نورا» وأن يخرج إلى النور بعض السلع التي طال عليها الرقاد في ظلام المخزن . وكانت منية النفس لكل حاضر أن يظفر من «نورا» بكلمة أو جلسة أو عزفة أو رقصة . ولكنها الأمر ما، أعرضت عن الاركان الصاخبة في الحفلة ، وأقبلت على عجائز أمها فجلست اليهن قليلا ، ثم انتقلت إلى الركن الهادي الذي أجلس فيه مع الاستاذ رفائيل بطي عميد الصحافة العراقية وبعض المتأدبين من الشباب ، وأخذت يجلسها يجانبي .

وكان الاستاذ رفائيل (عليه الرحمة) واسع العلم بأحوال البلاد العربية

ورجالها ، فلا يغيب عن ذهنه خبر ولا أثر من أي كاتب أو شاعر أو أديب في مصر ولبنان وسورية . فكان الحديث بيننا شجوناً من النوادر والظرف ، أخرجنا من جو الحفلة . فلما انضمت اليها «نورا» ، اتجهت نحونا الانظار ، ف شعرنا ثانية بأننا أفراد من هذا الجمع المضطرب في اللهو والانس ، فلا بد أن نرجع اليه ونشارك فيه ، ولكن «نورا» آثرت أن نخوض فيما كنا فيه من الحديث عن مصر ، فإن أحب الاحاديث إلى قلبها ، كما تقول ، ما اتصل بها وبأهلها ، وانها لتعرف عن أخبارها وأسرارها أكثر مما تعرفه عن أي بلد آخر . وأخذت هذه الفتاة المنقبضة الصوت تبسط أسارير وجهها بالضحك ، وتحل عقدة لسانها بالكلام ، وتروي الخبر بعد الخبر ، وتورد النكتة بلهجة مصرية لا يشوبها إلا نبرات يسيرة من لهجة دمشق . فقلت لها ، وأنا لا أملك نفسي من الدهشة : هل زرت مصر كثيراً ، وعشت في القاهرة طويلاً ؟ فقالت في نبرة تنم على الاسى والاسف : «لم يكتب لي الله هذه السعادة بعد» . قلت لها : إذن كيف تهيأ لك أن تعلمي هذا العلم ، وأن تتكلمي هذه اللغة ؟ فتشاغلت عن سؤالي بغمغمة خافتة ، ولم ترد أن تجيب .

وكان كلامها وضحكها قد ظهر أثرهما على بعض الوجوه ، فعجبوا أن تستوحش في مكان فيه الخطيب والقريب ، وتستأنس في مكان فيه البعيد والغريب . وكانت الام ماري وصواحبها قد أقبلن على العمدة يسألنها عن سر هذا الاكتئاب الذي أصاب «نورا» فأمات فيها الشعور بمتاع الحياة ، فقالت العمدة ، وهي تخافت من صوتها : «أما السر فلا يعلمه إلا الله ، ولقد اعترتها هذه الحال منذ اكوابر الماضي فعرضتها على الطبيب ، فقال : إنها مريضة بالقلق النفسي من الإرهاق أو الهم ، وتففيدها الراحة والتسليم والنقطة . ووصف لها أنواعاً من العقاقير ساءت على تعاطيها

الحال ، واشتدت العلة ، فكانت تنفر من المخالطة ، وتطمئن الى الخلوة ،
وتكثر من الصلاة ، وتواظب على القداس . ونضارتها ، في خلال ذلك
تذوى وبشاشتها تزول ، فرأيت أن أجرب النقلة ، فرحلت بها الى
بيروت في عطلة عيد الميلاد ، فتسلت بعض التسلي وتحسنت بعض التحسن ،
ولكنها لم تلبث أن عادت الى حالها الأولى بعد أن عدنا الى دمشق .
وكانت معلماتها من الراهبات قد لاحظن عليها أعراض هذا المرض النفسي ،
فعالجنها مرة بالدعاء ومرة بالدواء ، فما نفع الدين ولا أفاد الطب . وأخيراً
جاءت عطلة عيد الفصح فرأيت أن أعود بها الى بغداد ، عسى أن
نجد في الوطن الذي نشأت به ، وفي العش الذي درجت فيه ، ما يدفع
عن جسمها هذا الذبول ، ويُذهب عن نفسها هذا القلق . وكان في الحفل
أربع أعين لا يدخلهن شعاع السرور ، ولا يقرهن متاع الغبطة . عينان
في وجه الخطيب ، وعينان في وجه أمه . كانت عينا « جاك » تخضلان
بالدمع كلما رأى خطيبته لا تحفل به ولا تنظر اليه . وكانت عينا أمه
تشعان بالسخط كلما رأتا « نورا » تقبل علينا ولا تقبل عليه . وعلى
فجأة من هو اللاهين ولمب اللاعبين سقط « جاك » من فوق كرسيه ،
فاقد الوعي ، متخشب الجسد ، مختلج الأطراف ، مصطك الأسنان ،
مزبد الفم . فصرخت أمه ، وفزع الحضور ، وخفوا اليه بالمسعفات حتى
أفاق ، وكانت « نورا » من أسرع الى المصروع بالمنبهات ، فخصها
بالشكر . واضطجع على الكنبه ريثما استراح ثم تحامل على بعض
أصدقائه وخرج .

وغام على أثر ذلك الحادث جو الحفلة ، فنكدر الصفو ، وانقطع
اللهو ، وانصرف المدعوون .

وفي بكرة اليوم التالي ، وكان يوم أحد ، دخلت علي السيدة
« ماري » ، وفي يدها صينية صغيرة عليها قدحان ، فحيتني تحية طيبة ، ثم

قالت وهي تضع الصينية على المائدة : « عدت من الكنيسة قبل الأولاد لأصطحب معك بقدرح من الشاي وأبوح لك بأن «نورا» منذ رأتك ، تظهر الاهتمام بك وتكثر السؤال عنك . وقد رأيتها في الحفلة تقبل عليك وترتاح بأنسها اليك . ومن الممكن إذا توثقت صلتها بك أن تكشف لك عما يكن صدرها من لوائح الحزن والهم ، فقد عجزت عمتها وعجزنا عن كشفه . ثم روت لي ما قالته السيدة (صوفي) عن مرضها وكيف تطور حتى خيف أن ينتهي الى انهيار عصبي لا يرجى برؤه . وعقبت عليه بأنها شديدة القلق على مستقبل البنات ، فقد رفضت أن تعود الى الدراسة بدمشق ، وكرهت أن تظل مخطوبة الى جاك . وقد رأيت ما حدث ليلة البارحة من جراء صدودها عنه ، وهو من أكثر الشبان مالا ، ومن أرفعهم وظيفة . إن «نورا» كما ترى معبودة الأسرة ، وإنا لنبذل في سبيل سعادتها أنفس ما نملك . وليس جمالها وحده هو الذي أحلها من قلوبنا هذا المحل . فان لها غير الجمال البارع والذكاء اللامع مزايا أخر ، أخصها صفاء النفس ونقاء الضمير وخلوص الدين ، ولدين على أقوالها وأفعالها السلطان القاهر منذ الطفولة ، فهي لا تقول لنفسها ما تحشى أن تقوله للناس ، ولا تفعل في سرها ما تكره أن تفعله في العلن ، ولا تجري في أمورها إلا على سنن القديسين والرسل . فإذا أصابها مكروه في صحتها أو في سعادتها ، أصاب الأسرة في صميم حياتها ، فلا تنتفع بعدها بالعيش . فالرجاء في الله وفيك أن تعالج مشكلتها بالعلاج الذي تختاره ، وسأرسلها اليك متى عادت من القديس » .

من النفاق المحض أن أقول إن شعوري بهذا التكليف كان شعور الخلمي المحايد . الحق إنه كان شعور الحالم الذي صور له عقله الباطن ما كبت من الرغائب والشهوات في صور زاهية من الوقائع والمذات . ثم تيقظ فإذا به يرى الحلم حقيقة واقعة ، يبصرها بعينه ويلمسها بيديه . كنت في خلال الأسبوع الذي مضى على هذا الانقلاب في الدار ، أتابع

هذا الحسن الرائع بجواسي الخمس ، وهو يحيي في المشي أو يذهب
ويدخل الغرف أو يخرج ، ويتكلم في البهو أو يصمت ، فيمنعني الحياء
أن أدور في فلكه وأن أدخل في شعاعه ، ثم أصبح فاذا بي أسمع
أنه يسأل عني ويفكر فيّ ، وإذا بي أرى أن القائمة على أمره تنبئته
بي وتكبله إليّ !!

فهل تصدق القبط الذي أعطاه أهل الدار مفتاح الكرار إذا زعم
أنه تسلم هذا المفتاح وقلبه فارغ ، ورأسه بارد ، ونفسه عزوف ؟

قد يكون هذا القبط صوتاً قوياً ، يجعل من هذا الكرار
صومعة لنسكه ، ومحراباً لصلاته ، ولكن إخفائه حقيقة شعوره وطبيعته
سروره رياء صريح .

سمعت نقرتين خفيفتين على باب غرفتي ، ففتحته ، فاذا « نورا » في
ثياب الأحد وطلعة الملاك ، تبسم وتنسول : « أخبرتني أمي أن للمسيد
حاجة اليّ » ، فقلت وأنا أهيء لها الكرسي لتقعده : « إن حاجتي اليك
حاجة الغريب الى الأُنس ، والضيف الى الأكرام » فقالت : « لست غريباً
وأنت في دارك ، ولا ضيفاً وأنت بين أهلك ، وإن العائلة كلها ،
كما سمعت ، تحبك وتحترمك » . فقلت لها : إن غربة الروح أشد من
غربة الجسد ، وربما ظل الرجل طول عمره ضيفاً بين أهله إذا لم يوافقوه
على هوى ، ولم يشاركوه في شعور . ولهذا شعرت من إشعاع نفسك
عليّ من بعيد ، أن بيني وبينك ألفة من الروح ، لو كان لها تجاوب في
شعورك لوجد القلب بجانبه قلباً يتفتح له ويتصل به ويسكن إليه ،
ولعلي أدركت سرّ انقباضك عن الناس . إنهم لا يشبهونك في خلق
ولا طبع ، ولا يفهمونك في إحساس ولا فكر . فهل أدركت الصواب ،
أو على الأقل واجهت الحقيقة ؟

وكانت الفتاة قد حدقت ببصرها اليّ ، وأقبلت بسمعتها عليّ وقالت :

« إن ما قلته عن نفسك وعني لم يتجاوز الحق ، وإن ما أدركته أنت من سر انقباضي هو ما أدركته أنا من سر انقباضك . وقد كنت علي وشك الاتصال بك لو لم تأمرني بلقائك أُمي . وما كنت جلوسي اليك البارحة في الصالون إلا تمهيداً لذلك . أما لماذا اخترتك من غير معرفة ، وألفتك من غير صلة ، فعلم ذلك من مكونات النفس . فلا تعرف له باعثاً ولا علة . وكل ما أعرفه من ظواهر الأسباب أنك مصري وقلبي معمور بحسب مصر ، وأني مريضة ، ومرضي يحتاج بطبيعته الي مؤاس من نوع خاص ، ولم يكذبني قلبي ، فقد علمت من بوادر كلامك هذا أنك تنطق عن نفسي وتكشف عن ضميري .. »

لم ارَ في الجلسة الأولى أن أدخل في صميم الموضوع ، ولا أن أسألها عن سر حبها لمصر الذي تكنه ، ولا عن كنه مرضها الذي تعانیه ، وإنما اكتفيت بأن قلت لها : أراك تفتقدين الأنيس المؤاسي ، وأنا أعلم أنك مخطوبة الي السيد جاك ، والخطيب صفي القلب ، ونجى النفس وشريكك المستقبل . وهو كما ينم عليه حاله ، هوأك أشد الهوى ويرعأك أصدق الرعاية ، فلو أنك بإدلتة الحب وشغلت به دنياك لما أحسست معه بالفراغ . ولكن أملك تقول على أثر ما أصابه الليلة إنك لا تبالين به إذا حضر ، ولا تسألين عنه إذا غاب ، ولا تردين عليه إذا كتب ، فهل هذا عرض من ذلك المرض ؟

فسكتت « نورا » قليلا ، ثم قالت في شيء من البطء كأنما تعد كلماتها عدّاً : « يجوز أن يكون للأزمة النفسية التي أكابدها منذ ستة أشهر بعض الأثر في فساد الحال بيني وبين جاك ، وإنما جاء أكثر الأثر من الاختلاف في مزاج ومزاج ، والتباين بين خلق وخلق : أنا خيالية

وهو واقعي ، وأنا روحانية وهو عادي ، وأنا مؤمنة وهو طبيعي ، وأنا أفهم الحياة على انها (آلة موسيقية) وأنغام ، وهو يفهمها على أنها آلة كائنة وأرقام . فأنا لا أصلح له وهو لا يصلح لي ، وما كانت خطبتنا إلا عدة وعدّها أبي إياه لنباهته في دنيا المال والعمل .

وكان باب الغرفة قد ظل مفتوحاً ، فدخلت مرجريت وجورجيت ، فعاد الحديث الى مجراه العام ، ونزلنا بعد قليل الى السرداب لنجد العمّة ومن حولها سائر الاسرة يتحدثون في اهتمام وجد . فلما رأونا ندخل وعلى وجوهنا دلائل البشر ، تهلّلوا جميعاً ، ولقونا لقاءهم للعائدين من مفاوضة ناجحة ، أو للعاقدين لصفقة رابحة . ثم انصرف بعضهم الى البيان ، وبعضهم الى الكونكان ، وجلست انا ونورا مع المتحدثين .

ولاحظ الثلاثة الكبار ، يعقوب وزوجته وأخته أن ابنتهم مشروحة الصدر للجلسة ، ومفتوحة النفس للحديث . فقال الأب موجهاً كلامه اليّ والى « نورا » :

« كنا نتحدث هنا فيما كنا نتحدثان فيه هناك ، ومن الخير أن نتابع الحديث لنبصر وجه الرأي في خطبة جاك ودراسة « نورا » من قبل أن تعود « صوفي » الى دمشق ..

وكانوا يعملون فيما بينهم أن الجواب عن هاتين المسألتين عندنا لا عندهم ، فقلت : ان من رأيي أن تتركوا عقدة هذه الخطبة للزمن يحلها على مهل ، فان قطع العقدة ، وإن كان أيسر من حلها ، يؤذي النفس ، ويحرج الكرامة ، وسيروض السيد جاك نفسه بالصبر والسلوان على احتمال الواقع ..

وقالت « نورا » : وإن من رأيي أن أبقى معكم الى الخريف ، فان

البعد عن منشأ الداء وإن كان سيحرمني أداء الامتحان ، سيساعد فيما أرجو على استئناف النشاط واسترداد الصحة .

أصبحت غرفتي منذ اليوم قطعة من الروض وقاعة من التحف ، نقلت إليها « نورا » أجمل ما في الدار من زهريات ولوحات وتماثيل وتحف ، ثم كانت تتعدها كل صباح بنفسها ، فتنسق الزهر وتنظم الأثاث وترتب الكتب . وانقسمت الأسرة بحكم الطباع والغرائز الى فريقين : بيني وبين القنصل ، فريق الخير وفريق الشر ، أو فريق النور وفريق النار ، أو فريق المعنى وفريق الحس . فالبنات وأمنه فريق ، والبنون وأبوهم فريق . ففي غرفتي تجتمع « نورا » وأختها ومعهن الكتاب والبراءة ، وفي غرفة السيد « بكير » يجتمع يوسف وأخوه ومعهم الشراب والريبة .

وتمكنت الألفة بيني وبين « نورا » فلم تعد تصطحب أختيها في المجيء اليّ ، فاذا أقبلتا تريدان لهو الحديث صرفتهما الى المذاكرة ، وبقيت هي جالسة على كرسي طويل ظهرها مسند إلى صدره وسائر جسمها ممدود على طوله ، وفي يدها مجلة تنظر فيها . ولكنها لا تلبث أن تذهل عنها وتستغرق وهي يقظى في حلم عميق . فاذا كنت أكتب تركتها حتى أفرغ ، وان كنت أقرأ أطبقت الكتاب واستغرقت أنا أيضاً في وجه كله معنى وجسم كله فتنة ووضع كله سر .

وكانت عطلة عيد الفصح قد انقضت ، فعادت العمرة الى دمشق ، وعاد الأولاد الى المدرسة ، وخلت الدار إلا من الممرض والمريضة ، أو من المصور والمثال ، فوجدت الفرصة مواتية لأستبطن دخيلة أمرها ، وأستخرج دفينه صدرها ، فقلت لها ذات يوم : أريد أن أعالجك بالتجليل ، كما يفعل الطبيب المحلل ، أو بالاعتراف ، كما يفعل القسيس المعرف ، فبوحى لي بكل ما في نفسك ، عسى أن أجد لك فرجاً من

هذا لهم ، وأعدك أن يظل الأمر فيما بيني وبينك سر مهنة أو سر اعتراف .

فقلت : وأنا أريد هذا أيضاً ، فاني منذ فارقت « الأب إلياس » أشعر بالكرب يخنق صدري ، وبالقلق يلوع ضميري . وقد كنت أستريح اليه بالاعتراف كل أسبوع كما يستريح المحزون بالبكاء أو المهموم بالشكوى . وأنت أقرب الي قلبي منه لأنك تشعر بانبساط الربيع ، وهو يشعر بانقباض الخريف ، وأنت تعيش في موجود الدنيا ، وهو يعيش في موعود الآخرة . ولا أريد أن أمضي في المقارنة بينك وبينه . فقلت لها ، وأنا أنشر البركة عليها من يدي : إذن ضمنت لك الشفاء بهذه الثقة . ثم جلست على كرسي الاعتراف ، وأخذت تعترف لي وتقول .

أخذت « نورا » تعترف اليّ بالفرنسية ، لأنها تستسلمها ، لا لأنها تفضلها ، قالت :

« كان ذلك في تموز من عام ١٩٣١ ، وكان من عادتي في العطلة الصيفية إذا لم أعد الي بغداد أن أضم يسدي الي يد عمتي في إدارة الفندق ، فأدعها تصرف أموره العامة فتموّن المطبخ وتهيء الموائد وتجهز الغرف وتتمهد الأثاث وتراقب الخدم . وأجلس أنا الي المكتب في المدخل : أستقبل النازلين وأرصد ما لهم ، وأودع الراحلين واقبض ما عليهم . وأجيب عن كل سؤال وأستمع الي كل شكوى . ولم أكن أدري أي شيء فيّ يجذب النزلاء اليّ ، ويرميهم بأثقالم عليّ ، فكل داخل وكل خارج كان يتلمس الدواعي أو يخلطها ليقف أمام المكتب ، يسأل من غير موجب ، ويتكلم من غير موضوع ، ويشفع الكلام الذي لا معنى له بالنظرة التي تقول ، والبسمة التي تدل ، فأجيب عن السؤال بالنفي أو الإيجاب ، وأرد علي الكلام بالصمت أو الإيجاز ، وأغمض

عيني عن النظرات والبسمات فلا تجرد طريقها الى نفسي . ولكني بعيد أيام ضقت ذرعاً بهذا الفضول ، فتخلّيت عن صدر المكتب للكاتب ، وانتحيت ناحية منه ، وأخذت أراقب الأمور من بعيد ، فلا أتدخل فيما يتصل بالادارة العليا للفندق . وكنت مع ذلك أنظر خلسة إلى من يدخل أو يخرج أو يجلس أو يقف . فأرى صوراً من الناس وأنظاً من اللباس واخلاقاً من اللثغى تجعل كل نهاري وبعض ليالي حفلة مستمرة في سينما . وكان يستوقف نظري من هذا الخليط المتغير المتجدد الجميل والأنيق والمهذب ، وهؤلاء يغلب عليهم التصون والتعالي فلا يتبدلون بالفضول ولا يتلهون بالعبث . وكان من بينهم شاب رشيق القامة حسن الهندام حلو التقاطيع . لم أستطع أن أتبين منه خلال النظرات الحذرة العجلى الا ظاهرتين على وجهه في دخوله وخروجه . وكان متزايلاً لا يدور في مدار الفندق ولا يشعر بجاذبية أهله ، إنما كان يدور كما علمت من بعد ، حول شمس غير منظورة ، لم يبقَ منها في دنياه إلا شعاعه تضيء عينه بقدر ما يعيش .

كان يجلس وحده في البهو ويأكل وحده على المائدة ، فإذا كتب لا يكتب إلا رسالة ، وإذا قرأ لا يقرأ إلا صحيفة . والصحف التي كان يقرأها مصرية يأتيه بها الخادم كل صباح ، فهل هو مصري ؟ لو سمعته لعرفته من لهجته ولو عرفت اسمه لكشفت عن بطاقته ، ولكنه لم يكن ير بالمكتب إلا ليودع للكاتب مفتاح غرفته أو ليسترده . وكنت وأنا في ركني المنزلة ألح عليه بالنظر المتتابع كلما وقف على المكتب أو جلس في الردهة ، لعله يلقي عليّ نظرة أو يوجه اليّ كلمة ، فما كان وجهه يتعدى وجه الكاتب ولا عينه تفارق صفحة الكتاب ، إلى أن اضطر الكاتب يوماً أن يغيب واضطرت أنا الى أن أجلس على كرسيه . وأقبل هو في الضحى الأكبر يودع مفتاحه ليخرج ، فحيا في احتشام

وأدب ، وألقى بمفتاحه في رقة ولطف . ولما رأى بين يدي كومة من بريد الفندق ، كنت أفرزها لأوزعها على الغرف ، وجهه اليّ من تحت أهدابه الوُطف نظرة حبيبة وقال : هل لي في هذا البريد بريد ؟ فسألته عن اسمه ، فقال : « نبيل طاهر » ، فعدت أقرأ العناوين في شيء من البطء لا أدري لماذا ، حتى استخرجت له من بينها خمس رسائل صادرة من القاهرة ، فأخذها شاكرًا وخرج .

عرفت في هذه اللحظة العابرة المباشرة اسمه وقليلًا من خلقه وكثيرًا من صفاته ، وانصبّ في شعوري عن طريق نظرتيه وكلمته وبسمته دفق من حاذييته الروحية ، شُغل بالي به ، وصرف همي اليه . كان مثال ما ارتسم في ذهني من صورة المصري الصميم : وجهه ناعم أسمر مشرب بالخمرة كأنما وردته نشوة الخمر ، وشعر ناعم أثيث متموج قد انفرق على فوده ، أشرفت منه جمّة على ناصيته ، وعينان كحلوان تشع منها الطيبة وتشيع فيهما البراءة ، وفم رقيق حلوا يفتر افترار الطفل ، وهذه الصفات الطاغية التي تبرز لعينيك أول ما تراه فتشغلك عن صفاته الأخرى .

كنت أتمنى كلما دخل أو خرج أن يمرّ بي فيسألني شيئًا أو يكلفني أمرًا ، ولكنه كان كما قلت ، محصوراً في حياته الخاصة ، لا يخرج منها أبداً ، ولا يستقبل فيها أحداً . ملكتني رغبة قوية في أن أطرق عليه باب دنياه طرقة ، فلعلني أكشف ما وراء هذا الباب من سر يسبب هذا الانقباض ، وبوجب هذه العزلة ، ففرزت يوماً بريده بنفسي وحجزته ، ولما علمت أنه جالس في البهو يقرأ صحيفة ، ذهبت اليه في شيء من الحرج ، وقلت له : هذه رسائلك من بريد اليوم ، جعلت من حملها اليك فرصة أسألك فيها عن مقامك في الفندق . فنهض الشاب واقفاً ، وتسلم الرسائل ، ثم تلطف فدعاني الى الجلوس ، فجلست ، وخيل اليّ أن علامة

من علائم الرضا قد تراءت على وجهه ، فقلت له : أراض عن غرفتك ومائدتك وخدمتك؟ أعندك ما تشكوه أم لك ما ترجوه؟ فقال وهو يحاول أن يخفي ربكة بدت عليه ، شكراً يا آنسة ، كل شيء مريح ، وكل أمر يسر . فقلت له : دع هذا التحفظ ، واجعلني هنا بمثابة أختك ، واسترح اليّ بما عسى أن يكرب صدرك من هموم الغربية ، فاني مثلك أشعر بما يعترى الغريب من الوحشة ويعتاده من الشوق . فقال في لهجة مصرية بصوت خفيض : يسعدني ويزهوني أن ترفعيني في نظرك الي منزلة الأخ ، ولقد قلت إنك غريبة ، وكان بعض الشك يخالجي في أنك سورية لاختلاف اللهجة والحلية والملامح ، فهل انت عراقية ؟ فقلت : نعم أنا ببغدادية ، أطلب العلم في دمشق ، وصاحبة هذا الفندق عمي ، فأنا أساعدها في إدارته شهري العطلة ، وجاء عامل التلفون يدعوني الي مكالمة ، فاستأذنت منه وقلت .

أنس اليّ يومئذ « نديل » . فكان يجاس في الردهة لا في البهو ، وبوجه كلامه اليّ لا الي الكاتب ، ويفضل أن يبقى في الفندق على أن يخرج . ولكن الحياء منه ، والاباء مني ، كانا يقفان بنا عند هذا الحد من النظر المردد ، والكلام العابر . ففكرت في حيلة تدني المجلس وتطيل الحديث ، فأخذت أقرأ الصحف المصرية كل صباح لأتمس فيها بالمناسبات التي يصح أن تكون موضوعاً لسؤال أو موضوعات لحديث ، ثم أدنو منه في الوقت الذي ينصرف فيه النزلاء ، ليخضع الصوت وتسكن الحركة ، فألقي اليه الخبر أو اورد عليه السؤال ، فينطلق وجهه بالبشر ، ويتفتح ذهنه بالكلام . فأقول ويقول ، وأجول في كل معنى ويجول . يروي لي عن مصر وأروي له عن العراق ، ويحدثني عن سعد واحده عن السعدون ^(١) ثم تجدد بعد ذلك

(١) عبد المحسن السعدون كان يومئذ رئيس الوزارة العراقية ، ثم انتحر لأسباب سياسية فكان انتحاره الحزن حديث الناس في كل مكان .

لمجلس وتكرّر الحديث ، حتى توثقت بيننا الألفة ، وكادت أن تزول الكلفة .

سألته ذات يوم عما زار من آثار دمشق ، وعما رأى من مفاصل الطبيعة في الغوطتين وبلودان والزبداني . فقال بلمهجة الآسف : إنه قضى في دمشق نصف شهر دون أن يجد في نفسه رغبة في نزهة ، أو حاجة إلى رحلة ، وكل ما كان يصنعه في هذه الأيام أن يتجول في أفكاره في شارع ، أو ينفرد مع همومه في قهوة . فقلت له وقد وجدت الفرصة لاكتشف عن سره وأمره : يؤمني أن أسمع منك كلمة الهم ، وأنت في السن التي لا تباي التبعة ولا يههما من الدنيا إلا جوانبها اللاهية المرحة ، فهل تشكو علة أو تكابد أزمة ؟ وهل تتيح لاختك الحانيه عليك المتعلفة بك أن تحمل شيئاً من عبئك الذي حرمك من هو العيش وشغلك عن بهجة الحياة ؟ فقال : لشد ما يسعدني ذلك ، فإن كتم الألم في الصدر ككتم البخار في القدر ، لا يزال يفور ويضطرب حتى يجد متنفساً من الضيق فيهدأ ويستقر ، وإن الآهة ينفثها المريض ، أو الشكاية يبعثها الحزين ، لهي الراحة من ألمه أو الفرجة من كربه . ولقد وجدت فيك منذ رأيتك وسمعتك ، علاجاً من دائي الذي أشكوه ، وتسلية عن همي الذي أقاسيه . وغداً الأحد وهو يوم عطلتك فتعالى إذا سمحت تخرج إلى ظاهر المدينة ، فأشركك في أمري ، وأفضي إليك بذات صدري ، وأتملى في الوقت نفسه بعض منازه الشام في صحبتك .

لم أجد في الاستجابة إلى دعوته مشقة كبيرة ، لاني مسيحية لا تقيدني تقاليد البيثة ، ولاني مراهقة تستهويني تجربة الخروج الأول مع شاب ، ولاني مشوقة منذ أيام إلى حديث طويل مع (نبيل) . وتواعدنا على اللقاء في مكان قريب من الفندق ، وقلت لعمتي بعد أن شهدنا قداس الأحد : إن إحدى صديقتي من الطالبات دعتنى إلى الغداء والسينما ، فلا تقلقي علي إذا تأخرت . وانطلقت بي وبنبيل السيارة إلى « دمر »

وكانت الغوطة الغربية قد تألفت في زيتها الطبيعية ، فجعلت من أدواحها الباسقة جنة للقلب الشاعر ، ومن أمواها الدافقة بهجة للمزاج المكتئب ، ومن مروجها الخضر سكينه للحس المضطرب . وكان مقهى (دمر) قد امتدت موائده على ضفتي الجدول الهادر ، وقد ازدانت بمن جلس إليها من بنات يوم الأحد وأبنائه . واخترنا مائدتنا في ركن منعزل من طرف المكان ، وجلسنا إليها متقابلين ، وجهاً لوجه وعيناً في عين وفقاً إلى أذن . وكان نبيل لا يزال مأخوذاً بروعة الغوطة وما يكتنف مدخل دمشق من الروابي الحالية في صدر الجبل ، والانهار الشادية في حوض الوادي ، والمنازل الغارقة في زهر الروض . فقال : ما رأيت أبداع من هذا المنظر ولا أنفذ من هذا السحر ، ولولا أن أتأحك لي الله لظلمت محروماً من هذا الجمال ، مشغولاً عن هذه المتعة . فقلت له : إن بالشام أماكن غير هذا المكان تجلو رؤيتها صدأ القلوب ، وتبسط زورتها انقباض المشاعر ، وسنورها معاً بعد أن أصفي نفسك من أكدار الهـم ، وأخلي بالك من شواغل الحزن . فافتح لي صدرك ، واسترح الي بما تكن فيه ، فقال : لا يا نوراً ليس الأمر سراً أكتمه ولا ألماً أكتنه ، إنما هو صدمة عاطفية زلزلت حياتي وحطمت وجودي ، وكان لها في الناس من أقرباء وأصدقاء أثر شديد وصدى بعيد .

أحببت ابنة عمي حباً غلب علي عقلي وشعوري ، وكان الذي حببها لي جمالها الفائق وخلقها العذب وروحها اللطيف ، وعشرة طويلة متصلة تأصل فيها حبنا ونما نمو النبتة الغضة في الثرى الخصب والجو الملائم ، فاستوت على ساقها ، وتفرعت عن أصلها ، ثم أورقت ، ثم ازدهرت ، ثم رفقت علينا بالندى والظل ، ونفحتنا بالنعيم والعطر ، ثم آن لنا أن نتخذ منها العش الذي نسكن إليه ونطمئن فيه ، فأخذ أبي وعمي يهدان للبناء ويستعدان للعرس . وعلى فجأة نعب على عشنا غراب ، ودوت على

قالت امرأة عمي لامي ، وبوادر دمعها تقطر على خدها الشاحب :
 إن نبيلاً واحسرتاه أخو عقيلة ابنتي ، تذكرت أنني أرضعت نبيلاً مراراً
 وانت مريضة ، فماذا نصنع يا اختي لنخفف وقع هذه الصدمة على
 نبيل وعقيلة ؟

شكّنت أُمِّي أول الأمر في سلفتها وأساءت بها الظن ، فلعلها وجدت
 لابنتها عريساً آخر فزعمت ما زعمت . ولكن الحزن الشديد الذي بدا
 عليها ، والالم الممض الذي نال منها ، والحب المحض الذي تكنه لي منذ
 الطفولة ، والسرور الطاغي الذي كانت تبديه منذ أعلنت الخطبة ، كل
 أولئك كان يبدد كل شك وينفي كل ريبة . شاع الخبر المشؤوم في بيتنا
 شيوع النار ، فشوى أكباداً وكوى أفئدة . وكان الخبر بالنسبة إلى مؤيساً
 لا نور للامل فيه ، ولا سبيل إلى الصبر عليه ، فضاقت بي الأرض ، وثقلت
 علي الحياة ، فذاب جسمي ووهن عظمي ولزمت السرير أياماً لا يأخذني
 نوم ولا يهنأني طعام ، حتى خاف عليّ أهلي فقلبوا عليّ جسمي ونفسي
 صنوفاً من العلاج ، فلم ينجع فيها شيء . وأخذ أبواي بسرّيّات عني
 بالامل في أن يجدا شهادة تكذب الرضاع ، أو فتوى تجيز الزواج ،
 ومنعوا عقيلة من لقائي لعل بعدها يساعد على سكوت الالم واندمال
 الجرح ، ثم رأوا أن أبعاد عن وهيج النار ومثار الشجن . فقررروا أن
 أرحل إلى لبنان وسورية . وها أنذا بعد شهرين قضيتها في ظهور
 الشوير ودمشق لا أزال كما ترين ، مطبق الجفنين على صورتها ، مطوي
 الجوانح على حبها ، أرسل اليها كل مساء رسالة وأتلقى منها كل صباح
 رسالة ، ولم يمل قلبي اليك إلا لأن فيك مشابه كثيرة منها ، فأنا أراها
 في وجهك ، وأسمعها من فمك ، وأتمثلها في روحك العذب وطبعك المهذب .
 ثم أقبل الخادم بألوان الطعام ، فسكنت هو ، واستمررت أنا أصغري

الى أصداء هذا الحديث تتوارد على خيالي وتتردد في نفسي ، فتعتريني الشفقة عليه ، وتساورني الغيرة منها ، الغيرة ؟ نعم يا سيدي شعرت بالغيرة ولا أدري مبعثاً لهذا الشعور ، ولا معنى لهذه الكلمة .

أصبح من همي منذ ذلك اليوم أن أطيل الجلوس اليه في الفندق ، وأكثر الخروج معه الى الحدائق ، ولم تعوزني الوسائل التي كنت أنذرع بها الى عمي لتعليق الجلوس أو الخروج . وكانت أحاديثنا سقاطاً من أفانين شتى ، منها النجوى والشكوى ، ومنها الطبيعية والناس . فإذا أفضى بنا الحديث الى ذكر عقيلة عطفته برفق الى موضوع آخر ، حتى لا يذكرها فتعاوده لوعة البين وحرقة الذكرى . ولا أكذبك فقد كان في نفسي باعث آخر يحملني على طي الحديث عنها ، ذلك هو الغيرة الحاقدة من أي فتاة تستولي على قلبه ، وتستأثر بحبه . لقد أحبيته منذ رأيتَه ، ثم أخذ هذا الحب منذ عرفته ينمو على مرور الساعات والدقائق ، بانسكاب روحه الروي في روجي الظمآن ، عن طريق النظر والحديث والخلوة ، وكان من أقوى العوامل التي أوقدت صدري بهذا الحب أنه مشغول عني وأني يائسة منه . هو مشغول القلب منذ صباه بإبنة عمه . ومن الصعب خلو القلب من هوى دخيل شغله على فراغ وتمكّن به عن أصالة . وأنا مقطوعة الرجاء من ثمرة هذا الحب ، لأن الهوى بيني وبينه غير متكافيء ولا متبادل . هو يحب في عقيلة لأنني صورتها في عينه ، وأنا أحب فيه وجودي لأنه حقيقته في نفسي ، وهو مع ذلك قاهريّ وأنا بغدادية ، ومسلم وأنا مسيحية ، فاقتراني به موقوف على موافقة الظروف وموافقة الأهل . ولو كانت إقامته في دمشق ستطول لكان من الممكن أن يحمله اليأس من عقيلة على التفكير في غيرها ، ولكان من الجائز أن تكون هذه الغير هي أنا ، وإذا وقع في حبي كما وقعت في حبه سهل الحب كل صعب ، وأدنى كل بعيد ، ولكن بقاءه بيننا

موقوت مهما يطل ، وخروج عقيلة من حياته بطيء مهما يكن ، وليس للعقل على الهوى سلطان حتى أحسك في حاضر أمري ومستقبلي الى المنطق ، فلم يبقَ إلا أن أفوض أمري الى الله ، وأترك زمامي في يد القدر .

أخذت أعب من هوى نبيل عباً متتابعاً لا أتنفس خلاله ولا أكتفي منه ، كنت أحبه بأذني وعيني وقلبي ، في كل كلمة وفي كل نظرة وفي كل خفقة ، في جلوات « الزبداني » وخلوات « بلودان » ومسارب « الحميدية » ومسارح « الغوطة » ، لأنني كلما فكرت في أن يوم الرحيل آت لا ريب فيه ، عشت غلوة حتى امتلأ وجودي كله بالهواء ، فلا أفكر إلا فيه ، ولا أحلم إلا به ، ولا أعيش إلا معه ..

غبنا معاً ثلاثة أسابيع في نشوة متصلة من رحيق الحب ، لم نفق منها إلا على برقية هبطت من القاهرة تدعو نبيلاً الى العودة . فكأن وقعها عليه وقعاً مبهماً ، لا هو سار ولا محزن ، كان مشوباً بالأسى على فراقني ، وبالفرح للقاء أهله . أما وقعها عليّ ، بالرغم من توقعي لها ، فقد كان أشدّ من وقع خبر الرضاع على عقيلة ، ذلك لأن عقيلة ستره يحكم الجوار والقربة . أما نورا فلن تراه حتى يرى الأعمى النور ، والميت النشور ، والحالم الحقيقة . قضينا ليلة الفراق ساهدين في الفندق ، يتحدث هو عما سيلقيه من الكرب إذا لم يجد في القاهرة ما يواسيه ويسليه ، وأتحدث أنا عما سأعانيه من الفراغ الذي سيتركه في حياتي بعد تنائيه وتناسيه ، ثم تمنيت أن تتاح لي الوسيلة لأزور مصر ، فنمضي معاً في طريق هذا الهوى العذري الى الغاية التي كتبها علينا القضاء فيه .

وفي الصباح صحبته الى ميناء بيروت ، وهناك على ستلم الباخرة جمعنا ما تفرق من عواطفنا وذكرياتنا وأمانينا ، وضغظناه وحفظناه في

قبلة قوية كانت هي الأولى والأخيرة . ثم عدت الى دمشق من غير نور
ولا أنس ولا أمل . عدت كالثكلي شيعت وحيدها الى المقبرة ، ورجعت
لترى أثره في كل غرفة ، وتجدر ربحه في كل لعبة ، فهي تفر من البيت
الذي يذكرها به الى البيت الذي ترجو أن يسلمتها عنه ، وكذلك
فعلت ، فررت من الفندق الى المنزل ، ومن المكتب الى السرير . ثم
اعتراني من الهم والسقم والانقباض ما قصت بعضه عليكم عمي .

وبعد فقد سمعت الصدى ولم تسمع الصوت ، وأحسست الوهيج ولم
تمس النار ، وعرفت الجملة ولم تعرف التفصيل ، والحال كما ترى تشتد
ولا تخف ، وتسحتكم ولا تنفرج ، فهل عندك لقصتي مساع ،
ولأزمي فرج ؟

فقلت لها وقد نفست باعترافها عن صدرها المكروب فاستراحت الى
أن تتقبل الخلاص من الكاهن : إن أمرك يا نورا مع نبيل وجاهك لهو
الأمر الذي وصفه الشاعر بقوله :

جننا بليلى ، وهي جنّت بغيرنا وأخرى بنا مجنونة لا نريدها
وسأحاول أن أعالجك بما عاجلت أنت به نبيلاً ، فلعلي أصيب من
النجاح فيك أكثر مما أصبت أنت من النجاح فيه .

لا علاج للعاشق إلا السلوان . والسلوان شراب كان الأعراب يتخذونه
من صيب المطر على خرزة تسمى السلوانة ، ثم يسقونه العاشق ليسلو .
ولم يعد في الامكان اليوم العثور على هذه الخرزة السحرية ، فحل محلها
النسيان ، والنسيان بمعونة الزمان والصبر والشغل ، يحو الصورة من الذاكرة ،
ويطمس الماضي في الذهن ، لذلك كان همي الأول ألا أدع وقتاً فارغاً
تجتر فيه ما اختزنه في صدرها من رقيق العواطف ، وجميل المواقف
مع نبيل .

فحاولت أن أنسخ عاطفة بماطفة ، وأستبدل موقفاً بموقف ، وكانت هي قد وجدت في قولي جزءاً من عشاها الذاهب ، وأملها الخائب ، للتأمل الذي بيني وبين حبيبها في الجنس والسحنة واللهجة ، فجملت وقتها كله لي ، وأردت أن يكون فراغي كله لها ، فنحن في البيت نقرأ ونحدث ونلعب الورق ، وفي الخارج نجلس على (رأس جسر مود) في قهوة ضحيانة ، ترقد على صدر دجلة النابض ، وتستغرق في الضوء والسكون ، فنجعل ظهرينا إلى أحلاس القهوة ، ووجهينا إلى صفحة النهر ، وعينينا إلى ضفة الكرخ ، فنجتلي هذا المشهد الرائع قليلاً ، ثم نرقد إلى أنفسنا فنتذكر كل حديث إلا حديث دمشق ، وكثيراً ما يلهينا الحديث المشفق عن مائدة البيت ، فنأكل « الأبيض والبيض والعنبا » من البائع الجوال ، ثم نواصل النجوى والحديث إلى المساء . وفي بعض الأصائل من أيام القيظ ، كنا نفر من وقدة البيت إلى « جزيرة دجلة » ، فنجلس حيث يتنفس علمينا الماء بالطرارة ، ثم نأكل السمك المسقوف ، ونتفكه بالبطيخ المبرد ، ثم نقضي العشية في زورق يهددنا ساعة أو ساعتين على ظهر النهر الخالد الذي تراقص عليه « العنقاب » و « الدلفين » ، بالخليفة الأمين ، وحسانه وقبانه ونداماه .

وفي أيام الجمع والآحاد كنا نخرج من بغداد منفردين إلى منازل العراق ومغانيه وإثاره ، فيوماً في مجالي الرستمية على نهر ديالي نستمتع بالخلوة والسكون ونستغرق في الهوى والشجون ، ويوماً في بساتين بعقوبة ، ذات الظلال والثمر ، نتخذ تحت أشجار التفاح والبرتقال مضاجع على العشب ، أو مقاعد على الجدول ، أو ممشي تحت الكروم ، ثم نتبادل الحديث والنظر ، فتارة تقول وأنظر ، وتارة تنظر وأقول . والقول كان أفانين من شعر العاطفة ، والنظر كان أشعة من نور القلب . ويوماً بالكاظمية أو كربلاء أو النجف ، نزور أضرحتها المقدسة ، ذوات القباب

المذهبة ، ونروح بعبيرها المبارك على النفس العانية ، والكبد القريحة ،
ويوماً بايوان كسرى أو أطلال بابل أو آثار نينوي ، نجعل منها دروساً
في تأريخ الجبارين من بني الانسان ، نستخدم فيها لغة العقل لا لغة القلب ،
ونستخرج منها ملحة الماضي لا مأساة الحاضر .

كانت كل هذه الخلوات والرحلات وما تخللها من فتون وفنون أحجار
اللحد لحب أخذ يموت ، وأعواد المهد لحب أخذ يولد . كان قلبها لا
يزال مذبذباً بين جاذبية الحب الذي غزاه على بردى ، وجاذبية الحب
الذي اعتراه على دجلة . وكان قلبي لا يزال مخدوعاً بأنه يمثل عواطف هذا
الحب ومواقفه وأعراضه لينقذ الفتاة من بلاء وقعت فيه ، ولكن الذبذبة
لم تلبث أن اطمأنت الى قرار ، والخذاع لم يلبث أن تكشف عن
حقيقة . واستعجل هذه النهاية أن الفتاة المراهقة أو أي فتاة لا تستطيع
أن تعيش طويلاً على ذكرى حب ، تعيش عليها لأنها تكره الخلو ، فإذا
شغل قلبها حب جديد تركت الأثر وتعلقت بالعين ، وخرجت من الخيال
لتعيش في الواقع .

وهكذا أصبحنا محبين محبوبين ، لا نتحدث عن ثالث ولا نفكر في أحد ،
وكان من أمري معها ما كان من أمرها مع نبيل ، حاولت أن تسليه عن
« عقيلة » فوَقعت في حبه ، وحاولت أن أسليها عن « نبيل » فوَقعت
في حبه . ولم يكن الحب الذي بدأ بينها وبين نبيل ثم عاد بينها وبينني
إلا حباً صوفياً ، ليس له عرض ولا غرض إلا حديث القلب للقلب ،
وأنس الروح للروح في الخلوة العفّة والنزهة الزهية . ليس لهذا الحب
مدى من الطبيعة أو الحس حتى يفتر إذا بلغه ، إنما هو كالعشق الآهلي
في عمقه واتساعه وشموله وذهوله وسكرته ، لأنه اتحاد وجود في وجود
وفناء ذات في ذات !

مرت الأيام على هذا الحال مرور العجم اللذيذ في النوم الهادئ ، لا
يزعجنا كابوس من هم ولا 'نبوء' من قلق . وكانت «نورا» في تلك المدة
قد عاد اليها صفاء نفسها ونضارة صباها ، ففتتح جسمها الغض في حرارة
الحب كما يفتح الورد الجوري في دفء الربيع ، فهي ترح وتلهو
وتقابل وتشارك . فاغتنبت الأسرة بهذا التغيير ، وتوسعت في اللهو ،
ونشطت في الأنس ، وعاد البهو الرحيب سيرته الأولى من اللعب والرقص
والموسيقى ، وقضينا في هذه الذشوة الصوفية أحد عشر شهراً ، لا يسأل
القدر المقدور متى نفيق منها ، ولا كيف ننصرف عنها ، ولماذا نسأل ؟
أنا أعلم أنها موقوتة ببقائي في بغداد ، وبقائتي في بغداد لن يتجاوز أول
هذا الصيف ^(١) ، وهي قد عودت نفسها ألا تفكر في الغد ما دامت مشغولة
الفكر باليوم ..

ولكن الزمن ينقضي والعمل ينتهي ، واليوم الذي سأغادر فيه بغداد
يتحدد . ولا بد أن أبلغها الخبر ، وسأبلغها إياه في أسلوب سائق من

(١) ارتأت سياسة التعليم يومذاك بحجة ضيق الميزانية واشتداد الازمة النقدية ، لما طرأ
على الزراعة من كساد ، أن تغلق دار المعلمين المالية سنة ١٩٣٢ . وقضى الأستاذ الزيات
بقية السنة الدراسية يدرس طلاب الصف المنتهي من دار المعلمين الابتدائية وهم على مستويات
ضخيفة، وما يدرس فيها من المواد العربية لا تتلاءم مع مستوى درس الزيات العالي .

كان الزيات في السنة الأولى يصطحب زوجته ، وسكن داراً يجرار دار يسن الهاشمي
القديمة على مقربة من الثانوية المركزية ، وكانت حبة بغداد قد استمرت جسد الزوجية
المصونة ، فعلمت علامتها في مواضع من جسمها . وكان من حسن حظها انها
قد تجنبت وجهها فلم تشوه جماله ، وكانت قد عمقت سنوات طويلة فأفادتها الرحلة الاحصاب ،
فحملت حملها بولدها (رجاء) . وكان طلابه المقربون اليه يجالسونه في بعض مقاهي بغداد ،
فيشرهم بالمولود الجديد الذي وصله نباه على جناح البرق ، فاغتنبط واغتنبطوا ، وسألهم ماذا
يقترحون له من الاسماء . أما هو فاقترح اسم عاطف ، فلم يوافقوه لأن لمعنى عاطف دلالة
خاصة في العراق ، واقترح ناجي معروف اسم رجاء ، فوافق على التسمية وأبرق لزوجته به .

الكذب . والكذب الأبيض الذي ينفع ربما كان خيراً من الصدق الأسود الذي يضر ، فقلت لها ذات يوم ونحن نتقي بالنوافذ المغلقة والستائر المسدلة ، عاصفة التراب التي تثور على العراق من حين الى حين ، فتد نهاره ليلاً ، وسماه أرضاً ، وصفاه كدورة . إن العطلة الصيفية ستبدأ عما قريب ، وسأقضيها في القاهرة بين أهلي ، وسأعود إن شاء الله مع الخريف .

وجمت أول الامر للخبر المنتظر ، ثم تماككت نفسها وقالت في لهجة المستسلم وهيئة المحزون : لقد شفيتني من داء بداء ، وسأفتقدك في أشهر العطلة الثلاثة ، وأخشى أن يهاجمني الهم وأنا وحدي فأنتكس ، وأرى أن أقترح على أبوي أن أصطحبك الى دمشق ، فأقضي الصيف مع عمتي ، حتى إذا حانت عودتك الى بغداد مررت بي فأعود معك ...

وفي صباح الغد خرجت فاشترت لي دنوان الشرقيات للامرتين ، و « ألبوما » فاخراً ضمته على بعض صورها في أسنان وأوضاع مختلفة ، ثم خاتماً ذهبياً من صنع « الصبة » نقش عليه اسمي بالميناء ، ولا يزال بعد تسع وعشرين سنة في إصبعي ، واتخذنا الابهة للسفر ، وقطعنا بادية الشام على سيارة من سيارات « نيرن » في ليلة من ليلالي الصحراء ، تطلق دجاها النجوم الزهر ، حتى باتت كيوم الدجن . وكأنت نورا قد قضت الهزيع الاول من الليل تتكلم عن السماء والنجوم وحياة الاعراب وقصص الحب حتى قرسها البرد فأستدفأت ببطانيتهما ، ومالت على كتفي ونامت . وفي تباشير الصباح المشرق المثل ، بلغنا فندق العمدة صوفي ، فتركت نورا تستنشي نسائم الذكرى وتتعلق بأسباب الامل ، وواصلت السفر الى بيروت .

ومن الفضول الذي لا يزيد في علمك أن أصف لك موقف الوداع فإنه موقف عرفته الخليقة كما عرفت غشية الموت . ذاقته كما ذاقت حر

الحريق . والذي يهملك أن تعرف أنني لم أكد أستجم من عناء السفر الطويل في السيارة والباخرة والقطار حتى زرت « نبيلاً » في داره بالمعادي ، وكنت قد عرفت عنوانه منها - فقدمت نفسي إليه ، وقصصت خبرها عليه ، وروى لي عفة نفسها ، ورقة قلبها ، وحسن حديثها أكثر مما رويت ، وشكا لي من لوعة البين عنها ، وحرقة اليأس منها ، وحرارة الشوق إليها أكثر مما شكوت ، واجتمع هواي وهواه فاتحداً في صداقة وثيقة ومودة خالصة ، وعشنا معاً ولا نزال نعيش في ذكرى هذه النفس الطيبة التي ظهرت في حياته وحياتي ظهور الأمل الباسم في قطوب اليأس ، والروح المؤانسة في وحشة الغربة . ثم غابت في الأفق البعيد كما تغيب الرؤيا السهاوية في حجاب الغيب ثم لا يبقى منها في القلب إلا جلالها ، ولا في العين إلا سناها (١) ..

(١) تزوجت من شاب من ذوي معارف أبيها ، وسعدت بزواجها وانجبت ، وهي ما زالت حية تعيش منعمة مع أفراد اسرتها ، ولم يبق من تلك الذكوبات إلا رسيس كرسيس الحلم الجميل أو المتعة الحلوة لقصة قرأتها .

تأريخ

حياة الف ليلة وليلة

هذا البحث القيم والتحقيق الدقيق لكتاب ألف ليلة وليلة ، ألقاه الاستاذ الزيات ببغداد في قاعدة الثانوية المركزية ، في محاضرتين اثنتين أحدهما في مساء الخميس الاول من سنة ١٩٣٢ والاخرى في مساء الخميس الذي يليه . وقد حضرت المحاضرتين ، واستمتعت - كما استمتع عدد كبير من الاساتذة والمتأدين - بمحو الحديث وجمال الصوت وسحر الإلقاء . وكانت القاعة ، على سعتها ، مزدحم بالمستمعين ، ولما كان التحقيق الذي أجراه الزيات في المحاضرتين ممتعا ، وبعد أول تحقيق شامل في العربية لتطور هذا الكتاب الشعبي ، ويمثل أدب الزيات وإنتاجه في العراق ، حرصت أن أفرد له حيزاً في الكتاب ، وأطبعه بنصه كاملاً ضمن ملاحظه فضلاً عن كتابه في أصول الادب . قال :

يخطو الدهر دائباً في وناء وكبرياء وصمت ، فيعفي الاثر ، ويفري الحجر ، ويبهرى الحديد ، وتنال يده العابثة كل شيء في حيااة المرء بالتغيير والنقص ، إلا شيئاً واحداً منه يلوذ بسواد القلب فيستقر في قراره ، ويكمن كمون السر في دخيلته . أريد به ذكريات الصبي وأحلام الحداثة ، فهي باقية والجسم يتخونه البسلى ، ثابتة والعيش تزعزعه

الاحداث ، ناضرة والمنى بصوحها اليأس ، مشرقة والنفس يغشاها من
 الهم ظلام وسحب . فمن منكم يا سادة لا يذكر أول بيت أبصر فيه
 الوجود؟ وأول ملعب عرف فيه الرفيق؟ وأول مكتب رأى فيه العلم؟
 وأول موعد لاقى فيه الحبيب؟ ومن منكم لا يذكر ساعات السحر
 اللذيذة الهادئة في غرفة النوم الوثيرة الدافئة حيث كان أطفال الأسرة
 يتجمعون حول الجدة الحنون أو الأم الرؤوم أو الظئر الحانية؟ فينصتون
 في سكون وشوق الى ما تقصه عليهم من روائع الأسرار وبدائع القصص،
 وهم من طلاوة الحديث ، وجاذبية الحادث ، وبشاشة المحدث ، في حال
 لا يصف الشعور بها غير شاعر . ثم لا يلبث هذا الرحيق العجيب أن
 يخدر الاعصاب الطفلية الرقيقة ، فتغفو تحت جناح الكرى وتسمع بقية
 الحديث الشهي في الحلم . هذه الاقاصيص الشائقة التي كانت لعتولنا سحراً ،
 ولعواطفنا المشبوهة سكرأ ، ولقلوبنا القضة فتنة ، هي نوع من الاحلام
 والاماني ، تراءت في ليل الحياة الطويل ، ثم تجمعت في ذاكرة الزمن
 القديم ، وتنقلت من عهد الى عهد ، ومن مهد الى مهد ، ومن بلد الى
 بلد ، تحمل في طواياها نفحات الحكمة المشرقية العالية ، وعطور الأزمن
 البعيدة السعيدة . فوجودها أثر لوجود الانسان ، لأنها ظاهرة طبيعية من
 ظواهره ، كالغناء والشعر والرقص ، فلا تعرف لها أولية ، ولا تجد في
 الغالب لظهورها علة . ولكن علماء الاساطير يزعمون أنها نشأت في
 الهند ، وهاجرت منها الى بلاد الفرس ، ثم رحلت الى بلاد العرب ، ثم
 استقر بها النوى في أقطار الغرب ! وفي كل مرحلة من هذه المراحل كانت
 تصطبغ بصبغة البيئة ، وتتأثر بخصائص الجنس ، وتتمس بسمايات العقيدة .
 وما أبطالها الذين وجدوا على الرغم من قانون الوجود ، ونازعوا أبطال
 التاريخ ثوب الخلود ، فقد كان لبعضهم ولا شك حظ من الحياة ،
 وشهرة بملازمة الاسفار وملابسة الغير ، فتحدث الناس أولاً بما فعلوا ،

ثم سرجوا حول اسمائهم وأنبيائهم الأكاذيب والأعاجيب حتى أصبحوا
أعلاماً على شخصيات متميزة في البطولة والحرب والحب والحيلة والكرم ،
كدعد وليلى في الشعر ، وأبي نواس وجحا في التنادر .

أما أكثر الأبطال فمَن خلق الخيال ، ابتدعهم رموزاً للمثل الأعلى
أو القدر العايب ، أو الجد العائر أو السلطان الجائر ، أو الهوى المتسلط
أو الأمل الآسي أو الحظ السعيد . وعلى ذكر الطفلة ومناغيات الأمومة
أراكم ولا ريب تركتموني أتكلم ، وعدتم بالذاكرة الى تلك العهود الحبيبة
تتخيّلون سحرها وتستعيدون ذكرها ، وتصيخون الى ذلك الصوت الحنون
ينبعث خافتاً من أعماق الماضي القريب أو البعيد ، مردداً أسماء أولئك
الأبطال الذين طالما اكتبتم لاكتبتم ، وقأتم لمصائبهم ، وشاركتهم
بالعطف في نعماء الحب وبأساء الحرب ولأواء الخطب ، من أمثال حسن
البصري ونور الدين المصري ، والشاطر محمد ، والشاطر حسن ، إلى آخر
ما سجلته الذاكرة .

أنا كذلك ، يا سادتي ، ذكرت حين كتبت هذه السطور ، هاتيك
القبور التي ضمت هواي ، ورفقة صباي ، ونوعاً من الحنان والاخلاص
لم أذق له طعماً منذ غاض في هوة البلى منبعه ... ثم ذكرت شيئاً آخر :
ذكرت مجلى من مجالي الأنس في القاهرة كان جمعة القلوب وألفة النفوس
ومستجماً الخواطر ، فعصفت به ريح المدنية الحديثة ، ذلك منظر
المحدث أو القصاص أو المسامر أو الشاعر في مقهى الحي ، وهو في
حلتة الشرقية المفوفة الضافية ، فوق صفته الحشبية البالية العالمية .
وقد تجمع بين يديه وعن يمينه وعن شماله أوزاع العامة وشيوخ المحلة ،
يستجمون من كلال العمل اليومي برشف القهوة العربية وتدخين الترجيلة
العجمية ، وتبادل العواطف الاخوية ، ثم الاصغاء المشترك الى (أبي درويش)
وهو يقص بصوته المتند وجرسه الهاديء المتزن ، حروب (عنتره) أو

وقائع (أبي زيد) أو مخاطر (ابن ذي يزن) ، فينقلهم بقوة تمثيله أو
بحسن ترتيبه ، على جناح الخيال الى عصور هؤلاء الابطال ، فيشهدهم مجد
البطولة وسلمان الحب وفتك السحر وبطش المردة . ثم يرى الخبيث
أن فورة الحماسة أو الشوق قد طغت في النفوس لوقوع البطل في أمر
أو شدة ، فيسكت ليجمع « النقوط » من السهم والنظار ، فلا يجد
هؤلاء مندوحة عن تعجيله ليعجل هو الى اطلاق البطل من إساره ، وانقاذ
الجمهور من شدة قلقه ومرارة انتظاره .

وفي ليلة من هذه الليالي الساهرة تجدون القهوة ذات الضوء الشاحب
والصمت الحالم والمنظر الكئيب ، قد خفقت فوقها الرايات ، وأشرقت
في جوها الثريات ، وتلألأت في سماها المصابيح ، وأخذت زخرفها
بالسامرين . وقد جلسوا متقابلين على الدكك العالية ، يطوف عليهم غلمان
بأكواب من ذوب السكر المعطر بماء الورد ، وصاحبنا المحدث قد خرج
الى القوم يتهادى في عتمه المكورة وجبهته المعصفرة وقفطانه الأنيق
الأصفر . وقد تدلت من حزامه الحريري ذلاذل تنوس على بطنه المنتفخ
الضخم ، فإذا استوى على عرشه المنجد توهج البخور من جانبا ،
وتضوعت العطور من جانب ، ثم خشعت الاصوات ورنت اليه العيون ،
وأنشأ يحدث ، فإذا بدا لأحد الجالسين أن يسأل عن سبب هذا المهرجان
عجب أولاً من أنه لا يعرفه ، ثم أجابه بلمهجة الفخور المزهو : هذه
ليلة زفاف « عيلة » الى عنبرة ...

فإذا كانت القصة قصة بني هلال ، وجدتم هذا الهوى الجميع قد استحال
الى عصبية شنيعة ، ورأيتم إخوان الامس قد أصبحوا أعداء اليوم ،
فظائفة تتعصب لبني هلال ، وطائفة تتعصب لبني زناتة ، وهؤلاء يريدون
الشاعر على أن يقص واقعة ، وأولئك يسألونه أن يقص أخرى ، والشاعر

لا يجيب إلا لمن يحزل له العطاء ، فإذا رجحت كفة وشالت كفة ، أخذ يروي من ذاكرته وغيبه على هوى الفتنة الغالبة ما لم يسجله تأريخ ولم يدونه كتاب ، فيزور الغرائب ، ويختلق الوقائع ، ويقمش مما خزنه في حافظته في مختلف الأسفار ورقائق الأشعار ليحوك منها للبطل حلة تهز العجب في قلوب أشياعه ، وتلهب الغيرة في صدور خصومه ، فاما نفعه أحرى تميل به الى الجهة الثانية ، وأما معركة بين الحزبين تكون هي القاضية .

هذا الرجل الذي صورته لكم هذه الصورة المتقاربة ، هذا الرجل الذي ينام النهار ويجلس الليل يحدث أربع ساعات متعاقبة ، هذا الرجل الفكه اللبق الحافظ الواعظ ، هو الأثر التاريخي والنموذج الحقيقي لذلك القصاص البارع الذي خلف لنا كتابنا الغالي الخالد (الف ليلة وليلة) ..

يرجع تاريخ هذا القصاص يا سادة إلى صدر الاسلام ، والفضل في وجوده كان أيضا للقرآن الكريم ، فقد اشتمل كما تعلمون على مجملات من أخبار القرون الحالية والنذر الأولى ، وكان أعلم القوم يومئذ بتفصيلها من أسلم من أهل الكتاب ، كتميم الداري ووهب بن منبه وكعب الاحبار وعبد الله بن سلام . فكان هؤلاء ومن أخذ عنهم يجلسون الى الناس في المساجد ، يفصلون ما في كتاب الله من قصص الانبياء ، ويسرفون في تهويل هذه الانبياء ، ابتغاء للعبرة والتماساً للموعظة . ووافق هذا الضرب من الوعظ هوى النفوس ، فازداد إقبال الناس عليه ، وكبر إفاك القصاص فيه حتى طردهم أمير المؤمنين علي من المساجد ما خلا الحسن البصري .

ولكن دهاة السياسة رأوا سلطان هذا الفن على العقول ، وقوة أثره

في توجيهه الميول ، فاتخذوه لساناً للدعاية وسبيلاً لافتماع الحديث واختلاق الأقايص في الاغراض الحزبية المختلفة . بدأ بذلك معاوية ، فولى رجلاً على القصص كان إذا صلى الصبح جلس يذكر الله ورسوله ، ثم دعا للخليفة وحزبه ، ودعا على أهل خصومته وحزبه . وكان هو إذا انفصل من صلاة الفجر جلس الى القاص حتى يفرغ من قصصه . وكان ولاته وقواده يقدمون القصص في بعض حروبهم ليقصوا على المقاتلة أخبار الشهداء وما وعدوا به من حسن الجزاء . فعل ذلك الحجاج في العراق ، وجاراه فيه من حاربهم من زعماء الفرق . فقد ذكر ابن الاثير في حوادث سنة (٧٧) ان عتّاب بن ورقاء سار في أصحابه قبيل المعركة يحضهم على القتال ويقص عليهم . ثم قال : أين القصص ؟ فلم يجبه أحد ، فقال : أين من يروي شعر عنترة ؟ فلم يجبه أحد ..

وسار الشعر والقصص في ركاب السياسة جنباً الى جنب ، يشبهان على الناس وجوه الرشد ، ويوهان على العقول صور الباطل . والقصص كانوا في ذلك أشد وطأة على الحق ، لأنهم ينسبون ما يفكرون الى التاريخ أو إلى الدين . فلما هدأت نائرة الاحزاب ، وسكنت طائفة الفتن ، ونضجت العقول ، عاد القصص الى المسجد ، فوجد الواعظ قد غلبه على مكانه ، والعالم قد فطن الى كذبه وهتانه ، والخليفة قد استغنى عنه برواته وندمائه ، فانقلب الى العامة بسامرهم في أملاهم وأعراسهم بما أثار من أيام العرب ، ونقل من أساطير العجم ، وروي من أخبار الفتوح .. وانتشر القصص في العواصم العربية حتى صاروا ظاهرة من ظواهر اجتماعها وحاجة من حاجات عامتها ورعاها ، واشتدت هذه الحاجة حين انفجرت الدواهي على العالم الاسلامي في أواخر العصر العباسي وبعده من عنف المتسلطين من السلاجقة . وعسف المتغلبين من المغول وغزو المتعصبين من الفرنك فطلبهم العامة تفرجاً للكرب ، والخاصة



الاستاذ احمد حسن الزيات والاستاذ محمد بهجة الاثري
في شهر شباط - سنة ١٩٦٨

تشجيعاً على الحرب ، ولكنهم كانوا في مصر أبرع صناعة وأنفق بضاعة وأرفع مكانة ، لان طبيعة إقليمها ونظام اجتماعها وطباع سكانها كانت تعين على ذلك : فهي قطر زراعي مملوم الرقعة متصل العمارة يوجد بالخير الكثير على الجهد القليل فكان . لذلك أهله قليلي الاسفار ، يؤمنون بكل خبر ، كثيري البطالة ، يميلون الى اللهو والسمر ، وكانوا لا ينفكون بين يسر متدفق طلق ، إذا عم الفيضان وعدل السلطان واقتصد الموت . وعسر متجهم إذا فحش الغلاء وألحّ الوباء وبغى الحاكم . وعلى الحالين كان السامر والسامر عنصرين من عناصر الحياة ينظّران بهجة الحياة في الرخاء ، ويسرّيان كربة النفس في الشدة . وكان أول من تولى القصص الرسمي في مصر سليمان بن عنتره التجيبي سنة ٣٨ هـ : تولاه مع القضاء ثم أفرده به ، ثم تعاقبت القصاص من بعده في مصر على اختلاف بينهم في القدرة والغرض ، فكانوا أصداء للعقيدة وأبواقاً للسياسة ، تسمعون عنهم في كل عهد لهجة ، ولكل دولة سنداً وحجة . وتروى ذلك أقوى ظهوراً في عهد الفاطميين . فقد كان يعقوب بن كلس وزير المعز يعتمد على المناظرات في نشر فقه الشيعة ، وعلى القصص في جذب القلوب لأهل البيت . وكان مقتل الإمام (علي) ومأساة الإمام (الحسين) موضوع المنابر والسوامر في شهر رمضان والمحرم

وقيل إن ربيعة حدثت في قصر «العزير بالله» فتناقلتها الافواه ، وردتها الأندية ، فطلب الى شيخ القصاص يومئذ يوسف بن اسماعيل (١) أن يلبي الناس عنها بما هو أروع منها ، فوضع قصة عنتره تباعاً في

(١) وقيل انه الشاعر الطبيب ابو المؤيد محمد بن الصائغ الجزري ، ومن قال بهذا الرأي الاستاذ كوسان دي بريسفال الذي طبع هذه السيرة مائخداً في باريس .

اثنين وسبعين جزءاً ، سمّرت بها مجالس القاهرة منذ ذلك الحين الى اليوم .
وهي إلباذة العرب ، لا ينازعها هذا الشرف الى الآن عمل في آخر .

وفي القرن الرابع للهجرة كانت فورة هذا الفن ونهضته في بغداد
والقاهرة . ففي عهدى المقتدر بالله العباسي ، والعزير بالله الفاطمي ، كان
القصاص الحكوميون والشعبيون يحتشدون لوضع الاخبار ، ويتنافسون
في جميع الاسهار من الوراقين والرحالين والعمامة .

ولكن القصص في العواق كان من عمل الكتاب ، يصورون فيه أنبل
عواطف الناس ، وأجمل مواقف الحياة ، ويلقونه زهوراً وعطوراً في
مجالس الخلفاء وسوامر الملوك . فكانت بلاغة المتحدث وجلالة السامع
ونبالة الموضوع ، تطبع القصة بطابع الجمال والاعتدال والقصر ، وتنزع
يها الى السليقة العربية المجدولة على الإيجاز والقصد في الشر والخطب
والرسائل والقصص . فما جمعه ووضعها (الجهمشيارى) و (ابن دلان) و (ابن
العطار) في القرن الرابع من الاقاصيص في الحب الطروب والترف
المسرف ، وما وضعه من قبل هؤلاء (سهل بن هرون) و (علي بن داود)
و (أبان بن عبد الحميد) من الأسهار في الامثال الرمزية والحكمة العالية
والسياسة الرشيدة ، وما صنعه من قبل هؤلاء (عبدالله بن داب) و (هشام
الكلبي) و (الهيثم ابن عدى)^(١) من الاخبار في الهوى العذري والسخاء
العربي في الاسلام والجاهلية ، كل اولئك موسوم بسعة العقلية العربية
الخالصة من حذف الفضول وترك الاستطراد وقلة المبالغة .

أما القصص في مصر فكان غالباً ، من عمل القصاصين والمسامرين ،
يلقونه من الكتب ، ويتلقفونه من الإخوان ، ويحدثون به الدهماء في

(١) عيسى بن داب وهشام الكلبي والهيثم بن عدى من الرضعين لا يعتد برواياتهم .

المجالس العامة . ورزق هؤلاء القصص على قدر ما عندهم من القصص فاذا ما انقطع أحدهم عن الحديث لنضوب معينه انقطعت به أسباب العيش ، فهم لذلك مضطرون الى تطويل الموضوع بالاستطراد ، وبسط الحداث بالتزيد ، وجذب القلوب بالإغراب والمبالغة . ومن ثم اتخذ الادب القصصي في مصر شكلا لا عهد للادب العربي به ، ذلك هو شكل القصة بالمعنى الذي نفهمه من كلمة (رومان) في الاصطلاح الغربي ، فإن المعروف الشائع من قبل إنما كان « Fable » والاقصوصة « Conte » والحكاية « Nouvelle » وهذه الانواع قد تولد بعضها من بعض على نحو ما يرى الاستاذ (بروتيير) الناقد الفرنسي من تطبيق مذهب (دارون) على الانواع الادبية . فالاقصوصة نشأت من المثل ، والحكاية نشأت من الاقصوصة ، والقصة نشأت من الحكاية باتساع الخيال وفعل المبالغة وحكم الزمن . ولكن القصة العربية قد تأخر نشوؤها إلى القرن الرابع حتى ظهرت بمصر ، لان عملها يقتضي التطويل والتحليل والعلم بطبائع الناس وأوصاف الشعوب . والعرب في عهودهم الاولى كانوا أبعس بطبيعتهم ومعيشتهم عن هذه الامور ، ثم كانوا في عصور التحضر والاستقرار يؤثرون الخاصة بأدبهم فيضطرون في حضرة الملوك أن يراعوا الادب ، فلا يغرقون في الحداث حتى يجانب العقل ، ولا يسهبون في السمر حتى يجاوز المجلس ولا يسفون في القول حتى يصادم الخلق .

أما القصص المصري ، فقد تهيأت له الاسباب اللازمة لخلق القصة . كان سمير الازواع والعامية فلم يتقيد معهم بقوانين الخلق ، ولا بقضايا المنطق ولا بوقائع التاريخ . فهو يصطنع اللهجة الصريحة ، ويستعمل الالفاظ القبيحة ، ويبالغ في الخلط والتلفيق قصداً الى الاغراب والتشويق . ويعتمد غالباً على المفاحآت القوية ، ويستطرد كثيراً إلى الحوادث الفرضية ثم يصادم الوقائع ويشوه الحقائق ، لأنه يجملها ، والجمهور الذي يسمعه

لا يعلمها ، فاستطاع بذلك أن يزور أعرب الحوادث ، ويجمع شتى الأحاديث ، ويترك لنا هذه المجموعة القصصية التي كانت ولا تزال للخاصة مبعث لذة ، وللعمامة مصدر ثقافة .

كان القصص المصري يعتمد في مادته على ما يصدر عن بغداد من الأقاصيص الموضوعية والروايات الصحيحة والمدخولة ، ثم يضيف الى ذلك ما تنوقل في مصر وما تجمع من الأخبار من التجار والرحالين والبحارين . فقد كان هؤلاء بعد عودتهم من البلدان النازحة ، يدونون ما رأوا من الأعاجيب ، كما فعل اليعقوبي وابن فضلان وبزرك بن شهريار مثلاً ، ثم يحدثون بها الناس ، كأن يقولوا لهم مثل ما حكاه ابن خرداذبه من ان في بعض الامم رجالاً عراض الوجوه سود الجلود لا تزيد قامته أطولهم على أربعة أشبار ، في جلودهم نقط حمر وصفرة وبيض ، وأن فيهم من له أجنحة يطير بها ، ومن رأسه كراس الكلب وجسمه كجسم الثور والاسد . وما جاء في كتاب (المستطرف) من أن في « البلغار » من طولها أكثر من ثلاثين ذراعاً ، يأخذ الفارس تحت إبطه كما تأخذ الطفل الصغير ، ويكسر ساقه بيده كما تقطع حزمة البقل ، وما رأى الرحالون بالطبع هذه الاشياء ، وانما رأوا صورها على الآثار التي خلفها البابليون والفراعنة والرومان والفرس ، فظنوها حقيقة .

كان القصص يتناول هذه الاخلاط فيؤلف منها قصة كبيرة الفصول والفضول تدور حوادثها على بطل واحد ، ولكنها تعرض من قبيل الاستطراد الى حوادث شتى لا يصلها بحياة البطل إلا صلة واهية . انظروا مثلاً كيف صنع قصة عنتره : بناها على حادثة أصيلة صحيحة هي (حرب داحس والغبراء) التي شبت لظاها بين عبس وذبيان قبيل الاسلام ، ثم دارت رحاها على قطب من أقطابها وهو عنتره بن شداد العبَّسي ،

فذكر نشأته في حادثة خرافية جذابة ، ثم وصف رجولته وبطولته
وفصاحته وحببه وكرمه ، وما اتصل بذلك من عادات البدو ، كالضيافة
والحماسة والاجارة والشعر والغزو والسلب والثأر . ولكن حروب عبس وذبيان
مهما هزل فيها وطول لا تشغل بال السامعين طويلاً ولا تدّر عليه من المال
كثيراً ، فهو يوقع الخصومة بين عنزة وبين فرسان العرب ، فيقابلهم
وبقاتلهم ويسمهم جميعاً بالنكول والعجز . والقصاص في أثناء ذلك ينقلنا
في السهول والادوية ، ويقلبنا بين المضارب والاخبية ، حتى جلا لنا من الحياة
الجاهلية صورة صادقة لا تتمثل في خواطركم عن طريق التاريخ المقتضب
المفكك إلا بعد جهد . ثم يرى مع ذلك أن الشوق شديد ، وأن الامد
الذي يريد بعيد ، فيخرج البطل من الجزيرة العربية ، ويقدم به الى مصر
بلد القصاص ، فيقود بها عنزة حروباً ، ويهلك شعوباً ، ويبتني حصوناً ،
لا تزال العامة تعرفها إلى اليوم باسمه .

ثم يذهب به الى القسطنطينية ، ويواجه من امرأة رومية ، حتى إذا
ظفرت المنون أخيراً بالشجاعة الحارقة ، عاد ابنه من (بينظطة) إلى
الحجاز ، فطالب بعرش أبيه ، وحارب معاديه ومغتصبه . والميتة التي
اختارها القصاص لعنزة تدل على قدرة فنية عجيبة .

وكان (لامرتين) لا ينفك بها معجباً ومنها طروباً ، فقد ذكر أن
(الاسد الرهيص) أحد خصوم عنزة المقهورين الموتورين رماه غيلة بسهم
مراش مسموم ، فلما أحس البطل فعل الموت في جسمه الوثيق ، خشي
على قومه من بعده شرّ الهزيمة وعار الفشل ، فوقف حيال العدو الثائر
متطياً جواده متكئاً على ربحه ، وأمر جيشه بالتقهقر والنجاة ، فأرتد
الجيش ، وبقي هو واقفاً يعالج سكرات الموت ، والعدو متحفز للهجوم ،
ولكنه لا يجرؤ عليه خوفاً من عنزة ، حتى فاضت روحه على صهوة

جواده ، وكان الجيش المتقهقر قد بلغ مأمنه . فلما طال وقوفه وجاوز الحد سكونه ، ارتاب الجيش المهاجم ، فدبر حيلة لكشف الأمر ، فأرسلوا إلى جواده حَجْرًا تَهيجُه ، فلم يكذب يراها الفرس حتى وثب وثبة خَرَّ لها فارسه على الارض صريعاً .

والغالب فيما أظن ، أن القصص قد أخذ هذا الحُتام البارِع من مصرع (سليمان بن داود) أمام عماله المسخرين من الجنّ ، وقد أجلمته البلاغة المعجزة في هذه الآية الكريمة ، « فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الارض تأكل منسأته فلما خَرَ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين » .

ظهرت هذه القصة الحماسية الجميلة في عصر كان وادي النيل فيه منيع الحوزة باهر الجلالة صافي المورد ، لا يكدره والسع ولا واغل ، فكان استقلاله يلهم العزة ، وعروبته توحى الشهامة . فلما هبت الاعاصير الهوج بالبربرية الجاحمة فأطفأت منائر بغداد وزعزعت عرش الخلافة ، وعبثت العجمة الجاهلية بثرات العرب من علم وأدب وخلق ودين ، وعدت ذئاب الغرب باسم الصليب على الشام ومصر تنبح الهلال الآفل وتنهش المجد الطريد . رأينا القصة المصرية تصور هذه الحياة الحزينة الآفلة تصويراً عجيباً ، ورأينا القصص قد اتسع خياله بقدر ما ضاق علمه ، فهو يخلق بلاداً لم توجد ، ويتصور حوادث لم تقع ، ويعتمد في العمل على الجن والسحر والحوارق .

فبين القرنين السادس والثامن من الهجرة ، ظهرت في مصر سلسلة من القصص الطويلة الجذابة عُفلا عن أسماء مؤلفيها ، لان القصص المحترفين إنما كتبوها لانفسهم فيما أرجح ، ثم توارثوها خلفاً عن سلف حتى بلغت عهد المطبعة ، فنشرت على شكلها دون اسم ولا رسم ولا تعريف .

وأشهر قصص هذا الدور سيف بن ذي يزن والاميرة ذات الهممة
وفيروز شاه . فأما أنها كتبت في هذي العمود ، فذلك واضح لأدنى نظر
من لغتها وأسلوبها وما تدور عليه من عادات واعتقادات وصور . وأما
أنها كتبت بمصر ، فذلك ثابت من أماكن وقائعها وأسماء أشخاصها .
فأبطالها جميعاً عاشوا بمصر حتى الذين لم يروها أقدموهم اليها ...
فالمهمل بن ربيعة كان الوجه البحري ميدان حروبه ، وسيف بن ذي
يزن هو الذي أجرى النيل من جبال القمر بكتابه السحري الذي دفنه
في جزيرة الروضة بالقاهرة ، وهو الذي خطط مدن مصر ، فالجيزة اسم
من أسماء زوجاته . وسنك الثلاث ودمهور الوحش قائدان من قواده ،
والنيل تفرع الى فرعي رشيد ودمياط لان الملك (سيفنا) وقف وهو
قادم به من السودان يقاتل الكفار الذين اعترضوه في رأس الدلتا فوقف
النيل بوقوفه ، ولكن الماء وراه قد غبّ غبابه وطفحت أواذيه ،
فاندفق شطر منه الى الشمال ، واتجه الملك بالشطر الآخر الى اليمين .
ومدينة (سمود) أصلها سماء نود ، لان الحكيم (نودا) صاحبها قد
عقد عليها سماء بالسحر توقعاً لغارات الملك سيف وهو ذاهب بالنيل
الى مصبه ، ثم دفنه المؤلف أخيراً فوق جبل المقطم - وقال إن قبره
هو الذي يعرف الآن (بالجيوشي) .

وقد كان للحروب الصليبية أثر ظاهر في نسج هذه القصص في هذا
الدور ، فان العواطف الدينية والحماسة القومية التي الهبتها في قلوب
المسلمين هذه الغارات قد حملت القصص على أن يتملق هذه العواطف
ويغذيها بما يلفق من الاشعار والاخبار في فضائل الجهاد والاستشهاد
والصدق والصبر . فسيف بن ذي يزن كان حنيفاً مسلماً ، يقتحم المعقل
والارصاد على الوثنية والشرك في معالم الارض ومجاهلها وهو يقول :
(لا آله إلا الله ابراهيم خليل الله) ، وكذلك سائر الابطال في القصص ،

إلا أنهم كانوا قبل الإسلام لابعده .

وبين القرنين الثامن والعاشر للهجرة كان حكم المماليك بفساده وحكم
الأتراك باستبداده ، قد أتيا على ما بقي من أركان الاجتماع ، وحلّلا
أواصر الاخلاق والطباع ، ومني الناس بالاحاح الأوباء وشراة الجُببسة
والرؤساء ، واستشعرت نفوسهم ذل الحرمان والقهر ، فأخذوا إلى التصوف
أو إلى المجون ، وعالجوا همومهم بالحشيش والاقبون ، وحارب بعضهم
بعضاً بالشطارة والحيلة ، وتقاتلوا على حطام الدنيا بالخدعة والغيلة ،
وحال نظام الفتوة في مصر الى مناسر من اللصوص والعيارين يقطعون متون
السبل ويعبثون بالامن . والناس من ضعف السلطان يخضعون لهؤلاء
ويجلونهم إجلال الزعماء ، ويتناقلون حوادثهم وأحاديثهم بالاعجاب والمبالغة ،
فظهر حينئذ ذلك القمص الوصيح الذي يمثّل هذه الحال بحقارتها
وسفالتها ، وبصور تلك البيئة بخرافاتها وجهالتها ، كالقصص الذي يدور
على (علي الزبيق) و (أحمد الدنف) و (حسن شومان) و (دليّة
المحتالة) و (دالة المحتالة) كما يسميها المسعودي . وأصبح اسلوب القصص
في هذا الدور دائراً بين الجهالة والقحة ، فهو يستعمل في قصصه لغة
مبتذلة وتراكيب فاحشة وجمل محفوفة ووقائع واحدة يرددها في كل
قصة ويكررها في كل مناسبة . وكانت شهوة السهر والسمر قد بلغت
مداها في ذلك الحين لتغلب البطالة على أهل القاهرة ، واعتماد الناس في
الثروة على الحيلة والشعوذة والسحر والقدر ، فتكدسوا في السوامر حول
القصاص . وقد تجمع لهؤلاء من خلال القرون ذخيرة وافرة من الاساطير
والاسمار فهموا يدونونها ، كما دونت تلك السير من قبل ، فكان مما دون
في تلك الحقبة الغربية كتابنا وموضوع محاضرتنا (ألف ليلة وليلة) .

(الف ليلة وليلة) يا سادة ، كتاب شعبي ، تمثلت فيه طوائف الشعب
وطبقاته ، وتراءت من خلاله ميوله ونزعاته ، وتكلمت فيه اساليبه وامججاته ، فهو

كالشعب . وكل شيء للشعب قد لقي من جفوة الخاصة وترفع العلية أذى
طويلاً ، أغفله الأدب فلم يتحدث عنه ، واحتقره الأدباء فلم يبحثوا فيه ،
ورآه محمد بن اسحق المعروف بابن النديم فقال إنه غث بارد ، لانه نظر
اليه نظره الى الأدب الارستقراطي الذي يصور الترف ، ترف الخيال
وجمال الصنعة . فلما حقق العصر الحديث تغلب الديمقراطية وسيادة الشعوب ؛
واستتبع ذلك عناية أصحاب المذهب الابداعي (الرومانتيكي) في
الغرب بحياة السوقة والدهماء عنايتهم بحياة الملوك والنبلاء ، وهب رواد
الاستعمار وعشاق الآثار ينقبون عن (فولكلور) (١) الشرق ، أخذ أدبنا
بحكم التقليد والعدوى يعطفون على أدب السواد ، فدرنوا اللغة العامية ،
وجمعوا الاغاني الشعبية ، ونظروا بعض النظر في فن القصص ، وسمعوا
في رجفة من الدهش الى قول الأوربيين : إن في أدبنا الموروث كنزاً
دفيناً من هذا النوع ، له في أدبهم أثر قوي وشأن نابه . ولكنهم لم
يخلدوا بدياً الى هذا القول بثقة ، واستكثروا على هذا الكتاب الخرافي
السوقي أن يذكر في الكتب ، ويوضع في المكاتب ، وينبئه الناس الى
فضله ، و«هنا» العرب بانتاجه ، حتى رأينا بعيوننا أنه نقل منذ أوائل
القرن الثامن عشر الى كل لغة ، وحلّ الموقع الأول من كل أدب ، وظفر
باعجاب النوابغ من كل أمة ، حتى قال فولتير إنه لم يزاوِل فن القصص
إلا بعد أن قرأ ألف ليلة وليلة أربع عشر مرة . وتمنى القصصي الفرنسي
(استندال) أن يحوا الله من ذاكرته « الف ليلة وليلة » حتى يعيد قراءته
فيستعيد لذته .

ثم قرأنا أن اقلام المستشرقين أخذت تتجادل منذ اوائل القرن التاسع
عشر في أصله ، وتكشف عن مناحي جماله وفضله ، وأن دوائر المعارف

(١) مجمع التقاليد والاساطير الشعبية لأنه من الامم .

الكبرى سجلته في حقولها وخصته بالطريف الممتع من فصولها ، وأن
الاستاذ (فكتور شوفان) أفرد له في كتابه « تأريخ المؤلفات العربية » جزئين
سرد فيهما مخطوطاته ومطبوعاته وترجماته وجزئين آخرين لخص فيهما
طائفة كبيرة من حكاياته . وأن الكتاب الروائين قد استغلوه للسبينا
والمرح ، فاستخرجوا للاول رواية « لص بغداد » وللثاني « قسمت »
أو القضاء والقدر ، وأن رجال التربية والتعليم في فرنسا والمانيا وانكلترا
قد اقتبسوا منه أدباً للأطفال فاختروه وصوروه ، ولقيت أنا منذ
عامين في القاهرة مستشرقاً اسبانياً وآخر أمريكياً ، قد ارسلت الأول
جامعته والثاني جمعيته لينقبا في مدن الشرق عن مخطوطات ألف ليلة وليلة .

حينئذ أخذت خاصتنا تقرأه وتسمعه . ومطابعتنا الراقية تصححه
وتطبعه ، وأدباؤنا المترفعون يشيرون اليه في تأريخ الأدب . ولكنهم الى
اليوم لم يدرسوه دراسة علمية تكشف عن لبابه ، وتستقطر النطف
العذاب من عبابه ، وهو على الرغم من جميع ما فيه قد سجل على توالي
القرون أطوار اجتماعنا ، وصورّ بالألوان الزاهية مختلف أخلاقنا وطباعنا ،
ونشر في الشرق والغرب أنوار حضارتنا وازدهار ثقافتنا وجمال تقاليدنا ،
وأتم نقص التأريخ الذي تجاهل الشعب ، والأدب الذي احتقر العامة ، فكان
منه للناقد الاجتماعي والمؤرخ والفيلسوف والأديب الباحث والكتاب
القصصي منهل ثر الينابيع صافي المورد ، ثم كان - فضلاً عن ذلك -
للشعب العربي في زمن انحلاله وضياح استقلاله وصعوبة اتصاله قيس يبعث
الحرارة في النفوس الخامدة ، وذكرى تلوع القلوب أسى على المجد الذاهب ،
وصلة ثقافية تجمع المنازع المتفرقة على الوحدة .

يكاد يكون « ألف ليلة وليلة » علماً ثانياً على بغداد ، بل ربما كان
أدل عليها اليوم في نظر الشعوب الحديثة من شأنها الرفيع في الحضارة

ومكانها البارز في التاريخ ، ذلك لأن آثارها المادية قد ألحّ عليها طغيان الدهر وفيضان النهر حتى محواها . أما هي في هذا الكتاب فلا يزال سناها باهياً لم يخب ، وصداها مدوياً لم ينقطع ، فهو للحضارة العربية في بغداد متحف زاخر بالأعاجيب ، دونه مسا للحضارة الفرعونية في مصر من معابد ومقابر وكنوز ، لأنه يسير في البلاد وهي ثابتة ، ويتحدث الى جميع الشعوب وهي صامته ، حتى أصبح لفظ بغداد في جميع اللغات مردافاً للعمران الزاهر والترف العجيب ، واسم الرشيد رمزاً للعادل الشامل والزمن الخصب . ذكر أحد كتاب الانكليز فترة من الزمن الرخي فقال : « كان ذلك في العصر الذهبي ، إذ كان يحكم الخليفة العادل هارون الرشيد » ..

ذلك بعض فضل الكتاب على بغداد . وقد ذكرت من قبل ، أنه لم يؤلف على هذه الصورة فيها ، ولم يؤلفه أحد من بينها ، وإنما جمع في مجالس القصص في القاهرة ، ودون على هذا الشكل في القاهرة . وطبع أول طبعة كاملة في مطبعة الحكومة في القاهرة ، ثم كان حظ القاهرة من « كتاب ألف ليلة وليلة » أن صورها للناس مثابة للاحتيال والشطارة والجهل . بينما يصور بغداد مهبطاً للفضل ، وموطناً للنبل ، ومعدناً للكرم ، وعشاً للحب ، ومظهرأ للترف . حتى كان من جراء ذلك أن أهل بغداد لا يزالون يقولون (عياق مصر وحيال مصر) ونحن ما زلنا نقول في القاهرة : تبغدد فلان إذا أظهر البغدة . وهي كلمة مشتقة من « بغداد » على ما أرجح تدل على السرف والترف والبطر والنبل (١) .

(١) كان هذا الاشتقاق في الماضي البعيد للمهد السعيد . أما في العهد الحديث ، فقد راح اخواننا المصريون يطلقون لفظة تبغدد الرجل إذا كثرت لحنه وسحق سيبويه حتى العظام . حدث للوفد الحقوقي العراقي برئاسة الاستاذ منير القاضي في الحفل الجامعي الذي أقامته الجامعة في القاهرة ان عثمان الشيخ سعيد شرع ينشد قصيدة الزهاوي التي حيا بها مصر ، ←

وسبب اختلاف حظ البسليدين من الكتاب أن القصاص المصري إذا تحدث عن مصر - وهو منها وفيها - تحدث عما يرى وعبر عما يسمع ، وقد علمنا في أي عهد من عهود الضعف والانحلال ظهر هذا الكتاب بمصر . أما إذا تكلم عن بغداد فانما يتأثر بعوامل أربعة : يتأثر بما وضع من الأفاصيص الجميلة في بغداد ، ويتأثر بما ملا الآذان وشغل الأذهان من عظمة بغداد واهية الخلافة ، ويتأثر بما ركب الله في طباع الناس من تقديس الماضي وتعميم البعيد ، ويتأثر بجهله أحداث التاريخ وتطور الامم ، فأبى وهو في القرن العاشر من الهجرة أن يعترف بموت الرشيد ومصرع بغداد ونكبة المجد الأثيل .

أما بعد ، فأني أحاول الآن ، يا سادتي أن أكشف عن حقيقة « ألف ليلة وليلة » بمقدار ما تهيأت لي المراجع في بغداد ، بعد أن توفرت على قراءته ودراسته في مختلف الطبوعات ، ووقفت على ما نشر عنه من الأبحاث في بعض اللغات ، وما أريد بالطبع أن ادفع السأم في نفوسكم بذكر ما لا يحتمله المقام من التحليل المفصل ، وإنما اجتزئ بذكر ما لا يسع الرجل المثقف جهله من هذا الكتاب .

وهنا يدركنا المساء كما يدرك شهرزاد الصباح ، فنرجيء البقية الى الأسبوع المقبل إذا تفضلتم بالسماح (٢) .

← فأكثر من اللحن وأساء تقطيعها وتقدم ثان وثالث وأراد الاستعاذ ، وهو نحوي كبير ولغوي ان يخفف الحال فوق في بعض الخطأ ، فلما أخذ بعض المحتفين يلقون كلماتهم ، صار ينعتون الطلاب من يقع في اللحن بقولهم تبغدد الرجل .

(٢) كنت بين شهود هذه المحاضرة وكانت في يوم من ايام شهر رمضان ، وبالرغم من ان اكثرنا كان صائماً وددنا لو استمر الزيات في محاضرتة ، فقد خلب البابتنا وسحرنا بالقائه الجميل وتقطيعه الحسن ونبرته العذبة .

المحاضرة الثانية عن تاريخ الف ليلة وليلة :

ألقى الاستاذ الزيات محاضرته الثانية في قاعة المدرسة الثانوية ببغداد بعد أسبوع من محاضرته الأولى ، وذلك في كانون الثاني سنة ١٩٣٣ م . وقد غصت القاعة بالمستمعين حتى ان الكثيرين قد اضطروا الى الوقوف لاستماعها . وقد وفي الاستاذ الموضوع تحقيقاً وبحثاً ، وأوضح تاريخ هذه القصة وما دخل عليها من زيادات ، وذكر من عني بدراستها من الغربيين ، فجاء تحقيقه كافياً شافياً لم يبق مستزید طلباً في زيادة . وهذا نصها :

« ليس من اليسير على الباحث الكشف عن حقيقة كتاب كالف ليلة وليلة ، أصله مفقود ، ومؤلفه مجهول ، وزمان وضعه مبهم ، ومكان حوادثه مشتبه به ، لأننا إذا فزعنا الى التاريخ نسأله قال : إن ما يتصل بالأقاصيص والأساطير كان خارجاً بطبيعته عن اختصاص الأديب ومنهاج المؤرخ . وإذا رجعنا الى نص الكتاب ندرسه لنتبين من لغته وأسلوبه وأسماؤه أبطاله ومواطن رجاله وعقائده أهله نصيب كل جنس وجيل في تكوينه ، وجدناه من هذه الجهة ضعيف الحجّة خادع الرأي قليل الغناء ، لأن كثيراً من النساخين والقصاصين في البلاد المختلفة قد اعتوروه فنقلوه على وفق لهجاتهم ، وعبثوا به على مقتضى شهواتهم ، حتى لا تجد نسختين منه تتفقان ، لا في الترتيب ولا في النص . ففي حكاية البنات مع الجمال والصعاليك الثلاثة مثلاً يقول : الصعلوك الثاني إنه قرأ القرآن بالروايات السبع وحفظ الشاطبية ، والشاطبية في علم القراءات كالألفية في علم النحو . وفي بعض النسخ لا يذكر الشاطبية ، ويكتفي بذكر الروايات السبع ، فلو أن ذكر الشاطبية كان عاماً في جميع النسخ لحكمتنا بأن هذه الحكاية كتبت بعد سنة ٥٩٠ هـ وهي السنة التي توفي فيها الشاطبي . وفي حكاية مزين بغداد يذكر المزين الفيلسوف سنة ٧٦٣ في نسخة

وسنة ٦٥٣ في نسخة أخرى ، فعلى أي الرقمين نعتمد في تأريخ هذه الحكاية ؟

إذن لم يبقَ للباحث غير الاعتماد على النقد المبني على تأريخ الحضارات المقارن ، وعلى ما بقي في الكتاب من صور الأساليب ورسوم التقاليد التي لم يشوهها الناسخ ، ولم يعفّ عليها الزمن .

كان أول من ذكر ألف ليلة وليلة من المؤرخين على بن الحسين المسعودي المتوفي سنة ٣٤٦ في كتابه (مروج الذهب) ، فقد قال حين عرض لأخبار إرم ذات العماد : « إن هذه الأخبار موضوعة من خرافات مصنوعة ، نظمها من تقرب من الملوك برواياتها ، وان سبيلها سبيل الكتب المنقولة البنا والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرومية . (وفي رواية أخرى الفهلوية بسدل الهندية) مثل كتاب هزار افسانه وتفسير ذلك بالفارسية ألف خرافة ، والناس يسمون هذا الكتاب ألف ليلة ، وهو خبر الملك والوزير وابنته وجاريتها شهرآزد ودنيا زاد .

ثم جاء بعده محمد بن اسحق المعروف بابن النديم المتوفي سنة ٣٧٥ هـ فقال في كتابه الفهرست : « أول من صنف الخرافات ، وجعل لها كتباً ، وأودعها الخزائن الفرس الأول ، ثم أغرق في ذلك ملوك الاشغانية وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس ونقلته العرب الى اللغة العربية ، وتناوله الفصحاء والبلغاء فهذبوه وتمقوه وصنفوا في معناه ما يشبهه ، فأول كتاب عمل في هذا المعنى كتاب هزار افسانه ، ومعناه ألف خرافة .

وكان السبب في ذلك أن ملكاً من ملوكهم كان إذا تزوج امرأة

وبات معها ليلة قتلها من الغد . فتزوج بجارية من أولاد الملوك ، لها عقل ودراية يقال لها شهرزاد . فلما حصلت معه ابتدأت تحدثه ، وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها ، ويسألها في الليلة الثانية عن تمام الحديث الى أن أتى عليها ألف ليلة . . . رزقت في أثناءها منه ولداً أظهرته وأوقفت الملك على حيلتها عليه ، فاستعقلها ومال إليها واستبقاها ، وكان للملك قهرمانه يقال لها دنيا زاد ، فكانت موافقة لها على ذلك . وقد قيل ان هذا الكتاب ألف لحميا ابنة بهمن .

ثم قال ابن النديم في موضع آخر : (والصحيح إن شاء الله أن أول من سمر بالليل الاسكندر ، وكان له قوم يضحكونه ويخرفونه لا يريد بذلك اللذة ، وإنما كان يريد الحفظ والحرس ، واستعمل لذلك بعده الملوك هزاز أفسانه ، ويحتوي على ألف ليلة ، وعلى دون المائتي سمر ، لأن السمر ربما حدث به في عدة ليال . وقد رأيت بهتمامه دفعات ، وهو بالحقيقة كتاب غث بارد الحديث) .

فالرجلان كما ترون متفقان على أن الكتاب منقول عن هزاز أفسانه الفارسي . وأنه موضوع في خبر الملك والجاريتين : شهرزاد ودنيا زاد ، وأن اسمه في عصرهما كان ألف ليلة ، لا ألف ليلة وليلة ، ولا عبرة بمجيء الكتاب في الطبعة الحديثة المصرية لمروج الذهب ، فسان ذلك من زيادة المصحح . ويختلفان في نسب البنت والجارية . فيقول ابن النديم إن شهرزاد من أولاد الملوك ، وان دنيا زاد قهرمانه الملك ، ويزيد أن الكتاب يحتوي على ألف ليلة ، وعلى دون المائتي سمر ، وأنه ألف لحميا أو هميا او حماني او جمانة او خماني على اختلاف الروايات ، وهي بنت الملك بهمن بن اسفنديار .

هاتان هما الوثيقتان الخطيرتان في تاريخ هذا الكتاب ، ولا يوجد غيرهما

فيما نشر علينا من كتب مؤرخينا القدماء ، اللهم إلا إشارة الى وثيقة
 ثالثة مفقودة نقل عنها المقرئ في الخطط ، والمقرئ في نفتح الطيب
 وعزواها الى مؤرخ مصري اسمه القرطبي ألف كتاباً في تاريخ مصر على
 عهد الخليفة العاضد الفاطمي ذكر فيه ألف ليلة وليلة ، وقايس بين
 قصصه وبين ما يتداوله الناس في عصره من الحكايات المشهورة . وفي هذا
 دليل على أن الكتاب على أي صورة من الصور ، كان معروفاً في مصر
 على عهد الفاطميين ، وأن اسمه كان اذ ذاك ألف ليلة وليلة ، وأن
 عنصراً من القصص العربي قد دخل في هيكله ، ثم تجاهله بعدئذ أدباؤنا
 ومؤرخونا فلم يحققوا مصدره ولم يسجلوا نموه وتطوره ، حتى جاء رأس
 المستشرقين (البارون سلفسترد ساسي) فبدأ البحث العلمي في أصله
 بمقالين نشرهما في جريدة العلماء ، أولهما في سنة ١٨١٧ والآخر بعده
 بإحدى عشرة سنة . وجملة رأيه أن الكتاب تأليف جماعة لا تأليف واحد
 وأنه مؤلف في العهد الأخير ، وأنه عربي الوضع من فاتحته الى خاتمه .
 ودفع قول المسعودي أن فيه عناصر أجنبية من الهندية أو الفارسية .
 فناقش أدلته قوم آخرون أشهرهم (يوسف فون هامر الالماني) ، فقد
 نشر في سنة ١٨١٩ مقالة في إحدى المجلات الألمانية ، وفي سنة ١٨٢٣
 مقالة آخر في المجلة الآسيوية ، أيد فيها رأي المسعودي تأييداً لا سبيل
 عليه لاخذ . وفي سنة ١٨٣٩ ترجم الاستاذ (وليم لين الانكليزي)
 قسماً من ألف ليلة وليلة ، وقدم له مقدمة حاول أن يثبت فيها أن
 الكتاب تأليف رجل واحد ، وأنه ألف بين سنتي ١٤٧٥ و ١٥٢٥ للميلاد .
 ثم استأنف هذا البحث في هذا العصر طائفة من الثقات ، أشهرهم :
 كوجي ومولر ونولدكي واوستروب وكريسيكي وشوفان وكارادفو ،
 فاستجلوا على قدر امكانهم ما غمض من أصل هذا الكتاب ، حتى أصبح
 من الممكن بعد تمحيص ما قالوه وتصحيح ما جهلوه ان ثبت في هذا
 الأصل رأياً يقارب الصواب إن لم يكنه .

اصل الكتاب وطبقاته :

أصل هذا الكتاب نواة من الأفاصيص الهنديه والفارسيه تسمى (هزاز أفسانه) ترجم الى العربية من الفهلوية في أواخر القرن الثالث للهجرة بعنوان (ألف ليلة) وهو الذي رآه المسعودي وانتقده ابن النديم . ثم تجمع حول هذه النواة في الأزمنة الواقعة بين القرن الرابع والقرن العاشر من الهجرة طبقتان : طبقة بغدادية صغيرة وطبقة مصرية كبيرة . فأما النواة أو الأصل أو الإطار كما يسميه الباحثون ، فمؤلف من الحكايات الباقية الآتية : حكاية الملك شهریار وأخيه شاه زمان ، وهي مقدمة الكتاب ، وحكاية التاجر والجنى ، وحكاية الصياد والجنى ، وحكاية حسن البصري ، وحكاية الحصان الأبنوس ، وحكاية الأمير باسم وجوهرة السمندلية ، وحكاية أردشير وحياة النفوس ، وحكاية قمر الزمان ابن الملك شهرمان والأميرة بدور ، وحكاية سيف الملوك وبديعة الجمال ..

وقد اختلفت كلمة الباحثين في أصل هذا الأصل كما ألعنا الى ذلك من قبل ، ففريق يرى - ورأيه الأرجح - أن المقدمة وبعض حكايات الأصل هندية ، ويبني هذا الرأي على المشابهة في الموضوع والطريقة والأسلوب . فأما المشابهة في الموضوع فان في حكاية الملك شهریار وأخيه مشابهة من (كاتاسارت ساجارا) الهندية ، وأما المشابهة في الطريقة فان ادماج حكاية وتوليد قصة من أخرى ، إحدى خصائص الأدب القصصي الهندي ، وهي ملحوظة في ملحمة (مهايها رامه) وقصة (بنجة تنترى) أصل كليلة ودمنة ، لأن الباعث الأول على القصص في الأدب الهندي كان بناء الفرصة واكتساب الوقت حتى يؤفك المتهور من عزمه ويحجز المتسرع عن وجهه ، كما فعل البيغاء مثلاً مع زوجة صاحبه في حكاية (سوكا سابتاني) ، فقد كان يقص عليها كل يوم أحسن القصص ليعوقها بلهو

الحديث عن زيارة خليلها في غيبة خليلها ، ويقطع حديثه دائماً بقوله : سأقص عليك البقية غداً إذا بقيت في البيت . وهذه الطريقة وذلك الباعث نجدها في كثير من حكايات ألف ليلة وليلة . فلا نزاع إذن في أنها هندية . وأما المشابهة بالأسلوب فإن لوازم القاص الهندي أن يقول : لا تفعل ذلك وإلا أصابك ما أصاب فلاناً ، فيسأله السامع . وكيف ذلك ؟ فيجيب القاص على هذا السؤال برواية القصة . وهذا الأسلوب نفسه مستعمل في تلك الحكايات من ألف ليلة وليلة ، وقولهم فيها : وكيف ذلك ؟ ترجمة حرفية لهذه الجملة السنسكريتية : (كانت اتات) . ثم يمضي هذا الفريق في تطبيق نظريته على بعض الحكايات ، وينتهي إلى أن هناك طائفة من الأفاصيص لا شك في أنها فارسية ، وهي حكايات الحصان الأبنوس وحكاية حسن البصري وحكاية سيف الملوك وبديعة الجمال ، وحكاية قمر الزمان والأميرة بدور وحكاية بدر باسم والأميرة جوهرة السمنديلية وحكاية اردشير وحياة النفوس .

وفريق آخر يرى أن الأصل كله فارسي ، تأثر بالعقائد اليهودية والاعريقيه والإسلامية ، وبريد أحدهم وهو الاستاذ (كوجي) أن يجعل بين هيكل (ألف ليلة وليلة) وبين قصة (استر) اليهودية صلة ونسبة ، ذلك لأن ابن النديم في الفهرس يقول إن هزاز افسانه ألتف لحميا بنت بهمن ، والطبري يقول إن استر هي زوج بهمن ، والمسعودي يجعل استر زوجة لبختنصر ويسمها دنيا زاد ، ثم يطلق اسم شهرزاد أيضاً على أم حميا بنت بهمن أي على زوجة بهمن ، وهي التي سماها الطبري استر .

ويقول المسعودي أيضاً في موضع آخر : إن أم حميا يهودية ، ويعود الفردوسي والطبري والمسعودي فيطلقون اسم شهرزاد على حميا نفسها ، وهي بنت الملك بهمن وزوجه على عادة الفرس الأولين . أما وجه الشبه

بين قصة استر المذكورة في التوراة وبين مقدمة ألف ليلة ، فهو أن
 الملك اسربوس كان كالملك شهربار ، لا يرى المرأة إلا ليلة واحدة فترف
 اليه البكر مساء ليطردها من قصره في الصباح دون أن يقتلها كما يفعل
 شهريار ، واستر كانت كشهزاد تستهوي الملك وتحلب له ، فيستبقيها
 الوزير ، وشهزاد بنت الوزير وهي تغرر بنفسها لتتخذ بنات جنسها من
 شر الفضيحة والذل ، وشهزاد تفعل ذلك الفعل لتدراً عن بنات قومها
 خطر السباء والقتل .

أما علة هذه الآراء المتناكرة التي تجعل هذا الأصل عربياً بحتاً ، أو
 فارسياً بحتاً ، أو هندياً مشوباً ، فهي أن القصص العرب قد عبثوا به
 عبثاً شديداً ، فبدلوا أسماءه ، وغيروا أسلوبه ، وموهوا لونه ، واخترعوا
 بعضه ، وطبعوه بطابع إسلامي محض . ثم بعثوه في جوانب الكتاب
 وثنايا القصص حتى التاث على المقابيس الفنية فرزه وتحديده . وأما الطبقة
 البغدادية فتتألف من أقاصيص غرامية صغيرة انتزعت من حياة العرب
 واتسمت بسمة الاسلام وفاضت بنعيم الحب والترف ، تمثل حياة الطبقة
 الوسطى بأسلوب صحيح عذب ، وتصور حضارة بغداد في أيام العروس
 بخيال قوي خصب ، وتشهدكم سورة الغنى في الاسواق ، وضجة الغلمان
 في الافنية ، ونصف الجواري في المقاصير ، ومداعبة الزوارق اللاهية في
 دجلة ، وتجعل من الخليفة الرشيد ملك رحمة ورسول عناية ، يحيى متنكراً
 وظاهراً في كل مكان بالثرة للمحروم ، والعدل للظالم ، والوصل للعاشق
 البائس . ولا أقصد بذلك إلى أن كل حكاية يتدخل فيها الرشيد تكون
 بغدادية ، فان افتتان الناس بمجده ، وازدهار العراق في عهده ، جعله
 رمزاً للرجاء والعدل ، حتى في زمن غير زمنه ووطن غير وطنه .

تجمعت هذه الطبقة في مدى القرنين الرابع والخامس مما أثر عن

الرواة ودون في الكتب مستقلاً وغير مستقل ، فهي على ما أرجح بقايا القصص التي نشرها الأدباء البغداديون ، ثم طواها الزمن . وقد عدّ ابن النديم في الفهرست عشرات منها كقصة علي ابن أديم ومنهله وقصة عمرو بن صالح وقصاف وقصة أبي العتاهية وعتب ، وقصة وضاح وأم البنين ، وقصة أحمد بن قتببة وبانوجة ، وقصة ريحانة وقرنفل ، وقصة سكينسة والرباب الخ .

وأشهر حكايات هذه الطبقة حكايات علي بن بكار وشمس النهار ، وهي قصة شهيدين من شهداء الحب تشعر النفوس حرقه الأسي على جدّهما العاثر ونهايتهما المحزنة ، وقد صيغت في أسلوب رقيق وعبارة مهذبة ، واشتملت على نوع من الأدب يكاد يخلو منه أدب الخاصة ، وهو الرسائل الغرامية التي تجري بين العاشقين إذا عزّ اللقاء وعيل الصبر ، ثم حكاية انس الوجود وورد الاكمام وهي قطعة حب وشعر وغزل ، تجدون من فيها محباً أو حبيباً أو واصلاً بينهما ، والشعر الذي تضمنته إنما أنشئ لها خاصة ، فهو مطابق لمقتضى أحوالها مشتمل على أسماء ابطالها ، وذلك قليل في سائر الكتاب كقوله من أبيات :

ما خاب من سماك أنس الوجود يا جامعاً ما بين انس وجود
يا طلعة البدر الذي وجهه قد نور الدنيا وعمّ الوجود

ثم حكاية البنات الثلاث مع الجمال والصعاليك الثلاثة ، ثم حكاية النائم اليقظان أو أبي الحسن الخليص ، ثم حكاية بدور وجبير بن عمير الشيباني ، ثم حكاية الرشيد مع الخليفة الثاني محمد بن علي الجوهري ، ثم حكاية المعتضد مع أبي الحسن الخراساني وهي تسدور على السرف والترف والحب وتقص علينا مصرع المتوكل ، ثم حكاية الشاب البغدادي مع جاريتيه ، ثم حكاية الجواري الضرائر ، ثم حكاية السندباد البحري

وهي وصف جذاب شائق لسبع سفرات مخطرات في مياه الهند والصين
قام بهن السنديباد في عهد بلغت فيه بغداد والبصرة غاية لم تدرك يومئذ
في العمران والعظمة . ومما لا جدال فيه أنها كانت في الأصل رحلة حقيقية ،
شوهها الناس بالمبالغة وزيفها القصاص بالافتعال والتزويد ، ولعلّ صاحبها
هو الذي نحاهها هذا المنحى من الاغراب كما فعل بزرك بن شهريار في
كتابه عجائب الهند ، فلو صفيناها من سخف الاساطير وصرف الحديث
كالمسكة العملاق التي يظنها الملاحون جزيرة ، وببضة الرخ التي يحسبها
الراؤن قبة ، إذن لتكشفت عن تفاصيل دقيقة تطابق ما كتبه الرحالون
في هذا الموضوع ، كوضع جزر المهراجا أو المهرجان كما يسميه السنديباد
والبحث عن الماس بواسطة النسور في سيلان وما ذكر عن الفيل والكركدن
وشجر الكافور وتجارة القرنفل الخ .

وأصدق ما في حكايات السنديباد تصويرها لنفسية الرحالة الذي يشغف
قلبه حبّ الاسفار ومصارعة الاخطار وجهماً لوجه ، فهو في كل سفرة يخوض
غمرات الهول ويكابد غصص الفرق ويأخذ على نفسه الموثق الغليظ ألا
يزمغ رحلة بعد هذه المرة ، فاذا ما عاد سالماً غانماً الى دياره ، ونعم
حينما بالعيش الرخي بين نداماد وسهارة ، عاده الوله الشديد الى البحر
الغادر ، ونازعته نفسه الطلعة الى الافق البعيد ، فيجتوى الراحة ويعاف
النعم ويبتاع البضائع ويكترى السفينة ثم يقلع عن البصرة .

واما الطبعة المصرية :

فهي اوسع الطبعات وأجمعها وأصلحها للبحث وأصدقها في اللهجة
وأقلها في البلاغة ، تألفت في مدى خمسة قرون بين القرن الخامس
والقرن العاشر من القصص العربية والتقاليد الاسلامية والسير اليهودية

والأساطير الفرعونية . وقد قسمتها حسين حليتها الى طبقتين :

قديمة تنتهي بالقرن الثامن ، وحديثة تنتهي بالقرن العاشر . فالطبقة القديمة حسنة الأسلوب مطردة السياق شريفة الغرض تسدور على المغامرة والحرب ، وتعارض الأخلاق وتضارب العواطف ، وتعتمد على الطلاسم والأرصاد والجن والسحر والقسدر ، كحكاية مسرور وزين العواطف ، وحكاية الوزيرين نور الدين وشمس الدين ، وحكاية قمر الزمان الثانية ، وحكاية الخياط والاحدب ، وحكاية مزين بغداد ، وهي قطعة فنية رائعة . ثم حكاية علي شار أو بشار مع زمرد ، والطبعة الحديثة على الجملة عامية اللغة ركيكة الأسلوب جريئة العبارة ، تدور تارة على حيل المحتملين ومكاييد العيارين ومخاطر اللصوص ، وتارة على تصوير الأخلاق وتذكير النفوس الغافلة بالعبير . وظهور القصص المحتمال الداعر بجانب القصص المتصوف الزاهد في هذه الطبقة - إنما اقتضته طبيعة المجتمع المصري يومئذ من التجاء فريق من الناس الى الله ، وانصراف فريق آخر الى الشيطان . وقد كان من الممكن أن تبدو هذه الظاهرة ايضاً في قصص بغداد لولا أن مغامرات اللهو والحب فيها قد غلبت في نفوس القصاصين على كل شيء به ، وهم الى ذلك كتابون يتأهون عن حياة العامة ، فقد كان في بغداد على عهد الخليفة المعتضد بالله رجل اسمه العقاب وكنيته أبو الباز ، شهر بالكيد والحيلة حتى قال فيه المسعودي في الجزء الثاني من مروج الذهب ص ٤٧٩ من طبعة مصر : « إنه برز في مكايده وما أورده من حيلة على « دالة المحتملة » وغيرها من سائر المكارين والمحتالين من سلف وخلف منهم » . ثم ذكر بعض حوادثه وهي غريبة . وكان في بغداد كما كان في القاهرة نظام « التوابين » وهم اللصوص ، فإذا حدثت حادثة عارفوا فعل من هي ، ذكر ذلك المسعودي ايضاً في ص ٤٧٣ من الجزء نفسه ، وكانت بغداد والقاهرة تتبادلان هذا الصنف من الزعماء

والشيوخ كما يقصه (ألف ليلة وليلة) .

تأثر القصاصون المصريون في حكايات الحيل إذن بطبيعة العمران ، فضلاً عن تأثرهم بما بقي مذكوراً على بعض الألسنة من أساطير اليهود الفرعونية ، فان قصة علي بابا واللصوص الأربعة مثلما تشبه قصة وردت في (كتاب الأفاصيص الشعبية القديمة) لكبير الأثرين الاستاذ (ماسبيرو) ، ثم تأثروا في أفاصيص العبر والعظات بالاسرائيليات كحكاية مدينة النحاس ، وقصة حاسب كريم الدين وبلوقيا وجان شاه ، وذلك ما دعا الاستاذ (فكتور شوفان) الى أن يقول إن القصص المصرية الأخيرة ، إنما وضعها يهودي مصري أسلم ، وذلك بالطبع وهم من الاستاذ ، لأن علم العرب بالاسرائيليات منذ ظهور الاسلام لا يقل عن علم اليهود بها ، وأشهر أفاصيص هذه الطبعة حكاية علي بابا والأربعة حرامي ، وحكاية علاء الدين ابي الشامات والمصباح العجيب ، وهي التي اقتبسوا منها لص بغداد للسينما ، ثم حكاية معروف الاسكافي ، وحكاية أبي قير وأبي صير ، وقصة حاسب كريم الدين وماكة الحيات ، وقصة مدينة النحاس ، وحكايات أحمد الدنف وحسن شومان وعلي الزبيق ودليلة المحتالة وزينب النصابة ، وحكاية الملك الناصر والولاة الثلاثة وحكاية الرجل الصمدي وأمراته الافرنجية .

وفوق هذه الطبقات الثلاث أو الأربعة تراكم في العصور الحديثة عدد من القصص الكبيرة والأفاصيص الصغيرة ، ليبلغ الكناب الغاية التي حددها له اسمه . وفي هذه الزيادة تختلف النسخ اختلافاً شديداً . من تلك القصص طائفة حائلة اللون من أثر التقليد ، كقصة عجيب وغريب وسهم الليل ، وهي من قصص البطولة والحرب ، تستعر وقائعها في العراق بين العرب والمعجم أو بين دين الحنيفة والمجوسية ، وتستعير

صورها من قصة عنقرة وسيرة ابن ذي يزن . ثم قصة عمر النعمان وأولاده وهي مضروبة على قالب أردشير ، وحياة النفوس ، ثم قصة تاج الملوك والاميرة دنيا ، وهي كسابقتها تقليد لقصة أردشير ، ثم حكاية جان شاه وهي تقليد سخيف لحكاية حسن البصري ، ثم حكاية وردخان والملك جليعاد وهي ملفقة من أمثال كليلة ودمنة ، وطائفة أخرى يغلب فيها أثر التجديد كحكاية هكتار الحكيم وأقصوصة شول وشمول ، وحكاية الجارية تودد وهي حكاية ثقافية تعليمية كتبها فقيه مصري في العهد الأحدث على الرغم من وقوع الحادثة ببغداد وقيام المناظرة برياسة النظام المتكلم في مجالس الرشيد ، فان الجارية كانت تجيب السائل في الفقه على المذهب الشافعي وتصرح بذلك ، وتفكر في التقويم الزراعي للشهور القبطية كهيك وبرمودة وبشخص ومسرى وأمشير ، ثم تقول في حضرة الرشيد ، الويل ثم الويل لمصر والشام من جور السلطان ، ومن الغريب أن الاستاذ (أوستروب) يقول في (دائرة المعارف الاسلامية) إن هذه القصة نشرت في اسبانيا بعنوان (لادون لاتيودور) أو تودور ، ويظن تودد تصحيف تودور ، ولم يتح لي الاطلاع على هذه القصة لأرى كيف تتفق مع قصة كل ما فيها مناظرة في علوم الثقافة الاسلامية البحتة ..

وهناك عدا ما ذكرت مجموعة من أقاصيص الفرسان والأجواد ونوادير الأولياء والزهاد نقلت من العقد الفريد والمستطرف وعروس المجالس ومناقب الصالحين ، لم يقصد بها إلا توسيع الكتاب .

مؤلف الكتاب وزمن تأليفه وسبب تسميته :

ذهبت جهود الباحثين باطلا في تحقيق هوية المؤلف ، لأن (هزار أفسانه) نقل الى العربية 'غفلا لم يُسمَ واضعه ، ثم غشيته الطبعتان

البغدادية والمصرية على التدريج ، فكان كل قصاص يكتب لنفسه ما سمع وجمع في عصره من ثمرات القرائح وقطرات الأقلام دون أن يسندها الى راو أو يعزوها الى مؤلف ، ولماذا يفعل ذلك وهو يريد أن يحفظ ويقتص لان يروي وينشر ؟ فلما هيأت الاحوال أسباب تدوينها في العهد الذي ذكرته ، قبض الله لها من ضم شتات ألفتها ، ونسق نظام وحدتها ، ثم دوّنها على هذه الصورة ، ولم يستطع ذلك الجندي المجهول أن يلبس اسمه على الخلود . إما لتواضع حمله على إنكار ذاته ، وأما لتواطؤ من النكران والنسيان أمانت اسمه بعد مماته . ومن التوافق الغريب أن أسماء الكتّاب الذين وضعوا القصص الفرنسية الكبيرة في العهد الذي دوّن فيه (ألف ليلة وليلة) ، قد سحب النسيان عليها ذيله كذلك كأغاني رولان وقصص المائدة المستديرة وقصص الحكماء السبعة مثلاً .

وقد اختلف العلماء في أن يكون المؤلف واحداً أو جماعة ، ولست أرى لهذا الخلاف وجهاً ، فان الكتاب تكون على اليقين من أعمال مستقلة ، ثم نما بالاتفاق على توالي الحطب ، فوضعه وتكوينه إذن عمل جمع ، وجمعه وتدوينه عمل فرد ، وتحليله الى الأعمال الفردية المتعاقبة أمر فوق القدرة ومن وراء الامكان . أما التاريخ الذي قرّ فيه على هذا الوضع الأخير فهو النصف الاول من القرن العاشر من تاريخنا ، ومن الممكن أن نحصره منه في السنوات العشر الواقعة بين سنتي ٩٢٣ و ٩٣٣ ، وهما توافقان سنتي ١٥١٧ و ١٥٢٦ من التاريخ المسيحي . وقد حصره الاستاذ (وليم لين) الانكليزي بين سنتي ١٤٧٥ و ١٥٣٥ للميلاد أي في مدى خمسين سنة ، فوافقناه في الغاية وخالفناه في البدء ، ولم نرَ هذا الرأي اعتباراً من جهة ، ولا استنباطاً من جهة أخرى ، وإنما اعتمدنا في تحقيقه على دليل مادي ، وهو أن الاستاذ الفرنسي (جلان) . قد أخذ ينشر ترجمة الكتاب لبلاط الملك (لويس الرابع عشر) سنة ١٧٠٤ . وقد نقله

من نسخة عربية مخطوطة في ثلاثة مجلدات أرسلت إليه من سورية بعد سنة ١٧٠٠ وهي مكتوبة بمصر 'غفلا من التاريخ' ، ولكن الذي نقلها الى الشام وهو من طرابلس كتب عليها بخطه أنه امتلكها سنة ٩٤٣ للهجرة ، ثم انتقلت من يده الى يد آخر من حلب ، فكتب عليها أيضاً تأريخ هذا الانتقال وهو سنة ١٠٠١ ، فيكون تأليف الكتاب إذن قد تم قبل ٩٤٣ بزمن نقدره كما قدره (لين) بعشر سنين .

هذا من جهة الطرف الأعلى . أما من جهة الطرف الأدنى ، فإننا نجد ذكر (القهوة) المعروفة بتعدد في بعض الحكايات كحكاية أبي صير وأبي قير حكاية علي نور الدين ومريم الزنارية مثلاً ، وذلك لا يكون قبل العقد الأول من القرن العاشر ، لأن القهوة لم تنتشر في الشرق إلا في هذه المدة ، ثم نجد لفظ (الباب العالي) وبعض النظم العثمانية تذكر في حكايات أخرى كحكاية معروف الاسكافي وهي مصرية قطعاً ، والعثمانيون لم يستولوا على مصر قبل سنة ٩٢٣ فيكون الكتاب إذن قد دوّن بعد هذه السنة وقبل سنة ٩٣٣ ..

ذلك تحقيق الزمن الذي صنف فيه الكتاب جملة ، أما تحديد التاريخ لكل حكاية وكل طبقة فذلك عمل إن تيسر في حكاية تعذر في أخرى وبعض الباحثين قد حاول ذلك في شيء من التوفيق كالاستاذ وليم بوير الأمريكي ، فإنه نشر سنة ١٩٢٤ بحثاً في ٤٤ صفحة من المجلة الاسوية جزم فيه بأن حكاية الوزيرين شمس الدين ونور الدين قد كتبت بعد حكم الظاهر بيبرس أي بعد سنة ٦٧٦ ، ويرجح أنها كتبت سنة ٧٠٦ ، وأن قصة الخياط والأحدب بما تشتمل عليه من الحكايات الأخرى كمزين بغداد ، قد ألفت سنة ٨١٩ للهجرة ، والدخول في هذا الموضوع يخرج بنا الى التفصيل الذي يحك في الروح ويخمد نشاط الحديث .

سمى العرب « هزاز أفسانه » (ألف ليلة) ولو أرادوا الترجمة الأمينه لقالوا (ألف خرافة) أو أسطورة ، فعدولهم عن العنوان الصحيح يدلنا على أحد أمرين : إما أن الليلة كانت في اصطلاحهم مترادف الأسطورة باعتبارها زمناً لها ، وذلك ما نستطيع استنباطه من قول محمد بن اسحق الوراق : (ابتدأ أبو عبدالله الجهمشيارى صاحب كتاب الوزراء بتأليف كتاب اختار فيه ألف سمر من أسفار العرب والعجم والروم وغيرهم ، كل جزء قائم بذاته لا يتعلق بغيره . واحضر المسامرين فأخذ منهم أحسن ما يعرفون ويحسنون ، واختار من الكتب المصنفة في الأسفار والخرافات ما يحلى بنفسه ، فاجتمع له من ذلك أربع مئة ليلة وثمانون ليلة سمر تام ، يحتوي على خمسين ورقة وأقل وأكثر ، ثم عاجلته المنية قبل استيفاء ما في نفسه من تميمه ألف سمر) . وأما أن يكون عدد الألف في الأصل إنما أريد به التكثير لا التحديد ، على حد قوله تعالى (إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) ، وأحزر به أن يكون كذلك ، فإن ابن النديم قد رآه بتمامه مراراً ، وقال : إن فيه دون المئتي سحر ، وهو اليوم بطبقاته وزياداته واستطراداته لا يتجاوز ٢٢٤ حكاية ، قسمها المؤلف على ألف ليلة وليلة تقسيماً فيه عبث الهزل أو سخف الصناعة ، فان (شهرزاد) يدركها الصباح دائماً ولما يمض على حديثها غير بضع دقائق ، على أنه لم يبق مما رآه ابن النديم إلا تلك الحكايات التي سردناها عندما تحدثنا عن الأصل .

أما زيادة الليلة على الألف ، فمن عمل القرن السادس ، لأن النسخة التي رآها القرطبي بمصر على عهد الخليفة العاضد الفاطمي كانت تحمل اسم (ألف ليلة وليلة) ، ويقول (جلد مستر) في تعليل زيادة الليلة إن العرب يطرون بالأعداد الزوجية ، وهو زعم غريب ما رأيت في تاريخنا ولا في أدبنا ما يؤيده . ولقد ظل الكتاب أكثر من قرنين يسمى (ألف



الجالسون من اليمين : الشمالي ، الرصافي ، الزهاوي ، عطا الخطيب .
 الواقفون : علي محمود الشيخ علي ، بهاء الدين النقشبندي ، جميل المدفعي ، طه الراوي ، موفق
 الالوسي ، رؤف الكبيسي ، عبد المسيح وزير ، ابراهيم كمال ، محمود صبحي الدفتري ، احمد
 حامد الصراف ، طه الهاشمي ، مزاحم الباججي ، علي ممتاز ، عبد العزيز المظفر ،
 عبدالله الشواف ، محمد بهجة الاثري ، رفائيل بطي وتوفيق السمعايني .

ليلة) ، وكان الجهمشيارى يريد أن يسمى كتابه (ألف سمر) ، وعندنا ألفية ابن معطي وألفية ابن مالك . وأغرب من هذا الزعم ان يؤيده (أوستروب) في (دائرة المعارف) ويزيد عليه أن ميل الناس في تلك العصور الى التسجيع في عناوين الكتب كان من البواعث أيضاً في هذه التسمية ، وليس في قولنا ألف ليلة وليلة كما تعلمون تسجيع ولا مزوجة والغالب في رأيي أن الليلة إنما زيدت فوق الالف لإفادة الكمال ، كطفحة الاناء وسقطة الميزان ، لأن الالف عدد تام بالنسبة الى هذا الكتاب ، فاذا زيد عليه الواحد كان كاملاً ، والكمال درجة فوق التام ، وان في لغة التخاطب ما يشبه ذلك ، فقد يقال في المن : قضيت لك ألف حاجة وحاجة ، وفي المبالغة زرتك ألف مرة ومرة ، وهلمّ جرا .

طريقة الكتاب واسلوبه :

كانت طريقة العرب في القصص أن يسردوا الاسمار والاحاديث على نط يجعل كل حكاية قائمة بذاتها لا يربطها بما سبقها ولا بما يلحقها علاقة ، وترون ذلك واضحاً في أمثال لقمان وكتب النوادر ، فلما نقلت الاقاصيص الهندية الى العربية في القرن الثالث عن طريق الفارسية ، أدخلت في أدبنا القصصي طريقة طريقة تجعل الحكايات سلسلة متأسكة الحلقات متعاقبة الخطوات ، متتابعة النسق ، وذلك على ضربين : الاول أن تتعلق جميع الحكايات بحكاية أصلية تكون فاتحة لبدايتها ، وسبباً لروايتها ، ابتغاء التعويق عن فعل ما لا يحل ، وذلك في العربية مذهب كتاب الوزراء السبعة ، وكتاب كليلة ودمنة ، وأغلب كتاب ألف ليلة وليلة ، وهو في الفارسية مذهب بختيار نامه ، وقصة جهار درويش ، وقصة نوروز شاه ، وكتاب طوطي نامه ، وأنوار سبيلي مثلاً .

والضرب الثاني أن تروي الحكايات موزعة في الكتاب على عدة أبواب

بحيث تكون الحكاية في أي باب من هذه الابواب مقدمة لحكاية الباب الذي يليه ، ومن هذا الضرب في أدبنا (كتاب سلوان المطاع في عدوان الاتباع) لابن ظفر الصقلي المتوفي سنة ٥٦٥ ، وكتاب (فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء) لاحمد بن عربشاه الدمشقي المتوفي سنة ٨٥٤ ، وفي أدب الفرس كتاب (مرزبان نامه) لمرزبان بن رسم بن شروان ، وقد ترجمه ابن عربشاه واستمد منه ذلك ، فضلا عن الطريقة الفارسية التي احتذيناها في الاقاصيص الغرامية المطولة ، فألف ليلة وليلة إذن يجري على ثلاث طرق : يجري على الطريقة الهندية في الحكايات المتداخلة المتسلسلة كحكايات الاصل ، وحكاية البنات الثلاث والصعاليك الثلاثة ، وحكاية الخياط والاحدب والطبيب ، وحكاية جان ، شاه وحكاية وردخان .. الخ .. ويجري على الطريقة الفارسية في الحكايات المفردة المجردة ، كحكايات العشاق في بعض أقاصيص الاصل وما جرى مجراها من حكايات الطبعة البغدادية ، فانها مضروبة على قالب القصص الفارسي في الاعتماد على الحب الوهمي الذي يصيب ظرفاء الشباب على أثر طيف يزور في الكرى ، أو صورة تعرض في الطريق ، أو حكايات تلقى في المجلس ، ثم يجري على الطريقة العربية الخالصة في الاقاصيص الصغيرة المقتبسة من كتب الادب ، كحكاية حاتم الطائي ، وحكاية معن بن زائدة ، وحكاية ابراهيم بن المهدي ، وحكاية خالد بن عبدالله القسري مثلا ..

فيختلف باختلاف الزمان والمكان والجنس والشخص ، فاذا حكنا عليه فانما نحكم على جملة لا تفصيله ، ونتوخى الصفات العامة في نقده وتحليله ، فهو في عمومه اسلوب سهل المأخذ ، مطرد السياق ، سوقي اللفظ ، مبسوط العبارة ، كثير الفضول ، كثير التضمن ، جريء الاشارة ، لا يعرف الكناية ولا يقننى الحياء ، ولا يصطنع التحفظ ، لان سبيله سبيل العامة ، فهو يسايرهم في ثرتهم وفضولهم وسذاجتهم وصراحتهم وبلادتهم ، ولا يستطيع أن يكون إلا كذلك ، يسير سير الاعرج المفلوج وراء المذهبين الكتابيين اللذين راجا على التعاقب في عهده ، وهما مذهب ابن العميد في العراق ، ومذهب القاصي الفاضل في مصر ، فهو يسرف في السجع ، ويكثر من اقتباس الامثال وتضمن الملح ، أحيانا بذكر مصطلحات النحو على سبيل التشبيه او التورية كقوله في قصة قمر الزمان (باتا على ضم وعناق وإعمال حرف الجر باتفاق ، واتصال الصلة بالموصول ، وزوجها كثنوين الاضافة معزول) وهو يغالي في تضمين الابيات في خلال الحكايات ، ويمعن في ذلك غالباً حتى يمل ، وترصيع النثر بالشعر أسلوب لا يألفه الادب العربي ولا الادب الفارسي ، وانما هو ميزة من مزايا الادب الهندي أيضاً . اقتبسه الفرس ، ثم نقله كتّاب الينا في منتصف العصر العباسي ، وروجه في عهد بني بويه مؤلفو القصص ومنشئو الرسائل والمقامات كأبن العميد والصاحب والبديع والخوارزمي ومن ترسم خطاهم أو سار على هدايم ، وموضع هذه الاشعار يكون عادة في مواقف السرور والحزن والوصف وثوران العواطف ، ولكن القصص يسيء في الغالب استعمال التضمن ، فيخطيء مواضع الاشعار ، او يجهل محل المناسبة ، او يردد الابيات نفسها في كل موقف ، وقد تدفعا السهاجة الى الاستطراد القث فيقول : وقال الشاعر أيضاً في المعنى ، ثم يورد أبياتاً لا يصلها بالموضوع سبب :

كما فعل في مقدمة علي نور الدين ومرمى الزنارية مثلاً ، فإنه حين وصف البستان لم يترك نوعاً من أنواع الفاكهة إلا ذكره وروى ما قيل فيه من الشعر حتى استغرق في ذلك خمس صفحات من الكتاب .

إن خير ما يمتاز به أسلوب ألف ليلة وليلة ، هو الوضوح والصدق والصراحة والجاذبية ، فالمعاني تسبق الألفاظ إلى الذهن ، والصور تسبق الوصف إلى الخاطر ، والشوق يبعث اللذة ويشير الاهتمام ويحرك الانتباه ويربط السامع والقاريء بموضوع القصة ، على أن القصص يعالج التصوير والحوار بدقة وبراعة في كل ما يتصل بأحوال الشعب وأخلاق العامة ، فإذا سما إلى مقام الملوك والخاصة خاتمه قدرته ، وغلبت عليه بيئته وطبيعته ، فيفقد ما يسمى في الفن الكتابي بالصيغة المحلية ، وهي أن يسند إلى الشخص ما يلائم طبيعته وطبقته وبيئته من قول أو فعل ، فالأفانيس الهندية والفارسية تشوبها روح القصص الإسلامية ، كحكايات قمر الزمان بن الملك شهرمان ، والحكايات البغدادية تظهر فيها اللهجة المصرية ، كحكاية ابن الحسن الخليع ، ثم نراه يجري على لسان الخليفة الرشيد ما يأبى عليه جلاله وكاله أن يقوله ، ويجعله يفعل ما لا يجوز في العقل أن يفعله ، كان ينادي وزيره جعفرأ بقوله : يا كلب الوزراء ، ويكلفه في قصة الفتاة المقطعة بالعثور على القاتل في مدى ثلاثة أيام وإلا شنقه هو وأربعين من بني برمك ، وكان يخلع في حكاية علي نور الدين مع أنيس الجليس حلة الملك ليرتدي مرقعة بالية قذرة لكريم الصياد ، فيفيض قملها على أطرافه ، ويسيل قدرها على منكبه وأعطافه . ولو أن ما كلف به الرشيد من التعب المزري كان لضرورة ملجئة لوجدنا له مَساعاً من الفن ، ولكنه جشمه ما جشمه ليمسنى للخليفة أن يسمع غناء أنيس الجليس ، وهي في قصر من قصوره ، وفي ضيافة خادماً من خدمه . فهو يدخله في هذا الزي المزري على الحبيبين والبستاني ليقدم

اليهم ما معه من السمك فيكلفوه شَيْبَه في المطبخ فيشويه .

وكثيراً ما تدفع القصاص شهوة الأعراب إلى تجاوز المبالغة المعقولة ، فتفوته من الفن صفة الامكانية ، وهي أن يلبس القصصي الحوادث الخيالية ثوب الحقيقة فيقرب ما بينها من الظروف ويمهد أسباب الوقوع حتى لا تتنافر مع العقل والعلم والعرف والتقاليد ، والأمثلة على هذا العيب مستفيضة في كل قصة .

وفي الكتاب طائفة من الحكايات قد استوفت شروط الفن القصصي كلها كقصة الصياد والجني ، وقصة مزين بغداد ، ومقدمة حكايات السندباد ، وقصة علي بن بكار وشمس النهار ، هذا إذا نظرنا إلى الاسلوب في جملته وعمومه . أما إذا تتبعناه باللمح الخاطف في نواحي الكتاب ، وجدناه فيما بقي من الأفاصيص الهندية والفارسية وما جري مجراها من الحكايات الحديثة المقلدة بين السذاجة ، أبلة الإشارة ، لأنها من نوع الخوارق التي تدخل على القلوب الغريبة ، ولا تظفر إلا بتصديق العقل البسيط ، فهو جارٍ مع طبيعتها ، متفق اللون مع صورتها ، وفي الطبعة البغدادية تراه متين العبارة ، عفيف اللفظ ، حسن السلوك ، دقيق الوصف ، كثير السجع ، قليل الفضول ، لأنه في الغالب مكتوب يحذى على المثل العليا من قصص الفرس وتاريخ العرب ، وقد يسف في بعض الأفاصيص إسفافاً قبيحاً ، فيثقل بسخفه على الطبع ، ويعتدي بضعفه على الذوق ، كما نراه في قصة الخليفة مع النائم اليقظان مثلاً . أما الاسلوب في الطبعة المصرية ، فهو في قسمها الأول وخاصة الأفاصيص المكتوبة عنه أشبه شيء بأسلوب الطبعة البغدادية مع اتساع في السجع وجراًة على الحشمة ، والغالب عليه التقليد فتارة بجري على منهاج الطريقة الهندية كما ترى في حكاية وردخان والملك جليعاد ، وتارة ينسج على منوال الطريقة الفارسية كفعله في قصة قمر الزمان الثانية ، وحكاية مسرور وزين المواصف ، وقد يجري في مجراه الخاص

من التهكم الساخر والمزاح المضحك ، فيكون رقيقاً كما نراه في قصة الاحدب وخاصة في مزين بغداد ، ولكنه في القسم الثاني وفي سائر القصص الالقائية التي ألفها القصاص ليلقوها في السوامر مهلهل النسج ، عامي اللفظ ، مردول المبالغة ، سيء التلفيق ، شديد الوطأة على الحياء والمروءة لصدوره من قصاص محترفين جهلاء ، يتملقون فيه شهوات العامة بالافحاش ، ويستفزون فضول الجمهور بالمبالغة ، ثم يكثر فيه ترداد الجمل المحفوظة الملتزمة ، فيقال دائماً في وصف القينة العازفة « فعملت على العود من غرائب الموجود إلى ان طرب الحجر الجمود ، وصاح العود في الحضرة ، يا داود . » وفي إنبار البعد : « بعدك عن الحبيب أجمل وأحسن ، عين لا تنظر ، وقلب لا يحزن . »

وفي غرابة الحادثة : « لو كتبت على آفاق البصر لكانت عبرة لمن يعتبر . »

وفي غرابة الحادثة : لو كتبت بالابر على آفاق البصر لكانت عيرة لمن اعتبر . وفي وصف الشيخ الفاني : « وقد أبقى ما أبقى ، وعركه الدهر فما استبقى » ، كأنه مفنى ملقى في خرقة زرقاء ، تمر بها الأرياح غرباً وشرقاً كما قال الشاعر :

أرعشني الدهر أيّ رعش والدهر ذو قوة وبطش
قد كنت أمشي ولست أعبأ واليوم أعبأ ولست أمشي

وفي وصفه ساحة الحرب ومجالس الأنس ورياض الأرض وأثاث البيت ، لا يكاد يغير شيئاً من الاسجاع والاوزاع ومقطوعات الشعر .

ذلكم يا سادتي ما استطعت استشفافه من صور الأساليب الأثرية في الكتاب ، وسترون حين تعيدون قراءته أن القصاص المصنفين والمصححين في مصر قد اخضعوه إخضاعاً شديداً للهجاتهم وأساليبهم وأمثالهم حتى جعلوا البحث اللغوي الفني من البعد بحيث لا تبلغ اليه وسبلاً ؟

ان من يطلب من ألف ليلة وليلة فلسفة خاصة وفكرة عامة ووجهة مشتركة ، كمن يطلب من كافة الناس عقيدة واحدة ، وطبيعة ثابتة ، واغراضاً متفقة ، فهو كما قلنا من قبل كتاب شعبي ، يصور الحياة الدنيا كما هي لا كما ينبغي أن تكون ، فاذا رأينا مذاهبه تتناقض ، ومراميه تتعارض ، وآراءه تختلف ، فذلك لأن المجتمع الذي يصوره كذلك ، ولم يكن الكتاب نتاج قريحة معلومة ولا نتيجة خطة مرسومة حتى نتلمس في جوانبه الدوافع والنوازع والغايات ، إن هو الا صدق يتردد خافتاً لعقائد الشرق القديم وعقلياته وعاداته ، ففي الفلسفة نراه يتأثر بالافلاطونية الحديثة والاخلاق الاسلامية ، فيدعو الى القناعة باليسير والعزوف عن الدنيا والاعتدال في اللذة والمبالغة في الحذر ، والتفويض المطلق للقدر ، فروحه من هذه الجهة تتنافر مع صورته والبرافة وسائله الطهاحة وحوادثه المغامرة ، ثم نراه في أقاصيص أخرى ولا سيما الحديثة يزين الانانية ، ويرضي القسوة ، ويتشوف الى المكاسب الدنيئة ، ويشره الى اللذة الحسية ، ولا يكاد يعتقد بالعواطف الكريمة . وقد يصور المتعاسي الحسي واللغو الجموح بما لا يتمثل في الذهن إلا على سبيل الخيال ، كالذي يحكيه عن فتي من أبناء الملوك أرسى الى جزيرة كل من فيها من تجار وصناع نساء كأنهن اللؤلؤ المكنون ، ففضى بينهن في هذا النعيم أياماً أقل ما أصاب فيها من اللذة أنه كان يلقي الشبكة في الماء على سبيل اللهو ، فتخرج اليه من الاصداف خريذة من بنات الجان ، كأنها حورية من حور الجن الخ .

فاذا اختبرناه في السياسة والاجتماع رأيناه ملكياً يقيم في كل مدينة عرشاً ، وينصب على كل مجمع من الاحياء ملكاً ، حتى الحيات والحشرات والطيور والوحوش والقردة ، ديمقراطياً يشرك الملك والصلعوك في متع الحياة ومجالي الانس ، عائلياً يبني نظام البيت وتأثيل المجد على الزوجة

والولد ، لذلك تجدونه يستهل معظم أفاصيحه بجنين الوالدين الى النسل ،
وفزعها الى الله أو الى المنجم من داء العقم ، وقد يسمو مفزاه الى
الفلسفة الاجتماعية العالية ، مثال ذلك حكاية السندباد والجمال ، فالجمال
يؤده الحمل الفادح ، وينهكه الحر اللافح ، فيلقي حملة على مصطبة امام
بيت من بيوت التجار يتردد اليه النسيم الرطب ، وتفوح منه روائح
العطر والطيب ، ثم يرى عظمة ذلك التاجر في كثرة خدمه وعلمانه ،
ويسمع تغريد البلابل والفواخت في بستانه ، ويصغي الى رنين اوتاره
وغناء قبانه ، وينشق أفوايه الطعام الشهي من صحافه وألوانه ، فيرفع
طرفه الحائر الى السماء ويقول : سبحانك يا رب لا اعتراض على حكمك
ولا معقب لأمرك ، أين حالي من حال هذا التاجر ؟ أنا مثله وهو مثلي ،
ولكن حملة غير حملي .

على أن أسوأ ما سجله ألف ليلة وليلة من ظلم الانسان وجور النظم
هو الفوة الجائرة على المرأة فان حظها منه مكنود وصورتها فيه بشعة ،
وكيف نفتظر من كتاب بني علي خيانة المرأة أن ينصف المرأة ؟ إن
شهرزاد المسكينة إنما تسهر جفنها وتكد ذهنها لتقص على الملك شهربار
أعجب القصص ابتغاء الحظوة لديه حتى تدرأ القتل عن نفسها والحظر
عن بنات جنسها ، ومن الخطل الأليم أن يسند القصص كل هذه النقائص
الى النساء على لسان واحدة منهن في مقام الدفاع عنهن ، وأن يجربي علي
قهما في حضرة الملك تلك الكلمات المخزية في وصف بهيمية الرجل .

ألف ليلة وليلة يصور لنا المرأة في القسم الهندي الفارسي خطالة
خائنة تبسيع عرض الملك للعبد في قصة شهربار وأخيه ، لجوجة جموحة
أنازية في قصة الحمار والثور تصر على أن يبوح لها زوجها بسرّه ، وهي
تعلم أن في افشائه ضياع أمره ، حاقدة كائنة منتقمة في قصة الوزراء

السبعة : قاسية عاتية مرهوبة في حكاية قمر الزمان الأولى ، وهي في بغداد سجين في قصرها مغلوبة على أمرها قد انتبذها زوجها وألقى زمامه في أيدي الجوارى والقيان ، وعلى كلتا الحالتين من حرية ورق نراها وسيلة لذة ونغرض شهوة وأداة خدمة ، أما هي في مصر والشام فوجودها عدم ، لا تسمع لها صوتاً في بيت ، ولا ترى لها أثراً في سوق . فإذا خرجت من ظلام الستار الى ضوء النهار ، كانت طاغية جاهلة ، كزوجة معروف الاسكافي ، أو لصة حيتالة ، كدليلة وبنتها زينب ، أو قوادة مرتادة ، كأولئك العجائز اللاتي ينقلن الفتنة من مكان الى مكان ، ويصلن المنكر بين فلانة وفلان .

أما تصوير الكتاب لمظاهر الاجتماع الشرقي في القرون الوسيطة من العادات والاخلاق والمواسم في السوامر والولائم والاعراس والمآتم والاسواق والمحاكم ، فقد بلغ الغاية من ذلك كله ، إلا أن الطبعة المصرية في هذا الباب كما قلنا أصدق وأجمع ، لأن القصاص وهم مصريون تكلموا عن علم ووصفوا عن رؤية ونقلوا عن سماع ، فاذا قرأتم مثلاً حكاية نور الدين وشمس الدين ، وجدتم المصريين كانوا في حفلة العقد يطلقون البخور ويشربون السكر وينضحون الوجوه بماء الورد ، وفي زفاف العروس ينطقون المواشط وألقيان بالقاء النقود في الدف أو (الإطار) ، كما يسميه ألف ليلة وليلة ، أو (الطار) كما يسمى الآن في مصر ، وفي جلوتها على المنصة يجلسونها بين صفيين من كرائم السيدات في يد كل منهن شمعة موقدة ، ثم يلبسونها حلة بعد جلة في فترة بعد فترة حتى يخلع عليها سبع حلال ، ومع كل سيدة من المدعوات الى الحفل صرة من الثياب المعدة لذلك الزفاف يحملها خادم ، فكلما خلعت العروس حلة خلع المدعوات كذلك حلة الى تمام السبع ، ولا تزال هذه العادات باقية في بعض البلاد وبعض الأسر في مصر .

وإذا قرأتهم حكاية علاء الدين أبي الشامات ، وجدتموهم كانوا يستعملون الحشيش قوة للزوج ، ويتخذون المحلل خلاصاً من الطلقة الثالثة ، وهما خلتان شانتان في الطبقة الدنيا ، إقرأوا حكاية معروف الاسكافي ، تجدوه مثالا صادقا لبعض الناس هناك في ضعف الارادة وسلامة الصدر وحب الابهة وتبذير ما في الجيب اتكالا على الغيب واهتضاماً للحق ، وتجدوا زوجه فاطمة العرة التي فرّت من جبروتها وجفوتها وقسوتها وعنادها الى أقصى مجادل الأرض فتبعته ، لا يزال لها شبه في الباقيات الصالحات بمصر من عهد الجهالة .

أما الطبعة البغدادية ، فقد عبث بها القصاص وشابوها بلهجاتهم وعاداتهم ولكنها مع ذلك حربية بثقة الباحث إذا استطاع تنقيتها من شوائب البهرج والدخيل .

بقي علينا أن نعرف وجهة كتابنا في الدين ، وليس من العسير على القارئ أن يتبين تلك الوجهة ، فان في كل صفحة من صفحاته دليلا على أنه مسلم صادق الإيمان قوى العقيدة ، يأخذ تقاليد الدين صحيحة أو مشوبة مأخذ العامي الواثق المطمئن ، فلا يبحث ولا يستنبط ولا يطبق ، حتى في مقام الحكمة والموعظة لا يسكاد يذكر حديثاً أو آية ، وإنما يستند في ذلك إلى مآثور الشعر ومنثور الحكم ، فسبيله في الدين أن يدعو اليه ويهتف به ويتعصب له ، لذلك نراه لا يتحدث إلا عن المسلمين ولا يتخذ اشخاصاً لقصصه حتى الأجنبية منها إلا من المسلمين ، فاذا كان أحد اللجنة أو الناس غير مسلم واضطر الى الحديث عنه انتهى به الى الاسلام أو دبر له عقبى سيئة ، وذلك نادر ، كما فعل في حكاية مسرور المسيحي وزين المواصف وزوجها اليهوديين ، فالحبيب والحبيبة أسلمتا فورفت عليهما ظلال النعم والحب ، وظل الزوج يهودياً فدفتته امرأته حياً ،

وألف ليلة وليلة سنتي لا يكاد يعرف فرقة أخرى من فرق الإسلام حتى الشيعة - وكان لهم على عهد في مصر دولة الفاطميين ، وفي العراق نفوذ البويهيين - لم يذكرهم إلا في حكاية علاء الدين ، وهي مكتوبة بصر على عهد المماليك . ولقد دلّ حين تعرض لهم في هذه القصة على جهالة قبيحة أو دعاية سيئة ، فقد أشار في موضوع منها الى أن الروافض كانوا يكتبون اسمي الشيخين على بواطن الأعقاب ، وقال في موضع ثان إن أهل بغداد كانوا يفلقون الابواب خوفاً من الروافض أن يلقوا الكتب في دجلة ، وقال في موضع ثالث إن الرشيد سأل الرجل الذي همّ باغتياله وهو يلعب الكرة والصولجان فنجاه أصلان بن علاء الدين : أما أنت مسلم ؟ فقال : كلا ، وإنما أنا رافضي .

مخطوطاته ومطبوعاته وترجماته :

صنّف المنقبون ما عثروا عليه من مخطوطات (ألف ليلة وليلة) ، فكانت ثلاث مجموعات مختلفة : مجموعة آسيوية ومجموعتين مصريتين . فأما المجموعة الآسيوية وهي أقدمهن فلا تشمل إلا على القسم الأول من الكتاب وإحدى نسخها مبتورة ، وأشهرها نسخة كلكوتا ، وهي تحتوي على مئتي ليلة ، وقد شرع في طبعتها الشيخ اليميني في جزءين بمدينة كلكوتا سنة ١٨١٤ م ، وأتمها سنة ١٨١٨ م فكانت أول مخطوطة طبعت من هذا الكتاب في الشرق والغرب ، ثم نسخة (برسلو) وهي التي طبعتها الاستاذ (هبكت) في اثني عشر جزءاً ، ظهر الجزء الاول في سنة ١٨٢٥ م والآخر سنة ١٨٤٣ . وأما المجموعتان المصريتان فهما أحدث من الاولى . وبين نسخها اختلاف شديد في الاسلوب والترتيب والعدد والقصص ، ومن هاتين المجموعتين نسخة كلكوتا الثانية التي جمعها ، وطبعتها الاستاذ (ماك نوكتن) في أربعة مجلدات من سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٤٢ ، ثم نسخة بولاق التي طبعتها الحكومة المصرية في مطبعتها بالقاهرة سنة

١٨٣٥ في مجلدين ، وهي أكمل النسخ جميعاً وأصحها ، وعنها صدرت جميع الطبعات في مصر والشام وبومباي ، ونقلت جميع الترجمات الى جميع اللغات ما عدا ترجمة (جلان) . فأما الطبعات ، فكلهن سواسية في قبح الشكل وسوء النقل وقلة العناية ، لصدورهن من أرباب المكاتب وأصحاب المطابع ، وهؤلاء يبتغون أوفر ربح في أيسر كلفة ، على أن أدبياً عن الآباء اليسوعيين قد طبعه بيروت طبعاً جميلاً في أربعة مجلدات بعد أن قصّ من قصصه واقتضب من جملة وهذب من عباراته ، ثم جاء منشيء الهلال فأربنى عليه بالحذف والبتر والاختصار وطبعه في مصر في خمسة أجزاء صغار ، وهاتان الطبعتان ، ولا سيما الأولى أليق الطبعات بأخلاق الفتي وحياء الفتاة ، ولكنها لا تنقمان غلة الأديب الباحث .

فأما الترجمات فأولها في الوجود ترجمة الاستاذ (جلان) ، وهي أنيقة الأسلوب ، رائعة السبك ، إلا أنها غير دقيقة ولا أمينة ولا وافية ، على أن لها اليد الطولى على الكتاب في التعريف والتنويه باسمه والدلالة على فضله ، طبعت هذه الترجمة بباريس في اثني عشر مجلداً ابتداء من سنة ١٧٠٤ الى سنة ١٧١٧ ونقلت عنها سنة ١٧٠٧ ترجمة انكليزية مختصرة في ستة مجلدات بعنوان الليالي العربية ، وأشهر الترجمات بعد ذلك في السعة والدقة والصدق ترجمة « بورتن » بالانكليزية ، وترجمة ماردوس بالفرنسية ، وترجمة هبكت بالالمانية .

ذلكم يا سادتي ما يتحملة المقام والوقت من تاريخ ألف ليلة وليلة ، وإنكم لترون من هذا الإجمال فعل القرينة العربية فيه ، ومظهر العقيدة الاسلامية في جميع نواحيه ، وطابع العقلية السامية في أخيلته ومراميه ، حتى أصبح الكتاب عنواناً عريضاً من عناوين آدابنا ، وشاهداً جديداً على الحبيبة القاهرة والشخصية الأمرة في آبائنا ، وإلا فماذا نفسر هذا ؟

لقد خلفوا اليهود على الدين فظهر عربياً رائعاً في رسالة محمد ،
وخلفوا اليونان على العلم فعاد عربياً ساطعاً في فلسفة ابن رشد ،
وخلفوا الرومان على الحضارة فبهرت العالم بالعمران والعدل في
عصر الرشيد ، وخلفوا الفرس على الأدب فأخضعوا ألسنتهم وأفتدتهم
لأدب القرآن ، وخلفوا الهند على القصص فأروهم روعة الخيال وقوة
الإلهام في ألف ليلة وليلة ، وخلفوا الأمم العظمى على أكثر الارض
فأوشكوا أن يعرّبوا العالم ، فليت شعري أتغيرت الصحراء ، أم
فسدت الدماء ، أم ضويت الابناء ، أم هي ربضة الاسد ، واستجامة
المنعب ، واستجماعة الواهب ، ثم استئناف الهجمة الأولى على الموقع
الأول في الحياة ؟

لقد اعنتسكم طويلاً ، وأتعبتكم كثيراً ، وكدت أخرج من المحاضرة
الى الخطابة ، فعذراً يا سادتي وشكراً .

صديق الكلاب

كتب هذه القصة وهو في العراق ، قصها عليه رجل بدوي اسمه عبد الواحد ، كان يقوم على خدمته ، حكاهما له بلغته البدوية الجميلة ، فعاد الزيات فسجلها بلغته الفنية . وللزيات قصص قصيرة ، كتب بعضها في (الرواية) وبعضها في (الرسالة) ، ولو جمعت لحصل منها كتاب في الأقصوصة البارعة ، قال :

« شرب عبد الواحد وسقانا ثلاثة أقداح من الشاي المعطر ، ثم أطلق من حنجرتة القوية جشاة طويلة عريضة كخوار العجل ، ثم حضاً النار بأنامله وشيع ضرمها في بقية الفحم ، ثم أشعل منها سيكارته العربية ، وأرسل في رفق دخانها الرقيق الأدكن . وبانت على معارف وجهه شهوة الكلام ، وكان كلبى الصغير قد لاذ من قوس البرد بجانب الموقد ، فهو ينطوي وينتشر تبعاً لما يغلب على جو الغرفة من نفح النسيم أو لفح اللهب . فرأيته يطيل النظر إليه في طرف ساكن ووجه ساهم ، فقلت مداعباً :

لعلك ذكرت بالكلب حبيبتك وهي في خبائها بين كلابها وشاتمها ، فابتسم ابتسامة العذراء الحفرة ، وقال : الحمد لله ، ما ذكرت على فقري حياة البرمنذ هجرتة ، ولكفي ذكرت رجلاً كان في بغداد يدعى (أبا

الكلاب) . فسألته : وما حديث أبي الكلاب هذا يا عبد الواحد ؟
فلمح في عينيه البشر ، لأن سروره كان في أن يتحدث وأسمع ، وذهب
به شيء من التيه ، لأن شعوره بأنه يعلم ما لا نعلم يرفعه قليلاً فوق قدره ،
لذلك تراه عند الحديث يجلس جلسة النظير ، ويلهج لهجة الأمير ، ويقرر
تقرير العالم .

قص عليّ هذه الأقصوصة ، وهو على يقين منها جازم ، وما كان أسرفي
وأسرك لو استطعت أن أنقلها اليك بلغته الجميلة التي تأخذ من لحن
بغداد ومن لحن البادية ! على أنني سأحاول ما أمكنتني القدرة أن
أترجمها ترجمة صادقة ، تكشف عن أثرها وفعلها في نفسي ..

كان في بغداد منذ خمسين عاماً أسرة كريمة تعتر بزنب العرب من
جهة الأب ، وتتصل بسبب الترك من جهة الأم ، فهي مزاج معتدل من
عقليتين متبايفتين ، لا يجمع بينهما غير الدين ، والدين في مثل هذه الحال
يكون أوثق وأمتن أسباباً ، لقيامه مقام الجنسية الجامعة والعصبية
القريبة . فالوالدان صالحان تقيان لا يفهان من العروبة إلا النبوة والقرآن ،
ولا من التركية إلا الخلافة والسلطان ، ولا يعرفان من دار السلام وفروق (١)
إلا انهما بلدان في طريق واحد ، والولدان جميلان باران ، يكبر الذكر
منها الأنثى بخمس سنين ، وقد درجا معاً من مهد الفضيلة ، ثم ترعرعا في
حنان الأيوين على كفاف من العيش يؤتیه متجر غير نافق .

لم يشغل عبد الواحد باله كثيراً بتفصيل حياة هذه الأسرة الصغيرة ،
فكان كلامه عنها مرسلًا بجملاً ، لا يحلل طبيعة شخص ، ولا يحدد تاريخ
حادث ، ولا يعين مكان منزل ، حتى أسماء الأب والابن والبنت لم يجد في

(١) فروق مقر الخلافة العثمانية وهي الاستانة .

ذكرها ما يفيد الحديث .

فهو يجذف ما يزعمه فضولاً ، ويسير قدماً الى هيكل الموضوع وعقدة
الحادث ، فيقول :

إن الغلام كان عمره اثني عشر ربيعاً حينما صحب خاله الى الاستانة ،
والاستانة يومئذ كانت منتجع الخواطر ومهوى القلوب الطامحة الى السطوة
والثروة والعلم ، فهل كانت هجرته إلى دار الخلافة تثقيفاً لنفسه ، أو
تخفيفاً لآبئه ؟ فما يعلم إلا أنه شدا شيئاً من العلم في إحدى مدارس
القسطنطينية تحت عين واية وعونه ، ثم اندفع في غمار المدينة الصاخبة
يداور الامور ويلتمس المكاسب ، ثم أوغل في مدن البلقان وشعاب
الاناضول ، حيناً في خدمة الجيش ، وحيناً في طلب العيش ، حتى انقطع
علم ما بينه وبين أهله .

كان الغريب النازح يهاجم الاخطار في كل فج ، ويصارع الاقدار في
كل لج ، وكل همه أن يجمع من المال ما يضمن له ولاسرتة خفض العيش
في ظلال بغداد الجميلة ، فلما ملأ الدهر يديه بما أمل ، كان وا أسفاه ربيعاً
قد أدبر ، وربعه قد أقفر ، وحلمه قد تبدد ، فان والديه البائسين قد
ألحّ عليهما من بعده الحزن والضر والفقر حتى انطفأ سراجهما في حولين
متعاقبين بعد انقطاع خبره ببضع سنين .

وأما البنية اليتيمة ، فقد حنا عليها بعض ذوي المروءات من أهل
البيوتات ، فضمها الى حرمه ، وواسى يتمها الحزين بعطفه وكرمه .

عاد المهاجر الى وطنه يحمل في جيبه المال وفي قلبه الامل فما وطئت
قدماه ثرى العراق الذهبي حتى ازدحمت الذكريات على خاطره ، ومرت
الحوادث المزعجات أمام ناظره . ولكن شعوره بلذة العودة الى الارض
التي أبصر عليها الدنيا ، والسماء التي تقبل منها الروح ، والهواء الذي رفّ

عليه الصبا ، والماء الذي نضح قلبه بالنعيم ، والاسرة الخنون التي براه اليها الشوق ، والمستقبل الباسم الذي ينتظره في بغداد ، كل أولئك قد شعب فؤاده ، وشفى كبده ، ومسح مابه .

عرف المحلة والدار بعد لأي ، لطموس المعالم القديمة ، ثم قرع الباب بيد مرتجفة فاذا المالك الجديد يخرج اليه ، فأقبل عليه المسكين لهفسان ضارعا يسأله : هنا كان مهبط نفسي ، فأين أبي ؟ وهنا كان مسقط رأسي فأين أمي ؟ وهنا كان لي مهد وأخت وملعب وجيرة . فقل لي بربك يا سيدي : أين تحمل بكل هؤلاء القدر ؟

وكان بين المسؤول والسائل حوار قصير عرف منه البائس أن ربح المنون قد عصفت بأهله ، فارتد إلى الفندق لا يملك دمه ولا قلبه ، ثم قضى حيناً من الدهر ذاهب القلب يكابد غصص الكرب ، ويمالج بعض المهموم ، حتى رام الزمان والايان جروح صدره ..

وقع في نفس الوحيد الحزين أن يتزوج ليعيد إلى سجل الوجود اسم اسرته . فاقترحت عليه جارة عجوز أن تخطب له فتاة يقولون إن بينها وبين بني فلان عاطفة رحم ، ويؤكدون أنها تنزع الى عرق كريم المهذب وجمالها المحتشم ، فاطمأن قلب الخاطب الى رأي الخاطبة ، واختلفت العجوز بينه وبين ولي الفتاة حتى تم الوفاق وسمي الصداق وعينت ليلة الزفاف ..

زفت العروس إلى زوجها ، فبهره ما رأى من جمال وأحسن من ظرف وسمع من أدب ، فافتر في وجهه السرور ، وحمد الله على حسن توفيقه . ثم انقضى شهر العسل على خير ما يجد زوج من زوجه . وفي ذات ليلة تجاذب الزوجان أطراف السمر وشققا بينهما الحديث حتى أفضى الى علاقتها بوليمها فلان (بك) فأحب الزوج أن يعرف درجة

القرابة بينها فغضت الفتاة من طرفها وشاعت حمرة الخجل في وجهها ،
وقالت في صوت خافت متهافت من الحزي والخوف (الحقيقة ان ليس
بيني وبين هذا الرجل قرابة ، إنما هو نبيل محسن آواني ورباني بعد ما
فجعني البين في أخي والموت في أبي ، وأنا يومئذ في حدود الثانية عشر ،
ثم تتابعت الاسئلة من الزوج وتسارعت الاجوبة من الزوجة ، وكان كلما
انجاب عن خبايا الغيب حجاب امتقع لونه واقشعر بدنه واشتد وجيب
قلبه ، وكانت هي كلما رأت منه ذلك نسبته الى الخداعه في أصلها ،
فحضت تعضل المأساة وتصور الفاجعة بالكلام والدمع ، عسى أن تعطف
قلبه على مصابها ، فلا يفكر في طلاقها وعذابها ، ولكنها لم تكد تلمس
الحجاب الاخير حتى رأت زوجها قد قف شعره وارتعدت أطرافه ثم
انفجر صارخاً يقول : واويلتاة ! لقد تزوجت أختي ، ثم خرّ مغشياً
عليه ، فلما تاب اليه بعض رشده ، نظر الى اخته فوجدها فاقدة الوعي ،
فتركها وابتدر البساب ، وخرج مسرعاً لا يلوي على شيء ولا يلتفت
إلى أحد .

خرج طريد القدر من بيته خروج أوديب الملك من قصره ، ثم هام
في الطرف الضيقة المتشابكة يسأل الرائح الغادي عن مفي بغداد . فلما
دخل عليه ، باح له بسر الخطيئة ، فهول عليه الشيخ التركي بعقابها ، وبالغ
في جرائمها واعقابها ، ثم افتاه بعد الاستشارة والاستخارة والرؤيا أن
لا يغفر هذا الجرم إلا إذا صدف عن متاع الحياة وخرج عن أثيل الملك
واستتر بأخلاق الثياب وقضى عمره في جمع الخبز للكلاب الشوارد .

أذعن الخاطيء البريء لحكم الفقيه الاحق ، ونزل الزوجة الاخت عما
يملك ، وارتدى طمراً من القطن الغليظ ، وجعل على عاتقه مخللة ،
ومضى يقرع كل بيت ويقصد كل مطعم فيجمع الفتاة والخبز ، ثم يقف
بالميدان فيقسمه بالسوية على من أجاب الدعوة من كلاب الحي .

لم يمض غير قليل حتى عرفه الناس وألفه الكلاب ، فصار يمشي في
الازقة وخلفه منها قطيع ، وينام في العراء وحوله من شدادها حرس
مطيع ، وتحين الوجبة فلا تجد كلباً طليقاً في بغداد الا أجاب نداءه ،
وتناول من يديه المحموتين غداءه . ولكن الوالي رأى على طول الزمن
أن يدي ابي الكلاب على رعيته عافية وربيع ، فسمن هزيلها وكثر
قليلها ، حتى اختنق بلهائها النهار وصمّ بنباحها الليل ، وأصاب الناس
من عضاضها وأمراضها شر كبير ، فأقام في ظاهر المدينة حظيرة واسعة ،
ثم أمر الشرطة فصادوا الضواري وألقوها فيها ، فكان أبو الكلاب
على عادته يجمع الطعام والعظام ثم يذهب الى ضيوف الحظيرة فيطعمها
ويسقيها ، ثم يتهالك على الارض من اللغوب فيرقد مكانه حتى الصباح .

وفي ضحوة من الايام أولم الوالي لاسراه وليمة (السفّاح) لبني
أمية ، فما نجا من بعدها لاهت ولا نابح . وجاء أبو الكلاب فرأى
الآفة الخلصاء على أديم الأرض صرعي لا يتملقن بعين ، وشبح الجريمة
يحيا ، فتساقط بجانب السور مهدود القوى صريع اليأس ، ولبت مكانه
لا يأكل طعاماً ولا يذوق مناماً حتى لحق بربه .

تقدير الجمهورية العربية للزيات :

نال الزيات جزاء خدمته وتقدير أدبه جائزة الدولة التقديرية سنة
١٩٦٢ في الأداب . وهي أعلى جائزة تمنحها الجمهورية العربية للعلماء
والكتاب ، الذين قاموا بأعمال اصيلة مبتكرة اثرت في بناء الحياة القومية
والانسانية ، وهي التفاتة من الدولة بارعة وكريمة هي بعض ما يستحق
الزيات من تقدير وتقويم لأدبه وخدمته الطويلة ولأمثاله من حملة القلم
ودعاة الاصلاح فهم المجاهدون الأولون وهم الأساس في نهضة الشعوب
ويجب أن يكونوا في المحل الأرفع والمكان الاسمي قبل حملة الرشاش

والمدفع ، وحقهم يجب أن يرعاه الحاكمون .

وانتخب عضواً في الجمع اللغوي في القاهرة منذ سنة ١٩٤٦ ، وراح يعمل على تحقيق الأهداف التي من أجلها انشئ الجمع ، واشترك في لجانه العامة .

منها لجنة تيسير الكتابة ، ولجنة اصول الحضارة ، ولجنة معجم الفاظ القرآن ، ولجنة الادب ، ولجنة اللهجات ، ولجنة المعجم الوسيط . وهو أحد الاعضاء الاربعة الذين تولوا اخراج المعجم الوسيط ، وشارك بعدة اقتراحات ببناء للمجمع منها :

فتح باب الوضع على مصراعيه بوسائله المعروفة ، وهي الارتجال والاشتقاق ، ومنها : اطلاق القياس بالفصحى ليشمل ما قاسه العرب ، وما لم يقيسوه ، فان توقف القياس على السماع يبطل معناه ..

ومنها اطلاق السماع من قيود الزمان والمكان ليشمل ما يسمع اليوم من طوائف المجتمع ، كالحدادين والنجارين والبنائين ، وغيرهم من ذوي المهن .

وقدم اقتراحات بشأن المعجم الكبير وذلك بأن يوصي المجلس لجنة المعجم التاريخي الكبير ان تمزج طريقتها بطريقة فيشر وان تدخل في المعجم جميع الزيادات التي انفرد بها معجم فيشر ، ومنها : اقتراحه لجمع ما تفرق من أعمال الجمع في محاضر الجلسات على طول السنين ليسهل على الاعضاء الرجوع اليه فلا يقع في عملهم تناقض ولا تكرار .

واقترح عرض انتاج الجمع في صورة منتظمة على الجمهور ليستفيد منه من يستفيد وبعقب عليه من يعقب .

وألقى بحوثاً وكلمات قيمة ، منها : الوضع اللغوي وهل للمحدثين رأي فيه ، والجمع واللغة العامة ، وفي ألفاظ الكتاب المحدثين ، وكلمة أبّن فيها

الاستاذ ابراهيم مصطفى ، وكلمة عن فقيدنا العلامة الشيخ رضا الشبيبي -

أشهر مؤلفاته :

١ - وحي الرسالة المجلد الاول تضمن ما كتبه الزيات في افتتاحيات الرسالة من سنة ١٩٣٣ الى سنة ١٩٣٩ .

٢ - المجلد الثاني من وحي الرسالة من سنة ١٥٣٩ - ١٩٤٣ .

٣ - المجلد الثالث من وحي الرسالة من سنة ١٩٤٤ - ١٩٥٠ .

٤ - المجلد الرابع من وحي الرسالة من سنة ١٩٥١ - ١٩٥٤ .

٥ - تاريخ الادب العربي . اعيد طبعه طبعات متعددة احبها جاوزت الست عشرة وفي كل طبعة ينقح ويختصر او يزيد بعض فصول الكتاب وأصبح المرجع المعتمد لدارسي الادب ولا سيما طلاب دور المعلمين والثانويات وحل محل الوسيط والمدخل والمجمل وغيرها من الكتب المقررة وفق مناهج التعليم في العراق .

٦ - دفاع عن البلاغة ، والزيات رحمه الله يدافع عن البلاغة ابلغ دفاع ويعرضها أجل عرض ويذكر أسباب التنكر عن البلاغة ، ويفصل فصولاً مبتكرة عدها من دعائم البلاغة مثل العلاقة بين الطبع والصنعة ، والدوق ، والاسلوب ، ودعاة العامية والرمزية وموقف البلاغة من هؤلاء المقوضين لاصل البلاغة ، ويتجلى حرص الزيات على الفصحى والدفاع عن لغة الكتاب الكريم صيانة للقرآن الخالد وحفظاً لتراثنا الأدبي والحضاري وفي الكتاب دراسات نافعة لظهور المدارس النقدية وتوجيهه الى كتب النقد الصالحة .

٧ - من الادب الفرنسي :

وموضوعه فصول أدبية اختارها واقاصيص وقصائد ترجمها من نوابغ

الكتاب ، وعرب نماذج من القصة القصيرة وضعها أمام عشاق القصة نشر
أكثرها في مجلته (الرواية) .

٨ - في أصول الأدب :

كتاب في النقد ودراسات تهدف إلى توضيح أغراض الادب وأهدافه
وأساليبه ، ودراسة للمسرحية ، ومن موضوعاته محاضراته القيمة (ألف
ليلة وليلة) وأثرها في الادب الغربي ، وكتابه هذا كان مصدراً عن
مصادر الدراسة الادبية ، ونواة لكثير من البحوث التي يتقدم بها
الجامعيون ، وفيه عرض لآراء بعض المستشرقين والرد على دلتس منهم
على أدبنا ولغتها .

٩ - وختم أديبنا الراحل حياته بتأليف كتاب لم يرَ النور بحياته
ذلك هو (عبقرية الاسلام) ، والزيات فيما كتبه عن الاسلام وأيامه الخالدات
في مدى حياته في الرسالة والازهر ليسدل دلالة واضحة على حرصه
وعقيدته وتشرب روحه لمفاهيم الدين الخنيف ، ولا غرابة وهو الازهري
المتشبع بأدب الاسلام ولغة القرآن ..

نماذج من آرائه وأدبه

تقدير الزيات :

وبعد فهذه أقباس من أفكار الزيات ونماذج من نثره الفني ، تشع بالنور وتتمسم بالصدق وتتشح بالتجديد ، وتحمل طابع الإصلاح والثورة على الجمود ، وتدعو الى العزة الاسلامية والكرامة القومية ، وتبشر بالعروبة والوحدة ، خلد الزيات أفكاره ومقالاته في مجلدات أربعة - وحي الرسالة - وما سطره في الرسالة الجديدة وكتبه في افتتاحيات مجلة الأزهر ، لو جمع لكون مجلدين أو أكثر ، وفي جمعها بكتاب تخدم القارئ وعشاق البلاغة ..

وكتب يخاطب زعماء العرب سنة ١٩٤٥

وكانوا قد اجتمعوا للتشاور والتباحث في وضع القواعد والاسس التي يرونها كفيلة لقيام الجامعة العربية فكتب يذكرهم :

« اذكروا يا زعماء العرب وأنتم اليوم بسبيل التشاور في تجديد وحدة العرب .. ان الركن الأول من اركان دينكم هو التوحيد ، وأن العمل الاول من أعمال نبينا كان التوفيق اذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فأنف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا » . واذكروا إحسان النبي

إليكم إذ كنتم اشتاتا فجمع شملكم ، فاقمتم على وحدته ملكا
وسلطانا ، اذكروا ان الوحدة هي التي مكنت العرب بالأمس البعيد من
تراث كسرى وقيصر ، وهي وحدها التي تستطيع في الغد القريب أن
تنقذكم من وارث أساطين الاستعمار موسوليني وهتلر وتشرشل ... قولوا
للمعوقين منكم ، والمخلفين عنكم ، ان العصبية التي توسوس في بعض
الصدور بالرياسة والسيادة والعزة ، إنما كانت في تاريخنا الحافل بالاحداث
والعبر علة العمل في انشقاق العصا ، وانقسام الرأي وانحلال العقيدة
وانتشار الأمر ، وتعدد الدول هي النعرة التي قامت يوم السقيفة تقول :
منا أمير ومنكم أمير .. وهي الهامة التي خرجت من قبر عثمان ،
وظلت تصيح على دار الخلافة نحن هاشميون ، ونحن امويون ، ونحن
قيسيون ، ونحن يمانيون ، ونحن علويون وعباسيون ، ونحن عرب وشعوبيون ...
تتقاطع في الدين وتتعادى في الدنيا ... »

الرجل المنتظر :

وفي ٢٩ نيسان سنة ١٩٤٠ كتب تحت هذا العنوان « الرجل المنتظر »
والعالم يومئذ يغلي كغلي الحميم ، ويهدر بالحمم كهدير البركان ، والخوف قد
ملك كل انسان والممالك تتطاير في خارطة أوربا يومها كتب يقول :

« ليكون لنا حاسب يوم نطالب أن يكون لنا في الدست رجل
يحاسب المنتصرين يوم يوزعون الاسلاب ، وكأنه كان ينظر بعين الغيب
ليكشف الحجب عن أوصاف الرجل المنتظر فراح يخطط له المنهج ، ويوضح
له المهيع ويهد له الأرض ، قال :

« لهذا الرجل الذي تنتظره الأمة العربية آيات تمهد له ، وتدل عليه ،
فمن الآيات المهمة لظهوره ، انحلال الاخلاق ، فلا تتماسك في قول ولا

فعل ، وتقاطع القلوب فلا تتواصل في وطن ولا دين ، واستئثار النفوس ، فلا تتعفف في صداقة ولا نسب ، وجموح الشهوات فلا تنقذ بلين ولا بشدة ، واستبهام المذاهب فلا تستبين بنجم ولا شمس ، وانقطاع الأمة عن ركب الحياة فلا تتحرك قبلة ولا دبرة ، ومن آياته المنبثية بوجوده أن يكون لغيره لا لنفسه : ولأتمته قبل أمرته ، وللإنسانية بعد وطنه ، ومصداق تلك الآيات أن تموت « أنا » في لسانه وتحيا في ضميره ، ويتحد في ذهنه وجود ذاته بوجود شعبه فهو يحس الله لأنه مجتمع شعوره ، ويدرك نقصه لأنه مجتلى عقله ، ويملك قياده لأنه مظهر إرادته ، وهو في سمو نفسه ونزاهة هواه ، قد ارتفع عن أوزار الناس وأقذار الأرض ، فلا يطمع ، لأن غرضه أبعد من الدنيا ، ولا يحقد لأن همه أرفع من العداوة ، ولا يحابي لأن فضله أوسع من العصبية ، ولا يقول قولاً ولا يعمل عملاً إلا إذا وافق الدين الذي يعتقد ، والمبدأ الذي يؤيده ، والشعب الذي يقوده ، ثم هو في المعية ذهنه ، ورسالة ليه ، وصلابة عوده ، وبعد همته يعظم على الأحداث ويعلو على الحوائل فلا ينضج رأياً إلا أمضاه ولا يرمي غرضاً إلا أصابه ، ولا يروم أملاً إلا أدركه ، هذا الرجل الملمم الموهوب هو الذي ترقب ظهوره كل فرقة وترصد نجمة كل أمة ... »

الجهاد عدة الاسلام :

وكتب في العدد الثاني من السنة التاسعة والثلاثين ، من مجلة الأزهر ، صفر ١٣٨٧ - مايس ١٩٦٧ مقالا بعنوان - الجهاد عدة الاسلام - على أثر النكسة التي هزّت الأمة العربية وأقضت مضجعها ، وعرفت حقيقتها كياناتها الهزيلة واستعداداتها الضعيفة وقياداتها المتشاكسة المتواكلة المغرورة . جاء فيه :



عبد العزيز الشعالي

متى يؤدي المسلم فريضة الجهاد ، إذا لم يؤديها اليوم ؟ دينه يتقحم عليه الكفر يحاربه مع الصهيونية ، ووطنه تنفجر على جوانبه الدواهي والاستعمار ، وأخوته في فلسطين ، أخرجتهم الدول النصرانية من ديارهم وأموالهم ليدخلوا فيها من صنعوا الصليب للمسيح من سلاسله - وهذا وشبهه في أقطار العروبة وديار الاسلام ، لا يزال في معترك الخطوب ، ومشتبك المطامع ، يحار بالشكوى ، ويصرخ من الظلم ، ويغضب للكرامة ، ويشور للحق ، فلا ينال من الضمير الغربي ، إلا ما تناله هبة الريح من الصخر الاصم ، والجواب : - ان المسلم المؤمن ، لا يزال على ذكر من أن دينه قرآن وسيف ، وتأريخه فتح وحضارة ، وشرعه دين ودنيا ، وحرية جهاد وشهادة ، وحكومته خلافة وقيادة ، فهو مجاهد أبداً ، لا ينفك عنه الجهاد أصغره وأكبره ، فاذا لم يجاهد عدوه جاهد نفسه ، وإذا لم يراقب ثغوره راقب ضميره ... والمسلمون منذ استيقظ وعيهم على رجفات الحرب العالمية الاولى ، ادركوا ان علة ما أصابهم من الاستبعاد والاستعمار ، انما هي اعتمادهم على الحق دون القوة ، وعلى القول دون العمل ، واصل ذلك الضعف - والضعف يحافي طبيعة العربي - وينافي حقيقة المسلم ... فتنادوا من وراء الحدود المصطنعة والستور المضروبة ، بلسان الأدب ، وألهام الروح ، ووحى العقيدة الى العمل سراً وعلناً للاستقلال الذي يجررهم الى الالفة التي تجمعهم ، ثم الى الوحدة التي تضوى ، ثم الى القوة التي تدافع ..

وهذه المراحل الوعرة المهلكة التي تؤدي الى الحرية والعزة ، لا يقطعها إلا الجهاد الفدائي الذي فرضته شريعة الله ، واقتضه طبيعة العرب .

وذلك الجهاد الفدائي هو بذل المال والنفس في سبيل فكرة سامية ، كأعلان كلمة الله أو تكريم ذات الانسان ، او تحقيق حرية الوطن .

وهو فرض عين ، على كل مسلم قادر ، إذا وقع المسلمون في خطر عام لا يقدر على دفعه قوم دون قوم ، كالأستعمار والصهيونية ..

والقيام به لا يتقيد بزمن ولا أرض ولا جنس ، مثله في ذلك مثل الأركان الخمسة للأسلام ، ولكنه يختلف عنها في أمر دقيق ، وذلك ان المسلم قد تضعف في نفسه الدواعي إلى إقامة هذه الأركان كلها او بعضها ، فيترك الصلاة والصوم ويهمل الزكاة والحج . وإذا ذكره بها واعظ ، أو حثه عليها خطيب جعل قوله دبر اذنه ، ولعل السبب في هذا الضعف ان العمل بهذه الأركان قائم بين المسلم وربه ، فلا وازع لها من ضميره .

أما عقيدة الجهاد فقائمة على الصلاة بينه وبين ربه ووطنه وولده وماله وتراثه وذكرياته وأمانيه ، فهي لا تزال حية في نفسه على تراخي الزمن وشدة الترك كالنار في البركان الهادىء ، تسكن ولا تنطفئ ، وتكن ولا تظهر ، حتى إذا أثارها الحمية لدين يهان ، او لوطن يهاجم ، انفجرت في نفوس المسلمين انفجار الحمم ، فما تذر من شيء أنت عليه إلا دمرته ..

بذلك نفسر هذه الصيحة الاسلامية العامة التي أخذت دول الاستعمار من جميع الأقطار المسلمة ، على انقطاع السبب وتباعد الشقة ، تستنكر تأمرها على مصر وتستعد لدفعه عنها بالأموال والأنفس ، وبذلك تفسر هذه القضية العربية الشاملة لما يصيب مصر وسوريا من بغى الاستعمار الفاجر ، وعدوان اسرائيل المبيت ، وما تبغ هذه القضية من تعاون العرب على امدادها بالرجال والمال والعتاد ، في ميادين الحرب وتأييدها بالرأي والصوت في مجالس الحكم ..

وما عطف المسلمين على مصر ، ولا غضب العرب لفلسطين لعصبية الجنس أو لحق الجوار ، وإنما هو لتلك الحفيظة الدينية ، التي اوحاها الله في

الكتاب ، وبيّنها الرسول في السنة وفصلها الفقهاء في الفقه ، والجهاد-
كسائر الأركان يستند الى نص القرآن الكريم ...

وان من سوره ما موضوعه الحرب والسلم والغنائم والأسرى والعمود ،
وجملة ما يتألف منه قانون الحرب في الاسلام كسورتي « التوبة ، والانفال » .

ومن المغازي الدقيقة في القرآن الكريم ، انه لم يعرض لأسرى المسلمين
بنظام ولا معاملة كما عرض لأسرى العدو ، لأنه يأمر بالثبات ، وينهى
عن الهزيمة إلاّ لخدعة أو نجدة ..

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الادبار ،
ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال ، أو متحيزاً الى فئة ، فقد
باه بغضب من الله .. » أما سر القوة في المجاهدين فعلمه عند الاسلام وحده .

كان العرب من قبله قوى مبعثرة ، على رمال الصحراء لا تجمعها وحدة ،
ولا تربطها رابطة ، فلما اصطفاه الله لأداء رسالته ، أمدهم بروح من عنده ،
وحدت الشتيت وألفت النافر ، وجمعت الكلمة « لو انفقت ما في الارض
جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم » ..

ثم قوى هذه الروح فيهم بعقيدة القضاء والقدر ، فقال لنبيه صلوات
الله عليه : « قل ان يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » .

ثم ضمن للمجاهد الفوز باحدى الحسنيين : النصر الذي تعقبه العزة لله
والحرية للوطن والكرامة للانسان أو الشهادة التي يعقبها البقاء في الدنيا
بالذكر والخلود في الجنة بالروح .. بهذه الروح الالهية ، خرج البديريون
وهم زهاء الثلاث مئة الى أئمة الكفر من أبطال قريش وهم زهاء الالف ،
فككببهم قتلى في وادي بدر ، وعادت الفشة القليلة الى يثرب بالنصر

والأسرى ، وعادت الفئة الكثيرة الى مكة بالهزيمة والجرحى ... وبهذه الروح المنبثقة من روح الله خرج بدو الجزيرة من أجواف الاودية وأعماق القفر ضئال الجسوم ، قلال العدد ضعاف العدة ، الى الامبراطوريتين اللتين تقسمتا يومئذ ملكوت الارض فقوضوا الايوان على ملك كسرى ، وحطموا العرش على سلطان قيصر ...

وبهذه الروح المتهبة في دماء المجاهدين ، ثبتت بور سعيد بالأمس لمئة وستين الفاً من أعقاب الصليبين ، وثبتت مصر وإخوانها لعدوان اسرائيل ومن وراءها من الامريكيين والبريطانيين والجهاد بعد أولئك كله سعادة لا يؤتاها إلا من اجتباهم الله لاكرام خلقه وأعزاز حقه واصلاح أرضه ، وقد سماهم الله الشهداء وجعل مقامهم في الجنة مع الصديقين والانبياء .. »

خواطر من المعركة :

وكتب ثانية في مجلة الازهر الجزء الثالث - السنة التاسعة والثلاثين - جمادي الأولى ١٣٨٧ هـ - آب ١٩٦٧ قارن بين الغزوات الصليبية الثمان التي شنتها أوربا النصرانية على الشرق المسلم في مدى قرنين من العصر الوسيط وهذه الصليبية التاسعة التي تشنها امريكا وأوربا على فلسطين مدفوعة باطماعها الامبريالية واللصوصية والصهيونية قال فيها :

« تلك الغزوات كان مبعثها الفروسية المسيحية والعصبية الدينية صدرت عن الإيمان وابتغت مرضاة المسيح - هذا زعم مسعريها - وهذه غزوة مبعثها اللصوصية الدولية والطماعية الدنيوية فصدرت عن الكفر وابتغت مرضاة يهوذا ، ويهوذا هو اليهودي الذي باع المسيح الى عدوه بدوانق معدودة قبل أن يصيح الديك ، وهو الذي روى بالدم شجرة الصليب

فأثرت العذاب للناس والخراب للأرض ، ولا يزال يهوذا المسيح ينافس في الشر إبليس آدم ، يبغى الفوائل لاتباع عيسى كما ينصب الجبائل لاتباع محمد . فلكل مصلح من يديه صليب ، ولكل نهضة من وساوسه نصيب ، ولكل أمة من دسائسه فتنة .

ومن أعجب الأمور أن تتعاون اليوم دول النصرانية على أن تجعل صانع الصليب سادنا لقبر المسيح وكاهناً لكنيسة القيامة .

ان نكبة فلسطين ومحنة العرب قد غطتا على كل حاسة ، وغلبتا على كل عاطفة ، فالفكر فيها والحديث عنها ملء القلوب وشغل اللسان ، ولكن الكلام هواء والبكاء ضعف والمنى أباطيل والمهادنة غش ، والمفاوضة عجز ، فلم يبقَ إلا أن نسكت لنعمل ، وندير لننفذ ، ونتقوى لنسود . ونتسلح لننجح ، ونقتل لنحيا ونظلم لنحترم .

وان من علامات الساعة أن يخرج اليهودي من البنك الى الشكنة ، ومن الدكان الى الميدان ليحارب العرب على فلسطين ويثأر للفرنج من صلاح الدين .

كذلك من علامات الساعة ان ينهزم العربي أمام اليهودي ولو ظاهرته مادية الامريكان وخديعة الانكليز ، فان الشعب يكفيه ان يشم ريح الاسد من بعيد ليجحر ، وان الفسار يكفيه أن يبصر الهر من فوق الجدار ليسقط .

لقد سمعنا ان اليهود يحتلون البلاد بالنساء والذهب ، ولكننا لم نسمع قبل اليوم انهم يحتلونها بالرجال والحديد .

الفدائية :

ان مصر وإخواتها تملك العناصر الجوهرية للنصر وهي حسن الاستعداد وقوة الاعتماد وشدة الكراهية للعدو ، ولكنها تملك أيضاً عنصراً رابعاً لا يتيسر امتلاكه لأي شعب إلا إذا ارتفعت الوطنية في نفوس افراده الى مقام العقيدة الدينية الصوفية فيتحده وجود الفرد بوجود الشعب ، ووجود الشعب بوجود الوطن ، وذلك العنصر هو الفدائية الشاملة التي تنتظم الفرد والاسرة والامة والحكومة والدولة ، فيكون كل واحد من هؤلاء فداء ضرورياً للآخر .

والفدائية في سبيل الوطن أو الدين أدل على خلوص القلب وصراحة الإيمان من الاستشهاد في سبيلها بالجهاد ، لأن الفدائي يبذل ولا يطمع في العوض ، ويضحى ولا يفكر في الثواب ، كل سعاده أن يشعر وهو يسبل عينيه على شعاعة من نور الدنيا أن نفسه مغتبطة لأداء واجبه ، مطمئنة الى لقاء ربه . أما المجاهد فهو يبيع ماله ونفسه ليشتري من الله - الجنة - « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون » فالتضحية في ذهنه ببيع وشراء وعمل وأجر .

على ان الفدائي الذي يقتل في سبيل شعبه تكتب له شهادة الجهاد في سبيل ربه ..

روح الله :

روح الله هو ذلك السر الذي لا يزال كامناً في الجهاد والاستشهاد والايثار ، لم ينفك أبداً عن مسلم ولم يتخذ له أبداً في حرب ، كان يتمثل له في صور الملائكة تقاتل معه ، ويتحقق عنده في الوعد الصادق من الله

بالنصر أو الجنة ، ثم يقويه في نفسه على توالي الاعقاب والاحقاب الانقياد
للرسول . وقد جمع الله تدبير الحروب في آيتين من كتابه في قوله :
« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا » . وفي قوله : « وأطيعوا الله
ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا » ، ثم الايمان بالقضاء والقدر ، وقد قال الله
لنبيه « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » .

فالمؤمن بمقدور الله يرمي نفسه في وجه الموت لا يبالي أن يقتل أو
يقتل ، لأنه في احدي الحالتين سيظفر باحدى الحسينين : النصر
أو الشهادة .

وكان في أكثر هجياته يصيب ، وفي أقلها يصاب ، ولذلك قالوا
عن عقيدة وتجربة : أطلب الموت توهب لك الحياة والحذر لا ينجي
من القدر .

الله اكبر :

الله أكبر جملة تضمنت سر الاعتقاد وسر الجهاد وسر الفداء وسر النصر ،
ولاشتمالها على هذه الاسرار كانت ركناً جوهرياً في الصلاة ، يدخل بها
المصلي الى الله ، ثم يرددها في ركوعه وسجوده ، وفي قيامه وقعوده ، ثم
كانت هتافاً حماسياً في الحرب يصيح بها المجاهد عند الهجوم فيكبر في
نفسه النصر ، ويصغر في عينيه الخطر ، وكان غالباً ما يكون هذا الهتاف
الله أكبر فتح ونصر ، فإذا جاء نصر الله والفتح انقلب هذا الهتاف
القوي نشيداً قومياً ينشده المجاهدون في كل مسجد ، ويردده المصلون في كل
عيد وهو : الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً ، لا إله إلا الله وحده ؛ صدق
وعده ، ونصر جنده ، وهزم الاحزاب وحده .

وقوة هذه الكلمة آتية من اعتقاد المسلم بأن الله أكبر من كل كبير ،

وأقدر من كل قدير وأعلى من كل علي ، فهو في حى هذا الاعتقاد
يهاجم الجيش الكثيف ولا يخشى ويقتحم الخطر الداهم ولا يبالي ، وكيف
يخشى ضرراً أو يبالي خطراً ، والله الذي تفرد بالسلطان الاعظم واختص
بالقدرة العليا بحميه من وراءه ويكفيه من أمامه ...

ومن مقال بعنوان (مالي لا أكتب) :

« وإذا حصلت من السلاح على البكا فحشاك رعت به وخذك تقرر »

أن نكبة فلسطين وحنة العرب قد غطنا على كل حاسة ، وغلبتا على
كل عاطفة فالفكر فيها والحديث عنها ملء القلوب وشغل الالسن ...
ولكن الكلام هواء والبسكاه ضعف والمنى أباطيل ، والمهادنة غش ،
والمفاوضة عجز ، فلم يبقَ إلا أن نسكت لنعمل وتدبر لننفذ ، ونتقوى
لنسود ، وننتسح لننجح ؛ ونقتل لنحيا ونظلم لنحترم ، لو كان في الدنيا
حق لما كان لفلسطين قضية ، ولو كان في الناس عدل لما اصطلحت على
ظلمنا الشيوعية والرأسمالية ولو كان في الأمر اختيار لما تركت سيوفنا من
بني يهوذا بقية .

عشرون سنة انسلخت على الشعوب العربية وهي تملأ الدنيا ادعاء
واحتجاجاً ، تقول ولا تعمل ، وتهدد ولا تنفذ ، وتخدع حكوماتها شعوبها
بالاستعداد والتسليح وتدبر وتهيب جيوشها لليوم الموعود يوم نسترجع الارض
السليبية ونعيد المشردين الى ارضهم ووطنهم ويومئذ نعيد كرامتنا فلما
حمى الوطيس خسرتنا كل شيء وظهر زيف الاعداد والاستعداد وبان عجزنا
ورحنا نتهم أنفسنا ونرمي قادتنا بالخيانة والعمالة ، وأعلنا اننا خدعنا
وباغتنا عدونا وظهرته قوى الشر امريكا وبريطانيا والمانيا الغربية ،
والحقيقة المرة أقولها انما الذي سبب نكستنا هو ضعفنا وعدم استعدادنا
وغرورنا واتكالنا على الكثرة والكثرة لا تغني من غير سلاح متكافي مع

سلاح عدونا وكانت الكفاءة تنقصنا والخبرة تعوزنا ، وجهلنا بما يعد عدونا
وبما عنده من قوة جعلنا نخسر الجولة وعسى أن يكون فشلنا في هـ حزيران
١٩٦٧ يهيب بنا الى أن نعمل لنقلب في الجولة الثانية التي لا محالة أنسا
سنخوضها ان لم تكن برغبتنا فستكون رغم انوفنا أو نضطر إليها ،
ولكن هانحن قد مضت سنة وشهران ، فهل نحن بمستوى المعركة ؟ كل
الدلائل تثبت اننا لم نكن نعمل إلا لتوسيع الخلافات وتنفيذ المؤامرات
والإنقلابات ليقفز مغامرون وطامعون الى المناصب والراسات والوزارات
وتوزيع الغنائم على الانصار والاعرار وليكن من بعدهم الطوفان ..

اضعف الايمان :

قال الرسول الكريم صلوات الله عليه : « من رأى منكماً منكراً
فليغيره بيده . فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وهذا
أضعف الإيمان » .

ودول العالم اليوم وأمه - وفيهم المؤمنون بصاحب هذا الحديث
يقفون أمام المنكر الأمريكي والانجليزي الصهيوني باضعف الإيمان ،
فيطوون صدورهم على السخط ، وقد يحركون ألسنتهم بالانكار ، ومن
هؤلاء من يستطيعون دفع العدوان بالقوة ولكنهم يتلكأون ويترددون
لمرض أو مرض ..

وكفاحك المنكر بالقلب أو باللسان وأنت قاصر على كفاحه باليد
نقيصة من نقائص النفس البهيمية لا تخرج عن الجبن أو الخبت .

على أن ضيائر الشعوب أحياناً من ضيائر الدول ومن المتوقع ان هذا
الانكار الشعبي باللسان سينتهي الى أنكار الدول باليد ، وحينئذ يطمئن
محبوا السلام والمدنية على أن الدنيا لا تزال بخير .



الاستاذ كامل الجادرجي

وكتب بعنوان « الجهاد بالمال فوق الجهاد بالنفس » .

ويقول الله عز اسمه وجل علاه « انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا
بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلك خير لكم ان كنتم تعلمون » .

« إنما المؤمنون الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم
في سبيل الله أولئك هم الصادقون » ، « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا
بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون » .

فهو سبحانه - في هذه الآيات الثلاث . وفي سائر الآيات التسع التي
ذكرها الجهاد بالاموال والانفس يقدم الاموال على الأنفس لحكمة يؤيدها
التاريخ ويؤكدھا الواقع ، ذلك لأن المال عصب الحرب ، بغير روحه
لا تتحرك وبغير وقوده لا تشتعل ، هو زاد الجندي وعتاده ، يضع
القوت في فمه والسلاح في يده والنصر في وجهه ، وهو وسيلة الاعداد التي
أمر الله بها المسلمين في قوله :

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به
عدو الله وعدوكم » .

والبديل اليوم من رباط الخيل هو الطائرات والدبابات والصواريخ
والمدافع والقذائف ، لأن رباط الخيل بحكم التطور العسكري والتقدم
العلمي لم يعد يرهب العدو ولا يكفل النصر .

وهذه الاسلحة الجبارة يكلف شراؤها مئات الملايين من العملة السهلة
والصعبة ، والانتكال في تدبير هذا المال الضخم على الدولة يربك ميزانيتها
فتنوء بمطالب الانتاج والخدمة فلم يبقَ إلا أن يجاهد الشعب بالمال ليوفر
السلاح للجيش المجاهد بالنفس كما يفعل العدو ، فان اليهود في العالم هم
الشعب وعليه المال واسرائيل في فلسطين هم الجيش وعليه القتال .

والغائلة التي نزلت بالعرب من ائثار الاستعمار والصهيونية في أوائل هذا الصيف فسلبتهم بعض الأرض وأفقدتهم أكثر السلاح كان من وسائلها الفعالة السلاح الامريكى الحديث والمال اليهودي المتدفق ، فلولاً المال ما كان لليهود دولة ولولا الدولار ما كان لاسرائيل جولة ولا صولة .

ان الذي يبذل نفسه في الجهاد يقدم الى الجنة شهيداً بمفرده ، ولكن الذي يبذل ماله في المعركة يقدم الى الأمة جيشاً بمجموعه ، وان جيش العسرة لو لم يسنده المؤمنون الصادقون بالمال لما سار جيش الرسول الى تبوك ، ان قانون الحياة على طوله وفصوله يرجع في أصله الى مادتين اثنتين مادة الهجوم على القوات ، ومادة الدفاع عن الذات .

وما كلمات النباهة والمجد والخلود إلا طعموم مغريات في يد الطبيعة ، تتذرع بها الى ضهان الحياة بالوفرة ، كما تتذرع بالجمال والشهوة واللذة الى بقاء النوع بالولادة ، فالحي الخليق بالبقاء تتوفر فيه - ولا ريب - قوة السعي لنفسه وقوة الوقوف لغيره فاذا فقد هاتين القويتين أو أحدهما كان طفيلياً على مائدة الحياة وفضولياً في ملكوت الطبيعة ، وليست العزة التي تأخذ القاصر حين يرشد ، أو النابغ حين يستقل ، إلا يقظة الانانية في طبعه ، وثورة الحيوية في دمه ، وهذا الذي نشهده اليوم في مصر وإخواتها من التسابق الى أعداد القوة ، والتنافس في إنشاء الدفاع ، انما هو استكمال لاحدى وسيلتي العيش ، واستشعار لارقى طبيعتي الوجود . ومن هنا كان منهاج الثورة قائماً على الانتاج والدفاع انتاج اليد والآلة والعلم والفكر ، ودفاع الفقر والجهل والمرض والعدو ، وما عدونا الحقوق اللدود إلا اليهود من كيدهم للمسلمين في يثرب ، الى يوم طردهم بالعرب من فلسطين ، ومن أصدق من الله في قوله :

« لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود الذين اشركوا » .

وظلعت الثورة تعد العدة وترصد الإهبة خمس عشرة سنة لاستئصالهم من قلب العروبة حتى بلغت من ذلك مبلغ الامان والقدرة ، ولكن الاستعمار الذي غرس شجرتهم الملعونة في أرض الهدى والسلام ، ومهبط الوحي والإلهام ومجئلى عين موسى ومسرح قلب عيسى ومسرى روح محمد ، وقدس الأديان الثلاثة وقبلة الإسلام الأولى ومهد الانبياء ومقبرة الرسل لم يرد لاسرائيل أن تموت لأن موتها في فلسطين يعني موته في الشرق ، فتحدى غضب الله عليهم ، ونبوؤة المسيح فيهم بأن وضع في أيديهم السلاح والمال والعلم والحديعة فقتلوا من قتلوا واحتلوا ما احتلوا وشردوا ما شردوا ونهبوا ما نهبوه ودنسوا مساجد الله وقوضوا مساكن الناس وانطلقوا يخرّبون المدن ويحرقون الحقول ويقطعون السبل ويحصدون المؤمنين الآمنين ...

ان مؤتمر الرؤساء والملوك في الخرطوم قد أحيا الأمل وجدد الثقة ووثق العقدة ودل بقرارته الحازمة أن اخوة النسب والعقيدة والوطن قد ادركوا ما يراد بهم من شر وما يدبر لهم من كيد ، فاجمعوا أمرهم على الجهاد بالأموال والانفس ليظهروا الوطن من احتلال الدخيل ويحرروا فلسطين من اغلال اسرائيل .

أها العرب في جميع الارض من طنجة الى البصرة : ان معركتنا مع الصهيونية معركة بقاء أو فناء فاختاروا لانفسكم ، ولا تحسبن ان بني اسرائيل لا يزالون صعاليك « خبير » وسكان « الحارة » وباعة اليانصيب وزنابير النحل وعصافير البيدر وحثالة المجتمع ، انما أصبحوا اليوم بفضل المال أعيان « نيويورك » وأعضاء « الكونكرس » وقوام « البيت الابيض » وأرباب الاعمال والاموال والاعلام في سائر الارض : يسألون فيجب (ولسون) وبأمرون فيطبيع (جونسون) ويلوحون بالرغيف الذهبي

للأمم المتحدة فیتبعها منها كل كلب ویتطلبون من المنظمات اليهودية أن تقدم بالمال فتمدهم بعد العدوان بخمس مئة مليون دولار ، فتجهزوا لهم یجهازهم وهو المال واستعينوا عليهم بعدتهم وهي الايمان ، والمال قوة اليهود المالية به ، والايمان بالتوراة والتلمود هو قوتهم المعنوية ، انهم یؤمنون بقول الاصحاح الخامس عشر من سفر التكوين : (في ذلك اليوم قطع الرب مع ابرام ميثاقاً قائلاً : لنسلك اعطى هذه الأرض من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات) . فإذا كان (يهوه) قد أعطاهم هذا العطاء ، ووعدهم هذا الوعد ، فان « الله » وهو أصدق القائلين یقول لنا في كتابه : « لن يضرركم أذى وأن یقاتلوكم یولوكم الأدبار ، ثم لا ینصرون . كلما اوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ویسعون في الارض فساداً والله لا یحب المفسدين - وإذ أذن ربك لیبعثن عليهم الى يوم القيامة من یسومهم سوء العذاب - ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وبأوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بانهم كانوا یكفرون بآيات الله ویقتلون الانبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا یعتدون » وقول الله هو الحق ووعدوه هو الصدق فلا تخرفه كاهن ولا افتراء حاخام .

ان اسرائیل - یاقوم - طغت على القناة وفجرت على الاردن ، وقد بسطت امريكا على جرائمها البشعة ضباب العمى وحجاب السم فلا تبصر ولا تسمع ، واستجرت أوربا الحاقدة لدعايتها الخادعة فلا تعي ولا تدرك ، فليس أمامنا إلا أن نحقق وعد الله بأموالنا ودمائنا وإیماننا دون الاعتماد على شرق أو التجاء الى غرب .

ان الاسلام قوته فيه ودفاعه منه ، ولا یزال كتابه في ايدينا یعمر القلوب بالقوة ، ویغمر النفوس بالحياة ، والقوة قوة الإيمان ، والحياة حياة الروح ، أما قوة الاساطيل على الماء وفي الهواء ،

فتند يأتيها أمر الله ليلاً أو نهاراً فتصبح دخاناً في السماء وحطاماً
على الأرض .

يالعزة الاسلام لذلة العرب :

تحت هذا العنوان كتب في مجلة الازهر الجزء التاسع - السنة التاسعة
والثلاثين ذي القعدة ١٣٨٧ - اثبتته بنصه لما فيه من تعبير لواقعنا المؤلم

ربنا رب العزة ، وديننا دين القوة ، ورسولنا رسول الجهاد وأدبنا
أدب الحماسة ، وعلمنا علم الحياة ، وتأريخنا تأريخ البطولة ، وجندنا جند
الفتوح ، فمن أين تأتينا الذلة بالاستسكانة ، وبصيبنا الخور والهزيمة ،
ويعالجنا اليأس والقنوط ، وتعترينا أدواء الامم الحقيرة من تخاذل وتواكل ،
ومن تحاسد وتباغض ، ومن خيانة وغش ، ومن اختلاس ورشوة ؟

يأتينا كل هذا حين نسينا الله وأتبعنا غير سبيل المؤمنين ، تلك السبيل
التي قال فيها الرسول صلوات الله عليه « تركتكم على الواضحة ليلها
كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك » .

واقدم نسينا الله وزاغت قلوبنا عن نهج رسوله فأخذنا التقيمة وتركنا
التقوى ، وعرفنا الاثرة وأنكرنا الايثار ، واقتضينا الحق ومطلنا الواجب ،
وخدمنا الاسرة وأمهلنا الأمة ، وعبدنا النفس وكفرنا بالناس ، وحفظنا
الدنيا وأضعنا الآخرة وتحللنا من قيود الدين لننتقل في الارض انطلاق
السائمة في المرعى تشطح وتنطح وترعى وتغزوا لا يوجهها إلا الغريزة ولا
يدفعها إلا الشهوة .

أجل نسينا أنفسنا حتى غدونا مسلمين من غير ايمان ، وعرباً من غير
عروبة ، واو بقينا على اسلام محمد وأبي بكر وعمر ، وعلى عروبة خالد
وسعد وعمرو ، لما صرنا من جهلنا بالدين وعجزنا في الدنيا على أخلاق
العبيد يباطيء اشرافهم فلا يندى لهم جبين وتنقص أطرافهم فلا يحمى
أنف وتنزل بهم الشدة فيتخاذلون تخاذل القطيع عاث فيه الذئب ، ويغير
عليهم العدو فيتوكلون تواكل الاخوة دبّ فيهم الحسد وتجمعهم الخطوب
فتفرقهم دواعي الهوى والطمع .

ان الله الذي كتب الذلة على بني اسرائيل ، جعل العزة له ولرسوله
والمؤمنين ، فلو كنا مؤمنين بقرآننا على سباحتهم وهداه كما يؤمن اليهود
بتمهودهم على قسوته وضلاله ، لما انقلبت عزتنا ذلة وكثرتنا قلة ، ولما
بلغ بنا الهوان ان اسرائيل تطأ بأقدامها النجسة بعض وطننا
المقدس فتخرب المدن وتقتل الابرياء وتستحيي النساء ، وتشرد الامنين وتنتهك
المساجد وتنتهب الاموال وتحتل القدس ، ثم يكون لها في الامم المتحدة
صوت كصوت الأقوياء . وفي عالم السياسة رأي كراي الاعزة .

فالعلة إذن لهذا الانقلاب هي ضعف القوة الروحية وفقدان التربية
الدينية : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من
السماء والأرض » وبركات الله السماوية والأرضية والروحية والمادية من
عزة ونصرة وقوة وثروة .

ان البيت المسلم لا يذكر فيه اسم الله ولا تتلى فيه آياته فالأم لا تقيم
الصلاة والأب لا يعرف المسجد والاولاد لا يحذون القدوة الحسنة في
أبويهم فينشأوا مسلمين باللفظ ملحدين بالمعنى لا يخشون الله ولا يقرأون
القرآن ولا يؤدون الشعائر ولا يفقهون الدين ، فاذا تركوا البيت الى
المدرسة وجدوا قشور الدين وقصور المنهج وضعف المعلم ، فالمنهج يجعل

للدين حصتين في الاسبوع ، ولا يجعل له في الامتحان وزناً في السنة ،
فينصرف التلميذ عن درسه لأنه لا يقدم ولا يؤخر في حساب نجاحه .

والمعلم يعلمه على أنه نافلة في المنهج وصفر في الامتحان ، فيعرض
صوراً للشعائر من غير شعور ، ويلقي سوراً من القرآن مر غير أبانة ، ثم
لا يجد من عمله ولا من تقواه ما يبعثه في نفوس الاطفال ليكون عوضاً
لهم عما فقدوه في الاسرة فتضعف ثقتهم به وتقل هيبتهم له ، وينتشر
عليهم أمر النظام فينفق أكثر الحصة في إسكات المتكلم واسكان المتحرك
وإقرار المضطرب ، ثم تساور الطلاب الشكوك وتهاجمهم الشبهات في الجامعة
فلا يجدون من أساتذتهم من يحلوها لهم أو يدفعها عنهم ، لأن فاقده
الشيء لا يعطيه ، ولأن الدليل الحائر لا يخرج التائه من التيه . لذلك أصبح
الاسلام رسماً محيلاً في قلوب بعض ، وصوراً شوهاء في إذهاب بعض ،
فالخاصة قنعوا بمظهره ثم جعلوا شرعهم غير شرعه ، ودستورهم غير
دستوره ، وقبلتهم غير قبلته ، والعامّة عبثوا بجوهره فقلبوه صوفية
جاهلة لا صلة بين شعوذتها وعباداته ، ولا نسبة بين سلبيتها ومعاملاته
وهؤلاء وأولئك لا يجدون في أنفسهم معنى الاسلام الصحيح ولا مغزى
الإيمان الصادق فيفقدون السور التي تجمع ، والقبلة التي توحد ، وحينئذ
يصبحون كما هم اليوم ضعفاء على العدو اقوياء على الصديق ، يعيشون في
أرضهم الغنية وهم جياع ، ويعيشون في وطنهم العزيز وهم اذلة ، ويبلغ
هم الشتات ان يقف مائة مليون عربي أمام مليوني يهودي وقفة المهزوم
يطلب الرحمة والمظلوم يطلب العدل ، ولو كانوا من الذين آمنوا ولم
يلبسوا إيمانهم بظلم اصدق فيهم قول الله تعالى : « أن يكن منكم عشرون
صابرون يغلبوا مائتين . وإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا ألفاً من الذين
كفروا ، ولكن لهم حق النصر على من قال وهو اصدق القائلين » وكان
حقاً علينا نصر المؤمنين .

ان التربية الدينية هي رياضة المجتمع الاسلامي على الرجوع الى النهج الذي سنه الله في كتابه ، وبينه الرسول في سنته ، وأتبعه الصدر الأول في سلوكه فبلغ بالعرب البداة الجفاة زعامة الدنيا في السياسة والملك وقيادة العالم في الحضارة والعلم ، وأمامة الدول في العدالة والحكم وريادة الامم في الجهاد والتضحية .

وهذه الرياضة لا تدرك بخطب المساجد ولا عظات المحافل ولا مقالات الصحف ، فقد ملت الآذان هذا الكلام لطول اعتماده وكثرة ترداده وسوء عرضه ، إنما تدرك بالاسوة الحسنة في البيت والتنشئة الروحية في المدرسة ، والحياة الخاتمية في البيئة .

والسبيل الى ذلك كله اعداد الامم التقيية وتخريج المرابي الصالح وتهيئة الجو الملائم ، ووضع الحوافز والجوائز لحفظ القرآن ، وجعل الدين مادة اجبارية في الامتحان ، وأخذ الاطفال بعزائم الله منذ الصغر ، والإفادة من الشاشة والمسرح في تصوير الشرائع المحمدية في مواقف الاحسان والعدل ، وتمثيل الفتوة الاسلامية في مشاهد الحق والخير ، وتجسيد الخلال العربية في ميادين الجهاد والمروءة ، وتطهير المجتمع من عوامل الفساد في الصحافة والاذاعة والكتاب والشارع ، وترغيب النشء في بيوت الله بالمنظر الحسن والفرش النظيف والدرس المشوق والخطبة البليغة ، وإقامة المعسكرات الخلوية يجتمع فيها الشباب للرياضة الروحية على نحو ما يفعلون في الرياضة البدنية ، وإنشاء منظمة قيادية في الأزهر تسن منهجاً لرعاية العقيدة وتنميتها في نفوس الطلاب ، ثم تقوم على تنفيذه في الأسرة والمدرسة والجامعة ، وهذه المنظمة المرجوة ستكون الشكنة المحمدية لجسد الله ، أسلحتها المصاحف لا القذائف ووسيلتها الحياة لا الموت وغايتها التعمير لا التدمير ، وغنيمتها الخير للناس والسلام على الأرض ، وان القائد الصالح

للصلح جمال عبد الناصر قد دعا في ميثاقه وخطبه الى رجوع الأمة الى رحاب الله وبناء المجتمع على قواعد الدين ، فهو حرى أن يكون من وراء هذه المنظمة يؤيدها بالرعاية لتقوم ، ويمدها بالدعاية لتنتشر ، فيضم الى ثكنات القوة العسكرية ثكنة القوة الروحية ، ليجمع بين أسلحة المادة وسلاح الروح ، يوائم بين مادة العلم وروحية الدين ، ويبعث في القلوب الزائفة مامات فيها من فضائل الاسلام ومناقب العروبة ، ليعود بجمعنا كما كان في صدر الدعوة حياً بالجهاد قوياً بالصبر نقيماً بالفطرة ، متآلفاً بالحب متضامناً بالمرءة متعاملاً بالتقوى لا يحقد فيه الفاقد على الواجد ، ولا ينام به الغني الطامح أو القوى الطامح ملء جفنيه وإخوته في الدين والنسب لائذون بلاجيء البؤس معذبون في أسار العدو لا يحدون الولي الذي ينصر ، ولا السخي الذي يحود .

لذلك قطعت التربية المادية بين النفوس وذلك ينبوع الإلهي الذي يفيض على الموات فيحيا وعلى الجذب فيخصب ، وعلى الصلب فيلين ، وعلى الخامد فينشط ، وعلى العليل فيصح ، حتى أصبحت من الجفاف تتناكر تناكر الغرباء وتتدابر تدابر العدو ، وتلمس جوانبها المظلمة فلا تجد فيها شعاعاً لقول الله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » ولا أثراً لقول الرسول الكريم « المؤمن المؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » فالإن ينع أباه والأخ ينكر أخاه والصديق ينافق صديقه والتاجر يغش زبونه ، والعامل يزيف عمله والموظف يقتل ضميره ، والمجتمع الذي يتألف من هذه الرذائل القاتلة لا يقوى وأن كثر عدده ولا يغنى وأن توفر مدده ، فان مائة مليون صفر لا تزيد قيمتها على قيمة صفر واحد ، وأن ما فوق الأرض ومساحتها من مال وركام لا ينفع الشعب إذا لم يكن لله وللوطن .

ان علاج هذه الرذائل بالنظم والقوانين علاج مسكن ، يخفف الألم

ولا يحسم الداء ، إنما العلاج الناجع هو النور لمن أظلم عليه الليل ، والدليل لمن استبهم أمامه الطريق والامان لمن ساورته مخاوف الحياة ، وكل أولئك في كتاب الله الذي أنزله هدى للناس ورحمة ، وجعله للمسلمين رباطاً وعدة ..

النقد الادبي تقويم وتقييم :

هذا آخر ما كتبه أديبنا الكبير ، أعده لمجلة الازهر ، وهو المقال الشهري الذي ظل الزيات يواصل كتابته لمجلة الازهر منذ أن تولى رئاسة تحريرها سنة ١٩٥٢ ، بعد أن اختفت الرسالة التي كانت بحق رسالة الأدب والفكر والنقد والتوجيه ..

وللقارىء العربي ، ولكن العصبية الحديثة من حملة الافكار المتطرفة والذين يهيمنون على الصحافة في مصر رأت في الرسالة خطراً على الأفكار والمذاهب التي يعزّمون نشرها وترويجها بين القراء فأمروا بحجبها ...

والزيات في مقاله بل وفي كل ما كتب ، بارع الحكيم صريح فصيح ، ذو ثقافة واسعة وعلم رصين ينقل اليك أصول النقد المتعارف عند علماء النقد بأسلوب رصين ولفظ متين وكلام سلس ، وفكر فيه العمق والرؤية ، أسلوب يتمتع النفس ويبهّر العقل ، لا يجهدك فهمه ولا يملك سماعه ، تحس وأنت تقرأ ما يدبج كأن المعاني تنساب الى نفسك والآراء تتدفق الى خاطرك ، وما أصدق قول أبي العيناء في وصف كاتب معاصر له أحسبه ابن المقفع ..

« كلامه صريح ولسانه فصيح ، وطبعه صحيح ، كأن بيانه لؤلؤ منشور ، ووشى منشور وروض معطور » .

والزيات فيما يكتب من مقال : يلتزم القصد والأبانة لا يجب الإطالة إلا بقدر ما يتطلبه المعنى من الوضوح وبكلف بالإيقاع ولذلك كثر في كلامه الازدواج والسجع من غير التماس لهما وكأنهما يأتيان عفو الخواطر أو من وحي الطبيعة وكان يتحاشى استعمال الغريب وينأى بقلمه عن الحوشي لأنه يرى استعمال الغريب هو العمى بعينه - وقد يتفاح بعضهم باستعمال الغريب فيظنه البلاغة وما هو من البلاغة بنصيب ، لا من بعيد ولا من قريب ... قال رحمه الله :

« نقد العمل الأدبي معناه تقويم عوجه بالأداة الصالحة ، وتقويم مادته بالوزن الصحيح ، وأداة الناقد بهذا المعنى ملكة غنية أصيلة ، وتربية أدبية طويلة ، وثقافة علمية شاملة ، والناقد بهذا الاعتبار ، يشارك المشرع في صدق التمييز ، والفيلسوف في دقة الملاحظة ، والقاضي في قسوة الحكم ، ومن هنا كان نوابغ النقد في العالم اندر من نوابغ الشعر والكتابة .

أما عند العرب : فقد انحصر - لأسباب لغوية لا محل لذكرها في هذه الكلمة الموجزة - في جزء واحد من النقد بمعناه العام عند الأفرنج ، فلم يعالج غير أبيات وفقرات من الكلام المنظوم والنثر المسجوع ، وأغفل القصيدة باعتبارها وحدة لا تتفرق ، والكتاب باعتباره كلاً لا يتجزأ ، ولم يحفل بما ألف بالنثر المرسل من الكتب والقصص .. وجرّ ذلك إلى أن الكتاب والشعراء أوغلوا في البديع وتفننوا في الزخرف ، واهملوا فنّ القصص فتركوه لادباء الشعب ، ولم يعنوا منه إلا بالمقامات لأنها مظهر الصنعة ، ومحك القدرة ، فحرموا الأدب العربي فنناً كانوا هم بسليقتهم أقدر الناس على التوفر له والافتنان فيه ..

أن من يطلع على ما أثر عن السلف في النقد والموازنة يجد الخطأ في الأقيسة ، والخلل في الموازين ، والشطط في الأحكام ، وذلك

لتحكم الهوى الخاص ، وإرسال الناقد الحكم على غير قاعدة مرسومة
ولا مذهب معين ..

فهم يتكلمون في اللفظ الجزل والركيبك ، والاسلوب الرصين والمهلل ،
والمعنى المسروق والمطروق ، والمطلع الجيد والردىء ، والتخلص الحسن
والقبيح ، ويجرون في كل أولئك على أذواق تختلف باختلاف الطبقات
والهيات والاجناس ، وربما اكتفوا في تقديم شاعر أو تفضيل بيت
بالعبارة العامة أو الإشارة المبهمة أو الهتاف الموجز كقولهم : « والله دره
إذ يقول : » وهذا ما لم يسبق إليه أحد ، وما أحسن هذا البيت ، ولم
يعنوا بالخطوط التي تميز كلاماً عن كلام ، ولا بالحدود التي تفرق بين شاعر
وشاعر .. فلو نقلت ما قالوه من المدح في شاعر الى شاعر آخر ، لما تغير
المعنى ولا اضطراب السياق والأمر كذلك في كل ما ألفوه من الكتب على
طراز « اليتيمة ، للشعالي ، ودمية القصر للباخرزي ، وخريدة
القصر للاصبهاني ، وريحانة الألباء للخفاجي ، وخلاصة الأثر المعجب .. »

من ذلك يتضح ان فهم القدماء لحقيقة الفن الشعري والكتابي حصر للنقد
البياني - كما قلت - في الصور والاشكال ، وهذا الحصر نفسه ، قد وجه
الادباء الى الاحتفاظ باللفظ دون المعنى ، وبالصورة قبل الفكرة ، ففات
أكثرهم ان روعة الكلام لا تكون بالرونق والاناقة والصنعة وحدها ، وإنما
تكون مع ذلك بقوة التعبير عما تكنه الضائير وتحسه المشاعر ، وبدقة
التصوير لمختلف الطبائع والعواطف والاخلاق والشهوات والصفات ، حتى
نرى صور أصحابها الحقيقيين أو المتخيلين تحرك وتعمل وتقول على مقتضى
الغرائز الثابتة والفطر الاصلية وتكشف الغطاء عن طبيعة الشخص بكلمة
تجري على لسانه ، أو حركة تصدر عن يده ثم تكون روعة الكلام ، ببراعة
الوصف لمناظر الطبيعة ومظاهر الكون ، حتى تحس فيها الحياة والحركة ،

وتدرك ما بينها وبين النفس في انفعالاتها من اتصال وعلاقة ، ثم تكون أخيراً بشدة التأثير في الافئدة حتى تستيقظ فيها روافد الاهواء والعواطف فتطرب النفس ، أو تغضب ، وتهداً أو تثور ، وتفرح أو تحزن ، وتحب أو تبغض ، ولو أن نوابغ الكتاب والشعراء فطنوا الى ذلك لكان من هم الناقد أن ينظر - فوق ما ينظر من الالفاظ والصور - في تنسيق المعاني وترتيب الافكار في جملة الكتاب أو القصيدة ، أو المقالة ، أو القصة أو الكلام على العموم ، لأن سلامة الجزء المنفصل أو بلاغة البيت المنفرد ، لا تدل حتماً على سلامة الكل أو على بلاغة القصيدة .. كذلك كان من هم الناقد البياني ، لو اتجه الى المضمون أن يحلل ما ينشأ في نفس القارئ لروائع الكتاب والشعراء من العواطف ، وأن يبين كيف يستطيع الكتاب أو الشاعر أن ينشئ هذه العواطف أو يوجهها ، ومن ثم كانت كتب النقد عند الافرنج عملاً فنياً قائماً بذاته يبويء أصحابه مقاعد النبوغ والخلود.

على هذه الحالة من الشكلية والسطحية والتعسف مضى النقد العربي حتى بلغ جبلنا الماضي ، فكان الناقد منذ قريب يعتمد الى الكتاب القيم في التاريخ أو القانون قد ألفه مؤلفه من دمه وعصبه وعقله وعمره وماله ، فيقف منه موقف الحاسد الأحق ، ينقد في بعض صفحاته فعلاً عدوياً بغير حرفه أو اسماً جمع على غير قياسه ، أو لفظاً لم يجده في معجمه ، ثم يحكم على الكتاب كله بأنه سخييف لا يقرأ ، وضعيف لا يعيش ، ومن النوع أو قريب منه كان نقد طه حسين لنظرات المنفلوطي في أوائل هذا القرن .

ثم أخذ النقد الفني يتطور مع الوعي والتعليم ، والاطلاع على أدب الغرب في الربع الثاني من القرن العشرين ، فغاص من السطح الى القاع ، وانتقل من الشكل الى المضمون ، وتدرج باللغة والعلم والمنطق في نقود العقاد والمازني وشكري ومن لف لفهم .. ثم كاد ينحصر اليوم في القصص والمسرحيات

بما كان يكتب مندور ورشدي وحقي .. ومن جرى مجراهم ، ولعلّ
 النقص الذي يعتبر النقد الفني الحديث أنه في جملته لا ينبثق من طبيعة
 الادب العربي ، ولا من بيئته ، وإنما ينبثق من طبيعة الادب الغربي وقواعده
 ومذاهبه ، فلو أن هؤلاء النقاد اتجهوا بعقولهم المنحررة ، وثقافتهم
 المتجددة الى دراسة أدبنا تحت الضوء الصادر عنها لأوجدوا فيه فناً
 مستقلاً من النقد المبني على العلم والخبرة والإصالة ، يتم ما بدأه عبد القاهر
 وأبو هلال وابن الاثير . أما ما نقرأه في الصحف العربية من حين الى حين
 مما يسميه أصحابه نقداً ، فإنه لا يدخل في هذا الباب ، إلا كما يدخل
 الجون في نطاق الجد ، أو العبث في سياق المنطق ، كالرجل يقعد به العجز
 من اللحاق بالقادرين فيقف نفسه موقف القائد الحصيف ، يلزم هذا ويتنادر
 على ذلك ، ويزعم أنه هو وحده المسيطر على ثمرات إلهن فيحكم بذوقه
 الخاص على هذا بالقبح وعلى تلك بالفجاجة ، وأمره كله لا يخرج من مألوف
 الطباع الساخرة الفكهة ، تصور الحق بألوان الباطل لتضحك وتبرز الجميل
 بمظهر القبيح لتسيء وعيب الناس طبيعة في بعض الناس ، لا يكلفهم إلا
 تحريك اللسان إذا ألفوا سامعاً أو تحريك القلم إذا وجدوا صحيفه ..

هذا الضرب من النقد أما أن ينبعث من الحقد فيرمي الى التجريح ، وأما
 أن ينبعث عن الغرور فيسعى الى الهدم ..

عن مجلة الازهر ، الجزء الرابع السنة الاربعون جمادى الاخرة سنة ١٣٨٨ - ٨

آب وايلول سنة ١٩٦٨

اراء في القيمة للزيات

فتح الزيات في نثره الفني آفاقاً جديدة وأضاف الى المقالة الصحفية باقة يانعة فيها الكثير من قطوف المعرفة ، فاحتل بذلك مكانة فريدة في النثر ، وعالج موضوعات أدبية ، ونقدية ، واجتماعية ، وسياسية وتاريخية ، والزيات كما قدمنا من الكتاب الذين ثقف الأدب العربي والفرنسي ووسع مداركه بالاداب المترجمة من ثقافات الغرب فتكون لديه تراث شامل من الافكار والاحاسيس فكان رحمه الله كاتب فكرة ومبدأ فظهر في آرائه المصلح الاجتماعي والناقد الذي يرسم لمجتمعه وأمته مناهج الاصلاح والعلم والخبر - في تعمير بارع التصوير ، دقيق الفكر جميل الדיباجة ، في قوة لفظ ودقة معنى .. ولذلك رأيت من الخير أن اقتبس بعض افكاره ، وأسجلها في ختام هذه الدراسة لتضفي ضوء على صاحب الترجمة ولتكشف أعماقه الفكرية فيزداد به القارىء علماً وخبراً ..

قال في الموقف الأدبي ص ١٣٩ - ١٤٢ وحي الرسالة :

« والحق ان المسارعة في الانتاج العام قبل استكمال وسائله ميزة بينة في أدب الجيل الحديث فان الامام باللغات الاجنبية والوقوف على قواعد الفن الاوربية لا يجعلان المرء كاتباً في العربية ما لم يدرس هذه اللغة دراسة قوية تردها طبيعة لقلمه ، لينة على لسانه ، والاعتماد في اكتساب الأدب على محاكاة

الناذج ، وتقليد المثل لا يقوم عليه فن ، ولا ينهض به فنان محدود ، وما كان المثل ليغني عن القاعدة وهو لا يضيء إلا ناحية من الطريق ، والقريحة نفسها وهي غريزة الادب والفن في الانسان ليست على الكمال اليوم بحيث تجزى عن القواعد ، كذلك الذوق وهو أداة الجمال كما ان العقل أداة الحق ، لا يمكن أن يكون طريقاً مأمونة الى عمل صحيح ، فانه موهبة طبيعية تختلف في الناس وفي الاجناس ، وتحتاج الى المراتة بالدرس والعادة ، وليس لها ما للعقل من سلطان واطمئنان وثبوت ، وانك لتجد عقلاً مستقلاً لا يختلف ولا يتغير ، لأن هناك حقيقة مستقلة تتميز بالوضوح والجلء ، ولكنك لا تجد مهماً تستقرىء وتستقصى ذلك الذوق المطلق المستقل الذي لا يختلف باختلاف الألوان والأزمان والامكنة .. أما القواعد فهي نتيجة التجارب وخلاصة الملاحظات على طول القرون ، وضعتها القرائح المنطقية المتعاقبة بعد أن فقهت أصول الأشياء ، ودرست علائق هذه الأصول ، واستخلصت نتائج هذه العلائق ، ثم صاغت هذه النتائج قواعد وقالت لها انها أمثل الطرق لاحسان العمل ... دون أن تخضع عبقريتك لها ، ولا أن تسمح لهواك بالخروج عليها ، فان بين الاستبداد والفوضى نظاماً أحق أن يؤثر ويتبع .

وبعد : فان الفنان والناقد إنما يتعاونان على فهم الجمال ، كما يتعاون القاضي والمحامي على فهم العدل ، فليس من الخير لأحدهما أن يكون مع الآخر على خلاف ، وان الادب الشيخ والادب الشاب ليتعاونان على قيادة النفس ، كما يتعاون البصر والجناحان على قيادة الطائر ، فليس من خير أحدهما أن يكون من الآخر على قطيعة ..

والادب الرفيع من بعد ذلك كله صلة المرء بربه ، ينفي الأذى عن لسانه ويذهب الغل عن قلبه ..

ان النقد ملكة فنية وتربية أصيلة وثقافة شاملة للاصول مرتكزة على القواعد والذوق السليم ، ولا يحق للناقد ان يمارس هذا الفن الجليل من غير وسائل ومعرفة قواعده ومذاهبه ، أما ما يفعله بعض من تصدى للنقد من الناشئين وحسب غير الناشئين بالتماس الاغلاط الاملائية أو الاخطاء البسيطة أو تسفيه فكرة وتقبيح أسلوب والحكم على الكتاب بالفهاة أو السهافة فليس من فن النقد وإنما هو من باب الهدم والشتم ، وداء الغيرة أو سوء الفهم .

النقد المزيف :

يقول الزيات في مثل هذا النوع :

« ان هذا الضرب من النقد ، أما أن ينبعث من مكان الحقن فيرمي الى التجريح وأما أن ينطلق من مواضع الغرور فيسعى الى الهدم ، كان الناقد منذ قريب يعتمد الى الكتاب القيم في الفلسفة ، أو التأريخ ، أو القانون ، قد ألفه مؤلفه من دمه وعصبه وعقله وعمره وماله ، فيقف منه موقف الحاسد الأحمق ينقد في بعض صفحاته فعلا عدوي بغير حرفه ، أو اسماً جمع على غير قياسه ، وقد يكون لكل منها وجه - ثم يحكم على الكتاب كله بأنه سخيف لا يقرأ وضعيف لا يعيش ، ثم أصبح اليوم يعرض للموضوع فيقول :

هذا قديم لأنه يدور على بحث في تأريخ الشرق أو على معنى من معاني الدين ، أو على أثر من آثار البلاغة ، وهذا جديد لأنه يقوم على حادثة من حوادث الغرب أو على رجل من رجال الاكاديمية ، أو على غائبة من غواني المسرح ، وهذا مقلد لأن أسلوبه شريف ممتنع ، وهذا مجسد لأن أسلوبه مبتذل ممكن ، ثم تقصف باقلامهم اللينة نخوة الحفاظ

وحماسة القوة فيصيحون : أميتوا أدب العاطفة وأحيوا أدب القوة ،
أبيدوا أدب الخاصة وأوجدوا أدب الشعب أنبذوا أدب المقالة والزموا
أدب القصة ..

صيحة قرارها ومقامها باطل ، فان اجماع الناس واقع أن خلو الأدب
الحديث من أدب القوة ، وأدب القصة خلل لا بد أن يسد ، ونقص
لا بد أن يكمل .. ولكن من الذي يقول ويعني ما يقول : ان وجود هذه
الانواع يقتضي عدم الأخرى ؟

أن لكل فن من الادب طبقة من الناس تتذوقه ، وإذا منعتها إياه
طلبته ، والناقص لا يكمل برفع نقص ووضع نقص ، والبناء لا يتم بهدم
ركن وإقامة ركن ..

أرأيتك^(١) إذا كان الأدب كله قوياً يخشن الصدور ، وحماسياً يؤثر
الحفاظ ، فما كنت تقول : أين الأدب الذي يصور ألوان الحياة المريرة
ويترجم القلوب الكبيرة ، ويرقق حواشي الانفس الجافية ؟

أرأيتك إذا كان الأدب كله شعبياً يعبر بالسنة السوقية وينقل عن
عواطف العامة ، أفما كنت تقول : أين الأدب الذي يرضي أذواق
الخاصة فيجمع بين سمو الفكرة ونبل العاطفة وقوة الاسلوب في صورة
من الفن الرفيع تسمو بالنفوس الى المثل الأعلى وتغمر الشعور بالجمال الخالد ..

الأدب صورة النفس ، فلا بد أن ترتسم فيه مشاعر الفرد ، والأدب
مرآة الحياة فلا بد أن تنعكس فيه ألوان المجتمع ، وما دام في الناس
الحساس والبليد ، والخوار والجليد ، وفي الدنيا التفاوت الذي يوجد

(١) ارأيتك : بمعنى اخبرني .

بالتأيز ، والالم الذي يفجر بالدموع ، واللذة التي تبعث المسرة ، والمدنية التي
تخلق التنوع ، فلا بد أن يكون الادب الصحيح صدى لكل اولئك ..

ليست وظيفة النقد أن يهدم أو يميمت أو يشرع ، تلك وظيفة
الطبيعة التي تطور كل شيء ، وتغير كل نظام وتسد كل عوز
وفق قانون ثابت ..

إنما وظيفة الناقد أن ينظم الموجود ، وينبه الاذهان إلى المفقود ،
أما أن يحاول تغيير الطباع بقانون وقلب الاوضاع بمقالة ، ومحو الثابت
بنكتة ، فذلك عبث لا يخلق بكرامة انسان ، وتهريج لا يزكو
بضمير فنان ..

صدق الفن : (١)

« والصدق في الفن ، جوهر بلاغته ، وسر دوامه ، وهو في البيان
وضع اللفظ في موضعه ووصف الشيء بصفته ، ومطابقتها الكلام لمقامه ،
واكذب ما يكون البيان إذا ترادف لفظ ولفظ وتشابه معنى ومعنى ،
وتناقض رأى ورأى وتعارض وجه ووجه ، ولعلك لا تجد فيما تقرأ من هذه
المقالات (٢) لفظا يحاكي المعنى ولا معنى يجانبه الحق .. وأسلوب الكتاب
الايجاز ، والايجاز ملاكه الاناة والفظنة ، فاذا قرأته قراءة العجلان ، لا
تظفر منه إلا بقبسة العجلان » .

الجمال في البلاغة والشعر :

« ان ابيّن خصائص خصائص الجمال الذكاء والوفرة ، فتزاحم العواطف ،
وتكاثرت الصور وتوافرت الافكار ، ثم اتساع الخواطر بالذهن النير الذي

(١) مقدمة الجزء الاول من وحي الرسالة .

(٢) افتتاحيات الرسالة .



المشير طه الهاشمي

يحييها ويقويها ويستولدها ، وغزارة اللغة وخصوبتها وقدرتها على أن تعبر عن العلاقات الجديدة للحياة ، أو على أن تفيض من الحرارة والقوة على الحركات المختلفة للنفس ، كل أولئك يملأ شعاب القلب بالاعجاب وذلك الاعجاب الذي نحسه هو عاطفة الجمال .

خصائص الجمال :

« ان الخصائص المميزة للجمال هي : القوة ، والوفرة (١) ، والذكاء ، والمراد بالقوة شدة العمل وحدته . وبالوفرة كثرة الوسائل وخصوبتها ، وبالذكاء الطريقة الرشيدة المفيدة لتطبيق هذه الوسائل ، ولا جدال في ان الحواس ليست كلها أهلاً لنقل هذه الخصائص الجمالية الثلاث ، وإنما ينفرد منها السمع والبصر بنقل أحاسيسها نقلاً قوياً يثير الدهش والاعجاب واللذة . أما الإنفعال الذي يأتيك عن طريق الشم والملوسة والخشونة والصلابة واللدونة والحرارة والبرودة ، فأحاسيس بسيطة عقيمة ، قد توقض في النفس ذكرى خافية أو عاطفة غافية .

الجمال في المادة :

وشأن الجمال في المادة لا يختلف عن شأنه في الفكر والعاطفة ، فإنك إذا ذهبت تبحث في الطبيعة عن الصفة العامة للجمال لم تجدها غير القوة أو الوفرة أو الذكاء . ففي الحيوان تجد هذه الصفات الثلاث مجتمعة ومتفرقة ، ففي جمال الأسد القوة ، وفي جمال الطاووس الوفرة ، وفي جمال الإنسان الذكاء ، ولا أقصد ذكاء الإنسان في نفسه ، وإنما أقصد

(١) الوفرة : اذا كثر الشيء واتسع وتم وكمل .

ذكاء الطبيعة في تهيئته وثقيفه ، وذكاء الطبيعة معناه مطابقة طرائقها لصورها ، وملائمة وسائلها لغاياتها ، فغايتها من الرجل غير غايتها من المرأة ، ولذلك اختلفت الوسائل في الزوجين ، وتباين مقياس الجمال في الجنسين ، أرادت الطبيعة من الرجل أن يعمل ويقاقل ويحتمي زوجته ويعول أسرته ، فزودته بما يحقق هذا المراد ويمضي تلك الإرادة تركيب وثيق محكم تم ملاحظه على السرعة والمهارة والقوة والشجاعة ، وجسم متجاوب الاعضاء متناظر الشكول متوازن الاوضاع يصلح لكل عمل ويقدر على كل حركة ويستقيم على أي صورة وسمات من الشهامة والجرأة والحنان والحساسية تفيض من العيون وتنتشر على الوجوه وتحتلج على الشفاه ، وجملة من الصفات الخلقية والجسمية تؤلف في الإنسان مزايا الجمال المذكور فإذا قلت رجل جميل كان معنى ذلك أن الطبيعة وهي تكونه عرفت ما تفعل وفعلت ما تريد .

جمال المرأة :

« ولعلّ جمال المرأة ابداع مثل للجمال الطبيعي لو تدبرته ، وسر الاعجاب فيه هو سر الاعجاب في جمال الرجل ، أعني الذكاء ، والذكاء كما قلت ابداع الوسائل الملائمة للغاية ، ثم تطبيق هذه الوسائل على غايتها في نظام دقيق محكم ، فأنت لا تستطيع أن تفقه جمال المرأة إلا إذا وقفت على حكمة الله فيها ، وغرض الطبيعة منها ، وأدركت ما بين طبيعة خلقها وعلة وجودها من الموازنة التي تسترق الافئدة وتدق على افهام البشر .

السياسة :

ليس من دأبنا أن نعرض للسياسة إلا من حيث اتصالها بالخلق أو بالأدب ، والخلق والأدب موضوع السياسة العليا التي لا تتجزأ ، ولا

تتعصب ، ولا تعرف تخوم المكان ولا حدود الزمان ، ولكن بينها وبين السياسة الدنيا تفاعلا وتبادلا لا يفترقان فهي تؤثر فيهما وهما يؤثران فيها ، وهي تغير منها وهما يغيران منها ، والخلق بخاصة مساك الامة ، وملاك الأمر ، ولم تؤت النهضات القومية في الشرق إلا من جهة فسادة ، ذلك لأن الحال في الأمة العائدة أو الناشئة التي يخرج أهلها وحدانا من ظلام الجهل والغفلة ، أن يسعى المرء فيها ليعنى ، ويعنى ليتزعم ، ويتزعم ليحكم ، ويحكم ليستبد ، ويستبد ليطغى ، ويطغى ليتأله ، سلسلة من الفرائز الجافية الرذيلة حلقاتها الشهوة والطمع والغلبة والاثرة والمجوح والبغي ، يصل بينهما جميعاً أنانية غالبية ، وفردية أصيلة ، فالأهل والأصحاب والاحزاب إنما يتعاملون بغير الحق ، ويتجادلون بغير المنطق وابتغاء الفوز من وراء الباطل ، والغلبة من طريق القوة لأن «الانا» لا يعرف الغير ، والذات لا تدرك المعنى ، إلا إذا أضاء العلم ما حولهما فظهرت الاشخاص وبانت الفروق ، ووضحت الحقوق ، وتبرزت المعالم ، وحينئذ يقول كل امرئ لنفسه أول مرة أن في العالم ناساً غيبي وان لهم حقاً كحقي ، ومتى شعر المرء بالناس وفطن الى وجود الحق ، تولدت فيه معاني الإنسانية والديمقراطية والعدل ، فيصبح خالصاً للجماعة إذا سعى وللوطن إذا تزعم وللدولة إذا حكم ..

نحن الى اليوم لم نخرج عن ذواتنا في العمل والسياسة والحكومة ، نقيس كل شيء بمقياس الفائدة الخاصة ، ونحمل كل أمر على محمل الهوى الفرد ، ونغلب ارادتنا على إرادة الأمة في الحق المشاع ، حتى اقتنع المستريب بأننا تعلمنا الكلام ولم نتعلم العمل .. وحذقنا فنون الدعاية ولم نحذق أصول الحكم ، وحفظنا مصطلحات الدستور ونسينا مبادئه الشورى كان ذلك مقبولا محمولا والجهل غاش على العيون رائن على الأفتدة ، أما الآن فقد تنبه الغفلان الى أن من استطاع أن يرفع المظلوم

يسهل عليه أن يخفض الظالم .. وتذكر الناسي أن له دستوراً يجعل
مصدر السلطات في فم المحكوم لا يد الحاكم .. فمن ذا الذي يوسوس
إليه شيطانه أن يرفع في وجه الأسود وأشبال الأسود عصا القطيع ؟
ومن ذا الذي يسول له طغيانه أن يرتفع على كواهل الشعب ويقول أنا
سيد الجميع ؟

لقد كان لبعضكم يازعماء الساعة اخطاء على الامة في بعض الامور ،
ملكتم عليها الصبر ولم تملك لها المغفرة ، وقد أتاح لكم القدر هذه الفرصة
لتصححوا بصواب اليوم خطأ الامس ، وتبددوا بيقين الحاضر ظنون
المستقبل ، فهل تدعونها تمر كما يمر أريج الطيب بالرجل الاخشم .

أن بعضكم بلغ ساحل الحياة ، وبعضكم جاوز حد الثروة ،
وكلكم تفرح ذروة الجاه فماذا يقعدكم عن ابتناء المجد المؤثل وابتغاء
الذكر الخالد ..

نريد أن يكون الزعيم لجنسه لا لنفسه ، ولشعبه دون حزبه ،
ولغده قبل يومه ، حتى يتذوق هذا الشعب المجهود لذة الإخوة في ظل
الوطن ، وعزة الحرية في كنف الدستور وجمال المساواة في حمى الحكم
الصالح . نريد أن تلغوا سياسة الخطب وتقصروا السنة الوعود وتحققوا
ضجيج المظاهر ، وتكفوا عن كرامة الناس صلف المنصب وزهو السلطان
وبطر الجاه ، فان العربي أكره الناس للزعيم المعرور والوزير المتغطرس
والنائب الأثر ...

« رحي الوسالة ص ٤٣٥ - ٤٣٧ »

جزء ٢

وكتب تحت مقال - كيف نعالج الفقر :

« هيهات أن يكون في الأرض إيمان ، ما دام في الأرض فقر ،
فإن أسباب الفقر ممدودة من الطمع والشح والأثرة ، وهذه الخلال
السوء لا تطمئن عليها نفس مؤمنة ، وإن من ظلال الأفهام والأقلام إن
تعالج الفقر على أنه ناجم من ندرة العمل في البلد أو قلة الخير في الدنيا ،
فإن العمل ميسور للقادر ورزق الله موفور للحي ، وإذا شكت الأمم
اكتظاظ المعامل ، ونضوب الموارد ، وضيق الرقعة ، فإن مصر الجديدة
البكر بينها وبين هذه الشكوى أن تنصر المصانع والمعامل والمتاجر
والمصارف والشركات وما بالقليل ذلك ..

لا تطلبوا من الفقير العمل قبل أن توفروا له القدرة عليه ، أنه جاهل
فاثرعوا له منهل العلم وأنه عليل فانهجوا له سبيل الصحة ، وأنه
معدم فدبروا له رأس المال ومن بلادة الحس أن الغني يسمعك وأنت
تقرأ هذا الكلام ، فلا يظن المخاطب به أحداً غير الحكومة ، فيشارك
في النقد ويسرف في الإنكار ، ويلج في الطلب ، لأن الحكومة في
رأيه يجب أن تلي كل نداء وأن تؤدي كل واجب . والحكومة لو
درى هذا المتواكل الغد لا تتسع مواردنا لكل رغبة ، فإنها لم تجب
منه ومن أمثاله إلا حق العمارة والأمن ، أما حق الله عنده فقد وكلت
اداءه الى ضميره ، يعطيه من يشاء متى يشاء وكيف يشاء ، ولكن
الضائرت نامت على همددة الشهوات ، والعواطف قست على جفاف المادة ،
وبين غفوة الضمير وقسوة العاطفة ذهب وازع الدين ، فلم يبق إلا
وازع السلطان ...

فهل يفكر أولو الأمر أن يعالجوا الفقر بما عالجه الله ، فيجبوا
الزكاة ، وينظموا الإحسان ؟ انهم أن فعلوا ذلك لا يحدوا في البيوت
عائلا ، ولا في الطريق سائلا ولا في السجون قاتلا ...

وحي الرسالة الجزء الثاني

٦ شباط سنة ١٩٣٩

ومن مقال - اقتلوا الجوع تقتلوا الحروب :

« لا يزال في قدرة الله أن يكابد بنو آدم عقابيل البهيمية الأولى ،
فيوطأ المواني ، ويسترق العاني ، ويؤكل الضعيف ، ويكون هنا
الطمع والكزازة والأثرة ، وهناك الحسد والحزازة والثورة ، ثم لا يفصل
بين الواجد والفاقد غير الحرب ، فالحرب لا تنفك مشتعلة وبين الفرد
والفرد وبين الاسرة والاسرة ، وبين الامة والامة ، بالقول أو بالفعل ، وفي
السر أو في الجهر ، حتى يتدارك الله عباده فيهيء نفوسهم لفض هذه
الخصومة ، بغير هذه الحكومة ..

والخصومة الأبدية بين الناس هي المادة ، والنكبة الازلية على
النظام والخلق هي الفقر . وكل ثورة في تأريخ الأمم أو جريمة في
حياة الأفراد إنما تمت بسبب قريب أو بعيد إلى الجوع . حتى الشهوة ،
شهوة الغرام أو الانتقام لا تقع في تأريخ الجنائية إلا في الحل الثاني بعد
الجوع لأنها لا تكون إلا عرضاً من أعراض الشبع ، من أجل ذلك
جاء دين الله يخفف عن الفقير بالإحسان والعدل ، ويدفع عن الضعيف

بالمودة والرحمة ، ولكن عرام النفوس كان أقوى من أن يرده الثواب
المغيب والعقاب المؤجل ، فنبت على أمر الله ، وعلت نفسها بالنجاة
من باب التوبة المفتوح ، ومن طريق المغفرة الواسع ، ثم جاءت فلسفة
الناس أن تجد سلام المجتمع في أنظمة متناقضة بعضها في صدر بعض
فوق العالَم من جراء النزاع بين الفردية والاشتراكية ، والصراع بين
الدكتاتورية والديمقراطية ، في حرب عنيفة رعناء لأنصرها آصرة ولا
تدركها شفقة حتى أكلت من أمة الأسباب وحدها مليوناً وربعاً من
شبابها الآمل العامل ، ثم أخذت تخمد في هذا الميدان الضيق المحدود
لتستمر في ميدان لا حدّ لعرضه ولا نهاية لطوله هو العالم ...

وحي الرسالة الجزء الثاني

ص : ٤٩ - ٥٠

[Faint, illegible text, likely bleed-through from the reverse side of the page]

المحتوى

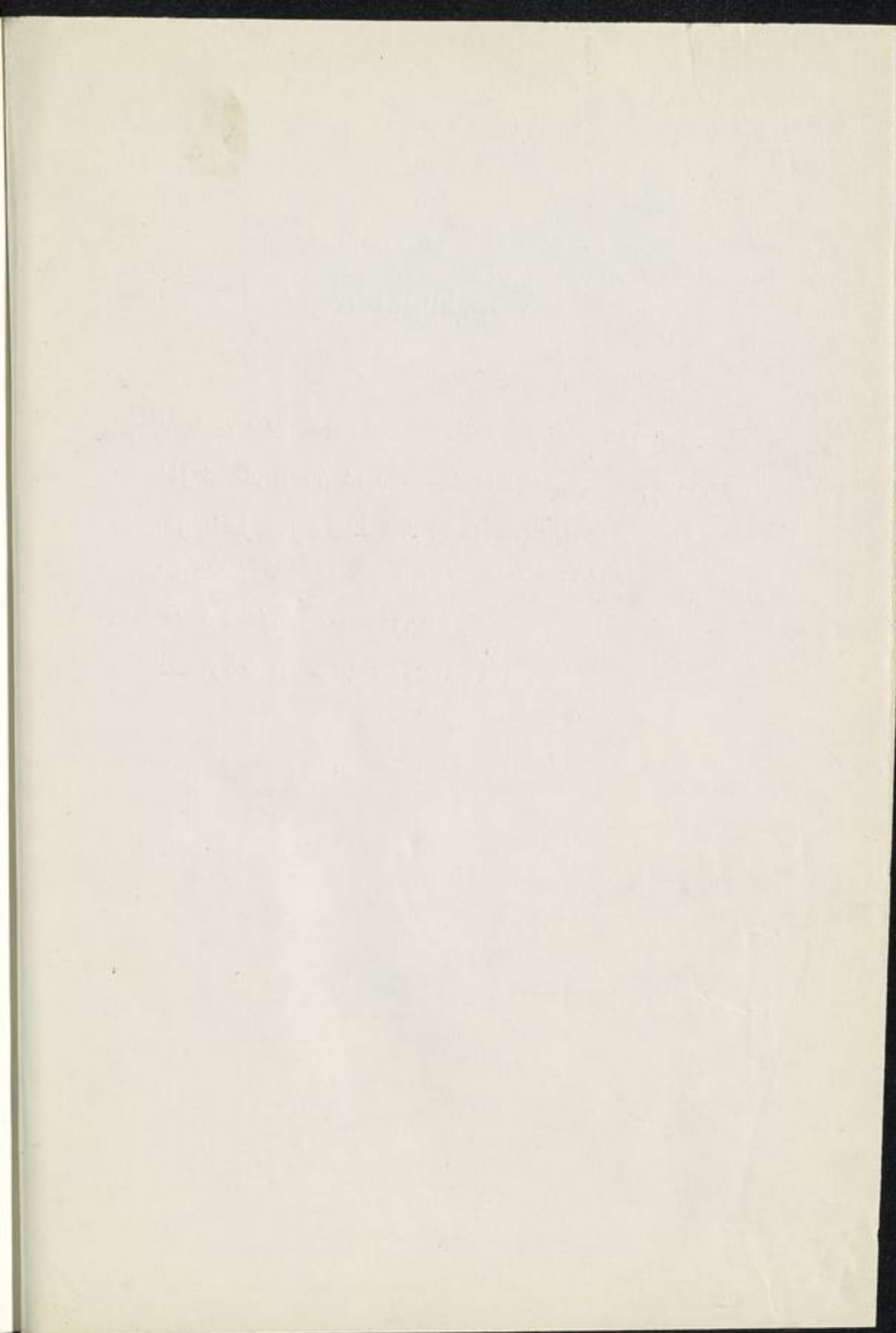
ص	
٣	الاهداء
٥	مقدمة
٨	مولد الزيات ونشأته
١٢	الاستقامة والوضوح سمة الزيات
١٤	الزيات في العراق
١٥	تحية بغداد
١٧	الأدب العربي
١٩	الزيات يشارك في تأبين عبد المحسن السعدون
٢١	مشاركة الزيات في حفلة تأبين عبد الرسول الجلبي
٢٢	كلمة الزيات : الشباب الذابل
٢٥	تأمل ساعة
٢٩	مأساة الشاعر وضاح اليمن
٤٢	من الاثري الى الزيات
٤٨	رد الزيات
٥٣	عود على بدء
٦٥	مطارحة أدبية للدكتور مهدي البصير

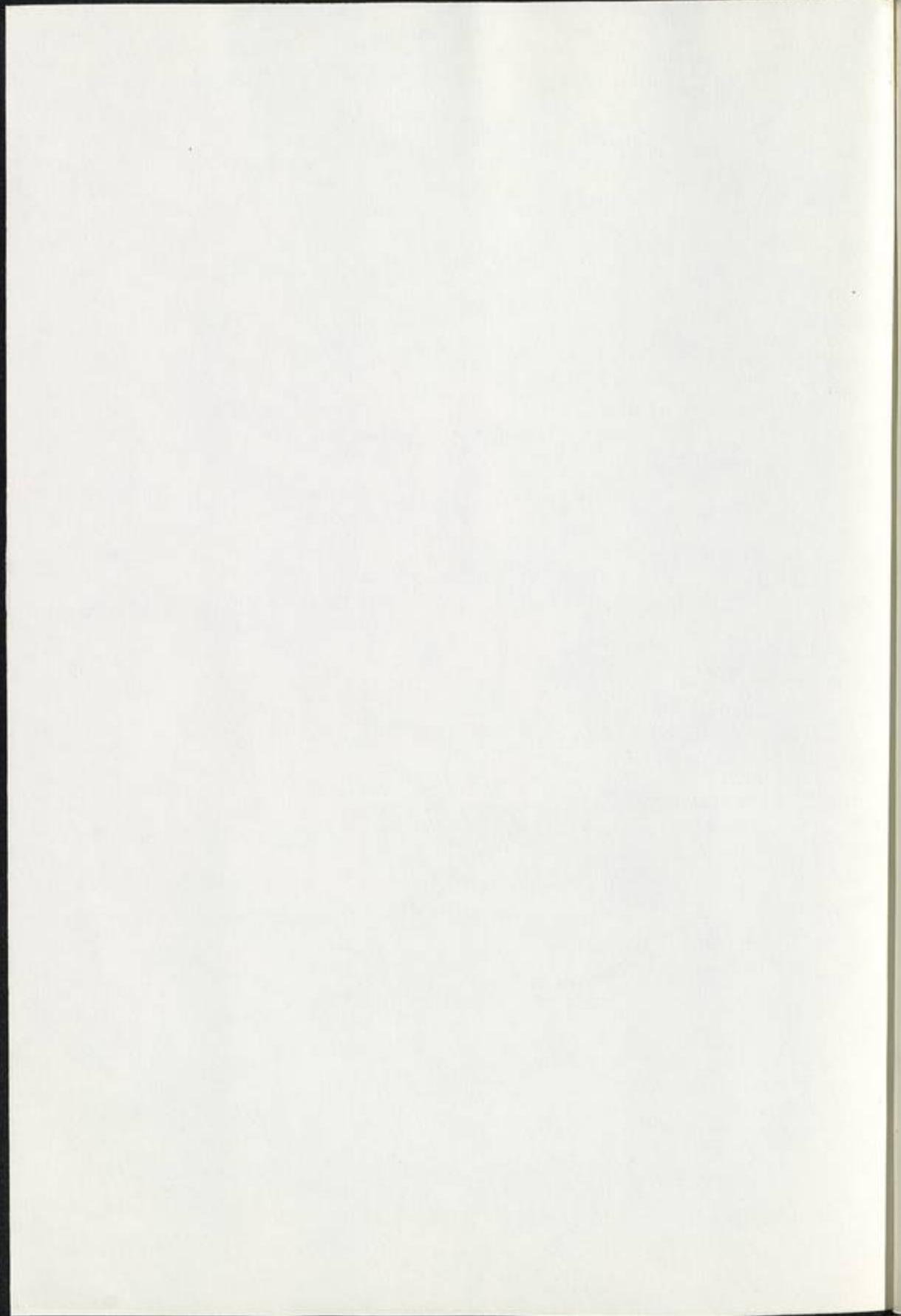
٧٠	الأدب وعوامله وحظ العرب من تأريخه
٨٣	نسائم النيل الى وادي الرافدين
٨٦	تأريخ ألف ليلة وليلة
٨٩	لقاءات وصلات
٩٢	القهوة الضحيانة
٩٣	الحلقة
٩٧	ذكريات الصيف في بغداد
١٠٠	كيف كان العراقيون يتقون الحر
١٠٧	الزيات والزهاوي
١١٧	وضوح العروبة لدى الزيات
١٢٠	الزيات عضو في الجمعية الثقافية العربية
١٢٧	حديثه النادي العسكري
١٣٢	من كتابه المفقود
١٣٧	الزيات بصحبة الملك علي
١٣٩	رسم حيدر
١٤٧	شباب العراق في مصر
١٤٩	نعي الزهاوي
١٥٣	الزيات والرصافي
١٥٩	موقف الزيات من مقتل حسن سيف
١٦٤	رأي الدكتور طه حسين عن عروبة مصر
١٧١	الدكتور زكي مبارك يدافع عن العراق
١٧٣	مكانة مصر في العراق
١٧٦	تأريخ العراق المعاصر في حياة الشبيبي

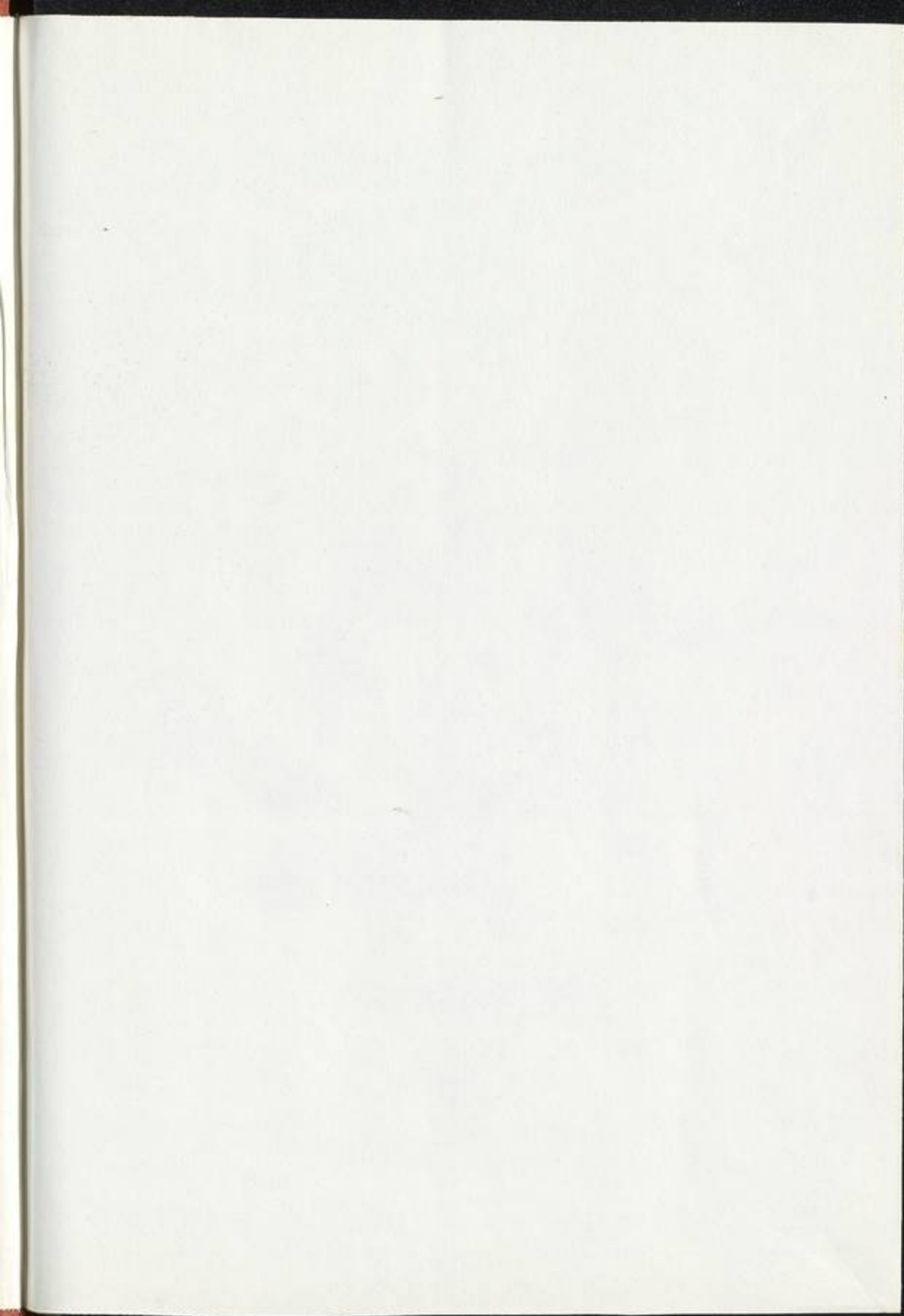
١٩٥	بين الزيات والراوي
٢٠١	أسلوب الزيات للدكتور عاتكة الخزرجي
٢١٤	من ذكريات بغداد
٢٤٧	تأريخ ألف ليلة وليلة
٢٧٠	أصل الكتاب وطبعاته
٢٧٤	الطبعة المصرية
٢٧٧	مؤلف الكتاب وزمن تأليفه وسبب تسميته
٢٨٢	طريق الكتاب وأسلوبه
٢٨٤	أساوبه
٢٨٨	فلسفته ومراميه
٢٩٢	مخطوطاته ومطبوعاته وترجماته
٢٩٥	صديق الكلاب
٣٠٢	أشهر مؤلفاته
٣٠٤	نماذج من آرائه وأدبه
٣٠٥	الرجل المنتظر
٣٠٦	الجهاد عدة الاسلام
٣٢٧	النقد الادبي آخر مقال للزيات نشر بعد موته
٣٣٢	آراء في القصة للزيات
٣٣٤	النقد المزيف
٣٣٩	في السياسة
٣٤٢	كيف نعالج الفقر
٣٤٣	اقتلوا الجوع تقتلوا الحرب

من مؤلفاتنا المطبوعة

- ١ - أسامة بن منقذ بطل الحروب الصليبية - بغداد ١٩٦٧ .
- ٢ - الجزائر بلد المليون شهيد دراسات وانطباعات - بغداد ١٩٦٩ .
- ٣ - الدر المنتثر في رجال القرن الثاني عشر والثالث عشر - تأليف علي علاء الدين الآلوسي «تحقيقه» - بغداد ١٩٦٦ .
- ٤ - محمد كرد علي - بغداد ١٩٦٦ .
- ٥ - أدب الزيات في العراق - بيروت ١٩٧١ .









D&W CO

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



1000107379